الرسائل النادرة

٥- أدب الوزير للماوردى

المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك

لقاضى القضاة أبى الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى

المتوفى سنة ٤٥٠ هـ صاحب كتاب أدب الدنيا و الدين والاحكام السلطانية وغيرها

بنفقة

مكتبة الخانجى

لأصحابها أولاد محمد أمين الخانجى

بشارع عبد العزيز بمصر

صندوق البوستة رقم ١٩٢٥

الطبعة الاولى

١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر بمصر

فهرس مطالب الكتاب وفصوله



كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

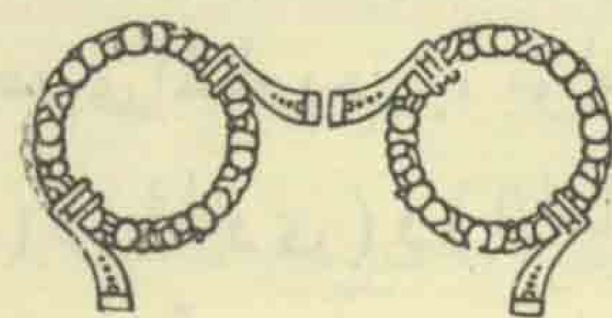
الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وبعد فها نحن قد اخترنا لك أيها القارىء العزيز هذه الرسالة النفيسة الموسومة بقوانين الوزارة لتكون الحلقة الخامسة من سلسلة الرسائل النادرة التى تنشرها (مكتبة الخانجى) . وما اخترناها إلا لشهرتها وذيوع اسمها فى كتب التراجم وموضوعات العلوم . وحسبك أنها من تصنيف امام كبير من أئمة الأدب والبيان ومحقق جليل من شيوخ الحكمة والتشريع ، وأعنى به : أبا الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى ، مؤلف (أدب الدنيا والدين) و (الأحكام السلطانية) و (الحاوى) و (الاقناع) وغير ذلك من أمهات الكتب فى الفقه والتفسير والأدب والسياسة . وقد أسميناها (أدب الوزير) لأنها فى الواقع فصول رائعة في آداب الوزارة ورسومها وأحكامها وما للوزير وما عليه نحو سلطانه وبلاده ونفسه . وسوف تجدها متمشية في أسلوبها الرائع ومباحثها الجليلة وفق الخطة التى سار عليها فى كتابه الشهير : (الأحكام السلطانية) . فالرسالة إذن تتمة مباحث ذلك الامام الجليل في فن السياسة وتدبير الملك . وكلا الكتابين مرآة صادقة لتفكير العالم الاسلامى فى هذا الفن الجليل الذى أصبح موضع عناية المفكرين من كتاب هذا العصر .

وقد كان لكتابه الأول (الأحكام السلطانية) حظ وافر من عناية

الناشرين فطبع مراراً فى القاهرة وسواها . أما هـذه الرسالة فبقيت محرومة من هذه العناية ولم تطبع قبل هذه الطبعة – فيما نعلم – مع شدة ارتباطها بالكتاب الأول. واننا لنغتبط اليوم إذ نتقدم بها لمحبي الكتب والرسائل من آثار السلف الصالح ويسرنا أن نضيفها إلى مجهود من سبقونا فى نشر (الاحكام السلطانية) . وقد كان اعتمادنا على نسخة مخطوطة فى دار الكتب الملكية ضمن مجموعة من كتب العلامة الشنقيطى والله المسئول أن يمدنا بالتوفيق وحسن المعونة فيما قصدنا .

٥ صفر سنة ١٣٤٨ — عبد العزيز أمين الخانجي



ترجمة مؤلف الكتاب

هو أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي ولقبه أقضى القضاة . ولد بالبصرة وتوفى في بغداد ودفن فيها فى مقبرة باب حرب ، والكتب التى اعتمدنا فيها على هذه الترجمة وهى : (وفيات الأعيان) و (الوافى بالوفيات) و (معجم الأدباء) و (تاريخ أبى الفداء) و (طبقات الشافعية) اتفقت جميعها على أن وفاته كانت عام ٤٥٠ هجرية بعد أن بلغ ستاو ثمانين سنة ؛ فيكون ميلاده بناء على هذا الاجماع سنة ٣٦٤ هجرية.

قطع الماوردى مراحل حياته الطيبة الحافلة بجلائل الاعمال فى البصرة وبغداد وأعمالها من الأمصار القريبة . وقد كانت تلك الجهات فى ذلك الوقت مسرحاً للفتن والدسائس من الداخل والخارج ، ومقام الخلافة فى بغداد من الضعف والوهن وخور العزيمة ، بحيث أصبح الخلفاء آلات مسخرة وأدوات لا قيمة لها بين الترك والديلم . وإليك ما يقوله أبو الفداء فى حوادث سنة احدى وثمانين وثلاثمائة :

« وفي هذه السنة قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة على الطائع لله عبد الكريم وكنيته أبو بكر بن المفضل المطيع لله بن جعفر المقتدر بن المعتضد ابن الموفق بن المتوكل ، بسبب طمع بهاء الدولة فى مال الطائع . ولما أراد بهاء الدولة ذلك أرسل إلى الطائع وسأله الاذن ليجدد العهد به فجلس الطائع على كرسى ودخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه من سريره والخليفة يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يغاث وحمل الطائع إلى دار بهاء الدولة وأشهد عليه بالخلع » وكان الشريف الرضى حاضراً منزلة القبض على الطائع وخلعه فبادر بالخروج من دار الخلافة وقال فى ذلك أبياتاً من جملتها :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني ياقرب ما عاد بالضراء يبكيني

وانك لتقرأ من أخبار ذلك العصر الشيء الكثير عن الفتن بين الشيعة وأهل السنة.

ففي أوائل حياة الماوردى كانت فتنة القرامطة ومذبحتهم الكبرى فى الكوفة؛ وفى أواخر أيام صاحب هذه الرسالة كان اشتداد نفوذ الباطنية وشيوع دعوة الحسن بن الصباح؛ وفى هذه الآونة كانت دولة بنى حمدان فى حلب وحروبهم ومنازعاتهم؛ وفى هذه الفترة من التاريخ الاسلامى كانت حكومة الفاطميين فى مصر أيام خلافة العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله. أما فى الاندلس فكانت خلافة هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر وحروب المنصور بن أبي عامر وانتصاراته التى شرفت الحكم الاسلامى فى تلك الديار.

وقصدنا من هذا الاجمال لحوادث تلك الايام أن ندلك على روح العصر فى الايام التى عاشها الماوردى. ومن أعجب ما يستوقف النظر أن تكون أيام هذه الفوضى من أخصب العصور الاسلامية فى الانتاج الفكرى فى العلوم والفنون والآداب. ولعل السبب في ذلك هو قرب ذلك العهد من النهضة العلمية الكبرى التى وضع الرشيد والمأمون أساسها فى أيام خلافتهما الجليلة الشأن، تلك الأيام التى تعد بحق العصر الذهبى للاسلام.

مضى ذلك العهد الذهبى، عهد الحركة العلمية الكبرى، عهد التدوين والترجمة؛ وهبت أعاصير السياسة والخلافات مما لا مجال لسرده فى هذه العَجالة. ولكن بقى فى أيدى الناس كنوز ذلك العصر، ومجهودات من تقدمهم من علماء السلف الصالح. أضف إلى ذلك أن الجامعات الاسلامية الكبرى في بغداد والقاهرة وقرطبة ونيسابور وبخارى، كانت لاتزال محتفظة بنشاطها وجهودها فى سبيل نشر العلوم وأنوار الحكمة والآداب العالية.

وفوق كل ما تقدم فان حكومة آل بويه فى بغداد، وحكومة آل حمدان فى حلب ودمشق؛ وحكومة الفاطميين فى مصر، وحكومة المنصور بن أبي عامر في الاندلس؛ كانت حكومات مشهورة - رغم مشاكلها الداخلية - بتعضيد العلوم والفنون وتقريب العلماء من مجالسها والأخذ بأيديهم وتشجيعهم. فلا غرو ولا عجب أن ينبغ فى هذا العصر من الفلاسفة والحكماء أمثال: ابن سينا؛ والخيام؛ والمعرى. ومن النحويين واللغويين أمثال: القاضى أبو سعيد ابن عبدالله السيرافى النحوى مصنف شرح كتاب سيبويه؛ والحسين ابن زكريا اللغوى صاحب كتاب المجمل، وأبو على الحسن بن احمد ابن عبد الغفار الفارسى صاحب الايضاح والتذكير والمقصور والممدود، وعثمان بن جنى النحوى الموصلى مصنف اللمع؛ وأبو نصر اسماعيل بن احمد الجوهرى صاحب الصحاح. ومن المحدثين والأئمة أمثال الماوردي «مؤلف الكتاب»، والصيمرى، والاسفراينى، والقاضى أبو الطيب الطبرى، وأبو طالب محمد بن غيلان صاحب الأجزاء المعروفة بالغيلانيات؛ وأبو الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي صاحب المختصر المعروف به؛ والبيهقي، والقشيرى، وابن مخلد الاندلسى. والقاضى أبو بكر بن الباقلانى، والحافظ أبي نعيم صاحب كتاب حلية الأولياء، والحاكم النيسابوري امام أهل الحديث فى عصره.

ومن الأدباء والكتاب أمثال: أبي اسحق ابراهيم الصابى، والخطيب بن نباتة الفارقى، والصاحب بن عباد؛ وابن العميد الكاتب الشهير، والحاتمى صاحب الرسالة الحاتمية التي بين فيها سرقات المتنبي، والثعالبى صاحب التصانيف المشهورة.

ومن الشعراء المجيدين أمثال: ابى الحسن الأنبارى صاحب المرثية المشهورة التى مطلعها (علو فى الحياة وفى الممات)؛ وأبى الحسن محمد بن عبدالله السلامى ومهيار الديلمى، والشريف الرضى، وأبى القاسم بن طباطبا.

كل هؤلاء الأعلام النوابغ كانوا معاصرين للماوردى وحسبنا أن نسرد

أسماءهم للدلالة على روح ذلك العصر من الوجهة العلمية . وقد ذكرنا لك فيما سبق أن من العوامل التى أدت الى إحياء هذه النهضة تشجيع الحكام للعلماء العاملين ، وقد كان للماوردى نصيب كبير من هذا التشجيع وكان عظيم القدر ، مقدماً عند السلاطين من آل بويه وعند الخلفاء العباسيين .

وقد ذكر أبو الفداء في حوادث سنة ٤١٩ أنه عندما توفى القادر بالله وجلس فى الخلافة ابنه القائم بأمر الله أرسل القائم أبا الحسن الماوردي الى الملك أبي كاليجار فأخذ البيعة عليه القائم وخطب له فى بلاده وذكر كذلك فى حوادث ٤٤٣ أى قبيل وفاة الماوردى بسبع سنين أنه وقعت الوحشة بين القائم وجلال الدولة على أمر من أمور التقاليد فأرسل القائم أبا الحسن الماوردى بوسطه ولم تنفع وساطته . والحادثتان تدلان على ناحية جليلة من نواحى حياة الامام الماوردي من وجهة اتصاله عملياً بالحياة السياسية فى عصره ، وتزيد فى نظرنا من قيمة كتابيه الأحكام السلطانيه وقوانين الوزارة . لأنهما لم يكتبا الا عن روية ولم يصدرا إلا عن حكمة وتجربة ودراية . ويؤخذ من مقدمة الأحكام السلطانية أنه لم يشرع فى كتابته إلا بعد أن عظم قدره وأصبح مقدماً عند السلطان حيث لم يصنفه إلا امتثالا لأمره فانه يقول : « ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الامور أحق ؛ وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير ، أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه الخ .. »

ولهذه الكلمات قيمتها فى دحض تلك الفرية التى ذكرها الصفدى فى الوافي بالوفيات وابن خلكان فى وفيات الأعيان ونقلها صاحب طبقات الشافعية بتحفظ وتتلخص : فى أن الأمام الماوردي لم يظهر شيئاً من تصانيفه فى حياته وإنما جمعها كلها فى مكان واحد ولما دنت وفاته قال لشخص يثق اليه : « إن كتبى لم أظهرها لأنى لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر فاذا عاينت

الموت ووقعت فى النزع فاجعل يدك في يدي فان قبضت عليها وعصرتها فاعلم انه لم يقبل منى شئ منها فاعمد الى الكتب وألقها فى دجلة وان بسطت يدي ولم أقبضها فاعلم أنها قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت ارجوه من النية الخالصة » وكان بعد ذلك أن بسط يده فاظهر ذلك الانسان كتب الامام .

ولامراء عندى في أن هذا الحديث مختلق فان اماما جليل القدر مثل الماوردى وفى عصر مثل عصر الماوردى ، وقد اشتدت فيه المنافسة بين العلماء والادباء والكتاب ، تربأ به همته العالية أن يفكر في مثل هذا الأمر . وما لنا نذهب بعيداً وهاهى مقدمة كتابه الأحكام السلطانية تدل على أنه ألفه امتثالا لأمر من لزمت طاعته . وقد ذكر الصفدي قبل هذه الحكاية قصة أخرى تدل على أن تصانيف الماوردى كانت معروفة ومشهورة بل تدل على أنه كان ينافس غيره من علماء العصر في التأليف والتصنيف فان الصفدي يقول فى الوافى بالوفيات : « وكان القادر قد تقدم الى أربعة من الأئمة فى المذاهب الاربعة ليضع له كل واحد مختصراً فى الفقه فوضع الماوردي الاقناع ووضع القدورى مختصره ووضع عبد الوهاب المالكى مختصراً ووضع أحد الحنابلة أيضاً مختصراً وعرضت عليه فخرج الخادم إلى الماوردي وقال له . قال لك أمير المؤمنين : حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا » .

ومن مصنفاته تفسير القرآن وسماه النكت (١) ، وكتاب الحاوي فى الفقه يدخل فى عشرين مجلداً (٢) ، والاقناع وقد مر ذكره ، وأدب الدنيا والدين ،

---

(١) موجود منه نسخة فى المكتبة العمومية بميدان بايزيد بالقسطنطينية

(٢) موجود فى مجموعة كتب أحمد طلعت بك نسخة كاملة بعض أجزائها من مخطوطات المائة السادسة وقد آلت تلك المجموعة الى دار الكتب المصرية

والاحكام السلطانية (١)؛ وتعجيل النصر وتسهيل الظفر؛ وكتاب فى النحو (٢).

وانه لموفق في جميع كتبه لسهولة عبارته وحسن تعبيره وجميل ديباجته ومازال كتاب أدب الدنيا والدين المقرر للمطالعة فى المدارس المصرية من أروج الكتب فى عصرنا هذا . وقد أجمع الذين ترجموا حياته أنه كان اماماً ثقة في الفقه والتفسير ، ورعاً فى دينه ، مجاهداً لنفسه مجتهداً لامقلداً . ذكر الصفدي فى (الوافي بالوفيات) أنه كان قد سلك طريقاً فى توريث ذوي الارحام القريب والبعيد سواء فجاء اليه كبير من الشافعية فقال له اتبع ولا تبتدع. فقال: « بل اجتهد ولا أقلد » فانصرف عنه .

ومن كلام الماوردي الدال على دينه ومجاهدته لنفسه : ما ذكره فى كتاب أدب الدنيا والدين ، فقال : « ومما أنذرك به من حالى ، انى صنفت فى البيوع كتاباً جمعته ما استطعت من كتب الناس ، وأجهدت فيه نفسى ؛ وكررت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل ، وكدت أعجب به ؛ وتصورت أنى أشد الناس اطلاعاً بعلمه ؛ حضرنى وانا فى مجلسى اعرابيان ، فسألانى عن بيع عقداه فى البادية، على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لشئ منها جواباً ، فاطرقت مفكراً ، وبحالى وحالهما معتبرا . فقالا : أما عندك فيما سألناك جواب ، وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا ، فقالا : إيهاً لك!.. وانصرفا . ثم أتيا من قد يتقدمه فى العلم كثير من أصحابى فسألاه ، فأجابهما مسرعا بما أقنعهما ، فانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه » . إلى أن قال : « فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظيمة ، تذلل لهما قياد النفس ، وانخفض لهما جناح العجب » .

---

(١) أول من عنى بطبعه الموسيو مقس أنقر وطبعها بمدينة بن سنة ١٨٥٣ م سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) قال ياقوت فى معجم الأدباء : اطلعت عليه وهو فى مجلد حجم الايضاح لأبى على الفارسى

ومن المسائل البارزة فى حياة الماوردى اتهامه بالاعتزال . قال ابن الصلاح : هذا الماوردى عفا الله عنه وقد كنت لا أتحقق ذلك عليه ، وأتأول له ، وأعتذر عنه فى كونه يورد في تفسيره فى الآيات التى يختلف فيها أهل التفسير ، تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة ؛ غير متعرض لبيان ماهو أحق منها » ويقول صاحب طبقات الشافعية تعقيباً على قول ابن الصلاح: « وأقول لعل قصده ايراد كل ما قيل من حق أو باطل ، ولهذا يورد من أقوال المشبهة أشياء مثل هذا الايراد ، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة » إلى أن يقول : « ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فانه لا يوافقهم فى جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل : (وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وغير ذلك ويوافقهم فى القدر وهى البلية التى غلبت على البصريين وعيبوا بها قديماً » إلى هنا ينتهى قول ابن الصلاح وقول صاحب الطبقات فى مسألة اعتزال الماوردى .

ولعمرى إن هذه الأقوال لتدلنا على مزية جليلة من مزايا الامام الماوردى وترفع بقدره فى نظرنا لأنها برهان ساطع على أن الرجل لم يكن رجل علم وأدب فحسب . بل هو فوق ذلك وأفضل من ذلك ، رجل بحث وتحقيق ورجل البحث يطلب الحقيقة . والحقيقة هى ضالته أينما وجدها فليس بضائره أن يجد وجهاً من وجوهها فى أصول المعتزلة ؛ وان يوافقهم عليها وأن يجتهد فى غيرها من الحقائق عند أهل السنة ، لأنه كان من أئمة المجتهدين وكبار الباحثين فى الحقائق ، شأنه فى ذلك شأن جميع العلماء العاملين من رجال السلف الصالح ، طيب الله ثراهم وألهب فى نفوس الشباب الناهض من أبناء العروبة حماس الاقتداء بهم .

عبد العزيز أمين الخانجي

الرسائل النادرة

٥-

أدب الوزير للماوردي

المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك

مكتبة الخانجي
لأصحابها أولاد محمد أمين الخانجي
بشارع عبد العزيز بمصر
صندوق البوستة رقم ١٩٢٥

صححه

حسن الهادى حسين

طبعة أولى
١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م

دار العصور للطبع والنشر بشارع الخليج المصرى بالظاهر بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(وبه نستعين)

قال الامام ؛ قاضى القضاة أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب الماوردى رحمه الله تعالى برحمته : الحمد لله على ما هدي وأرشد ، وله الشكر على ماوفق وسدد . وصلى الله على رسله الطاهرين، وأوليائه البررة المنتخبين، وسلم تسليما كثيراً .

أما بعد ؛ فقد التزم الطاعة من دعا اليها ، وفعل الخير من أرشد اليه ، ولئن كانا فى جبلة ذوي الفضل مركوزين ، فما يستغني الفطن بذكائه عن يقظة منبه ، ولا يكتفي اللبيب بحزمه عن عظة مذكر ؛ لأن الهوي معترض يخدع بغرامه ؛ ويحتجب بغمامه . وأنت أيها الوزير - أمدك الله بتوفيقه - فى منصب مختلف الاطراف ؛ تدبر غيرك من الرعايا وتدبر بغيرك من الملوك ؛ فأنت سائس مسوس ؛ تقوم بسياسة رعيتك وتنقاد لطاعة سلطانك ، فتجمع بين سطوة مطاع وانقياد مطيع ، فشطر فكرك جاذب لمن تسوسه ؛ وشطره مجذوب لمن تطيعه وهو أثقل الاقسام الثلاثة محملا ، وأصعبها مركباً ، لأن الناس: ما بين سائس؛ ومسوس ، وجامع بينهما. ولك هذه الرتبة الجامعة . فأنت تجمع مااختلف من أحكامها ، وتستكمل ما تباين من أقسامها ، وبيدك تدبير مملكة صلاحها مستحق عليك ، وفسادها منسوب اليك . تؤاخذ بالاساءة ولا يعتد لك بالاحسان ، تلان لك المبادىء بالارغاب ؛ وتشدد عليك الغايات بالاعتاب ، مستظهرا تستكفي اعتداد الاحسان اليك ؛ وتسلم من غب المؤاخذة لك ، ويلزمك ضدها في حق سلطانك أن لا يعتدى عليه بصلاح ملكه ، لأنك للصلاح مندوب ، ولا تعتذر اليه من

اختلاله ، لأن الاختلال اليك منسوب . واجعل اعتذارك سعيك واجتهادك، فلسان الفعال انطق من لسان المقال ، لظهور شواهده ، فان عارضتك الاقدار عذرتك القلوب ، وان لم تنطق به الافواه ، لعجز الخلق عن قضاء الحق ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يغني حذر عن قدر . وقيل فى منثور الحكم : توق كل التوقى ولا حارس من الأجل ، وتوكل كل التوكل ولا عذر فى التغرير ، واطلب كل الطلب ولا تسخط لما جاب المقدور . ولأن تكون ان ملكت اختيارك متاركا فى زمان الكدر ؛ أولى من أن تكون مغالباً للقدر . وقد قيل فى منثور الحكم : ماكان عنك معرضاً ؛ فلا تكن له متعرضاً . فان دعاك الاضطرار إلى الملابسة ، فان للزمان ولا تخاشنه . فقد قال بعض الحكماء : من سعادة الانسان أن لا يكون عند فساد الزمان مدبراً للزمان ؛ فسامح وقتك ان جار ، وغالطه ان ثار كما قال الشاعر :

فاخط مع الدهر إذا ماخطا   واجر مع الدهر كما يجرى

والله تعالى يمد بالمعونة من وفقه ، وأرجو أن تكون منهم .

واعلم أيها الوزير انك مباشر لتدبير ملك له أس هو الدين المشروع ، ونظام هو الحق المتبوع . وقد قيل: منازع الحق مخصوم، فاجعل الدين قائدك، والحق رائدك، يذل لك كل صعب ، ويتسهل عليك كل خطب؛ لأن للدين أنصارا ، وللحق أعواناً؛ إن قعدت عنك أجسادهم ؛ لم تقعد عنك قلوبهم . وحسبك أن تكون القلوب معك. وقيل لبعض الحكماء : أي الجند أوفى ؟ قال : الدين . قيل: فأي العدد أقوى؟ قال : العدل . وللدين سلطان قد انقادت اليه امامته ، واستقرت عليه دعامته ، فاجعله ظهيرا لك فى أمورك، وعونا لك على تدبيرك، تجد من القلوب خشوعا ، ومن النفوس خضوعا ، فما اعتزت مملكة اليه إلا صالت ، ولا تحققت بشعاره إلا طالت . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مامن رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع امام يطيعه ويأمره بذات الله تعالى »

واجعل لله تعالى عليك فى خلواتك رقيبى رغب ورهب ؛ تقودك الرغبة الى طاعته ، وتصدك الرهبة عن معصيته، ليسلم باطنك من العيوب، ويخلص سرك من الذنوب . وقد نفسك الى العدل ، ينقد الناس به الى طاعتك ، ويكفوا به عن معصيتك ، ويقتصروا عليه فى مطالبتك ؛ فان من جازف فى الأخذ جوزف فى الطلب ، ومن ناصف نوصف .والعرب تقول فى المجازفة من أمثالها : دخل بيتاً ما خرج منه . وقال السيد المسيح : بالمكيال الذى تكيلون يكال لكم وتزادون. وقال الشاعر :

ومن ظن ممن يظهر السوء أنه   يجازي بلا سوء فقد ظن منكرا

واعلم أنك لن تستغزر موادك الا بالعدل والاحسان ؛ ولن تستندرها بمثل الجور والأساءة ؛ لأن العدل استثمار دائم ، والجور استئصال منقطع . وقد قيل فى منثور الحكم : بالعدل والانصاف ، تكون مدة الائتلاف .

وليس يختص العدل بالأموال دون الأقوال والأفعال.فعدلك بالأموال أن تؤخذ بحقها ، وتدفع الى مستحقها ، لأنك فى الحقوق سفير مؤتمن ؛ وكفيل مرتهن، عليك غرمها ، ولغيرك غنمها .

وعدلك فى الأقوال أن لا تخاطب الفاضل بخطاب المفضول ، ولا العالم بخطاب الجهول ، وتقف فى الحمد والذم على حسب الأحسان والأساءة ، ليكون ارغابك وارهابك على وفق أسبابهما من غير سرف ولا تقصير ، فلسانك ميزانك . فاحفظه من رجحان أو نقصان . وقد قال بعض الحكماء : جعل الله الانسان أفضل الحيوان ، وصير أفضل جارحة فيه اللسان ، فجعله للضمائر ترجماناً ، ولما جمعته العقول والبصائر تبيانا ، وبين الحق والباطل فرقانا ، ولقد قال الاحنف بن قيس : « النطق مسفرة،و الصمت مسترة » وللكلام روية تتقدم على المعانى دون الألفاظ ، فكل المعانى الى رويتك ، وفوض الألفاظ الى بديهتك ، فان ابتكار المعانى خطر ، والروية فى الألفاظ لكن . ولأن يكون الكلام مطبوعا ، أولى من يكون

مصنوعا . إلا أن يكل الخاطر بشوائب الهموم ، ويكون الكلام مع ذي قدر عظيم ، فيروى فى الاختصار ، ففى الاكثار عثار ، يفضى الى ضجر إن استرذل، والى ملل إن استثقل . وقد قيل: أول العى الاختلاط، وأسوأ القول الافراط. ولذلك قيل الحصر خير من الهذر ، لأن الحصر يضعف الحجة ، والهذر يتلف المهجة . وقال عبد الحميد : العاقل للسانه عاقل . وقيل فى منثور الحكم : اذا تم العقل نقص الكلام .

وعدلك فى الافعال أن لا تعاقب إلا على ذنب ، ولا تعفو إلا عن إنابة ، ولا يبعثك السخط على اطراح المحاسن ، ولا يحملك الرضا على العفو عن المساوى . حكى عن سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أنه قال: اعطيت ما اعطى الناس ومالم يعطوا؛ وعلمت ما علم الناس ومالم يعلموا.فلم أعط شيئا أفضل من الحق فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وخشية الله في السر والعلانية . وقد قال بعض الحكماء : « من سكرات السلطان الرضا عن بعض من يستوجب السخط ، على بعض من يستوجب الرضا . » وكما لاتستوي الحسنة ولا السيئة ؛ كذلك لايستوي المحسن والمسيء . وقد قيل: أخبث الناس ، المساوي بين المحاسن والمساوي .فاجتنب بافعالك ماناسبها ، وقابل بمجازاتك ماأوجبها ، واجعل جزاء الافعال بحسبها من احسان واساءة ، يستوجب بهما ثواب وعقاب ؛ فان لميلك ورضاك حكما سواء ، إن وصلت عليه خرجت عن المجازاة الى التبرع بالصلة ، وأنت فى تبرعك مخير ، وفى مجازاتك مضطر . وقد قال الحسن البصرى : المؤمن لا يحيف على من يبغض ، ولا يأثم فى من يحب . فأما التقريب والابعاد ؛ فيجوز أن يعتبر بالسخط والرضا ؛ اذا لم تحط بهما ذوي الاقدار ؛ وترفع بهما أهل الخمول ؛ لأن لك خيارك أن تبتدئ بتقريب من أردت ، وابعاد من كرهت ، اذا سلم رأيك من تقريب ذى النقص وابعاد ذى الفضل ؛ فتستطر بتقريب الناقص وابعاد الفاضل ؛ وان كان التشا كل مركوزا في الغرائز. وقد قال بعض

البلغاء : لاتصطنع من خانه الأصل ؛ ولاتستصحب من فاته العقل ؛ لأن من لا أصل له يغش من حيث ينصح ، ومن لاعقل له ؛ يفسد من حيث يصلح . وذلك مما يعسر توقيه، ويفوت تداركه وتلافيه، وليكن وفاؤك بالوعد حتما، وبالوعيد حزماً ؛ لأن الوعد حق عليك ؛ والوعيد حق لك على غيرك ؛ فكنت فيه على خيارك ، فمن أجل ذلك لم يجز إخلاف الوعد ؛ وان جاز اخلاف الوعيد . وقد قال أحد الشعراء :

وإني وان أوعدته أو وعدته   لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

لكن ينبغي أن يقترن بخلف الوعيد عذر حتي لايهون وعيدك ليكون نظام الهيبة به محفوظا ، وقانون السياسة فيه مضبوطا ؛ فأظهره ان خفي لتكون باخلاف وعيدك معذوراً ؛ وبعفوك عنه مشكوراً ؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ماازداد أحد بالعفو إلا عزا . وللوعد والوعيد شرطان : أحدهما ، أن يكونا مستحقين ماأوجبهما من احسان واساءة ، والثانى أن تقترن بتقديمهما على الثواب والعقاب مصلحة فى ترغيب وترهيب ؛ فان لزم تقديم الثواب والعقاب على الوعد والوعيد، كان الوعد تقصيراً والوعيد عجزاً. وقد قال بعض الحكماء :الوعد مرض المعروف ، والانجاز برؤه ،والمطل تلفه . وقال بعض البلغاء : اذا احسنت القول فاحسن الفعل ، ليجتمع لك مزية اللسان وثمرة الاحسان ، فانك لاتخلو فى خلفه من ذنب تكتسبه أو عجز تلتزمه . وليكن فعلك أكثر من قولك ، فان زيادة القول على الفعل دناءة وشين، وزيادة الفعل على القول مكرمة وزين، ولاتجعل لغضبك سلطانا على نفسك، يخرجك من الاعتدال الى الاختلاف ؛ فان يسلم بالغضب رأي من زلل ،وكلام من خطل، لأن ثورته طيش معر ، ونفرته بطش مضر ، لأنه يخرج عن التأديب الى الانتقام، وعن التقويم الى الاصطلام . ولذلك قيل : أول الغضب جنون ، وآخره ندم .وقال ابن عباس : لم يمل الى الغضب إلا من اعياه سلطان الحجة . وقال بعض السلف

إياك وعزة الغضب ، فانها تفضى بك الى ذل الاعتذار . وقال بعض الحكماء : من كثر شططه كثر غلطه . وقال بعض الشعراء :

ولم أر للأعداء حين اختبرتهم   عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

وليكن غضبك تغاضبا ، تملك به عزمك ، وتقوم به خصمك . فتسلم من جور غضبك وتقف على اعتدال تغاضبك . فقد قيل فى بعض صحف بنى اسرائيل : اذا كان الرجل ذا غضب تواترت عليه الوضائع ؛ فكلما اشتد غضبه ازداد بلاء . وقال بعض الحكماء : الغضب يصدىء العقل . وكتب كسرى ابرويز الى ابنه شيرويه : إن كلمة منك تسفك دما ، وإن أخرى منك تحقن دما ، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك ؛ فاحترس فى غضبك من قولك أن يخطىء ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جسدك أن يخف؛ فان الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما . وقد يقترن بالغضب لجاج يساويه فى معرته، ويشاركه في مضرته ؛ لأن اللجاج التزام الخطأ وإطراح الثواب . فدع عنك لجاج الألد الخصم ، وتجنب عواقب النذل الفدم ، وتابع الرأى فيما اقتضاه ، فلن يقبح بك العدول اليه بعد لجاجك ، ولأن تنتفع بالرأى أولى من أن تستعز باللجاج . وقد قال بعض الحكماء : من استعان بالرأى ملك ، ومن كابد الأمور هلك . وقال ابن المقفع : دع اللجاج فانه يكسر عزائم العقول. وقيل فى منثور الحكم : الظفر لمن احتج لا لمن لج. وقيل فيه : اللجوج يدخل فيما ليس منه خروج .

واعلم أن الجد والهزل ضدان متنافران ؛ لأن الجد من قواعد الحق الباعث على الصلاح . والهزل من مرح الباطل الداعى الى الفساد ؛ فصار فرق ما بين الجد والهزل ، هو فرق ما بين الحق والباطل ؛ وتنافر الاضداد يمنع من الجمع بينهما . فاذا انفردت باحدهما كنت للآخر تاركا . وقد قيل الحق مفروض ، والباطل مرفوض . وقال على كرم الله وجهه : العقل حسام قاطع والحلم غطاء سابغ ، فقاتل هواك بعقلك ، واستر خلل خلقك بحلمك ، واستعمل

الجد ينقد اليك الحق، و يفارقك الباطل، ولا تعدل الى الهزل فيتبعك الباطل، و ينافرك الحق. ولقلما انثلمت هيبة الجد و تكاملت هيبة الهازل، والهيبة أس السلطنة. وحكى عمرو بن مرة أن رجلا من قريش قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: لن لنا، فقد ملأت قلوبنا هيبة، فقال أفي ذلك ظلم؟ قال: لا. قال: فزادني الله في صدوركم مهابة. وقال حكيم الهند: ليكن فيك مع طلاقتك تشدد، كيلا يجترأ عليك بالطلاقة، و ينفر منك بالتشدد؛ فاما الهزل فيكون من سخف أو بطر يجل عنهما من ساس الرعايا، ودبر الممالك. قال بزرجمهر: الهزل آفة الجد، والكذب عدو الصدق، والجور مفسدة الملك. وقال ملك الهند للاسكندر، وقد دخل بلاده: ما علامة دوام الملك؟ قال: الجد في كل الامور. قال: فما علامة زواله؟ قال: الهزل فيه. وقد قيل: من أبطرته النعمة وقره زوالها. وليس الكبر والعنف جدا، ولا التواضع واللطف هزلا؛ وربما تدالست هذه الاخلاق بغلبة الهوى ونازع الفطرة، فمزج صاحبها بالجد كبرا وعنفا، ليكون بهيبة الجد أحق، ومن سخف الهزل ابعد؛ وهذا غير محسوس، لأن الكبر والتواضع من شيم النفوس كالسخاء والبخل، والجد والهزل من أفعالها كالحق والباطل؛ فتباعدا فى السبب واختلفا فى المسبب. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «اذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظا من نفسه». وقيل فى منثور الحكم: اذا عرفت نفسك لم يضرك ما قيل فيك.

وربما استكد الجد خاطر المجد، فاستروح ببعض الهزل ليستعين به على مصابرة الجد. فقد قيل فى منثور الحكم: الهم قيد الحواس. وحكى عن أبى الدرداء أنه قال: انى لأستجم نفسي بالشيء من الباطل، ليكون أقوى لها على الحق. وقيل فى منثور الحكم: ما أكثر من نهى فأغرى، فلا بأس أن يستسر منه فى زمان راحته، وأوقات خلوته، بمقدار دوائه من دائه، فان الكلال ملال، وليس للملول حزم ولا عزم. وليكن فيما

يتعلل به من الهزل محافظا على دينه وصيانة مروءته، ويخرج هذا القدر عن حكم ماذم من الهزل، لانه عون على ما يحمد من الجد. كما قال الشاعر:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة ... يجم وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وكما تنافر الجد والهزل، كذلك تنافر الصدق والكذب، ضدان متنافران تختلف عللهما، وتفترق نتائجهما. فالصدق من لوازم العقل، وهو أس الدين؛ وقوام الحق. والكذب من غرائز الجهل، وهو زور يقترن بغرور، ان التبست أوائله انهتكت أواخره، وان جر التباسه نفعا، عاد انتهاكه ضررا، فلم يسلم من معرة زور، ومضرة غرور. وقد روى عقبة ابن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أعظم الخطايا اللسان الكذوب». وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لان يضعنى الصدق ـ وقلما يفعل ـ أحب إلى من أن يرفعنى الكذب ـ وقلما يفعل ـ. ووجدت لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى سفر حكمته انه قال: الذى يلج بالكذب يرعى الرياح. وهذا من أوضح الامثال بياناً وعياناً.

فصل

(فى معنى الوزارة)

واذا مضت هذه الفصول فى مقدمات الوزارة فاسمها مشتق من معناها. واختلف فيه على ثلاثة أوجه، أحدها: انه من الوزر وهو الثقل، لأنه يحمل عن الملك أثقاله. والثانى: انه مشتق من الأزر وهو الظهر، لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره. والثالث: أنه مشتق من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى: (كلا لا وزر) أى لا ملجأ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته، لان عليه مدار السياسة واليه تفوض الاموال. وقد قال بعض ملوك الفرس: الوزراء ساسة الاعمال، وحازة الاموال.

واذا كان كذلك فالوزارة ضربان: وزارة تفويض تجمع بين كفايتى السيف والقلم. ووزارة تنفيذ: تختص بالرأى والحزم. ولكل واحدة منهما حقوق وشروط.

فأما وزارة التفويض الجامعة بين كفايتى السيف والقلم، فهى أعم نظرا، وأنفذ أمراً. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « خلق الله الدنيا للسيف والقلم، وجعل السيف تحت القلم ». وهذه الوزارة هى الاستيلاء على التدبير، والعقد، والحل، والتقليد، والعزل، فاما العقد، فيشتمل على شرطين: تنفيذ واقدام، وأما الحل فيشتمل على شرطين: دفاع وحذر، فصار الحل والعقد هنا أحد شرطى هذه الوزارة يشتملان على أربعة شروط: تنفيذ، ودفاع، واقدام، وحذر. ولكل شرط منها فصل يشتمل على فصول.

فاما الفصل الاول، وهو التنفيذ. فهو أس الوزارة، وقاعدة النيابة، وهو الأخص بكفاية القلم فى مصالح الملك واستقامة الأعمال، ويشتمل على أربعة أقسام:

أحدها تنفيذ ماصدرت به أوامر الملك، فعلى الوزير فيها حقان: أحدهما أن يتصفحها من زلل فى ابتدائها، ويحرسها من خلل فى أثنائها، ليرده عن زللها باللطف، ويقوى عزمه على صوابها بالاحماد. وقد قال افلاطون: أول رياضة الوزير أن يتأمل أخلاق الملك ومعاملته، فان كانت شديدة فظة، عامل الناس بدونها، وان كانت لينة مطلقة عاملهم بأقوى منها، ليقرب من العدل فى سعيه، والثانى تعجيل امضائها للوقت المقدر لها، حتى لا يقف فيوحش، لأن وقوف أوامره يوحش، وهو مندوب للتنفيذ دون الوقوف. وقد قال حكيم الهند: العجلة فى الأمر خرق، وأخرق من ذلك التفريط فى الأمر بعد القدرة عليه. وقال بعض حكماء العرب: كم من عزيز أذله خرقه! ومن ذليل أعزه خلقه، ودرك هذا التقليد عائد على الملك دون الوزير.

والقسم الثانى تنفيذ ما اقتضاه رأي الوزير من تدبير المملكة فعليه فى امضائه حقان: أحدهما أن يراعى أولى الأمور فى اجتهاده وأصوبها فى رأيه، لانه مندوب

لاصلحها ومأخوذ بأصوبها. والثانى أن يطالع الملك به ان جل، ويجوز أن يطويه عنه ان قل، ليخرج عن الاستبداد المنفر، ويسلم من الحقد المؤثر. وقد قال حكيم الهند: الاحقاد مؤثرة، حيث كانت، وأخوفها ماكان في أنفس الملوك، لانهم يدينون بالانتقام، ويرون الطلب بالوتر مكرمة وفخرا، فان عارضه الملك في رأيه بعد المطالعة به لم يستوحش من معارضته لانه ملك مستنيب، وظان مستريب، وقابل بين رأيه ومعارضته فيه، واستوضح منه أسباب المعارضة بلطف، ان خفيت. فقد قيل: الكلام اللين مصائد القلوب، فان وضح صوابها، توقف عن رأيه وشكره على استدراك زلله، وتلافي خلله، وقد من عليه إذ صفح ولم يؤنب، وان كان الصواب مع الوزير تلطف فى ايضاح صوابه، وكشف علله وأسبابه، فان ساعده على امضائه أمضاه، وكان درك تنفيذه عائدا على الوزير دون الملك، وان لم يساعده عليه توقف عنه انقيادا لطاعته. فقد قال بعض السلف: من ضن بعرضه فليدع المراء. وقال: خل الطريق لمن لا يفيق، ويكون درك وقوفه عائدا على الملك دون الوزير.

والقسم الثالث تنفيذ ما صدر عن خلفائه على الاعمال التى فوضها إلى آرائهم، ووكلها إلى اجتهادهم، فان تفردوا بتنفيذها أمضاها لهم، ولم يتعقبها مالم يتحقق زللهم فيها. وكان درك تنفيذها عائدا على العمال دون الوزير، وان وقفوها على تنفيذ الوزير، فعليه فى تنفيذها حقان: أحدهما أن يستكشف عن اسبابها ليعلم خطأها من صوابها: والثانى تقوية أيديهم ونفي الارتياب عنهم، فان ظهور الارتياب يخنيهم. وقد قال حكيم الفرس: ليس احد أبعد من الخير من اثنين منزلتهما واحدة، وعللهما مختلفة، أحدهما من لا يثق بأحد، والثانى من لا يثق به أحد، فان نفذها لهم حين لم يتحقق زللهم فيها، كان درك تنفيذها عائداً على العمال دون الوزير، وإن وقفها كان درك وقوفها عائدا على الوزير دون العمال.

والقسم الرابع تنفيذ أمور الرعايا على ما ألفوه من عادات ومعاملات، واختلفوا فيها حتى ائتلفوا بها؛ لأن الناس مجبولون على الحاجة الى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها، فخولف بين هممهم لينفرد كل قوم بنوع منها؛ فيأتلفوا بها فيقوم الزراع بمزارعهم؛ ويتشاغل الصناع بصنائعهم. ويتوفر التجار على متاجرهم. وقد قال حمير الملك لوزيره: الناس أربع طبقات طبقة للفروسية ألحقهم بالشرف، وطبقة لاقامة الديانة ألحقهم بالكفاية، وطبقة للزراعة والعمارة أجرهم على الانصاف، وطبقة للمهن لا تخلهم من الاحسان. وعليه فى تنفيذها لهم حقان: أحدهما أن لا يعارض صنفا منهم فى مطلبه؛ والثانى ان لا يشاركه فى مكسبه. وربما كان للسلطان رأي فى الاستئثار من أحد الاصناف فينقل اليه من لا يألفه فيختل النظام بهم فيما نقلوا عنه وفيما نقلوا اليه، لأن تمييزهم بالهام الطباع اعدل في ائتلافهم من التصنع لها، وربما ضن السلطان عليهم بمكاسبهم فتعرض لها اوشاركهم فيها، فاتجر مع التجار، وزرع مع الزراع، وهذا وهن فى حقوق السياسة، وقدح فى شروط الرياسة من وجهين: أحدهما أنه اذا تعرض لأمر قصرت فيه يد من عداه، فان تورك عليه لم ينهض به، وان شورك فيه ضاق على أهله. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «ماعدل وال اتجر فى رعيته». والثانى ان الملوك أشرف الناس منصبا، فخصوا بمواد السلطنة لأنها أشرف المواد مكسبا، فان زاحموا العامة فى درك مكاسبهم أوهنوا الرعايا بسوء الممالك، وعاد وهنهم عليها فاختل نظامها، واعتل مرامها. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اذا اتجر الراعى اهملت الرعية». وقال بعض الحكماء: اذا لم يكن فى سلطان الملك سرور الرعية، كان ملكه ظلما. وكتب حكيم الروم الى الاسكندر: أى ملك تطلعت نفسه الى المحقرات فالموت اكرم له.

فصل

(الدفاع مهمة الوزير)

فاما الفصل الثانى وهو الدفاع. ويشتمل الدفاع على اربعة اقسام: أحدها الدفاع عن الملك من الأولياء، والثانى الدفاع عن المملكة من الاعداء، والثالث دفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء، والرابع دفاعه عن الرعية من خوف واختلال.

فاما القسم الاول فى دفاعه عن الملك من أوليائه فيكون بثلاثة اسباب: أحدها أن يقودهم الى طاعته بالرغبة؛ ويكفهم عن معصيته بالرهبة؛ فان الرغبة والرهبة إذا تواليا على النفس ذلت لهما وانقادت خوفا وطمعا، وبهما تعبد الله الخلق فى وعد الله ووعيده: والثانى أن يقوم بكفايتهم حتى لا ينفروا بالقوة أو يتفرقوا بالضعف، وكلاهما قدح فى الملك لأنهم بالقوة اعداء مسلطون، وبالضعف عجزة مستبدلون. وثبات الملك يكون بان تكون القوة للسلطان ليصير قاهراً لهم، ولا تكون القوة لهم فيصير مقهورا بهم. بلغ المأمون أن الجند بخراسان شغبوا ونهبوا فكتب الى عامله بها: لو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا: والثالث أن يحفظهم من الاغواء، ويحرسهم من الاغراء، وذلك بأمرين: احدهما بالبحث عن اخبارهم حتي يعلم سليمهم من سقيمهم: والثانى بابعاد المفسدين عنهم حتى لا يتعدى اليهم فسادهم، فان الكف بحسب الكشف، والمهل زائغ أو رائغ ولا خير فى واحد منهما لضلال الزائغ ومخاتلة الرائغ. وقد قيل فى منثور الحكم: من علامة بقاء الدولة قلة الغفلة.

والقسم الثانى فى دفاعه عن المملكة من اعدائها؛ واعداء الممالك من انفرد بملك أو امتنع بقوة. وهم ثلاثة اصناف: اكفاء مماثلون، وعظماء متقدمون، وناجمة متنافسون. فاما الاكفاء المماثلون فيدفعون بالمقاربة والمسالمة. وأما العظماء المتقدمون فيدفعون بالملاطفة والملاينة. وأما الناجمة المنافسون فيدفعون

بالسطوة والمخاشنة. فان اختلاف الرتب يوجب تباين اهلها وتنافى احوالها. فان انقاد للأعلى انقاد له الأدنى، يدين بما دان. كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «كما تدين تدان». وأن ناكر نوكر وكان على وجل من سطوة العالى ومنافرة الدانى. وقد قال بعض الحكماء: من قلت تجربته خدع، ومن قلت مبالاته صرع. وان استغنى عن محاربة احدهم كف عنها وهول بها، ولم يخرق حجاب الهيبة؛ ولم يقطع اسباب المراقبة؛ ليحظى باربعة اشياء: دعة المسالمة، والأمن من خطر المناجزة، وبقاء الاموال، وراحة الاجناد. وقد قالت القدماء: خذ بالاناة ما استقامت لك، واقبل العافية ما وهبت لك، ولا تعجل الى مناجزة العدو ما وجدت الى الحيلة سبيلا، ولا تسأمنّ من مطاولة لعدوك، فان لك فى الابطاء انتظاراً لفرصة، وظفراً بعورة، وتوق طلب الظفر باللقاء، فانه لا يكاد ينال الا بالاخطار. ولتكن الرغبة منك فى طاعة عدوك لك آثر عندك من الغنيمة، تصب به سلامة أصحابك ورعيتك. وقد قال على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه: خذ على عدوك بالفضل، فانه أحد الظفرين. وإن دعت الضرورة الى المناجزة بعد الاعذار والانذار، أيقظ لها عزمه واستعمل فيها حزمه؛ واقدم عليها بعد الاستخارة متبعاً للدين، ومستعملا للعدل. فلن يعدل عنهما الا باغ مصروع، وقد قال بعض الحكماء: من سل سيف البغى اغمد فى رأسه، ومن أسس اساس السوء اسسه على نفسه. وليكن الحذر جنته، والاستظهار عدته، وقد قال حكيم الفرس: احذر التفريط فى الأمور اتكالا على القدر، فان لكل قدر سببا يجرى اليه؛ فسبب النجح العمل، وسبب الخيبة التفريط، وكان يقال: تفكر قبل أن تعزم، وتبين قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم. واذا وضعت الحرب اوزارها على ظهر وغلبة صفح وتألف. فقد كتب حكيم الروم الى الاسكندر: اذا ظهرت الغلبة على قوم فضع مع أوزار الحرب الغضب، لأنهم فى الحال الأولى اعداء، وهم فى هذه الحال خول، فابدلهم بالغضب رحمة، وبالأذى احسانا.

والقسم الثالث فى دفاع الوزير عن نفسه من اكفائه، فتكون بعد استصلاح الطرفين الاعلى وهو الملك، والادنى وهم الاعوان. واكفاؤه ثلاثة: واتر، وموتور، ومنافس.

فاما الواتر: فقد بدا بشرّه، وجاهر بعداوته؛ وكلاهما بغى منه يؤنس بالنصر عليه، وقد قال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: سهم الظالم يرجع عليه، لأن عقوبته تسرع اليه، وقد قال بعض الحكماء: من فعل الخير فبنفسه بدأ، ومن فعل الشر فعلى نفسه جنى. ولك فى بره حقان حق فى مقابلته على ما قدم من بره، وحق فى استدفاع ما جاهر به من عداوته، فاما حقك فى المقابلة فان عفوت عنها كنت بالفضل جديرا؛ وإن قابلت عليها كنت فى المقابلة معذوراً. وقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال «من أراد أن يشرف الله له البنيان، وأن يرفع له الدرجات يوم القيامة؛ فليعف عمن ظلمه، ويصل من قطعه، وليعط من حرمه، وليحلم عمن جهل عليه» وقال المنتصر: لذة العفو أطيب من لذة التشفي، لأن لذة العفو يتبعها الحمد، ولذة التشفي يعقبها الندم، قال الشاعر:

وليس اعتذاري من قبيح بنافع ... اذا قيل لى يوما وصدق قائله

فانك تلقى فاعل الشر نادما ... عليه ولم يندم على الخير فاعله

وأما حقك فى استدفاع عداوته، فقد أيقظك بمجاهرته، واوهن كيده بمظاهرته. وقد قيل فى منثور الحكم: اوهن الأعداء كيدا أظهرهم بعداوته؛ فاحذر بادرته وادفع عداوته. ودفعها مختلف باختلاف طباعه فى اثباته الرغبة أو تقويمها بالرهبة. وقد قال لقمان لابنه: يابنى اعتزل الشر يعتزلك فان الشر للشر خلق. وقد قيل فى الصحف الأولى: الشرير شره عليه. وقال الحسن بن سهل ـ وحدث الفهلمان ـ: ثلاثة لا يصلح فسادهن بشيء من الحيل: العداوة بين الاقارب، وتحاسد الاكفاء، والركاكة فى الملوك. وثلاثة لا يستفسد صلاحهن بنوع من المكر: العبادة فى العلماء، والقنوع فى المستبصرين، والسخاء فى ذوى الاقدار. وثلاثة لا يشبع منهن: الحياة والمال والعافية.

و أما الموتور : فقد بودىء بالاساءة فصبر ، وجوهر بالعداوة فأخفاها . فله ترة مظلوم ووثبة مختلس ، فتتوقى ترة ظلامته بالاستعطاف ، و تتوقى وثبة مخالسته بالاحتراز . وقد روى مجالد عن الشعبى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : « إياكم والمشارّة فانها تدفن الغره و تظهر العره ». وقد قيل فى امثال الحكم: ثلاثة القليل منها كثير، النار و العداوة والمرض. قال الشاعر:

فلا تأمنن الدهر حراً ظلمته   فما ليل مظلوم كريم بنائم

و أما المنافس فهو طالب رتبة إن نال منها سداداً من عوز ياسر، وان ضويق فيها نافر، فارخ له عنان الأمل، واخفض جناح منافسته بالاستنابة و العمل، لتدفعه بالمياسرة عن المنافرة، وغالط به الايام فان الساعات تهدم الاعمار . وقد قيل فى منثور الحكم: المرء بساعاته؛ والدهر فى مساعاته. ولا تجعل له فراغا يتشاغل فيه بمساءتك، ويجعلك عذراً فى السعى على منزلتك، فان المضطر جسور . فان ساق القضاء اليه حظا كنت له مصطنعا يرعى لك حقوق الاصطناع . فقد قيل: من علامة الاقبال اصطناع الرجال. وقال بعض الحكماء: اصطنع الخير عند امكانه؛ يبق لك حمده بعد زوال ايامه؛ واحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك، واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك. وان صده القضاء عن ارادته وحجزه القدر عن طلبته، كفيت ماخفته وقد أحسنت. ووصلت الى ماردته، وقد أجممت. فقد قيل فى منثور الحكم: الحوائج تطلب بالعناء، وتدرك بالقضاء، ثم قد أوجبت باحسانك شكراً؛ واقمت باجمامك عذراً؛ اجتذبت بهما قياد منافسك الى طاعتك، وصرفته بهما عن التعرض لمنافستك ، فسيجعلك قبلة رجائه إذ لم يحظ بخير الا منك، ولم يقض من زمانه وطرا الا بك. وقد قيل فى منثور الحكم : من استصلح الاضداد بلغ المراد. وقد قيل فى منثور الحكم: قيل لبعض الحكماء ما النبل؟ قال مؤاخاة الاكفاء، ومداهنة الأعداء . وربما تعرض لعداوتك من قصر عن رتبة منافستك؛ فاعطه من رجائه طرفا، واقبض من زمامه طرفا، واختبرها فيه فستقف به الغاية على صلاح أوفساد، فان صلح سوعد، و ان فسد توعد و قد

قال ازدشير بن بابك: احذروا صولة الكريم اذا جاع؛ واللئيم اذا شبع . وقد قيل فى منثور الحكم: علة المعاداة قلة المبالاة. وقال سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام لابنه: لا تستكثر أن يكون لك الف صديق فالالف قليل، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحد فالواحد كثير. والسلامة من الزمان واهله من كذب الامانى، فاقلل و لا تستكثر؛ فقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو لم يصب ابن آدم من الدنيا الا الأمن والسلامة لكفى بهما داء قاتلا». وقيل فى منثور الحكم: الناس عون على الصبر. وقال ابراهيم بن المهدي :

و للنفوس وان كانت على وجل   من المنـــية آمال تقويها
فالمرء يبسطها والدهر يقبضها   والنفس تنشرها والموت يطويها

والقسم الرابع: فى الدفاع عن الرعية من خوف واختلال من نتائج الاهمال، وكلاهما من سوء السيرة و فساد السياسة لترددهما بين تفريط وافراط ، وخروجهما عن العدل إلى تقصير أو اسراف؛ وهم قوام الملك المستمد وذخيرة المستعد ان أهملوا فسدوا و أفسدوا، وان حيف عليهم هلكوا و أهلكوا ، فلن يستقيم ملك فسدت فيه أحوال الرعايا ، لأنه منهم بمنزلة الرأس من الجسد لا ينهض إلا بقوته و لا يستقل إلا بمعونته ، وعليك لهم ثلاثة حقوق : أحدها أن تعينهم على صلاح معايشهم ، ووفور مكاسبهم، لتتوفر بهم موادك و تعمر بهم بلادك . وقد روى عطاء عن جابر عن النبى صلى الله عليه و سلم أنه قال : «خير الناس أنفعهم للناس» . وقال وهب بن منبه : ان أحسن الناس عيشا من حسن عيش الناس في عيشه : و الثانى أن تقتصر منهم على حقوقك وتحملهم فيها على انصافك، ليكونوا على الاستكثار أحرص و فى الطاعة أخلص ، وقد قيل: من خاف اساءتك اعتقد مساءتك. ولا تكلهم فى مقادير الحقوق إلى غيرك فيكونوا له أرجأ وعليه أحنا. فقد قيل فى سالف الحكم: انما يستخرج ما عند الرعية ولاتها، وما عند الجند قادتها، ومافى الدين والتأويل علماؤه : والثالث، أن

تحوطهم بكف الاذى ومنع الايدي الغالبة منهم، لتكون لهم كالأب الرءوف ويكونوا لك كالاولاد البررة؛ فانك كافل مسترعى و مسئول مؤاخذ ، وقد قال النبي صلى الله عليه و سلم: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . فلله عليك فيهم حق ، وللسلطان عليك فيهم تبعة ، فاغتنم بهم شكر احسانك ، وجمل بهم آثار سلطانك، فان الدنيا ظل الغمام وحلم النيام ، وقد قيل: من الدنيا على الدنيا دليل. و روى عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ». وقيل فى منثور الحكم: عود الحياة فى كل يوم يعتصر ، وقال بعض الحكماء : كل يوم يسوق إلى غده ، وكل امرىء مأخوذ بجناية لسانه ويده ، فاغتنم غفلة الزمان، وانتهز فرصة الامكان، وخذ من نفسك لنفسك، وتزود من يومك لغدك . وكتب حكيم الروم إلى الاسكندر: لا تكلب على الدنيا فانك قليل البقاء فيها . ومن أحكم ما قيل فى هذا المعنى قول الشاعر :

همومك بالعيش مقرونة فما تقطع العيش إلا بهم
وحلوة دنياك مسمومة فما تأكل الشهد إلا بسم
إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ولما تاب الله تعالى على سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورد عليه ملكه كتب على كرسيه : اذا صحت العافية نزل البلاء ، واذ اتمت السلامة نجم العطب، واذا تم الأمن علا الخوف

فصل

(الاقدام)

(من مزايا الوزير وصفاته)

فاما الفصل الثالث وهو الاقدام. فهو فى السياسة أو فى شرطيها، وفى الوزارة اكفى نظريها، بظفر الاقدام و خيبة الاحجام. وقد قيل فى منثور الحكم : بالاقدام ترتفع الأقدام ؛ وانما يجب الاقدام اذا ظهرت أسبابه من فرصة تنتهزها أو

قوة تجدها ، وقصدت أبوابه فى إبانه وعند امكانه ، كما قال الشاعر:

اذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تقصد الى الباب تهتدي

ثم تجمع بينهما بين حزمك وعزمك ، فالحزم تدبير الأمور بموجب الرأى ؛ والعزم تنفيذها للوقت المقدر لها : فاذا تكاملت شروط الاقدام من هذه الوجوه الاربعة ، لم يمنع من الظفر الاعوائق القدر . وقد قيل فى قديم الحكم : اذا طلب اثنان حظا ظفر به أفضلهما دينا ، فان استويا فى الدين ظفر به أفضلهما مروءة ، فان استويا فى المروءة ظفر به أكثرهما أعوانا ، فان استويا فى الاعوان ظفر به أسعدهما جدا ، فان انثلم من شروط الاقدام أحدها صار الاقدام تغريراً يمنع من حزم ذى اللب ، ويصد عن الظفر ما لم يغلب قدر ، فما الاقدار بقياس معتبر . وقد قال حكيم الهند : السبب الذي يدرك به العاجز حاجته ، هو الذى يحول بين الحازم وطلبته ، وقيل ابزرجمهر ما أعجب الاشياء ؟ قال : نجح الجاهل وإكداء العاقل . ودخل رجل على عبدالله بن طاهر فقال له : أيها الامير ما الذي لا يحتاج فيه إلى عزم ولا حزم ؟ فاستمهله فى جوابه ثلاثة أيام. فعاد اليه بعدها و سأله. فقال له : الدولة. فقال: صدقت وما أخرج هذه الكلمة منك إلا الدولة ، ولذلك قيل فى منثور الحكم الحظ يأتى من لا يأتيه .

والاقدام ينقسم قسمين : احدهما الاقدام على اجتلاب المنافع . والثانى الاقدام على دفع المضار .

فاما الاقدام على اجتلاب المنافع، فضربان احدهما. استضافة ملك . والثانى استزادة مواد ، فاما استضافة الملك ، فيكون بالحزم والعزم ، إذا اقترنا برغبة ورهبة ، ولأن تكون بالاغتيال والاحتيال ، أولى من أن تكون بالقتال، ولذلك قال النبي صلى الله عليه و سلم: « الحرب خدعة» . وقيل فى أمثال الحكم : أربعة لا يركبها إلا أهوج . ولا يسلم منها إلا القليل . مناجزة الحرب ،

وركوب البحر ، وشرب السم للتجربة ، وائتمان النساء على السر . وأما استزادة المواد فيكون بالعدل والاحسان ، إذا اقترنا برفق ومياسرة ، لتكثر بهما العمارة ، وتتوفر بهما الزراعة ، فان الارض كنوز الملك ، يستخرجها أعوان متطوعون ، يقنعهم الكف عنهم ، ويقطعهم العسف بهم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزق في خبايا الارض ». يعني الزرع ولأن تستمد فرعا داراً يعم خيره ؛ أولى من أن تجتث أصلا منقطعاً يعم ضرره ، فلا نفاد لدار ، ولا لبث لمنقطع ، ومايفسده إلا المبادرة قبل أوانه ، والعجلة قبل زمانه ، وقد قيل فى أمثال الحكم : الحظوظ مراتب ، فلا تعجل على ثمرة لم تدرك ، فانك تنالها فى أوانها عذبة ، والمدبر لك أعلم بالوقت الذى تصلح فيه ، فثق بخيرته لك ، ولا تحمل حوائج عمرك كله على يومك ، الذي أنت فيه ؛ فيضيق عليك ويشغلك القنوط عن تدبيرك ، فليحذر العجلة ، فيراه الناس مسيئاً ؛ وقد قيل لبعض الحكماء : من شر الناس ؟ فقال : من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا .

وأما الاقدام على دفع المضار ، فضربان : دفع مااختل من الملك وله سببان: نفور وجور ، فادفع ضرر كل واحد منهما بالضد من سببه ، فان علاج كل داء بضده من الدواء ، فان كان اختلال الملك من الاهمال ايقظت له عزمك وان كان ذلك من العجز ، استعملت فيه حزمك ، وان كان نقص المواد من النفور ، استحدثت فيه رهبتك ، وان كان من الجور ، أظهرت فيه معدلتك ، فان كان حدوث ذلك فى الملك صادراً عنك ، كنت مؤاخذاً بتفريطك في الابتداء ، ومستدركا لتقصيرك فى الانتهاء ، فجبرت اساءتك باحسانك ، ومحوت قبيحك بجميلك ، وان كان حدوثه من غيرك ، كانت جريرة الاساءة عليه ، وكان حمد الاحسان لك ، وبان بك سوء أثره ، وبان به جميل أثرك . وقد روى عطاء بن السايب عن أبيه عن ابن عمر عن النبي

صلى الله عليه وسلم إنه قال : «الخير كثير ، وقليل فاعله» . فقال بعض الحكماء خير من الخير فاعله ، وشر من الشر فاعله

فصل

(فى الحذر)

وأما الفصل الرابع : وهو الحذر فان الدهر ثائر بطوارقه ، ومنافر بنوائبه ، يغدر ان وفى ، ويقتل ان هفا . ولذلك قيل فى منثور الحكم : الدنيا مرتجعة الهبة ، والدهر حسود لا يأتى على شىء إلا غيره . وقال عبدالحميد: أصاب الدنيا من حذرها ، وأصابت الدنيا من أمنها . وقال عبدالملك بن مروان : احذروا الجديدين ، فللاقدار أوقات تغضى عنها الابصار ، فاذا صادفت طوارقه غراً مسترسلا ، صار هدفاً لسهامها الصوائب ، وغرضاً لمنافرة الحوادث والنوائب . وقد قال بعض الحكماء : من أعرض عن الحذر والاحتراس ، وبنى أمره على غير أساس ، زال عنه العز ، واستولى عليه العجز وان قدم لطوارقه حذر المتيقظ ، وتلقاها بعدة المتحفظ ، رد بادرتها بعزم ذى حزم ؛ قد حلب أشطر دهره ، وقام بواضح عذره . وقد قال بعض الشعراء :

ان للدهر صولة فاحذرنها   لا تبيتن قد أمنت الدهورا

ثم هو بعد حذره مستسلم لقضاء لا يرد ، وقدر لا يصد . وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : «احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت » . وقيل لبعض الحكماء : من السعيد ؟ قال : من اعتبر بأمسه واستظهر لنفسه . وقال بعض الشعراء :

وحذرت من أمر فمر بجانبى   لم يبكنى ولقيت ما لم أحذر

وللحذر حد يقف عنده ، ان زاد عليه صار خوراً ، كما ان للاقدام حداً ، ان زاد عليه صار تهوراً ، والزيادة على الحدود نقص فى المحدود ،

ولهما زمان ان خرجا عنه صار الحذر فشلا ؛ والاقدام خرقا ، وعارهما معتبر بحزم العاقل ، ويقظة الفطن . وقد قيل في منثور الحكم : أيدي العقول تمسك أعنة الأنفس . وقال بعض الحكماء : ليعرفك السلطان عند افتتاح التدبير بالحذر ، وعند وقوع الأمر بالجد . والحذر يلزم من أربعة أوجه : أحدها الحذر من الله تعالى فيما فرض ، والثانى الحذر من السلطان فيما فوض ، والثالث الحذر من الزمان فيما اعترض ، والرابع الحذر من غلبة الأعداء ومكر الدهاة .

فاما الحذر من الله تعالى ، فهو عماد الدين الباعث على الطاعة . والحذر منه : هو الوقوف على أوامره ، والانتهاء عن زواجره ، فيعمل بطاعته فيما أمر ، وينتهى عن معصيته فيما حظر ، فلن ترى قليل الحذر إلا متجوزاً فى دينه ، طامحاً فى غلوائه ، لا يرى رشداً فى العاجل ، وهو على وعيد فى الآجل ، مع نفور النفس منه ، وسراية الذم فيه . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى : العزة والقوة يعظمان القلب ، وأفضل منهما خوف الله تعالى ، لأن من لم تردعه خشية الله ، لم يخف الوضيعة ، ولم يحتج إلى ناصر . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : من حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد لما رجا ، وأقرب لمجىء ما اتقى . وقال بعض الحكماء : خير الاخلاق أعونها على الورع . وقال بعض السلف : انما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك . وقال البحتري :

ياجامعاً مانعاً والدهر يرمقه ... مفكرا أى باب فيه يطرقه
جمعت مالا ففكر هل جمعت له ... ياجامع المال أياماً تفرقه

وأما الحذر من السلطان ، فهو وثاب بقدرته ، متحكم بسطوته ، يميل به الهوى فيقطع بالظن ، ويؤاخذ بالارتياب ، فالثقة به عجز ، والاسترسال معه خطر . وقد قيل : ثلاثة لا أمان لهم : السلطان والبحر والزمان . وقيل : إذا تغير السلطان تغير الزمان ، والحذر منه فى حالتى السخط والرضا أسلم لأنه

يستذنب إذا مل ، حتى يصير المحسن عنده كالمسىء ، فاستخلص رأيه بالنصح واستدفع تنكره بالحذر . وقد قال بعض الحكماء : اصحب السلطان بثلاث الحذر ورفض الدولة ، والاجتهاد فى النصح ، وحذرك منه يكون بثلاثة أمور :

أحدها : أن لا تعول على الثقة فى ادلال واسترسال ، فما جرت الثقة إلا ندما كما قال الشاعر :

ما زلت اسمع كم من واثق خجل ... حتى ابتليت فصرت الواثق الخجلا

وقد قيل : الخرق الدلالة على السلطان ، والوثبة قبل الامكان . فاقبض نفسك إذا قدمك ، وتواضع له اذا عظمك ، واحتشمه إذا آنسك ، ولن له إذا خاشنك ، واصبر على تجنيه إذا غالظك . فهو على التجنى أقدر ، فكن على احتماله أصبر ، فربما كانت مجاملته لك مكراً ، وتجنيه عليك عذرا ، فقد قيل فى بعض الصحف الاولى : حب الملك وهواه يشبه الطل الذي ينزل على العشب . وقد قالت حكماء الهند : مثل السلطان فى قلة وفائه للاصحاب ، وسخاء نفسه عنهم مثل البغى ، والمكتب ، كلما ذهب واحد جاء آخر . والعرب تقول : السلطان ذو عدوان وبدوان ، فلا تجعل له فى اظهار تنكره عليك عذرا ، فربما اعترف بالحق فوفى ، ورق بالصبر فكف ، ولذلك قيل فى أمثال كليلة ودمنة : صاحب السلطان كراكب الاسد يخافه الناس ؛ وهو لمركوبه أشد خوفا . وقد روى مصعب بن منصور عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : «السعيد من وعظ بغيره» . وقال شاعره حسان بن ثابت .

ولا تأمن الدهر الفتون فاننى ... برأى الذي لا يأمن الدهر مقتدي

والثانى : فى حذرك منه : أن تساعده على مطالبه ، وتوافقه على محابه ومشاربه ؛ ولا تصده عن غرض ، إذا لم يقدح فى دين ولا عرض ، ولا تتوقف عن اجابته ، وان شغلك ماهو أهم ، فما يقيم لك عذرا اذا وجدك

فى أغراضه مقصرا ، وان كنت على مصالح ملكه متوفرا ؛ فانه اتخذك لنفسه ثم لملكه ؛ وقد يقدم حظ نفسه على مصلحة ملكه ؛ لغلبة الهوى ؛ ونازع الشهوة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حبك الشيء يعمى ويصم » أي يعمى عن الرشد ، ويصم عن الموعظة . فكن متوفرا على مراده ؛ ليسلم اعتقاده لك ، فان قدحت أغراضه فى دين أو عرض ، سللت نفسك من وزرها ، وتحفظت من شينها ، بالتلطف فى عفة عنها بما يعتاضه بدلا منها . ليسهل عليه اقلاعه عنها ؛ فان ساعدك عليه ، سلم دينكما ؛ وزال شينكما . وقد روى أبو حازم عن سهل بن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لله خزائن للخير والشر مفاتيحها الرجال ؛ فطوبى لمن جعله مفتاحاً للخير مغلاقا للشر . وويل لمن جعله مفتاحاً للشر مغلاقا للخير » . وقال بعض الشعراء :

ستلقى الذي قدمت للخير محضرا   وأنت بما تأتى من الخير أسعد

وان أصر عليها لنت فى متاركته ، وأحجمت عن مساعدته ، وهو خداع يتدلس بالمغالطة ، ويخفي بالحزم ، فاستنجد فيه عقلك ، واستعمل فيه حزمك ؛ لتسلم من تنكره ؛ وتخلص من وزره . فقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « ان من شرار الناس عند الله يوم القيامة عبد أذهب آخرته بدنيا غيره » .

والثالث : فى حذرك منه أن تذب عن نفسه وملكه بما استطعت من مال ونفس ، فانك عن نفسك تذب ولها ترب ، لأنه لا يصلح حالك ؛ مع فساد حاله ، وأنت فرع من أصله ؛ وهو يسترسل لثقته بك ، ويستسلم لتعويله عليك ، فقابل ثقته بأمانتك ، واستسلامه بكفايتك ، ولا تلجئه أن يباشر دفع الخوف والحذر ، فيلجئك إلى ما هو أخوف وأحذر ؛ لأنك تخافه وتخاف ما يخافه ؛ فيتوالى عليك خوفان ويتوالى عليك خطران . وقال الشاعر :

ان البلاء يطاق غير مضاعف   فاذا تضاعف صار غير مطاق

فادفع خوفك منه بدفاعك عنه ، تكن من الخوفين آمنا ؛ ومن الخطرين سالماً . وقد قال عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما :

كأنك لم تنصب ولم تلق شدة   إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب

واعلم ان لسلطانك عليك حقوقا لك عليه مثلها ؛ فحقوقه عليك ثلاثة : أحدها قيامك بمصالح ملكه . وهى أربع : عمارة بلاده ؛ وتقويم أجناده ؛ وتثمير مواده ؛ وحياطة رعيته . والثانى من حقوقه عليك قيامك بمصالح نفسه . وهى أربع : ادراك كفايته ؛ وتحمل عوارضه ؛ وتهذيب حاشيته ؛ واستعداد ما يدفع به النوائب . والثالث من حقوقه عليك ، قيامك بمقاومة أعدائه ، وذلك بأربعة أشياء : تحصين الثغور ، واستكمال العدة ، وترتيب العساكر ، وتقدير الحدود ، فأد حقوق سلطانه ، ووف شروط ائتمانه ، واحذر بادرة مؤاخذته ان قصرت ، وسطوة انتقامه ان فرطت ، فقد قيل فى منثور الحكم : من فعل ما شاء ، لقي ما لم يشأ . وقال بعض البلغاء : من أولع بقبح المعاملة أوجع بقبح المقابلة . واعلم ان بادرة الانتقام ، أسرع من ظهور الانعام ، لان الانتقام يصدر عن طيش الغضب ؛ والانعام يصدر عن إناة الكرم ، فربما هجم الانتقام قبل الحذر ان تم على مداومة الحذر . ولذلك قال أبو زبيد الطائى:

والخير لا يأتيك مجتمعاً   والشر يسبق سيله مطره

وقد قيل فى حكم الفرس : ما أضعف طمع صاحب السلطان فى السلامة . وذلك انه ان عف جنى عليه العفاف عداوة الخاصة ، وان بسط يده جنى عليه البسط ألسنة المتنصحين ، فلزمك بذلك أن يكون حذرك أغلب من رجائك ، وخوفك أكثر من أمنك ، ولئن تكدر بهما العيش فهما إلى السلامة أدعى . وقد قال بعض الحكماء : بالصبر على ما تكره تنال ما تحب ؛ وبالصبر على ما تحب تنجو مما تكره .

فاما مايقابلها من حقوقك على سلطانه فثلاثة . أحدها : معونتك على نظرك ؛ وذلك بأربعة أشياء : تقوية يدك ؛ وتنفيذ أمرك ، واطلاق كفايتك، وان لا يجعل لغيرك عليك أمراً . وقد قال سابور بن ازدشير فى عهده الى ابنه هرمز : ينبغى للوزير أن يكون قوي الأمر ؛ مقبول القول ؛ يمنعه مكانه منك من الضراعة لغيرك ، وتبعثه الثقة بك على بذل النصيحة لك ، ويشجعه مايعرف من رأيك على مقاومة أعدائك ، وأحذرك أن تنزل بهذه المنزلة من سواه من خدمك . والثانى من حقوقك عليه : أن تثق منه بأربعة أشياء . أن لا يؤاخذك بغير ذنب ؛ ولا يطمع فى مالك من غير خيانة ؛ وأن لا يقدم عليك من دونك ، ولا يمكن منك عدواً . عهد ملك إلى ابنه فقال : انك لن تصل إلى إحكام ماتريده من تدبير ملكك إلا بمعونة وزرائك وأعوانك ؛ فأعنهم على طاعتك بمباشرتك ؛ وعلى معونتك بمساعدتك . والثالث من حقوقك عليه : أن يحفظك فى منزلتك فى أربعة أشياء : أن لايرتاب بباطنك وظاهرك سليم؛ فيؤاخذك بالظن ويعجز عن دفعه باليقين ، فليس يؤاخذ بضمائر القلوب إلا علام الغيوب . قيل لكسرى بن قباذ : إن قوماً من خواصك قد فسدت سرائرهم . فوقع: أنا أملك الاجساد دون النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضى ، وأفحص عن الاعمال لا عن السرائر . والثانى أن لا يستبدل بك ونظرك مستقيم ، فتقل ثقتك ويضعف نشاطك ، ولا تجد من نفسك نهوضا بما كلفك ؛ فان دواعى الطبع أبلغ من مصنوع التكلف ؛ وقد اتخذك لاستقامة وجدها بك ، فاذا أضاع حقك بالاستبدال ظلم نفسه وكان من غيرك على خطر . وقد قال كسرى : الوزارة أبعد الأمور من أن تحتمل غير أهلها ، لأن الوزير من الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، لأنه مغلق الابواب مستور عن الأبصار . ليحفظه فى أمواله ، ويستر خلله فى أفعاله ، وحقيق بمن كان بهذه المنزلة أن يكون محفوظاً وملحوظا . والثالث

أن لا يؤاخذك بدرك ما جره القضاء وساقه القدر؛ فيجعلك غرضاً فى معارضة خالقه ، وهل أنت فيه إلا كمثله فكيف تكون أفعال الله ذنوبا لعباده . وقد قال بعض الحكماء : الأمور تطلب بالعناء وتدرك بالقضاء . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله تعالى انفاذ قضائه وقدره سلب ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاؤه وقدره » . والرابع : ان لا يحملك ما ليس فى قدرتك ؛ ولا يكلفك ما ليس فى طاقتك ؛ فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وما ذلك إلا من دواعى التجنى ومبادى التنكر . قال حكيم الروم : أول ما يبتديء تغير الملك فى العين ، فاذا ازداد خرج إلى اللسان ، فاذا ازداد خرج إلى اليد . فقد وضح بهذه الجملة مقابلة حقوقك عليه بحقوقه عليك . وقد قال المعتصم : من طلب الحق بما عليه أدركه ، غير أن حقوقك عليه موضوعة على المؤاخذة بأقلها ، لاستطالته عليك بالقدرة وقصورك عنه بالنيابة ؛ فكن على ما اقتضاه مناب الوزارة ، واعطه ما استحقه بسلطان الملك ، فينجح سعيك له إكداء سعيه عليك . وقد وصف موبذان موبذ في كتاب الملوك فقال : هم ، أعينهم المصونة عندهم ؛ وآذانهم الواعية ؛ وألسنتهم الشاهدة ، لأنه ليس أحد أسعد من وزراء الملوك إذا سعدت الملوك ، ولا أقرب إلى الهلكة من وزراء الملوك إذا هلكت الملوك ، فترفع التهمة عن الوزراء اذا صارت نصائحهم للملوك نصائحهم لأنفسهم ؛ ويعظم اليقين بهم حين صار اجتهادهم للملوك اجتهادهم لانفسهم ، فلا تتهم روح على جسد ولا يتهم جسد على روح ، لأن زوال إلفهما زوال نعمتهما ، والتئام إلفهما صلاح صاحبهما .

وأما حذرك من الزمان : فانه يتقلب بألوانه ، ويخشن بعد ليانه ، فيسلب ما أعطى ، ويفرق ما جمع . وقد روى أبو حازم عن أبى بكر رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « انظروا دور من تسكنون ، وأرض من تزرعون ، وفى طرق من تمشون » . وقال بعض الحكماء : الدنيا

ان بقيت لك لم تبق لها . وقيل في منثور الحكم : من عتب على الزمان طالت معتبته ، ومن لم يتعرض للنوائب تعرضت له . وقال بعض البلغاء : ان الدنيا تقبل اقبال الطالب ؛ وتدبر ادبار الهارب ؛ لا تبقى على حالة ولا تخلو من استحالة ؛ تصلح جانبا بافساد جانب ؛ وتسر صاحبا بمساءة صاحب ؛ فالكون فيها خطر ، والثقة بها غرر . وقد قال قيس بن الخطيم :

ومن عادة الايام أن صروفها   إذا سر منها جانب ساء جانب

وحذرك من زمانك يكون من أربعة أوجه :

أحدها : أن لا تثق بمساعدته ، ولا تركن إلى مياسرته ، فتغفل عن الحذر والاستعداد ، فربما انعكس فافترس ، وخافض فاختلس . وقد قيل : للدهر صروف ، لست عنها بمصروف . قال أبو العتاهية :

ان الزمان وان ألا   ن لأهله لمخاشن
فخطوبه المتحركا   ت كأنهنّ سواكن

والوجه الثانى : أن تنتهز فرصة مكنتك ، بفعل الجميل وغرس الصنائع ، واسداء العوارف . ليكونوا لك ذخراً فى النوائب ، وخلفاً فى العواقب ، ولايلهيك استكفاؤك عن الاستظهار ، ولايمنعك استغناؤك عن الاستكثار . فقد قيل : المرء ابن يومه ، فليتنبه من نومه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اغتنم خمساً قبل خمس . شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل عدمك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .
وقال سعيد بن سلم :

إنما الدنيا هباة   وعوار مسترده
شدة بعد رخاء   ورخاء بعد شده

والوجه الثالث : أن تكف نفسك عن القبيح ؛ وتقبض يدك عن الاساءة ؛ لتكفى رصد الترات ، وغوائل الهفوات ، فتأمن من وجلك ؛ وتسلم

من زللك . ولا تتطاول بالقدرة ، فتغفل وأنت مطلوب ، وتأمن وأنت مسلوب . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . وقيل فى بعض الصحف الاولى : ويل للأثمة لأن الشقاء لازم لهم إلى يوم وفاتهم ، والأب الأثيم يلعنه بنوه إذا كانوا صالحين ، لأنهم يعيرون به . وقال بعض الحكماء : باعتزالك الشر يعتزلك ، وبالنصفة يكثر الواصلون . وقال مضرس بن ربعى : وهو من الأمثال السائرة :

الخير أبقى وان طال الزمان به   والشر أخبث ماأوعيت من زاد

والوجه الرابع : ان تستعد لآخرتك ، وتستظهر لمعادك ، ولاتغتر بالأمل فيجئك الفوت ، ولاتلهك الدنيا فتصدك عن الآخرة ، فقل من لابسها فسلم من تبعاتها لهفوات غرورها ، وعواقب شرورها . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » . وقيل فى منثور الحكم : طلاق الدنيا مهر الجنة ، فكفر معاصيها بالتوبة ، واجبر مساويها بالطاعة ، ولاتضيع حظك فيها ، ولاتنس نصيبك منها ، واحسن كما احسن الله اليك . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « الناس غاديان ، فغاد نفسه فمعتقها ، وموثق نفسه فموبقها » . روى ابو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « على كل مسلم صدقة . قالوا : فان لم يجد . قال : يعين ذا الحاجة الملهوف . قالوا : فان لم يفعل . قال : يأمر بالمعروف وينه عن المنكر . قالوا : فان لم يفعل . قال . يمسك عن الشر فانها صدقة »

واما الحذر من أهل الزمان : فلأن الأنسان محسود بالنعمة ، مغبوط بالسلامة ، والناس على اربعة اطوار متباينة

احدها : خير عاقل يسالم بخيره ويساعد بعقله ، فالظفر به سعادة والاستعانة به توفيق ؛ فاجتهد ان لايفوتك - وإن كان قليل الوجود -

لتحظى بخيره و تسعد بعقله . وقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . وقال بعض الحكماء : من خير الاختيار صحبة الاخيار ، ومن شر الاختيار صحبة الاشرار ، وقل ان يكون العاقل الخير إلا متحليا بالعلم متزينا بالأدب . وقد قال بعض الحكماء : لاأدب الا بعقل ، ولا عقل إلا بأدب ، ومثلهما كمثل الروح والجسد فالجسد بغير روح صورة ، والروح بغير جسد ريح ، فاذا اجتمعا قويا فنهضا وانهضا ، فاذا أظفرك الزمان بمن تكاملت فضائله ، وتهذبت خصائله ، فاتخذه ذخيرة نوائبك ، وعدة شدائدك ، تجده كفيل صلاحها وزعيم نجاحها . قال الحواريون لعيسى بن مريم عليه السلام : من نجالس ؟ قال: من يزيد فى علمكم منطقه ، ويذكركم الله رؤيته ، ويرغبكم في الآخرة عمله .

والطور الثانى . شرير جاهل يضر بشره ويضل بجهله ، فاحذر مخالطته فهى اعم من السم ، وانفذ من السهم . فشره بجهله منتشر يضعف ان تورك ، ويقوى ان شورك ؛ فاكفف شره بالابعاد ، ولاتقره بالتقريب ، فيلحقك بضرري شره وجهله . وقد قيل فى منثور الحكم : من الجهل صحبة ذوى الجهل . وقيل فى بعض اسفار بنى اسرائيل : ابعد عن الجاهل لتجد الراحة ، فان حمل الرمل والملح والحديد اسهل من المثوى مع الرجل الجاهل ؛ وضرر الجهل اعم من ضرر الشر ؛ لأن قانون الشر معلوم ؛ وقانون الجهل غير معلوم . وقد قيل : الجاهل مفرط أو مفرط

والطور الثالث : خير جاهل يسالم بخيره ويضل بجهله ، فقارنه ان شئت لخيره ولاتستعمله لجهله . لتكون بخيره موسوما ، ومن جهله سليما . فقد قال عبد الحميد : لكل شئ لباب ولباب النفوس الألباب

والطور الرابع : شرير عاقل وهو الداهية المكر ، يستعمل فى الخطوب اذا حزبت على حذر من مكره ، ويتارك فى الدعة على استدفاع شره . وقد

روى عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ان الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر » . ومثل هذا يستكفي بمؤونة تمده ؛ ومراعاة ترضيه ، فانه كالسبع الضاري ان اجعته هاج ؛ وإن أشبعته لان ، ليكون مذخورا للحاجة . فان للزمان خطوبا لاتدفع الا بشرار اهله . كما قال حذيفة بن اليمان لرجل : أيسرك ان تغلب شر الناس ؟ قال : نعم ! قال : انك لن تغلبه حتى تكون شرا منه . فتعده لخطوب الشر اذا طرقت فانه بها اخبر ؛ وعلى دفعها أقدر ؛ ولأهلها اقهر ؛ فان الحديد بالحديد يفلح . ويستكف الى جنبها بما يدفع بادية شره ؛ ويقطع غائلة مكره ؛ وان كانت ضراوة الشر أجذب ، فطباع النفوس اغلب . وقد قال بعض الحكماء : مخالطة الاشرار خطر ، والصبر على صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم بدنه من التلف فيه ، لم يسلم بقلبه من الحذر منه . فان وجدت من هذا الداهية فتورا فى همته ، وقصورا فى منته ؛ كانت سراية مكره انزر ؛ وتأثيره فى الخطوب ايسر . وان كان عالى الهمة قوي المنة يتطاول الى معالى الامور ، كانت سراية مكره أوفر ، وتأثيره فى الخطوب اكثر . فاعطه فى كل حال من أمريه من الحذر والسكون ؛ بحسب ماتقتضيه همته وتبعث عليه منته ، ليكون قانونك مستقيما ؛ ومن دهاء مكره سليما ؛ لا ينالك خور من سرف ، ولا استرسال من تقصير ، قد جعل الله لكل شئ قدرا . فهذا تفصيل ما اشتمل عليه العقد والحل والله أعلم

فصل

(التقليد والعزل)

واما تفصيل مااشتمل عليه التقليد والعزل ؛ وهو الشطر الثانى . فالتقليد على ضربين : تقليد تقرير ؛ وتقليد تدبير . فاما تقليد التقرير فهو فيما يستأنف

انشاء قواعده ، ويبتدئ تقرير رسومه ، وهو على ثلاثة اقسام

احدها : أن يكون فى خاص يقدر الوزير على مباشرته ، فالوزير اخص بتقريره واحق بتنفيذه . لأنها اصول مؤبدة من خواص نظره ، فان قلد عليها واستناب فيها كان تقصيرا منه فيما جل ، ومعذورا فيه ان قل . ولم يكن لمن قلده تنفيذ تقريره الا عن اذنه ، وإلا كان عزلا خفيا . لأنه يصير ملتزما وقد كان ملزما ، ومحكما وقد كان حاكما

والقسم الثانى : ان يكون التقليد فيما بعد عنه ويمكن استيماره فيه ، فيجوز أن يستنيب فى تقريره ويكون موقوفا على امضاء الوزير وتنفيذه . ولا يجمع المستناب بين الأمرين ليكون التقليد مقصورا على التقرير والتنفيذ ؛ كان فيه متجوزا إلا أن يؤمر به فيصير الأمر متجوزا إلا عن اضطرار يزول معه حكم الاختيار

والقسم الثالث : ان يكون التقليد فيما بعد عنه ويتعذر استيماره فيه ، فيجوز ان يستنيب فيه من يجمع بين تقريره وتنفيذه ، اذا تكاملت فيه ثلاثة شروط : احدها الكفاية التى تنهض بما فى التقرير . والثانى : الهيبة التى يطاع بها فى التنفيذ . والثالث : الامانة التى تكف عن الاسترشاء والخيانة . بعد تكامل الشروط المعتبرة فى جميع الولايات وهى ثلاثة : العقل والديانة والمروءة . فلا فسحة فى تقليد من اخل بأحدها لقصوره عن حقها وخروجه من اهلها . وانما يختلف ماسواها باختلاف الولايات وإن كانت هذه مستحقة فى جميعها . وقد قال كسرى ابرويز : من اعتمد على كفاة السوء ؛ لم يخل من رأى فاسد ، وظن كاذب ، وعدو غالب . وقد قال بعض الحكماء : لاتستكفين مخدوعا عن عقله ؛ والمخدوع من بلغ به قدر لايستحقه ، وأثيب ثوابا لايستوجبه

واما تقليد التدبير : فهو النظر فيما استقرت رسومه وتمهدت قواعده

وهو مشترك بين الوزير وبين الناظر فيه : لكن يختص الوزير بمراعاته ، والناظر بمباشرته . وهو ضربان : احدهما تدبير الاجناد ، والثانى تدبير الاموال

فاما تدبير الاجناد فلا يستغني الوزير عن تقليد سفير فيه ؛ وإن كانوا يلاقونه ليحفظ بالسفير حشمة وزارته ؛ ولا يقف اغراض اجناده ؛ وقد انصان عن لغط كلامهم وجفوة طباعهم . والاغلب على تدبيرهم الرأي والسياسة فيعتبر فى المختار لهذا التقليد ستة شروط : احدها الهيبة التى تقودهم الى طاعته ؛ لأنه يقوم بتدبير ذوي سطوة فاحتاج معهم الى قوة الهيبة : والثانى ان يكون من ذوي الرأي والسياسة ؛ ليقودهم برأيه الى الصواب وتوقفهم سياسته على الاستقامة : والثالث ان يكون متوصلا الى استعطاف القلوب واجتماع الكلمة ؛ ليسلموا من اختلاف او منافرة : والرابع ان يكون بينه وبين الاجناد ، مناسبة فى الطباع ومشاكلة فى الاخلاق ، يمتزجون بها فى الموافقة ولايختلفون فيها بالمباينة : والخامس ان يكون سليم الباطن صحيح المعتقد ، لأنه يصير اخص بهم ويصيرون اطوع له : والسادس ما اختلف باختلاف الحال ، فان كان فى زمان السلم اعتبر فيه الأناة والسكون ، وان كان فى زمان الحرب اعتبر فيه الاقدام والسطوة ؛ ليكون مطبوعا على مايضاهي حال زمانه . فقد قيل : خير السجايا ما وافق الحاجة . فاذا ظفر بمن استكملها ـ وبعيد أن يظفر به إلا ان يعان بالتوفيق ـ وجب تقليده ؛ ولزمت مناصفته فى الحقوق التى له وعليه ليدوم ويستقيم . وقد قيل في منثور الحكم : من قضيت واجبه أمنت جانبه . وقيل : اغن من وليته عن الخيانة ، فليس يكفيك من لم تكفه

واما تدبير الاموال : فالوزير يصان عن مباشرتها ؛ وانما يحفظ دخلها بالهيبة والاستظهار ؛ ويضبط خرجها بالحاجة والاضطرار . وللتقليد على كل واحد منهما شروط

فأما شروط التقليد على مباشرة دخلها ؛ فخمسة شروط : احدها ان يكون مطبوعا على العدل ، لينصف وينتصف : والثانى ان يكون متدينا بالامانة ؛ ليستوفى ويوفى : والثالث ان يكون كافيا ، ليضبط بكفايته ولا يضيع بعجزه : والرابع ان يكون خبيرا بعمله ؛ يعرف وجوه موارده واسباب زيادته : والخامس ان يكون رفيقا بمعاملته غير عسوف ولا اخرق . حكى ان الاسكندر كتب الى معلمه ليستشيره فى عماله . فكتب اليه : من كان له عبيد فأحسن سياستهم فوله الجند ، ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج . ووصف عمر بن عبدالعزيز زياداً فقال : كان يجمع جمع الذرة ، ويحنو حنو الام البرة . وهذه احسن سيرة لعامل ، وألطف حالة لمعامل ، يحظى به من ولاه ويسعد به من ولى عليه . وبمثلها يعم الصلاح وتتم الاستقامة

واما شروط التقليد على مباشرة خرجها بعد الامانة التى هى مشروطة فى كل ولاية ، فمعتبرة باحوال الخرج . وينقسم ثلاثة اقسام : احدها ما كان راتبا عن رسوم مستقرة كأرزاق الجيوش ؛ فللتقليد عليه شرطان ، معرفة مقاديرها ، ومعرفة مستحقيها : والقسم الثانى ما كان عارضا عن أمور تقدمتها ، والناظر مأمور بها كالصلات وحوادث النفقات ، فللتقليد عليه شرطان ، وقوفها على الأوامر ؛ ومعرفة اغراض الآمر : والقسم الثالث ما كان عارضا فوض الى رأي الناظر ووكل الى تقريره ، كالمصالح والنفقات والتقليد عليه او فى شروطها ، لوقوفها على اجتهاده وتقديره ؛ فيحتاج مع الامانة الى ثلاثة شروط ، احدها معرفة وجوه الخرج حتى لا يصرف فى غير حق ، والثانى الاقتصاد فيه حتى لا يفضى الى سرف ولا تقصير ، والثالث استصلاح الاثمان والاجور في غير تحيف ولا غبن

....

فصل

(فى العزل)

وأما العزل فضربان :

أحدهما : ما كان من غير سبب فهو خارج عن السياسة . لان للافعال والاقوال أسباباً إذا تجردت عنها كان الفعل عبثاً ، والكلام لغواً لا يقتضيه رأى حصيف ، ولا توجبه سياسة لبيب . وقد قيل : العزل أحد الطلاقين . فكما أنه لا يحسن الطلاق لغير سبب كذلك لا يحسن العزل لغير سبب . وإذا لم يثق الناظر باستدامة نظره مع الاستقامة عدل عنها إلى النظر لنفسه ، فعاد الوهن على عمله وما يكون هذا العزل إلا عن فشل أو ملل . وقيل : ليس جزاء من سرك أن تسوءه . وقال بعض الحكماء : من حسن وداده قبح استفساده.

والضرب الثانى : أن يكون العزل لسبب دعا اليه . وأسبابه تكون من ثمانية أوجه . أحدها أن يكون سببه خيانة ظهرت منه ، فالعزل من حقوق السياسة مع استرجاع الخيانة والمقابلة عليها بالزواجر المقومة ؛ ولا يؤاخذ فيها بالظنون والتهم . فقد قيل : من يخن يهن . والوجه الثانى أن يكون سببه عجزه وقصور كفايته ، فالعمل بالعجز مضاع . وقد قيل العجز نائم والحزم يقظان . وهو نقص فى العاجز . وان لم يكن ذنباً فلا يجوز فى السياسة إقراره على العمل الذي عجز عنه ، ثم روعى عجزه بعد عزله ، فان كان لثقل ماتقلده من العمل، جاز أن يقلد ما هو أسهل . وان كان لقصور منته وضعف حزمه لم يكن أهلا لتقليد ولا عمل . وقد روي عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انه قال : لا تلزموا أنفسكم حق من لم يلزم نفسه حقكم . والوجه الثالث أن يكون سبب اختلال العمل من عسفه أو من خرقه ؛ فهذا العمل زائد على الكفاية وخارج عن السياسة ، والوزير المقلد فيه بين خيارين . إما أن يعزله بغيره

و إما أن يكفه عن عسفه و خرقه ان كف ؛ و يجوز أن يكون مرصداً لتقليد ما تدعو السياسة فيه إلى العسوف لمن شاق و نافر . فقد قيل : لـكل بناء اس و لكل تربة غرس . و الوجه الرابع أن يكون سببه انتشار العمل به من لينه و قلة هيبته ، فهذا السبب موهن للسياسة و الوزير فيه بين خيارين . إما أن يعزله بمن هو أقوى و أهيب ، و اما أن يضم اليه من تتكامل به القوة و الهيبة، و خياره فيه معتبر بالاصلاح. و يجوز أن يقلد بعد صرفه ما لا يستضر فيه بضعفه . و قد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا خير فى معين مهين و لا فى صديق ضنين . و الوجه الخامس أن يكون سببه فضل كفايته و ظهور الحاجة اليه فيما هو أكثر من عمله ، فهذا أجمل وجوه العزل و ليس بعزل في الحقيقة ، و إنما هو نقل من عمل إلى عمل هو أجل منه ، فصار بهذا العزل زائد الرتبة . وقد قال بعض البلغاء : الناس فى العمل رجلان ؛ رجل يجل به العمل لفضله و رياسته. و رجل يجل بالعمل لنقصه و دناءته . فمن جل به العمل ازداد تواضعاً و يسراً ، و من جل بالعمل ازداد به شرفا و كبراً . و الوجه السادس أن يكون سببه وجود من هو أكفأ منه ، فيراعى حال الأكفاء . فان كان فضل كفايته مؤثراً في زيادة العمل به كان من لوازم السياسة ، و لم يسغ فيها إقراره على عمله . و إن لم يؤثر في زيادة العمل كان عزل الناظر من طريق الأولى في تقديم الأكفاء ، و تخير الأعوان . و إن جاز في السياسة إقرار الناظر على عمله لنهوضه به . وقد قيل : اذا ذهب المميز هلك المبرز . و الوجه السابع أن يكون سببه أن يخطب عمله من الكفاة من يبذل زيادة فيه ؛ فلا يجوز عزله ببذل الزيادة حتى يكشف عن سببها ، فربما يخرجه بها الباذل لرغبة فى العمل أو لعداوة فى العامل . فان لم يظهر لها بعد الكشف موجب لم يجز فى السياسة عزله بهذا البذل الكاذب . وكان الباذل جديراً بالابعاد لابتدائه بالأفعال . فان ظهر موجب الزيادة لم يخل من ثلاثة أقسام : أحدها أن يكون لتقصير

الناظر فيجب عزله . و الوزير بعد عزله بين خيارين : إما أن يقلد الباذل ، أو يقلد غيره من الكفاة : و القسم الثانى أن يكون موجبها فضل كفاية الباذل ، فيجب عزله بالباذل دون غيره : و القسم الثالث أن يكون سببها عسف الباذل و خرقه ؛ فلا يجوز فى السياسة عزل الناظر و لا تقريب الباذل ، فربما مال الى الزيادة من تعاصى عن العزل فعزل ، و قلد فصار هو العاسف المجازف. و الوجه الثامن أن يكون سببه أن الناظر مؤتمن فيخطب عمله ضامن ؛ فتضمين الأعمال خارج عن قوانين السياسة العادلة ، لأن المؤتمن عليها اذا كان كافياً استوفى ما وجب ، وكف عما لم يجب ، و هذا هو العدل . و الضامن إن ضمنها بمثل ارتفاعها لم يؤثر ، و إن ضمنها بأكثر منه تحكم في عمله وكان بين عسف أو هرب ؛ كأنه ضمن ليغنم لا ليغرم . حكى أن المأمون : عزم على تضمين السواد و عنده عبيدالله بن الحسن العنبري القاضى . فقال له : ياأمير المؤمنين : إن الله تعالى قد دفعها اليك أمانة ، فلا تخرجها من يدك قبالة . فعدل عن الضمان

فهذا تفصيل ما تعلق بوزارة التفويض من عقد و حل و تقليد و عزل .

فصل

(وزارة التنفيذ)

و أما وزارة التنفيذ : فهى أخص ، لقصورها عما اشتملت عليه وزارة التفويض واختصاصها من عموم التفويض بأربعة قوانين :

فالفصل الاول من قوانينها : السفارة بين الملك و أهل مملكته ، لأن الملك معظم بالحجاب ، مصون عن المباشرة بالخطاب ، فاقتضى أن يختص بسفير محتشم ؛ و وزير معظم ، يطاع فيما يورده عنه من الاوامر و النواهى ، و يهاب فيما يتحمله اليه من المطالب و المباغى ؛ ليكون للملك لساناً ناطقاً ، و أذناً واعية.

وهذه السفارة مختصة بخمسة أصناف. أحدها : السفارة بين الملك وأجناده، فيحملهم على أوامره ونواهيه ويتنجز لهم من الملك ما استوجبوه وسألوه؛ ويحتاج فى سفارته معهم إلى أن يجمع بين اللين والعنف، والخشونة واللطف، لانقيادهم إلى طاعته بالرغبة والرهبة . والثانى السفارة بين الملك وعماله، فيستوفى نظارة الاعمال ويتصفح أحوال العمال ليستدرك خللا ان كان ويستديم صلاحاً إن وجد؛ ويحتاج فى هذه السفارة إلى استعمال الرهبة خاصة ليكفهم عن الخيانة ويبعثهم على الامانة. والثالث السفارة بين الملك ورعيته ليتصدى بانصافهم؛ ويصغى إلى ظلاماتهم، فيمضى ما تيسر له وينهى ما تعسر عليه. ويحتاج فى هذه السفارة إلى استعمال اللين واللطف، ليصلوا إلى استيفاء الظلامة، ويستدفعوا ذل الاستضامة. والرابع السفارة فى استيفاء حقوق السلطنة التي للملك وعليه من غير مباشرة قبض ولا تنقيص. ويحتاج في هذه السفارة إلى الرهبة فيما يستوفيه للملك، والى اللطف فيما يتنجزه من الملك. والخامس السفارة فى اختيار العمال ومشارفة الاعمال، لينهى حال من يرى تقليده وعزله من غير أن يباشر تقليداً ولا عزلا، لأن التقليد والعزل داخل فى وزارة التفويض وخارج عن وزارة التنفيذ، والملك هو الذي يأمر بالتقليد والعزل ان لم يباشره. وشروط هذه السفارة: أن يكون جيد الحدس، صحيح الاختيار، قليل الاغترار، عارفا بكفاءة العمال، ومقادير الاعمال، ليحمد اختياره ويقل عثاره.

فصل

(الرأى والمشورة)

والفصل الثانى من قوانين هذه الوزارة: أن يمد الملك برأيه ومشورته، فان الملك مع جزالة رأيه وصحة رويته محجوب الشخص عن مباشرة

الأمور. فصار محجوب الرأى عن الخبرة بها . فاحتاج الى بارز الشخص بالمباشرة، ليكون بارز الرأى بالخبرة. فليس الشاهد كالغائب؛ ولا المخبر كالمعاين، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: « ليس الخبر كالمعاينة ». والوزير أخص بهذه المرتبة ، فكان أحق بالرأى والمشورة. وذكر فى كتب الفرس: إن للوزير على الملك ثلاثاً: رفع الحجاب عنه، واتهام الوشاة عليه، وافشاء السر اليه. وقيل في حكمة آل داود: الفضة والذهب يثبتان القدم، وأفضل منهما المشورة الصالحة. وللوزير أن يستشير فيما يشاور فيه الملك اذا لم يكن سراً مكتوماً. وليس لغير الوزير أن يستشير فيما يستشار لوقوع الفرق بينهما من وجهين. أحدهما: أن الوزير مختص من مصالح الملك بما يقصر عنه من عداه، فلزمه من الاستظهار مالا يلزم من سواه. والثانى: ان استشارة الوزير عائدة الى مصالح الملك فعمت، واستشارة غيره عائدة الى رأيه فخصت، ويختلف أهل الشورى باختلاف الأرب المقصود. كما قال الحكماء: شاوروا الشجعاء فى أولى العزم، والجبناء فى اولى الحزم؛ لتخرج من معرة تقصير الجبان، وتهور الشجعان، ويتخلص لك من الرأيين نتيجة الصواب. وللوزير فى المشورة حالتان. احداهما: ان يبتدئه الملك بالاستشارة، فيلزمه ان يشير برأيه فيها سواء اختصت بملكه او تعدته الى غيره. وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه: ربما اخطأ البصير قصده؛ واصاب الاعمى رشده. وعلى الوزير فيها حقان. احدهما اجتهاد رأيه في فى ايضاح الصواب. والثانى ابانة صحته بتعليل الجواب، ليكن محتجا فيكفى توهم الزلل ويسلم من مظنة الارتياب. والحال الثانية: ان يبتدئ الوزير بالمشورة على الملك، فله فيها حالتان. احداهما ان لا يتعلق بمشورته اجتلاب نفع ولا استدفاع ضرر فهذا تجوز من الوزير وتبسط على الملك ان انكره فبحقه، وان احتمله فبفضله. فقد قيل: كثرة النصح تهجم على سوء الظن.

و الثانية ان يتعلق بمشورته اجتلاب نفع واستدفاع ضرر ، فان اختص بالمملكة كان من حقوق الوزارة وإن جاوزها كان من نصح الوزير . وعليه أن يذكر سبب ابتدائه ويوضح صواب رأيه ، وإذا استقر الاحزم على ماقتضاه الرأى لزمه فيما يؤدى به من الاستشارة ويبدى به من المشورة أن يكتمه على كل خاص وعام لأمرين . احدهما : ان الرأى يجب أن يظهر بالأفعال دون الاقوال لأن ظهوره بالفعل ضرر وظهوره بالقول خطر . وقد قيل : من وهن الأمر إعلانه قبل احكامه . والثانى : أنه من أسرار الملك الذى يجب أن تكتم في الصدور وتصان فى الظهور للجمع بين تأدية الامانة وطلب السلامة ، فان فى إفشاء أسرار الملك خطراً به و بمن أفشاها . وقد قيل : كشف الاسرار من شيم الاشرار . فلذلك قيل : الواقية خير من الراقية . ولقل ماتعفوا الملوك عمن يفشى أسرارها ، لتردده بين خيانة وجناية . وأحسن أحواله فيها ان سلم أن يغض عنه فيذل أو يخفي فيقل . وقد قيل فى بعض أسفار بنى اسرائيل : لسان الجاهل وقلبه واحد . وقيل فى منثور الحكم : لسان الجاهل مفتاح حتفه . ولذلك قيل : صدور الاحرار قبور الاسرار . وقد يسعد بكتم أسرارهم من تعرى عن غيره من الفضائل ، وتجرد عما سواه من الوسائل ، لأنه قد صار خازناً لأهل الذخائر ، ومؤتمناً على أنفس الودائع ؛ إذا سلم من الادلال بها . فلن تزل الاقدام عند الملوك بمثل الادلال . ولقل مدل سلم من ذل . ولأن تزداد انقباضاً إذا بسطه فتزداد اكراماً أولى بذى الحصافة من ضدها . وقد قيل : من بسطه الادلال قبضه الاذلال . وقد قيل فى منثور الحكم : إذا زادك الملك تأنيساً فزده اجلالا .



فصل

(عناية الوزير بالملك)

والفصل الثالث من قوانين هذه الوزارة : أن يكون عيناً للملك ناظرة وأذناً سامعة ، ينهى ما شاهد على حقه ؛ ويخبر بما سمع على صدقه ؛ لأنه قد سوهم بالملك وميز بالاختصاص وندب للصالح . فلزم أن يتخصص بمصالح الملك ؛ فيقوم مقامه فى مشاهدة ما غاب وسماع ما بعد لتقدمه على من سواه ، وعليه في ذلك ثلاثة حقوق . أحدها : أن يديم الفحص عن أحوال المملكة حتى يعلم ما غاب كعلمه بالحاضر ؛ ويعلم ما خفي كعلمه بالظاهر ؛ فلا يتدلس عليه حق أمر من باطله ، ولا يشتبه عليه صدق قول من كذبه . فقد قيل : الحق أبلج و الباطل لجلج ، فان قصر فيها حتى خفيت أو استرسل فيها حتى تدلست كان مؤاخذاً بجرم التقصير وجريرة الضرر . و الثانى : أن لا يعجل مطالعة الملك بها ولا يؤخرها ـ وإن جاز تأخير العمل بها لأن عليه الانهاء ، وليس عليه العمل . وقد قيل فى حكمة آل داود عليه السلام : الذى يكتم جهله ؛ خير من الذى يكتم حكمته . وإذا كان منه بمنزلة عينه الناظرة وأذنه السامعة التى يتعجل العلم بها ، وجب أن يجري معه على حكمها ليستدرك الملك ما يجب تعجيله ، ويقدم الرؤية فيما يجوز تأخيره ، فان أخر الوزير اعلام الملك بها وقد حسم ضررها كان للنصيحة مؤدياً ؛ ومن الملك على وجل . ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض فى قيامه بتدبيرها دون المطالعة بها ، لأن ذلك مقصور على الانهاء وذلك مندوب للعمل . والثالث : يوضح له حقائق الامور ويساوى فيها بين الصغير و الكبير ، ولايمايل قريباً ولايتحيف بعيداً ، ولا يعظم من الامور صغيراً ولا يصغر منها عظيما ، فان من خاف

من صغار الامور أن تصير كباراً أو من كبارها أن تعود صغاراً ، أخبر بحقائقها فى المبادىء مخبراً ، وفى الغايات مشيراً . فان أخبر بالغايات وأعرض عن ذكر المبادىء ، كان تدليساً لخبره بمشورته ، فلم يؤد الامانة فى خبره ، وان لم يكن فى مناصحته . فكان بالانكار حقيقاً والذم جديراً . وقد قيل : رب صبابة غرست من لحظة ، وحرب جنيت من لفظة .

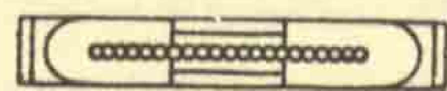
فصل

(حرصه على مصالح الملك)

والفصل الرابع من قوانين هذه الوزارة : أن يفتدي راحة الملك بتعبه ، ويقي دعته بنصبه ، ولا يغيب إذا أريد ، ولا يسأم إذا أعيد ؛ لانه لسان الملك اذا نطق ، وعينه إذا رمق ، ويده إذا بطش ، فلا تبعد عن دعائه ، ولا تضجر من ندائه ، لأن عوارض الملك من هواجس أفكاره وتقلب خاطره . وقد يتجدد مع الاوقات مالا يعرف أسبابه ، ولا تتعين أوقاته . فليكن على رصد منها حتى لا تقف به أغراض الملك فيفضى إلى نفور أو ضجر ، وهو من كل واحد منهما على خطر . لأنه قد يؤاخذ بالجريرة قبل ظهورها ؛ ويعاقب على الصغيرة مثل كبيرها ، إذا حكم بالهوى ووثب بالقدرة. ومن هذا الوجه خالف وزير التفويض الذي يجوز أن يتأخر بمباشرة الامور ؛ عن مُواصلة الحضور . وهذا الوزير مقصور على الحضور دون العمل فصار هذا أكثر نقلا ؛ وذلك أكثر عملا . وربما مل الملازمة فأعقبته أسفاً إذا فارقها ، لأن فى ملازمته للملك نصبا يقترن بعز ، وفى متاركته راحة تؤول إلى ذل ؛ وهماماهما فى التباين . فليختر لنفسه ما وافقها من عز يجتذبه بالكد، او ذل يؤول اليه بالدعة . فانه إن صبر على اعادة الملك ظفر بارادته من الملك

وهو على الضمان ان خالفها . وقد قال أنوشروان : ما استنجحت الامور بمثل الصبر، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر . وقد قيل : من خدم السلطان خدمه الاخوان . فاطرد على هذا التعليل : ان من تنكر له السلطان خذله الاخوان . لأنه متبوع على تحكمه ، ومساعد على توهمه

فهذا ما اختص بقوانين وزارة التنفيذ بعد ما قدمناه من قوانين وزارة التفويض، ثم يختلفان فى اصل التقليد من ستة اوجه . احدها ان الملك يقلد وزير التفويض فى حقوقه وحقوق رعيته ، ويقلد وزير التنفيذ يمضيها بأوامر الملك وعن رأيه . والثانى أن وزارة التفويض تفتقر إلى عقد يصح به نفوذ أفعاله ؛ ووزارة التنفيذ لاتفتقر إلى عقد لانه فيها مأمور بتنفيذ ماصدر عن أمر الملك . والثالث ان وزير التفويض مأخوذ بدرك ماامضاه . والرابع ان وزير التفويض لاينعزل الا بالقول او مافى معناه دون المتاركة لانه قد تملكها بمباشرة الأمور : ووزير التنفيذ ينعزل بالمتاركة لأنه مأمور . والخامس أن وزير التفويض لاينعزل ان كف وترك حتى يستعفي الملك منها لأنه مستودع الاعمال فلزمه ردها الى مستحقها ، ووزير التنفيذ يجوز ان ينعزل بعزل نفسه بالكف والمتاركة لأنه لاشىء بيده فيؤخذ برده . والسادس ان وزارة التفويض تفتقر الى كفاية السيف والقلم لنهوضه بما اوجبهما ، ووزارة التنفيذ غير مفتقرة اليهما لقصورها عنهما ، وانما يعتبر فيها ستة اوصاف وهى معتبرة فى كل مدبر ذي رياسة . وهى : الأبهة ، والمنة ، والهمة ، والعفة ، والمروءة ، وجزالة الرأى . وقدكان اكثر وزراء الفرس وزراء تنفيذ ؛ واكثر وزراء ملوك الاسلام وزراء تفويض . ووزارة التفويض استسلام ، ووزارة التنفيذ استمداد



فصل

(فى الحقوق)

ثم تشترك الوزارتان بعد التمييز فى حقوق وعهود ، فاما الحقوق فثمانية احدها : أن يكون باعباء الوزارة ناهضاً ، وفى مصالح المملكة راكضا ، يقدم حظ الملك على حظ نفسه ، ويعلم ان صلاحه مقترن بصلاحه ، فلن تستقيم احوال الوزير مع اختلاف حال الملك لأن الفروع تستمد اصولها ولو استقامت لكان ميلها وشيكا . وقد قيل فى منثور الحكم : لاتقم بربع منتقم . والثانى : أن يكون على الكد والتعب قادرا ، وفى السخط والرضا صابرا ، لاينفر اذا اوحش فان نفوره عطب ـ وليتوصل الى راحته بالتعب والى دعته بالنصب ؛ ولذا قيل : علة الراحة قلة الاستراحة . وقال عبد الحميد: أتعب قدمك فكم تعب قدمك . فان تشاغل براحته ومال الى لذته ، سلبها بالتنكر ؛ وعدمها بالتغير ، فضاع واضاع ، وكان من امره على خطر وقد قيل فى منثور الحكم : على خطر من لم يخاطر فكيف بالمغرور المخاطر . وقد قيل فى بعض اسفار بني اسرائيل : الذى يحب الشهوات يبغض نفسه . والثالث : ان يكون لاحسان الملك شاكرا ، ولاساءته عاذرا ، يشكر على يسير الاحسان ؛ ويعذر فى كثير الأساءة ، ليستمد بالشكر احسانه . ويستدفع بالعذر اساءته . فان عدل عنهما كان منه على ضدهما . وقد قيل : احق الناس بالمنع الكفور ، وبالصنيعة الشكور . والرابع : ان يظهر محاسنه ان خفيت ويستر مساويه ان ظهرت ، لأنه بمحاسنه معلوم موسوم ، وبمساويه مقروف مرسوم ، يشاركه فى حمد محاسنه ، ويؤآخذ بذم مساويه . وربما استرسل الملك لثقته بالاحباب فارتكب بالهوى ما يصان عن اذاعته ، وكان الوزير احق بستره عليه ، لأنه الباب المسلوك اليه ، مسائر غير مجاهر . فقد

قيل : النصح بين الملأ تقريع . والخامس : ان يخلص نيته فى طاعته ، ويكون سره كعلانيته ؛ فان القلوب جاذبة تملك اعنة الاجساد ؛ فان اتفقا والا فالقلب اغلب ، وهو الى مراده اجذب ، كما قال الشاعر:

وما زرتكم عمدا ولكن ذا الهوى   الى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

فاخلص قلبك ليطيعك جسدك ، واحسن سريرتك لتحسن علانيتك ؛ فان القلوب تنم على الضمائر فتهتك استارها ؛ وتذيع اسرارها . وقد روى مجاهد عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى عليه وسلم : « فى ابن آدم مضغة اذا صلحت صلح الجسد ، واذا فسدت فسد الجسد ، ألا وهى القلب » . وقد قيل فى بعض صحف بنى اسرائيل : قلب الانسان يغير وجهه خيرا كان اوشرا . والسادس : ان لايعارض الملك فيمن قرب فاستبطن ولايماريه فيمن حط ورفع ، فانه يحكم بقدرته ؛ ويأنف من معارضته . فربما انقلب بسطوته اذا عورض ؛ ومال بانتقامه اذا خولف ، فبوادر الملوك تسبق نذيرها وتدحض أسيرها ، فان سلم من الخطر لم يسلم من الضجر ، ولو سلم منهما وهو نادر ـ فمقت المعارض مركوز فى الغرائز ، وكفى بالمقت عقبى . وقال بزرجهر : يجب للعاقل ان لايجزع من جفاء الولاة وتقديمهم الجاهل عليه ، إذ كانت الاقسام لم توضع على قدر الاخطار ، فان حكم الدنيا ان لا تعطى احدا مايستحقه ، لكن تزيده وتنقصه . والسابع : ان يتقاصر عن مشاكلة الملك فى رتبته ، ويقبض نفسه عن مثل هيئته ؛ فلا يلبس مثل ملابسه ، ولايركب مثل مراكبه ، ولا يستخدم مثل خدمه ؛ فان الملك يأنف ان موثل ، وينتقم إن شوكل ؛ ويرى أنها من أحواله المجتاحة ، وحشمته المستباحة ، وليعض عنها بنظافة لباسه وجسده من غير تصنع ؛ فان النظافة من المروءة والتصنع للنساء . ليكن بالسلامة محفوظا ، وبالحشمة ملحوظا . والثامن : ان يستوفى للملك ولايستوفى عليه ، ويتأول للملك ولا يتأول عليه ، فان الملك اذا

اراد الانصاف كان عدل اقدر ، وإن لم يرده فيد الوزير معه اقصر ، وإنما أراد الوزير عونا لنفسه ، ولم يرده عونا على نفسه ، فان وجد الى مساعدته سبيلا سارع اليها ، وإن خاف ضررها وانتشار الفساد بها تلطف فى كفه عنها ان قدر ؛ وإن تعذر عليه تلطف فى الخلاص منها ان قدر ، ولا يجهر بالمخالفة ماكان على رغبته فى النظر . سئل بعض حكماء الروم : عن اصلح ما عوشر به الملوك . فقال : قلة الخلاف وتخفيف المؤنة ، فلذلك لم تصحب الملوك إلا على اختيارهم ، ولم يتمسكوا إلا بمن وافقهم على آرائهم . وليس لمن خالفهم حظ منهم ، وإنما كان على خطر معهم ، واذا روعيت أحوال الناس وجدوا لا يأتلفون إلا بالموافقة فكيف بذوي القدرة من الملوك . وقد قال الشاعر :

الناس إن وافقتهم عذبوا   أولا فان جناهم مر
كم من رياض لا أنيس بها   تركت لأن طريقها وعر

وقال بعض الحكماء : حرز الناس ثلاثة : إلفة تجمعهم ، وطاعة تمنعهم ، ومناصحة تنفعهم . فانهم إن تفرقوا تفرقت أمورهم ، وإن عصوا ظهر نفورهم ، وإن لم يناصحوا وغرت صدورهم

فصل

(تابع العهود)

فأما العهود الموقظة ، فسأقول وأرجو أن يقترن بالقبول . اجعل أيها الوزير لله تعالى على سرك رقيباً يلاحظك من زيغ فى حقه ، واجعل لسلطانك على خلوتك رقيباً يكفك عن تقصير فى أمره ، ليسلم دينك فى حقوق الله تعالى ، وتسلم دنياك فى حقوق سلطانك ، فتسعد فى عاجلتك وآجلتك ، فان

تنافى اجتماعهما لك ، فقدم حق الله تعالى على حق الملك ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى» . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس » . وقال بعض الحكماء : كل امرئ يجري من عمره الى غاية تنتهى اليها مدة أجله ، وتنطوي عليها صحيفة عمله ، فخذ من نفسك لنفسك ، وقس يومك بأمسك . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يتمثل كثيراً بهذه الأبيات :

إنما الناس ظاعن ومقيم   فالذي بان للمقيم عظه
ومن الناس من يعيش سويا   ساهر الليل عامل اليقظه
فاذا كان ذا حياء ودين   حاذر الموت واستحى الحفظه

حق عليك أيها الوزير : أن تكون بالرعية خبيراً . والى أحوالهم متطلعاً ؛ وبهم على نفسك وعليهم مستظهراً ، لأنهم من بين من تسوسه أو تستعين به لتعلم ما فيه من فضل ونقص ، وعلم وجهل ، وخير وشر ، وتتحرز من غرور المتشبه ، وتدلس المتصنع ؛ فتعطى كل واحد حقه ، ولا تقصر بذي فضل ، ولا تعتمد على ذي جهل . فقد قيل : من الجهل صحبة ذوى الجهل ومن المحال مجادلة ذى المحال .

وافرق بين الأخيار والأشرار . فان ذا الخير يبنى ، وذا الشر يهدم .

واحذر الكذوب ؛ فان ينصحك من غش نفسه ، ولن ينفعك من ضرها . وقد قيل : من ضيع أمره فقد ضيع كل أمر ، ومن جهل قدره جهل كل قدر . ولا تستكفين عاجزاً فيضيع العمل ، ولا شرهاً فيضرك باحتجانه. وقد قيل : ليعد من البهائم من لم تكن غايته من الدنيا إلا نفسه . ولا تغنى بمن لا يحافظ على المروءة ؛ فقل ما تجد فيه خيراً لزهده فى صيانة نفسه ، وميله

الى خمول القدر . وبعيد ممن أسقط حق نفسه أن يقوم بحق غيره . وصعب على من ألف اسقاط التكلف أن يحول عنه . وقد قيل فى حكم الهند : ذوالمروءة يرتفع بها وتاركها يهبط ، والارتقاء صعب والانحطاط هين ، كالحجر الثقيل الذي رفعه عسير وحطه يسير . وقال بعض البلغاء : أحسن رعاية ذوى الحرمات ، واقبل على أهل المروءات ، فان رعاية ذوى الحرمة ، تدل على كرم الشيمة ، والاقبال على ذوي المروءة ، يعرب عن شرف الهمة

اختبر أحوال من استكفيته لتعلم عجزه من كفايته ؛ واحسانه من اساءته ، فتعمل بما علمت من اقرار الكافى ، وصرف العاجز ، وحمد المحسن ؛ وذم المسئ . وقد قيل : من استكفي الكفاة ؛ كفي العداة ، فان التبست عليك أمورهم . أوهنت الكافى ، وسلطت العاجز ؛ وأضعت المحسن ؛ وأغريت المسئ . ولأن يكون العمل غائباً فينصرف اليه فكرك ، أولى من أن يباشره عاجز أو خائن فيقبح بهما أثرك ، فاحذر العاجز فانه مضيع ، وتوق الخائن فانه يكدح لنفسه . وقال الشاعر :

اذا أنت حملت الخؤون أمانة — فانك قد أسندتها شر مسند

اقتصر من الأعوان بحسب حاجتك اليهم ، ولا تستكثر منهم لتتكثر بهم ، فلن يخلو الاستكثار من تنافر يقع به الخلل ، أوارتفاق يتشاكل به العمل، وليكن أعوانك وفق عملك ، فانه أنظم للشمل ، وأجمع للعمل ، وأبلغ للاجتهاد ، وأبعث على النصح . أنشدت لابن الرومى :

عدوك من صديقك مستفاد — فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه — يكون من الطعام أو الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير — يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات — وتلقى الرى فى النطف العذاب

هذب نفسك من الدنس ؛ تتهذب جميع أتباعك . ونزه نفسك عن

الطمع ؛ تتنزه جميع خلفائك . وتوق الشر فلن يزيدك إلا حرصاً إن أجدبت ، ونقصاً إن أكديت ، وهما معرة ذوى الفضل ، ومضرة أولى الحزم . وقد قيل : بحمدك لا بكفرك . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اقتربت الساعة ؛ ولا يزداد الناس فى الدنيا إلا حرصاً ، ولا تزداد منهم إلا بعداً » وقال محمود الوراق :

لا يغلبنك غالب الحرص — واعلم بأن الناس فى نقص
ألبس أخاك على تصنعه — فلرب مفتضح على النص
ما كدت أفحص عن أخى ثقة — إلا عدمت كواعب الفحص

رض نفسك بمشارفة الأعمال ، يرهبك جميع عمالك ، وتنتظم به جميع أعمالك ؛ ولا تكل الى غيرك ما يختص بمباشرتك طلباً للدعة ، فتعزل عنه نفسك ، وتؤثر به غيرك ، فتكون من وفائه على غدر ؛ ومن نفسك على تقصير ، فان العطلة عقلة ، والجواد اذا وقف راكضته البراذين . وقال بزرجمهر : إن يكن الشغل مجهدة ؛ فان الفراغ مفسدة . وقال عبدالحميد : ما زانك ما أضاع زمانك . ولا شانك ، ما أصلح شانك .

اجعل زمان فراغك مصروفا إلى حالتين . احداهما : راحة جسدك ، واجمام خاطرك ، ليكونا عونالك على نظرك . روى ان ابنا لعمر بن العزيز دخل عليه وهو نائم . فقال : ياأبت تنام ؛ والناس على بابك قيام . فقال : يابنى ان نفسى مطيتى وأخاف أن أحمل عليها فتقعد بى . والحال الثانية : أن تفكر بعد راحة جسدك واجمام خاطرك فيما قدمته من أفعالك ، وتصرفت فيه من أعمالك ، هل وافقت الصواب فيها فتجعله مثالا تحتذيه ، أو نالك فيها زلل فتستدرك منه ما أمكن وتنتهى عن مثله فى المستقبل . فقد قيل : من فكر أبصر . وقال بعض الحكماء : من لم يكن له من نفسه واعظ ، لم تنفعه المواعظ. ثم أصرف فكرك بعد ذلك إلى ماتستقبله من أفعالك ؛ على أى تمضيه ؟ وماذا

تفعل فيه ؟ في تقديم الفكر على العمل ، احترازاً من الزلل ؛ لتكون على ثقة من الصواب ، فان عارضتك الاقدار لم تلم . فقد قيل : الامور إذا انفضت , كالكواكب إذا انقضت . وقال النابغة الجعدي :

ألم تعلما ان الملامة نفعها ... قليل إذا ما الشيء ولى فادبرا

اخفض جناحك لمن علا ، ووطيء كنفك لمن دنا ، وتجاف عن الكبر تملك من القلوب مودتها ، ومن النفوس مساعدتها . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال : « لا وحدة أوحش من العجب » . وقيل لحكيم الروم : من أضيق الناس طريقا وأقلهم صديقاً ؟ قال : من عاشر الناس بعبوس وجهه ، واستطال عليهم بنفسه . ولذلك قيل: التواضع فى الشرف، أشرف من الشرف

كن شكوراً فى النعمة ، صبوراً في الشدة ، لا تبطرك السراء ، ولا تدهشك الضراء ، لتتكافأ أحوالك ، وتعتدل خصالك ، فتسلم من طيش النظر وسكرة البطر ؛ فانها تنجلى عن ندم أو ضرر . فقد قال بعض الحكماء : العاقل لايستقبل النعمة ببطر ، ولا يودعها بجزع . وقيل فى منثور الحكم : اشتغل بشكر النعمة عن البطر بها . وقيل فى أمثال الهند : العاقل لايبطر بمنزلة أصابها ولا شرف ، كالجبل الذى لا يتزلزل وان اشتدت الريح ؛ والسخيف تبطره أدنى منزلة ؛ كالحشيش الذي يحركه أدنى ريح .

استدم مودة وليك بالاحسان اليه ، واستسل سخيمة عدوك بعد الاحتراز منه ؛ وداهن من لم يجاهرك بعداوته ، ويقاتلك بمثله ، فيطفي ثائرة عداوته ، ويتواطأ لك بمجاملته . قيل لبعض الحكماء : ما الحزم ؟ قال : مداجاة الاعداء ، ومؤاخاة الاكفاء .

ولا تعول على التهم والظنون ، واطرح الشك باليقين . فقد قيل : لا يفسدك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . قال الشاعر :

اذا أنت لم تبرح تظن وتقتضى ... على الظن أردتك الظنون الكواذب

واختبر من اشتبهت حاله عليك ، لتعلم معتقده فيك ، فتدرى تصنعه منك ، فان الالسن لا تصدق عن القلوب لما يتصنعه المداجى ؛ ويتكلفه المداهن . كما قال عمرو بن الاهتم :

لسانك لى حلو ونفسك مرة ... وخيرك كالمرعاة في الجبل الوعر

وشهادات القلوب أصدق ، ودلائل النفس أوثق . وقد قيل فى منثور الحكم : للعين سر فى علم ما يسر . وقال ابراهيم بن المهدى :

تظل في عينه البغضاء كامنة ... فالقلب يكتمها والعين تبديها
والعين تعرف في عيني محدثها ... من كان من حزبها أو من أعاديها

فان وقفت بك الحال على الارتياب ، اعتقدت المودة فى ظاهره ؛ وأخذت بالحزم في باطنه . وإذا أقنعك الاغضاء عن الاختبار ؛ فلا تتخطه ، فأكثر الامور تمشى مع التغافل والاغضاء . وقد قال أكثم بن صيفي : من شدد نفر ، ومن تراخى تألف ، والشرف فى التغافل . ولقلما جوهر المغضى ، وقوطع المتغافل ؛ مع انعطاف القلوب عليه ، وميل النفوس اليه ، وهذا من أسباب السعادة وحسن التوفيق . روى معمر عن خلاد بن عبد الرحمن عن أبيه قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: « ألا أخبركم بأحبكم إلى الله؛ فظننا أنه يسمى رجلا . فقال : أحبكم إلى الله أحبكم إلى الناس . ألا أخبركم بأبغضكم إلى الله؛ فظننا أنه يسمى رجلا. فقال: أبغضكم إلى الله أبغضكم إلى الناس».

شاور فى أمورك من تثق منه بثلاث خصال . صواب الرأى ؛ وخلوص النية ؛ وكتمان السر . فلا عار عليك أن تستشير من هو دونك ، إذا كان بالشورى خبيراً . فان لكل عقل ذخيرة من الرأى وحظاً من الصواب ، فتزداد برأي غيرك وإن كان رأيك جزلا كما يزداد البحر بمواده من الانهار وان كان غزيراً . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

لا مظاهرة أوثق من المشاورة » . وقد يفضل المستشير على المشير ، ويظفر بالرأى المشير ، لانها ضالة يظفر بها من وجدها من فاضل ومفضول . وقد روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « استرشدوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا » . وعول على استشارة من جرب الامور وخبرها ؛ وتقلب فيها وباشرها ، حتى عرف مواردها ومصادرها ، فلن يخفى عليه خيرها وشرها ، ما لم يوهنه ضعف الهرم . كالذى حكى عن أكثم بن صيفي وقد سأله قومه بنو تميم عن مادهمهم فى حرب يوم الكلاب . وقالوا : أشر علينا بالرأى ، فانك شيخنا وعميدنا وموضع الرأى منا . فقال : ان وهن الكبر قد شاع فى جميع بدنى ، وانما قلبى بضعة منى . وليس معى من حدة الذهن ما أبتديء له بالرأى ؛ ولكن تقولون واسمع ؛ فانى أعرف الصواب إذا مر . وعول على ذوى الاسنان فان الحكمة معهم . وقد قال الشاعر:

إن الأمور اذا الاحداث دبرها ... دون الشيوخ ترى في بعضها خللا
إن الشباب لهم في الأمر بادرة ... وللشيوخ أناة تدفع الزللا

واعدل عن اشارة من قصد موافقتك متابعة لهواك ، واعتمد مخالفتك انحرافا عنك ، وعول على من توخى الحق لك وعليك . فقد قيل فى قديم الحكم : من التمس الرخص من الاخوان فى الرأي ، ومن الأطباء في المرض ، ومن الفقهاء فى الشبهة ، أخطأ الرأي وزاد فى المرض واحتمل الوزر . ولا تؤاخذ من استشرت بدرك الرأى إن زل ؛ فما عليه إلا الاجتهاد وان حجزته الأقدار عن الظفر. وقد قيل فى منثور الحكم : من كثر صوابه لم يطرح لقليل الخطأ

اختر لأسرارك من تثق بدينه وكتمانه ، وتسلم من إذاعته وادلاله . لو قدرت على أن لا تودع سرك غيرك كان أولى بك وأسلم لك ، لأنك فيها بين خطر أو حذر . وقد روى عطاء عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فان كل ذى نعمة محسود » . وقد قيل فى منثور الحكم : انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ، ولا جاهلا فيخون . والعرب تقول : من ارتاد لسره فقد أذاعه

تثبت فيما لا يقدر على استدراكه ، فقلما تعقب العجلة إلا ندماً . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من تأنى أصاب أو كاد ، ومن عجل أخطأ أو كاد » . وقيل فى حكم آل داود . من كان ذا تؤدة وصف بالحكمة. وقيل فى منثور الحكم : أناة فى عواقبها درك ؛ خير من عجلة فى عواقبها فوت . وقدّم ما قدرت عليه من المعروف ؛ فقلما يعقب الذنب إلا ندماً ، فان للقدرة غاية ولنفوذ الأمر نهاية ، فاغتنمها فى مكنتك تسعد بما قدمته ، ويسعد بك من أعنته . فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل ساع غاية وغاية كل ساع الموت » . وقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : انتهزوا هذه الفرص فانها تمر مر السحاب . وقال بعض الحكماء : من أخر الفرصة عن وقتها ، فليكن على ثقة من فوتها . ولذلك قيل : خير الخير أوحاه وقال الشاعر :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته ... حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

وقيل فى حكم الفرس : لا خير فى القول إلا مع الفعل ، كما لا خير فى المنظر إلا مع المخبر . وقيل فى أمثال الهند : لا يتم حسن القول إلا بحسن العمل ، كالمريض الذى لا يبرأ بمعرفة الدواء حتى يتداوى

احذر قبول المدح من المتملقين ؛ فان النفاق مركوز فى طباعهم ؛ ويداجونك بهين عليهم ، فان نفقوا عليك غششت نفسك ؛ وداهنت حسك ، وصحفيك ما قيل فى منثور الحكم : سوق النفاق دائمة النفاق . وقال عبدالملك بن مروان لروح بن زنباع : لا تغتابن عندى أحداً ، فانى لا أأتمنك على غيبى ، ولا تفش

لى سراً ، فانني لا أثق بك فى مجلسى ، ولا تطرينى فى وجهى ، فاننى إن قبلتـه منك غبنت عقلى ، وإن رددته عليك أسأت عشرتى ، وأنت أعرف بنفسك من غيرك فيما تستحق به حمداً أو ذماً ، ففاتح نفسك بما فيها ، فانك أعلم بمحاسنها ومساويها . وقد قيل فيما أنزل الله تعالى من الكتب السالفة : عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب. وقال بعض الحكماء : من مدحك بما ليس فيك ، فحقيق أن يذمك بما ليس فيك. وقال بعض البلغاء : من أظهر شكرك فيما لم تأت اليه، فاحذره أن يكفر نعمتك فيما أسديت اليه، ففوض مدحك الى أفعالك فانها تمدحك بصدق إن أحسنت ، وتذمك بحق إن أسأت ، ولا تغتر بمخادعة اللسان الكذوب . فقد قيل : أبصر الناس من أحاط بذنوبه، ووقف على عيوبه . وقد قيل فى بعض الصحف الأولى: ثمار الحكماء لأنفسهم . كتب حكيم الروم الى الاسكندر : لا ترغب في الكرامة التى تنالها من الناس كرهاً ؛ ولكن فى التى تستحقها بحسن الأثر وصواب التدبير

اعتمد بنظرك احماد سلطانك ، وشكر رعيتك ، تكن أيامك سعيدة ؛ وأفعالك محمودة ؛ والناس بك مسرورين ، ولك أعواناً مساعدين ، ويبقى بعدك فى الدنيا جميل ذكرك ، وفى الآخرة جزيل أجرك ؛ واستعذ بالله من ضدها ؛ فيعدل بك الى صدها . فان الولايات كالمحك تظهر جواهر أربابها . فمنهم نازل مرذول ، وصاعد مقبول . روى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أحسنوا جوار نعم الله تعالى ؛ فقلّ ما زالت عن قوم فعادت اليهم ». وكذلك قيل : ربما شرق شارب الماء قبل ريه . وتعرض رجل ليحيى بن خالد بن برمك وهو على الجسر بكتاب وسأله أن يختمه .فقال: ياغلام أختم كتابه مادام الطين رطباً . ثم أنشد :

اذا هبت رياحك فاغتنمها   فان لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها   فما تدرى السكون متى يكون

اذا نلت من سلطانك حظاً ؛ وأوجبت عليه من خدمتك حقاً ، فلا تستوفه . ودع لنفسك بقية يذخرها لك فيراها حقاً من حقوقك ؛ ليكن كفيل اداءها اليك ، فان استوفيتها صرت الى غاية ليس بعدها الا النقصان . وقد قال الشاعر :

اذا تم أمر بدا نقصه   توقع زوالا اذا قيل تم

واعلم انك مرصد لحوائج الناس لان بيدك أزمة الامور ، واليك غاية الطالب ؛ فكن عليها صبوراً تكن بقضائها شكوراً ، ولا يضجرك طالبها وقد أملك ، ولا تنفر عليه ان راجعك ، فما يجد الناس من سؤال بدا . والخير دهرك أن ترى مرجوا ، وأنشدت لأبى بكر بن دريد رحمه الله تعالى :

لا تدخلنك ضجرة من سائل   فلخير دهرك ان ترى مسئولا
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل   فبقاء عزك ان ترى مأمولا
واعلم بأنك عن قليل صائر   خبرا فكن خبرا يروى جميلا

وقيل في الصحف الأولى: القلب الضيق لا تحسن به الرياسة ؛ والرجل اللئيم لا يحسن به الغنى ؛ ولئن كانت الحوائج كالمغارم لمن استثقلها ، فهى مغانم لمن وفق لها ، وليس بغرم ما عاد بغنم ، ولا بضائع ما اصطنع فى معروف . وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل مؤنة الناس عرض تلك النعمة للزوال » . واذا جعلت الوزارة غايات الأمور اليك منتهية ؛ وحوائج الناس عليك واقعة ، والقدرة لك مساعدة لانبساط يدك ، ونفوذ امرك ، صرت بالتوقف والاعراض مخلا بحقوق نظرك ، واسعا على فوت فطنتك . وقد قال بهرام جور فى عهده الى ملوك فارس : انكم بمكان لا مصرف للناس عن حوائجهم اليكم ، فلتتسع صدوركم كاتساع سلطانكم . فان ذخرك باصطناعه ابقى ، ودفعك به عن نعمتك أوقى

وقد قال على بن الجهم :

اذا جـــدد الله لى نعمة   شكرت ولم يرنى جاحدا
ولم يزل الله بالعـائدا   ت على من يجود بها عائدا
ابا جامع المـال وفرته   لغيرك اذ لم تكن خالدا
فان قلت اجمعه للبنـ   ـين فقد أفقر الولد الوالد
وان قلت اخشى صروف الزما   ن فكن من تصاريفه واجدا

فاجعل يومك أسعد من أمسك ، وصلاح الناس عندك بصلاح نفسك ، ومل الى اجتذاب القلوب بالاستعطاف ، والى استمالة النفوس بالانصاف تجدهم كنوزاً في شدائدك ، وحرزاً فى نوائبك . وقال بعض الحكماء : من زرع خيرا حصد أجراً ، ومن اصطنع حرا استفاد شكرا . وقيل فى منثور الحكم : خير زاد القدرة اعتقاد المنن . قال الشاعر :

حصادك يوما مازرعت وانما   يدان امرؤ يوما بما هو دائن

احذر دعوة المظلوم وتوقها ، ورق لها إن واجهك بها ، ولاتبعثك العزة على البطش فتزداد ببطشك ظلما وبعزتك بغيا ، وحسبك بمنصوره عليك . وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده رضى الله تعالى عنهم عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « اتقوا دعوة المظلوم فانما يسأل الله حقه وإن الله لا يمنع ذا حق حقه ».

كن للشهوات عزوفا تنفك من اسرها ، فان من قهرته الشهوة كان عبداً لها ، ومن استعبدته الشهوة ذل بها . روي عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « من اشتاق الى الجنة سارع فى الخيرات ؛ ومن اشفق من النار لهى عن الشهوات » . وقيل لبعض حكماء الروم : ما الملك الاعظم . قال : ان يغلب الانسان شهوته . وقيل له : ما الفرق بينك وبين الملك . قال : الملك عبد الشهوات ، وانا مولاها ،

فكن بالزمان خبيرا تسلم من عثرته؛ فان الاغترار به مرد ، وقدم لمعادك ليبقى عليك ماادخرته ؛ فلن تجد الا ماقدمت ، وانك لتجازي بما صنعت ، واستقل الدنيا تجد في نفسك عزا فترضى اذا سخطت ، وتسر اذا حزنت ، ولن يذل إلا طالبها ، ولن يحزن إلا صاحبها . وقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « انا زعيم لمن اكب على الدنيا بفقر لاغنى فيه ، وشغل لا انقطاع له » . وقد قال على بن ابى طالب رضى الله عنه: احذروا الدنيا فانها غدارة مكارة ختارة خسارة تستنكح في كل يوم بعلا ، وتستقبل في كل ليلة اهلا ، وتفرق فى كل يوم شملا . وقال بعض الحكماء : ليكن طلبك للدنيا اضطرارا ، وفكرك فيها اعتبارا ، وسعيك لمعادك ابتدارا . وقال عبد الحميد : طالب الدنيا عليل ، ليس يروى له غليل . وقال الشاعر :

فلا جزع ان راب دهر بصرفه   وبدل حالا والخطوب كذلك
فما العيش الا مدة سوف تنقضى   وما المال الا هالك وابن هالك

اجعل صلاح عملك ذخرا لك عند ربك ، وجميل سيرتك اثرا مشكوراً فى الناس بعدك لتقتدي بك الاخيار ، ويزدجر بك الاشرار ، تكن بالثواب حقيقا ؛ وبالحمد جديرا. فقد قيل: الاغترار بالاعمار، من شيم الاغمار، فان يبقى بعدك الا ذكرك فى الدنيا ، وثوابك فى الآخرة ، فاظفر بهما ، واغتنم بقية عمرك لهما ، تكن سعيدا فيهما ، فان الدنيا كاحلام نائم يستحليها فى غفوته ويلفظها بعد يقظته . وقد قيل فى الصحف الاولى : احرص على الاسم الصالح فانه لايصحبك غيره . وقال الجاحظ : وليت خزانة كتب الرشيد وتصفحت كتبه فلم اجد كلمة الا وجدت لها نقيضة ، إلا كلمات جاءت عن فيلسوف العرب على بن ابى طالب رضى الله تعالى عنه : قيمة كل امريء مايحسن ، ومن جهل شيئاً عاداه ، ولن يهلك امرؤ عرف قدره ، وكلما يتصور في الاوهام فالله بخلافه ، وبقية عمر الرجل لاثمن لها ولا قيمة ، لأنه يدرك بها مافاته ، ويحي فيها ما اماته

فاغتنم ايها الوزير بقية ايامك ، باجمل افعالك ؛ واستدرك فيها ماتقدم من سوء آثارك ، وكفر بها ما اسلفت من فجورك واغترارك ؛ فخواتيم الامور تعفي ما سبق حتى تتناساه النفوس ؛ و تتغاضى عنه العيون ، لأنها توكل بالأدنى وان جل ما يمضى ، واذا مدتك الاقدار بالتوفيق ، وغالبك العقل بالتلافي ، عدلت واعتدلت . ففزت فى آخرتك ، وسعدت فى آجلتك .
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما استودع الله احدا عقلا إلا استنقذه به يوما . فاذا عقلك عقلك عن الباطل فانت عاقل » .

وسأختم تحذيرك وانذارك ؛ وأتبع تبصيرك وافكارك ، بما انذر به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو اوعظ نذير ؛ وابلغ تخويف وتحذير .
روى عبدالله بن عبيد عن عمير الليثى عن حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « ان من أشراط الساعة اذا رأيتم الناس اماتوا الصلاة واضاعوا الامانة ؛ واحلوا الربا ؛ واستخفوا بالدماء ؛ وباعوا الدين بالدنيا وشربت الخمور ؛ وعطلت الحدود ؛ واتخذوا القرآن مزامير ، واتخذت الأمانة مغنما ؛ والزكاة مغرما ، وكان الحلم ضغثا ، والولد غيظا ، وغاض الكرام غيضا ، وفاض اللئام فيضا ؛ وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة والأمناء خونة ، والقراء فسقة ؛ وكان زعيم القوم ارذلهم ، وتشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، وكذب الصادق ؛ وصدق الكاذب ، ولعن آخر هذه الأمة اولها . فليتوقعوا نزول البلاء بهم

وقد أوجزت لك أيها الوزير ما ان كان عملك به محيطا ذكرك ، وإن كنت غافلا عنه أنذرك ، وان يمدك بتوفيقه ، ويعينك على طاعته بجوده آمين .
تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الرسالة الاحمدية

فى تاريخ الطريقة العلية البكتاشية

بمصر المحروسة

تأليف

خادم الفقراء

أحمد سرى بابا

شيخ تكية سيدنا أبى عبدالله المغاورى

١٣٥٨ هجرية — ١٩٣٩ ميلادية

مطبعة الشرق شارع حيضان الموصلى نمرة ١٩

قسم الدرب الأحمر



التاج الحسينى البكتاشي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وما توفيقى الا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . الحمدلله الذى هدانا الى طريق الانبياء والمرسلين ، وأنعمنا بنعمة السلوك فى مسلك الأولياء والمقربين ، وزين سماء صدور العارفين بكواكب أسرار الحقائق والعرفان ، ونور مشكاة قلوب السالكين بأنوار الهداية والايقان ، وصلى الله رسولنا محمد الذى أرشدنا الى طريق الحق واليقين ، وأدبنا بآداب الشرع المبين ، وعلى آله الاطهار ، وأصحابه الاخيار ، الى يوم الدين .

أما بعد فقد وضع العبد الفقير الى الله تعالى خادم الفقراء وتراب أقدام أهل البيت (احمد سرى بابا) رسالة صغيرة باللغتين التركية والعربية فى سنة ١٣٥٢ هـ و ١٩٣٤ م ، احتوت على فضائل الطريقة العلية البكتاشية ومناقب أوليائها الكرام ومشايخها العظام ، وكتبت فيها فصلا عن تاريخ انتشارها فى مصر منذ نشأتها الى يومنا هذا وذكرت أسماء حضرات المشايخ الكرام الذين قاموا بوظيفة الوعظ والارشاد والتعليم ، وذيلته بوصف عام للتكية ولمقام سيدى عبدالله المغاورى

ونفدت الطبعة الأولى فتوالت علينا الرسائل تترى من جميع الاقطار الاسلامية بطلب اعادة طبعها ، فنزولا على رغبتهم الكريمة أعدنا طبع الرسالة

باللغة العربية وتوسعنا فى النقط التاريخية وأثبتنا فيها المعالم المستجدة ، ودونا باباً جديداً فى أسس الطريقة البكتاشية وبعض أصولها وآدابها .

ونرجو أن تكون هذه الرسالة مع صغر حجمها وسيلة لرضاء اخواننا الكرام ومشايخنا ذوى الاحترام . نفعنا الله بهم .

وقد تمت هذه الطبعة الثانية فى عهد الملك التقى الورع حامى حمى الدين وامام المسلمين (فاروق الأول) حفظه الله تعالى وأدام أيامه .

١٠ محرم الحرام سنة ١٣٥٨ وأول مارس سنة ١٩٣٩

خادم الفقراء

أحمد سرى بابا



الشيخ احمد سرى بابا شيخ تكية
سيدى أبى عبد الله المغاورى

مؤسس

الطريقة العلية البكتاشية

تنتسب الطريقة العلية البكتاشية الى سيدنا ومولانا سلطان الأولياء ، وبرهان الأصفياء ، امام أصحاب الحقيقة ، ومقتدى أرباب الطريقة ، القطب الأعظم ، والغوث الاكرم ، الهيكل النورانى ، والسر السبحانى ، السيد محمد خنكار الحاج بكتاش الولى ، قدس الله سره العالى والجلى .

ولد مرشدنا الأعظم وهادينا الأكرم فى سنة ٦٤٥ هجرية فى مدينة (نيسابور) من أعمال ولاية (خراسان) . ووالده الماجد هو (السيد ابراهيم الثانى) من السادات الكاظميين ، والعلماء العاملين ، وكان حاكما على المقاطعة كبيراً فى قومه . ووالدته الشريفة هى السيدة الفاضلة (خاتم) بنت الشيخ الورع التقى (احمد افندى) من علماء نيسابور واشرافها .

واشتهر مولانا وهو صبي بالآداب الفاضلة والخلق القويم والصلاح والامانة والتقوى والزهد . وبدأ فى تحصيل العلوم والمعارف منذ نعومة أظفاره فاتصل بالاستاذ العالم الشهير الشيخ « لقمان افندى » خليفة الشيخ الاستاذ الكبير (أحمد سوى) أحد أولياء التركستان . وامتاز بالذكاء والفطنة وحصل فى زمن وجيز على الاجازات العلمية . وظهر نبوغه وحصل له من المقامات العالية والفتوحات المتوالية ما ملأ به الخافقين امداداً وارشاداً .

وقد امتاز فى طفولته بالامتناع عن مشاركة الصبيان فى ألعابهم التى كانوا يمارسونها فى ذلك العهد ، ولم تمل نفسه قط الى ما يميل اليه من كان فى سنه ، كما انه امتاز بأنه لم يواجه أحداً بذنب ارتكبه أو جريرة اقترفها ، بل كان يستر العيوب ، ولا يفشى الخطايا والذنوب ، ولم تطأ قدماه أرضاً الا وهو طاهر متوضى

وكان مداوما على العبادة آناء الليل وأطراف النهار .

ولما ودع أبوه هذه الدنيا الفانية وذهب الى لقاء ربه فى الآخرة ، عرض عليه قومه السلطنة وأرادوا توليته مكان أبيه الذى أحبوه واحترموه ، فرفض ماعرضوه عليه مؤثراً التقشف والعبادة على الابهة والسلطان ، واكتفى بالسجادة بدلا من العرش ، وبالمسبحة بدلا من الصولجان .

ولما بلغ أشده وبدأت كراماته فى الظهور ، وذاع صيته بين الناس وأخذت تفد اليه الوفود استجلابا لدعواته الخيرية ، وطلبا للتبرك به ، آثر العزلة على الظهور واختلى فى احدى الصوامع أربعين عاما لم يخرج منها . ومضى كل هذه المدة الطويلة فى المجاهدات والرياضة والعبادة . وبعد أن أتم هذه المدة التقى بالشيخ (احمد يسوى) واكتسب منه الفيوضات المعنوية . وأشار عليه مرشده بالشخوص الى (بدخشان) فسار اليها واشتغل بالجهاد والغزاء مجاهداً مغازيا فى سبيل الله . وبعد رجوعه من الجهاد أشار عليه أستاذه ومرشده بالسفر الى بلاد الروم . فغادر « خراسان » وبدأ فى السياحة ميمماً وجهه شطر النجف الأشرف فزار قبر مولانا (الامام على) كرم الله وجهه وأقام مجاورا بها أربعين يوما . ثم غادرها الى (مكة المكرمة) وجاور الكعبة المعظمة ثلاث سنوات . ثم رحل منها الى (المدينة المنورة) لزيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وبعد أن أقام بها أربعين يوما سافر الى القدس الشريف وزار المسجد الأقصى ومراقد الأنبياء العظام ومنها عرج على الخليل فدمشق الفيحاء وأقام فى كل منهما أربعين يوما ثم زار قبر داود النبى عليه السلام فى حلب وأصحاب الكهف فى البستان .

وقد وطئت قدماه الشريفتان أرض بلاد الروم التى أشار بالسفر اليها مرشده الشيخ احمد يسوى وظهرت كراماته باهرة فكان لاينزل بأرض الا هرعوا اليها من كل جانب وتسابقوا الى التبرك به . وكان كل مكان قفر يحط رحاله فيه

يتحول الى مدينة كبيرة من كثرة الوافدين اليه .. واتخذ القوم فى هذه المقامات المباركة التى تشرفت بنزول السيد فيها ، زوايا ومساجد تيمنا بالزائر العظيم وتبركا به . وكان كل فرد يسارع الى خدمة سيدنا ومولانا قطب الأقطاب فيقدم اليه ما ملكته ايمانه من مال وعقار وماشية عن طيبة خاطر مؤثراً خدمة السيد الجليل على الغنى والثروة زاهداً فى الدنيا راغبا عن ملاذها ، واستبدلوا الدمقس والحرير بالخيش والصوف وافترشوا الأرض بدلا من الرياش وجاهدوا أنفسهم وصبروا وصابروا حتى فازوا بالرضاء ونالوا أعظم الدرجات .

وقد دام هذا الحال طوال المدة التى قطع فيها الطريق حتى وصل الى (صوليجه قره اويوك) التى اشتهرت فيما بعد باسم ناحية الحاج بكتاش نسبة الى اسمه الشريف وهى تابعة لمدينة (قير شهر) على مسيرة ست ساعات منها . فحط رحاله فيها واتخذها مقاما له وبدأ فى الوعظ والارشاد ونشر العلوم والمعارف الدينية فاجتمع عليه طلاب الهداية والحقيقة وتقاطر الناس الى تلك الناحية للتبرك به وانتشرت الطريقة العلية البكتاشية فى أرض الروم كافة وزاد عدد المنتسبين اليها زيادة كبرى حتى وصل صيت سيدنا ومولانا الى مسامع حضرة صاحب الجلالة السلطان أورخان ثانى سلاطين آل عثمان . فرأى السلطان أن يفوز بدعاء الشيخ الجليل فغادر سرير سلطنته وسعى بنفسه لزيارة سيدنا وملاذنا وحظى بتقبيل يده المباركة ونال دعواته الخيرية وحصلت له البركة . وعلى أثر هذه الزيارة الملكية الميمونة الى المرشد الأعظم تفضل جلالة السلطان أورخان الكبير بدعوة السيد الجليل الى الاحتفال الفخم الذى أقيم بمناسبة تأسيس جماعة الانكشارية (الانكشارية محرفة عن ينى جرى بمعنى العسكر الجديد) . ويقال أنه هو الذى أسماهم بهذا الاسم . ولما حضر الاحتفال العظيم بارك الجندى الذى مثل بين يديه

الكريمتين باسم الجيش ووضع كمه الشريف على رأس الجندى . وقد بقيت عادة وضع قطعة من القماش على شكل الكم خلف غطاء رؤوس الانكشارية الى أواخر أيامهم .

وبفضل تمسك هذا الجيش باهداب الشريعة المطهرة والطريقة العلية فتحت القسطنطينية حتى وصلت الجيوش الاسلامية الى أسوار فينا .

ثم بدأ مولانا فى ارسال الخلفاء والنقباء الى مختلف البلدان واختص كلا منهم باقليم لنشر مبادىء الطريقة العلية وتأديب الناس بأداب الدين الحنيف وتلقينهم أصول الشرع الشريف والطريقة ، فنجحوا جميعا فى تأدية رسالتهم ويقدر عدد المنتسبين لهذه الطريقة الجليلة فى جميع الأقطار بالملايين .

والبكتاشى (نسبة الى المنتسب للطريقة العلية) دين ، ورع ، تقى ، زاهد منقاد لأوامر الله سبحانه وتعالى ، متأدب بآداب المصطفى عليه الصلاة والسلام متخلق باخلاق سيدنا ومولانا الامام على كرم الله وجهه ، محب لآل البيت الطاهر متفان فى هذا الحب ، عف اللسان طاهر الذيل ، معين للضعفاء وخادم للكل .

أما كرامات الشيخ فهى كثيرة جدا بحيث لا يمكن أن تجمعها هذه العجالة ، ومن أراد الاستفاضة من فيض نفحات مولانا فليرجع الى الكتب الكثيرة المصنفة فى هذا الباب

وعمر مولانا ثلاثا وتسعين سنة ثم انتقل الى عالم الأبدية سنة ٧٣٨ هجرية فى عصر السلطان أورخان ودفن فى الناحية المسماة باسمه الشريف

وكلمة (بكتاشية) تاريخ لوفاته بحساب الجمل اذ يبلغ مجموعها (٧٣٨) . رحمه الله رحمة واسعة وأسبغ علينا بركات قدسه . آمين !....



الشيخ صالح نيازى دده بابا كبير مشايخ الطريقة البكتاشية
ومقره تيرانا – البانيا

سلسلة النسب الشريف

هو السيد محمد بكتاش الولى ، بن السيد ابرهيم الثانى ، ابن السيد موسى ، ابن السيد اسحق ، بن السيد محمد ، ابن السيد ابراهيم ، بن السيد حسن ، ابن السيد ابراهيم بن السيد الامام مهدى ، بن السيد محمد ، بن السيد حسن بن السيد ابراهيم المكرم المجاب ، بن سيدنا الامام موسى الكاظم بن سيدنا الامام جعفر الصادق ، بن سيدنا الامام الباقر ، بن سيدنا الامام زين العابدين ، بن سيدنا الامام الحسين ، بن سيدنا ومولانا الامام على بن أبى طالب أسد الله الغالب كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه



الطريقة البكتاشية

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
وأولئك هم المفلحون . »

قرآن كريم

الطريقة العلية البكتاشية هى طريقة آل البيت الطاهر رضوان الله عليهم أجمعين وهى مؤسسة على أوامر الشريعة السمحاء ، والتزام السنة السنية ، واجتناب البدع فى جميع الحركات والسكنات . والقصد من الانتساب الى الطريقة هو الوصول الى الله تعالى بالمداومة على ذكر اسمه الجليل ؛ ولطريقتنا العلية آداب وأصول خاصة بها فى كيفية تهذيب النفس وتثقيفها وتعليمها واجباتها الدينية والدنيوية ، يتلقاها الطالب بارشاد مرشد حتى يتخلى تماما عن الرذائل ويتحلى بالفضائل ويأمن شر قلبه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اتق عدوك الذى بين جنبيك) وكقوله صلى الله عليه وسلم (الا ان فى الجسد مضغة فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب)

والأساس فى الطريقة العلية هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان بوجود الله تعالى ووحدانيته والايمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر خيره وشره من الله تعالى والبعث بعد الموت . والفرق بين العوام وبين رجال الطريقة البكتاشية هو أن ايمان العوام بهذه الأركان الستة تقليدى وأما رجال الطريقة فايمانهم تحقيقى

والطريقة البكتاشية موضوعة للوصول الى طريق الحق وتهذيب النفس

الأمارة بالسوء وتخليصها من الضلال وشرك الاغيار ، وملء الصدور بشموس المعارف وبدور الأسرار .

ويجب على الدرويش البكتاشى أن يتوب عن الآثام والذنوب توبة نصوحا ، وأن يجرد نفسه من محبة الدنيا وما فيها من الزخرف والمتاع واللهو ، وأن يكون من أهل السنة والجماعة ، تقيا ، نقيا لايأكل الحرام ، قائما بالفروض والسنن ، صابراً ، مداوماً على العبادة ، دائبا على قراءة الاذكار والأوراد ، شجاعا على نفسه حتى لايتبع غواية الشيطان ، سخيا ، جواداً ، كاتما للأسرار ، أمينا على الأعراض ، عارفا قدر نفسه ، معترفا بفضل شيخه ، متأدبا فى حضرته معظما له ، مؤديا واجبات التكريم له ، منفذا لأوامره دون اعتراض ، مهتديا بهديه ، راضيا ، مرضياً ، متفانياً فى حب الله وفى حب رسول الله وفى حب أهل بيت رسول الله

والطريقة العلية البكتاشية قد انحدرت أصولها من سيدنا ومولانا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه ومن أولاده . وأحفاده الى أن وصلت الى مشايخنا الكرام كابرا عن كابر ، وعنهم أخذنا مبادىء هذه الطريقة الجليلة التى تنحصر فى أصول ثلاثة :

(١) التلقين
(٢) الباس التاج
(٣) أخذ اليد

وقد روى عن سيدنا على كرم الله وجهه أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : دلنى على أقرب الطرق الى الله وأفضلها عند الله وأسهلها على عباد الله تعالى ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام عليك بما نلت به النبوة ، قال وما ذلك يارسول الله ، قال عليه السلام مداومة ذكر الله تعالى فى الخلوات ، قال يارسول الله أهكذا

فضيلة الذكر و كل الناس ذاكرون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعلى ! لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الارض من يقول الله الله فقال على يارسول الله كيف أذكر قال صلوات الله وسلامه عليه اغمض عينيك وأنصت حتى أذكر ثلاث مرات وأنت تسمع منى فقال عليه السلام لا اله الا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته ثم قال على رضى الله عنه لا اله لا الله ثلاث مرات مغمضا عينيه رافعا صوته . والنبى عليه السلام يسمع) .

فكلمة التوحيد قد لقنها النبى صلى الله عليه وسلم لعليا كرم الله وجهه وانتقل مبدأ التلقين الى أن وصل الى مشايخنا الكرام حيث أحلوه المحل الاول وأصبح لزاما على كل مريد أن يتلقن كلمة التوحيد من شيخه

أما التاج البكتاشى فهو عبارة عن لبدة بيضاء ذات اثنى عشر خط ويسمى بالتاج الحسينى ويشترط فيمن يلبس هذا التاج الشريف أن تجتمع فيه اثنا عشر خصال حتى يكون أهلا للتشرف بلبس هذا التاج . وهذه الخصال الكريمة هى العلم ، والطاعة ، والاستغفار ، وذكر الله ، والقناعة ، والتوكل على الله ، والزهد ، والتقوى والتواضع والكرم والصبر والتسليم .

وفى هذا اشارة لطيفة الى أن عدد الحروف فى (لا اله الا الله) اثنا عشر حرفا ، وفى (محمد رسول الله) اثنا عشر حرفا أيضا . أما لبس العباءة أو الخرقة فهى من السنن الحميدة التى جرى عليها السلف الصالح وقد قام اسد لله الغالب سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالباس حسن البصرى الخرقة أو العباءة

وأما اخذ اليد او البيعة فهى التوبة و لاستغفار والصلاة على النبى ثم يأخذ الشيخ من المريد موثقا الا يكذب أو يأكل الحرام أو ينظر إلى ما حرمه الله أو يرتكب المعاصى التى نهى الله عنها ، وأن يكون أمينا ، صادقا ، شريف النفس ، قنوعا زاهدا فى الدنيا .

وهذه السنة الحميدة مأخوذة من بيعة النبى التى ورد ذكرها فى سورة **الفتح** إذ يقول الله تعالى : (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب . »

وتجرى البيعة فى الطريقة البكتاشية فى حجرة مغلقة لا يكون فيها غريب مستندين فى ذلك الى ما روى عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت رضى الله عنهما قالا كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم غريب يعنى أهل كتاب قلنا لا يارسول الله فأمر بغلق الباب فقال ارفعوا أيديكم فقولوا لا اله الا الله فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله يده ثم قال الحمد لله اللهم انك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة انك لا تخلف الميعاد ثم قال أبشروا فان الله قد غفر لكم » كما فى ترويح القلوب لعبدالرحمن البسطامى قدس سره . وعن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الاشجعى رضى الله عنه قال كنا عند رسول الله تسعة او ثمانية أو سبعة فقال الا تبايعون رسول الله وكنا حديثى عهد ببيعته فقلنا قد بايعناك يا رسول الله قال ألا تبايعون رسول الله فبسطنا

أيدينا وقلنا نبايعك قال أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتقيموا الصلوات الخمس وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس . ولقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدا يناوله اياه. رواه مسلم والترمذى والنسائى

والاعتبار فى الطريقة البكتاشية للولد المعنوى لا للولد الصلبى لأن سيدنا مولانا القطب الأعظم والغوث الأكرم لم ينجب اولاداً واستخلف فى الطريقة أولاده المعنويين الذين رباهم ونشأهم وعلمهم تعاليمه السامية ومبادئه الكريمة وأخذ منهم العهد والبيعة وأوصى رحمة الله ورضوانه عليه قبل انتقاله من دار الفناء الى دار البقاء بأن يخلفه خلفاؤه ، وبقيت هذه السنة المحمودة الى يومنا هذا . وقد جرى العرف بين مشايخ البكتاشية على أن الشيخ لا يقبل الاقرار والبيعة من ابنه الصلبى بل يترك هذا الامر يتولاه شيخ آخر

والذكر الخفى قد أخذ عن سيدنا ومولانا أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين كان فى الغار مع رسول الله اذ تلقى الذكر من النبى عليه السلام وهو جالس على الفخذين عامض العينين

والذكر الجهرى قد أخذ عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه اذ أمره النبى عليه السلام بعد أن أجلسه فى حضرته وقال له (اغمض عينيك وانصب حتى اذكر ثلاث مرات) فتلقى كلمة التوحيد عن النبى صلى الله عليه وسلم

(الآيات القرآنية التى نزلت فى أهل البيت)

قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى

« سورة حمعسق »

انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا

« سورة الاحزاب »

رحمة الله عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد « سورة هود »



المغفور له الأمير حيدر باشا فاضل

انتسب الى الطريقة البكتاشية فى ٢٦ رجب سنة ١٣١٩ ودليله الدرويش أحمد وشيخه الشيخ الحاج محمد لطفى بابا وسافر بصحبة شيخه الى التكية الكبرى بتركيا فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٢٦ وعين خليفة من خلفاء الطريقة البكتاشية

الاحاديث الشريفة

الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت

النجوم أمان لاهل الأرض من الغرق وأهل بيتى أمان لأمتى من الاختلاف
« رواه الحاكم »

أول من يرد على الحوض أهل بيتى ومن أحبنى من أمتى
« رواه الطبرانى عن على »

ياعلىّ أنت منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى
« رواه الطبرانى عن عبدالله بن عمر »

على أخى فى الدنيا والآخرة « رواه الطبرانى عن أسماء بن عميس »

ياعلى أنه لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا منافق
« رواه الترمذى »

على خير البشر من شك فيه كفر « رواه أبو يعلى »

أنا وعلى حجة الله على عباده « رواه الخطيب »

ياعلى طوبى لمن أحبك وصدق فيك وويل لمن ابغضك وكذب فيك
« رواه الطبرانى »

ياعلى أنت سيد فى الدنيا وسيد فى الآخرة « رواه الديلمى »

على منى بمنزلة رأسى من بدنى « رواه الخطيب عن البراء بن عازب »

النظر الى وجه على عبادة « رواه البزار عن عائشة »

حب على براءة من النفاق «رواه الديلمى»

أول من يدخل الجنة أنا وأنت والحسن والحسين وذريتنا وشيعتنا عن ايماننا وشمائلنا
« رواه الطبرانى عن على »

ياعلى ان الله قد غفر لك ولذريتك ولولدك ولاهلك وشيعتك ولمحبي شيعتك فأبشر
« رواه الديلمى عن على »

الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة (رواه الترمذى والطبرانى)

الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا (رواه الترمذى عن عبدالله بن عمر)

أحب الله من أحب حسينا (رواه البخارى فى الادب المفرد)

أحب أهل بيتى الىّ الحسن والحسين

اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد الحسنين وقال من أحبنى وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة (رواه الامام أحمد)

وقال الامام الشافعى :

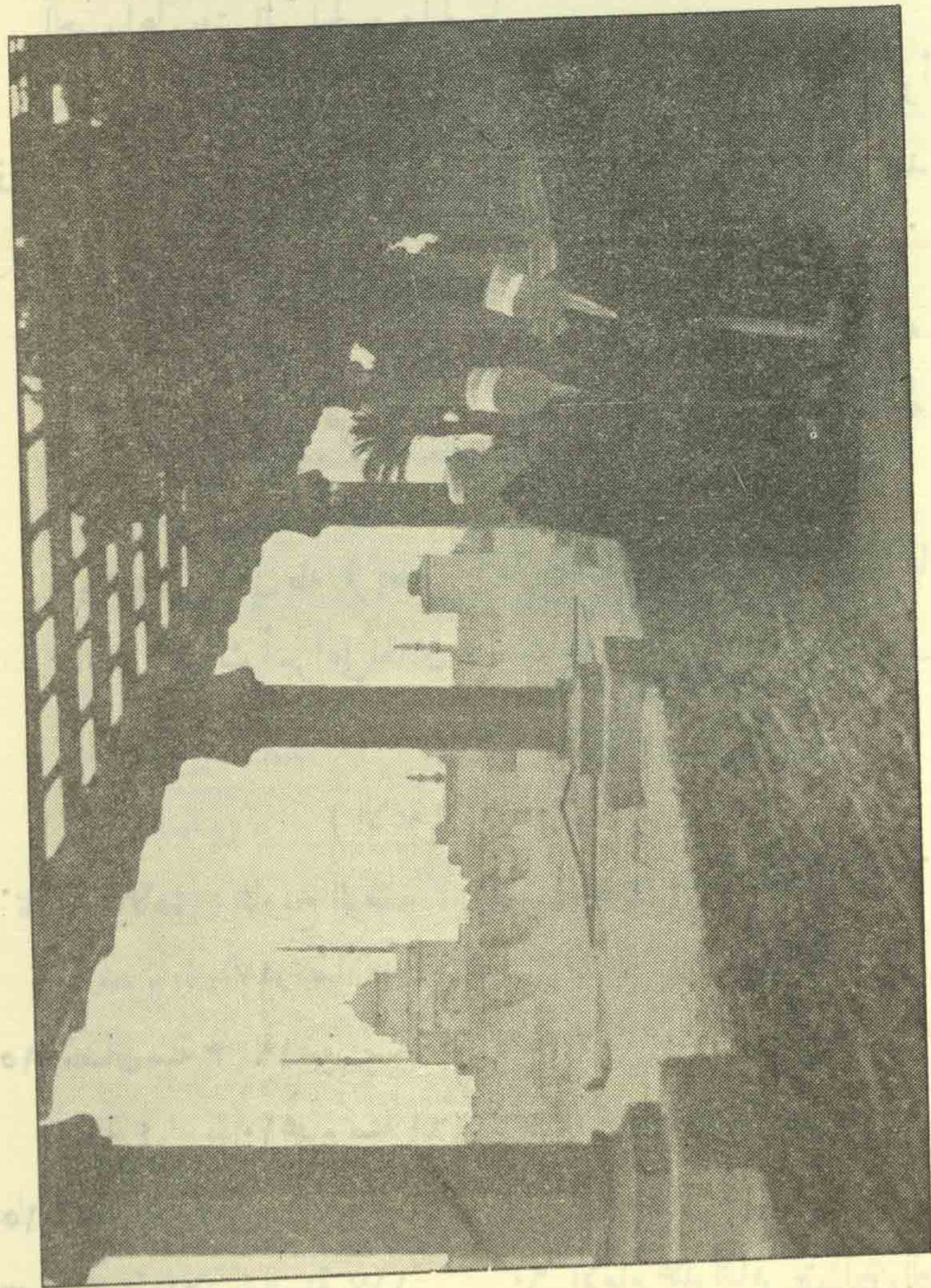
يا آل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله فى القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له

وقال شمس الدين بن العربى :

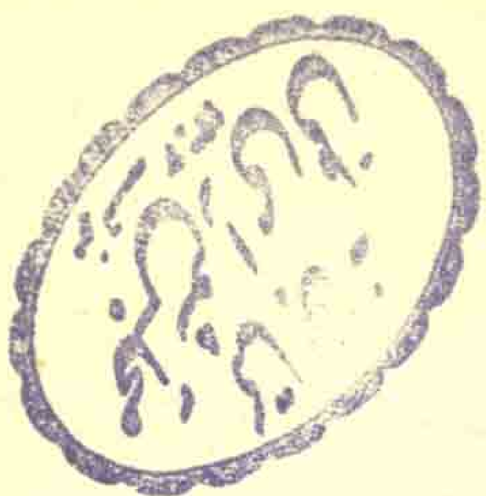
رأيت ولائى آل طه فريضة ... على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى ... بتبليغه الا المودة فى القربى

(الائمة الاثنى عشر)

تاريخ الولادة	تاريخ الوفاة	العمر بالسنين	
.....	١٧ رمضان سنة ٤٠	٦٣	الامام على رضى الله عنه
١٥ رمضان سنة ٣	١٩ صفر سنة ٥٠	٤٦	الامام حسن بن على
سنة ٤	١٠ محرم سنة ٦١	٥٦	الامام حسين بن على
١٥ شعبان سنة ٣٨	سنة ٧٥	٣٧	الامام زين العابدين بن الحسين
٣ صفر سنة ٥٧	سنة ١١٧	٦٠	الامام محمد الباقر بن زين العابدين



منظر بديع فى الحديقة أكى و تظهر القلعة وجامع محمد على من الخلف



تاريخ الوفاة	تاريخ الولادة	العمر سنة	
١٧ ربيع الاول ٨٠	١٥ رجب سنة ١٤٨	٦٨	الامام جعفر الصادق بن محمد الباقر
٨ صفر سنة ١٢٧	٥ رجب سنة ١٨٦	٥٩	الامام موسى الكاظم بن جعفر الصادق
١٢ ربيع الاول ١٥٣	١ رمضان ٢١٨	٦٥	**الامام على الرضى بن موسى الكاظم**
١٥ رجب ١٩٥	٦ الحجة سنة ٢٢٠	٢٥	الامام محمد التقى بن على الرضا
١٣ رجب ٢١٤	**أواخر جمادى الاولى ٢٥٤**	٤٠	**الامام على النقى بن الامام محمد التقى**
سنة ٢٣١	سنة ٢٦٠	٢٩	الامام حسن العسكرى بن على النقى
سنة ٢٥٥	غيبوبته سنة ٢٢٦	٠٠	الامام المهدى بن حسن العسكرى

(المعصومون الأربعة عشر)

١ — محمد الاكبر بن الامام على : يروى انه مات وهو فى حجر أمه فاطمة الزهراء وهو ابن اربعين يوما إذ أكل الباب رجل اسمه طاهر فوقع الباب عليه وتوفى

٢ — عبدالله بن الامام الحسين : قتله طلحة بن عامر فى السابعة من عمره ودفن بالبقيع

٣ — عبدالله بن الامام الحسين : قتله عيبية بن الازرق فى كربلاء وهو ابن سنتين ودفن بجانب أبيه

٤ — قاسم بن الامام الحسين : قتله هزيمة الكاهلى فى كربلاء وهو ابن ثلاث سنين ودفن بجانب أبيه

٥ — حسين بن زين العبا : قتله معاوية بن نوفل وهو ابن ست سنوات وقبره فى العراق

٦ — قاسم بن زين العبا : قتله يزيد سفيان بن الأعدب وعمره ثلاث سنوات وقبره فى البصرة

٧ — على بن الامام محمد الباقر : قتله عدو أهل البيت حمد بن الدمشقى وهو ابن أربعة سنين وقبره فى الصفا

٨ — عبدالله بن الامام جعفر الصادق : قتله العربان بين بسطام ودمغان . وهو ابن ثلاث وقبره هناك

٩ — يحيى الهادى ابن الامام جعفر الصادق : قتله عبدالله بن محمود الكوفى وهو بين يدى الخليفة وعمره ثلاث سنين وقبره فى بغداد

١٠ — صالح بن الامام موسى الكاظم : قتله اللعين عثمان ابن عبدالله وله من العمر ثلاث سنوات وقبره فى شيراز

١١ — الطيب ابن الامام موسى الكاظم : قتله اللعين يوسف ابن ابراهيم ابن احمد الدمشقى وله من العمر سبع سنوات وقبره فى الريده

١٢ — جعفر بن الامام محمد التقى : قتله اللعين يوسف بن ابراهيم ابن احمد الدمشقى وهو ابن أربعة أعوام وقبره فى ايران

١٣ — جعفر بن الامام حسن العسكرى : قتله محمد ناصر بن ابراهيم الدمشقى وهو ابن عام واحد وقبره فى لراه

١٤ — قاسم بن الامام حسن العسكرى : قتله منصور بن ابراهيم الدمشقى وهو ابن ثلاث سنين

(أولاد الامام على)

إن مولانا الامام على كرم الله وجهه كان اذا سافر الى الحرب ، يقلد أبناءه السبعة عشر المناطق والأسلحة بيده الكريمة ويلقن كل واحد من أبنائه اسما من أسماء الله الحسنى ويدعوه لتلاوة هذا الاسم أثناء الغزوة والجهاد فى سبيل الله .

١ — الامام الحسن : وذكره يا ألله مات مسموماً بيد زوجته جعد

٢ — الامام الحسين شهيد كربلاء وذكره يا رحمن قتله شمر اللعين

٣ — الامام هادى الاكبر وأمه سيدتنا فاطمة الزهراء وذكره ياستار ودفن فى كربلاء

٤ — عبد الواحد عون وأمه سيدتنا فاطمة الزهراء وذكره ياغفور وقبره فى كربلاء

٥ — أبو بكر طاهر وأمه سيدتنا فاطمة الزهراء وذكره ياطاهر وقبره فى كربلاء

٦ — عمر الطيب وأمه سيدتنا فاطمة الزهراء وذكره يانافع وقبره فى كربلاه

٧ — عثمان تراب وأمه سيدتنا فاطمة وذكره يامجيب وقبره فى كربلاء

٨ — محمد حنيفة وذكره يارحيم وقبره فى العراق

٩ — عبد الرؤوف وأمه بنت قيصر الروم وذكره ياشكور وقبره فى كربلاء

١٠ — على الأكبر وامه بنت قيصر الروم وذكره ياعفو وقبره بكربلاء

١١ — عبد الوهاب وامه بنت قيصر الروم وذكره ياودود وقبره بكربلاء

١٢ — عبد الجليل من رحيمة جارية فاطمة الزهراء وذكره ياقيوم

١٣ — عبد الرحيم من رحيمة المذكورة وذكره يا حليم

١٤ — عبد المعين من رحيمة المذكورة وذكره ياصبور وقبره بكربلاء

١٥ — عبدالله عباش من رحيمة المذكورة وذكره ياسميع وقبره بكربلاء

١٦ — عبد الكريم من صالو الحبشيه وذكره ياجبار

١٧ — عبد الصمد وذكره يالطيف



صورة جامعة للشيخ الأكبر صالح نيازى دده بابا وخلفائه ودراويشه فى تيرانا — البانيا

تاريخ انتشار الطريقة بمصر

لم تكن الطريقة العلية البكتاشية معروفة فى مصر الى أن زارها الولى الكامل والزاهد الواصل (قيغوسز سلطان) الشهير بسيدنا ومولانا عبد الله المغاورى » فى سنة ٧٦١ هجرية الموافقة لسنة ١٣٨٨ ميلادية ، فى عهد الملك الصالح حاجى.

ومولانا المشار اليه نفعنا الله ببركاته هو ابن أمير مدينة علائية واسمه الاصلى (غيبى) ولما كان شابا فى نحو الثامنة عشرة كان قويا جدا مفتول الساعدين واشتهر بين قومه وعشيرته بالفروسية والشجاعة ورمى السهام وضرب السيف ، وكان ذكاؤه مضرب الأمثال ، وكان متبحرا فى العلوم الظاهرة والباطنة وبالاختصار كان رجلا عاقلا عالماً عاملا وفاضلا جليل القدر عظيم الشأن .

فلما وفد الى مصر فى تلك السنة علم بمكانته الجمهور وتدفق عليه المريدون والمحبون واجتمعت عليه الخلائق لتلثيم يده المباركة والتبرك بدعائه المستجاب ، وبعد أن أقام بالمحروسة نحو خمس سنوات سافر الى الحجاز فى سنة ٧٩٦ هـ وزار المدينة المنورة والنجف الأشرف وكربلاء ثم عاد الى مصر فى سنة ٧٩٩ هـ .

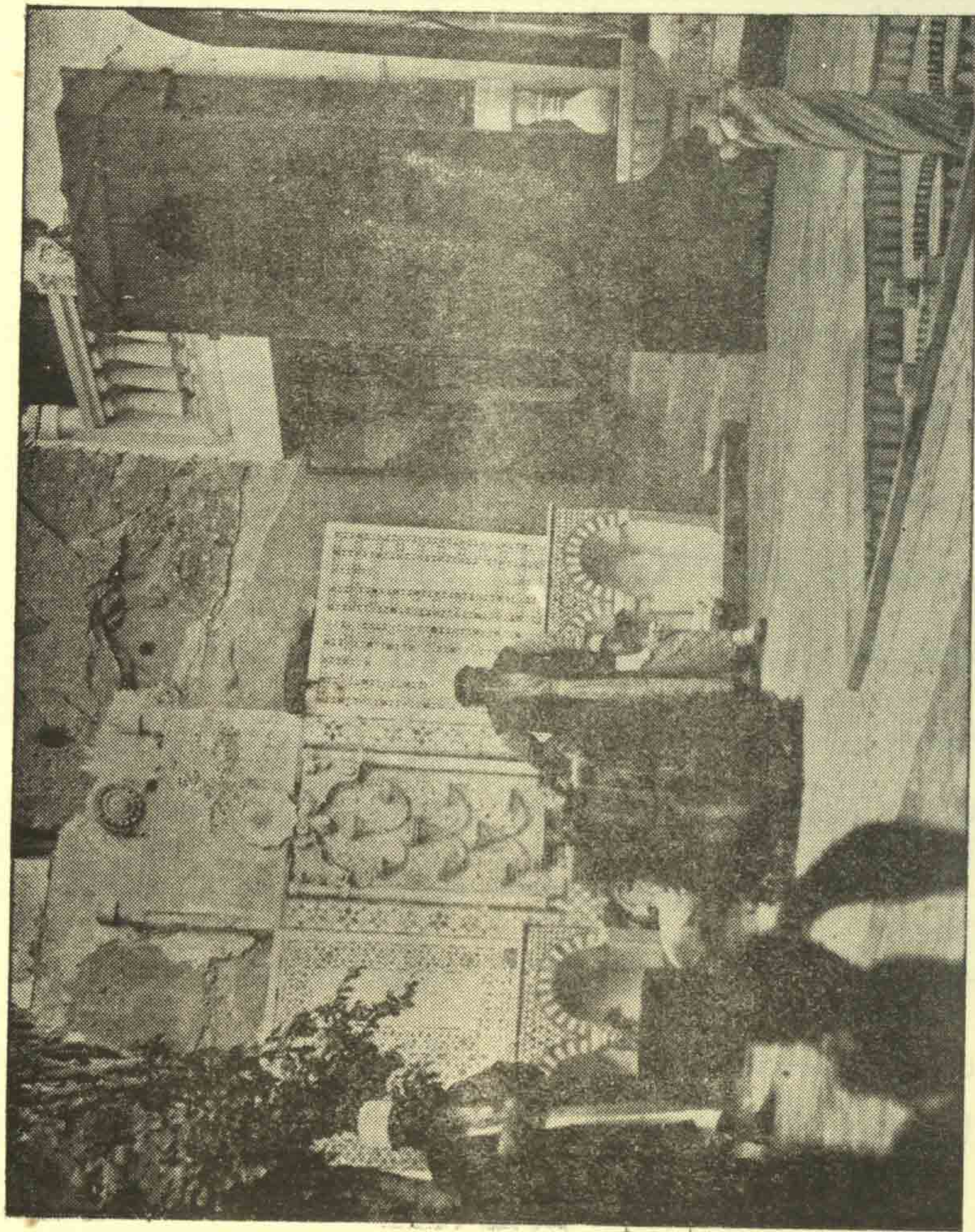
وفى سنة ٨٠٦ هـ أنشىء له مكان خاص وبنيت له تكية قصر العينى التى لا تزال الى اليوم فى المكان المعروف بجوار المستشفى من جهة الجنوب ، فسكن بها واكتسب شهرة عظيمة وظهرت كراماته الباهرة وأخذ العهد منه خلقا كثيرا

وفى سنة ٨١٨ هـ — سنه ١٤٤٤ م انتقل الى دار البقاء ودفن حسب وصيته فى المغارة الحالية التى كانت فى ذلك العهد تكية للجلاليين ، واتخذ المشايخ الذين تعاقبوا من بعده هذه السنة ، ودفنوا جميعهم فى نفس المغارة اقتداء بشيخهم العظيم

ودام الحال على هذا المنوال الى زمن الشيخ اسماعيل بابا المعاصر للوالى عباس باشا الأول إلى أن صدر أمر من الوالى باخراج الدراويش من تكية قصر العينى التى خصصت لرجال الطريقة القادرية . فأخذ الشيخ اسماعيل بابا دراويشه الذين يبلغ عددهم ستا وعشرين درويشا ونزل بقصر اسماعيل باشاسرى المناسترلى وأقام به تسعة شهور وبعدئذ أبدلوا ملابس الدراويش بملابس مدنية وخرجوا من مصر وسافروا الى المدينة المنورة ولم يبق منهم فى مصر الا الشيخ اسماعيل بابا ودرويشاً اسمه صادق وبعد مدة قصيرة انتقل الشيخ المذكور الى الدار الباقية وبقيت مكتبة التكية فى قصر الباشا المذكور وأخيراً هاجر الدرويش صادق الى الأناضول لزيارة قبر مولانا وسيدنا القطب الاعظم مؤسس طريقتنا العلية

وبعد تشرف الدرويش صادق بالزيارة الكريمة عين شيخا على التكية فى سنة ١٢٦٨ هـ — ١٨٥١ م بعد أن حصل على أجازة من الشيخ على دده الساعاتى وحضر الى مصر واشترى منزلا فى حى باب اللوق اتخذه سكنا ومكانا للعبادة واجتماع الاخوان ، وبقى بهذا المنزل الى سنة ١٢٨٢ هـ — ١٨٦٥ م حيث انتقل الشيخ صادق بابا الى جوار رحمة ربه ؛ نخلفه على بابا وانتقل من ذلك المنزل الى تكية السلطان المغاورى الحالية بموجب الامر الكريم الصادر من أبى الخيرات ساكن الجنان الخديو الاكرم والداورى الافخم اسماعيل باشا أسكنه الله فسيح جناته وأسبغ عليه رضوانه ولا تزال شعائر طريقتنا العلية تقام فى التكية المشار اليها الى وقتنا هذا

وبهذه المناسبة نرى لزاما علينا أن نذكر أسماء المشايخ الكرام الذين عينوا بعد مولانا المغاورى مؤسس الطريقة البكتاشية فى مصر مع ذكر السنة التي عينوا فيها والسنة التي انتقلوا فيها الي الاخرة والمدة التي أقاموها



صورة الفسقية الأثرية والسلسبيل أمام المطبخ

أسماء المشايخ المدفونين

فى المغارة الشريفة

تاريخ التعيين	مدة الاقامة	تاريخ الوفاة	الاسم
٨٤٨	٧	٨٥٨	كرم مصطفى بابا القصب لى
٨٥٥	١٤	٨٦٩	قاسم بابا الميدانجى
٨٦٩	١٨	٨٨٧	خليل بابا السكبدشى
٨٨٧	٩	٨٩٦	على بابا السنجقدار
٨٩٦	١٣	٩٠٩	الحاج سليمان بابا النقيب
٩٠٩	٢٧	٩٣٦	مست على بابا
٩٣٦	١٦	٩٥٢	مصطفى كمال بابا الآشجى
٩٥٢	٩	٩٦١	حسين بابا النقيب
٩٦١	١٩	٩٨٠	حسن حسنى بابا القزغانجى
٩٨٠	٢٧	١٠٠٧	الحاج يوسف بابا الميدانجى
١٠٠٧	٩	١٠١٦	خداداد بابا
١٠١٦	١٦	١٠٣٢	الحاج مراد بابا الميدانجى
١٠٣٢	١١	١٠٤٢	رجب بابا الآشجى
١٠٤٢	٢٢	١٠٦٤	يوروك مصطفى بابا
١٠٦٤	٧	١٠٧١	السيد جعفر بابا
١٠٧١	٩	١٠٨٠	ابراهيم أدهم بابا النقيب
١٠٨٠	١٥	١٠٩٥	رمضان بابا الآشجى
١٠٩٥	٢٨	١١٢٣	الحاج سليمان بابا الآشجى
١١٢٣	٦	١٢٢٩	السيد محمد سليم بابا

تاريخ التعيين	مدة الاقامة	تاريخ الوفاة	الاسم
١١٢٩	١٧	١١٤٦	حسن بابا النقيب
١١٤٦	١٦	١١٦٢	الحاج محمود بابا
١١٦٢	٥	١١٦٧	السيد اسماعيل بابا
١١٦٧	١٣	١١٨٠	ملك بابا الآشجى
١١٨٠	٢١	١٢٠١	الحاج السيد محمد بابا
١٢٠١	١٢	١٢١٣	قاسم بابا الآشجى
١٢١٣	١١	١٢٢٤	الحاج زين العابدين بابا
١٢٢٤	٤	١٢٢٨	پهلوان بابا
١٢٢٨	٦	١٢٣٤	الحاج صالح بابا
١٢٣٤	٥	١٢٣٩	الحاج عبد الله بابا
١٢٣٩	٢٩	١٢٦٨	اسماعيل بابا القربانجى
١٢٦٨	١٤	١٢٨٢	صادق بابا
١٢٨٢	٣	١٢٨٥	على بابا
١٢٨٥	١٥	١٣٠٠	عباس بابا
١٣٠٠	٣	١٣٠٣	شهاب الدين بابا
١٣٠٣	١٦	١٣١٩	حيار بابا
١٣١٩			شيخنا الحاج محمد لطفى بابا
١٣٣٢			الوكيل العام وولى العهد أحمد سرى بابا الآشجى

وفى ١٩ رمضان سنة ١٣٥٣ أوصى الشيخ محمد لطفى بابا بالمشيخة من بعده للشيخ أحمد سرى بابا وفى ٢٦ رجب سنة ١٣٥٤ تنازل عن المشيخة نهائيا باعلام شرعى الى الشيخ أحمد سرى بابا.



الشيخ محمد لطفى بابا

تاريخ الشيخ محمد لطفى بابا

ولد حضرة صاحب الفضيلة والارشاد الشيخ الحاج «محمد لطفى بابا» فى مدينة «اركرى» التابعة للحكومة الالبانية فى قرية «دوناوات» بمنزل والده صباح اليوم الثانى من شهر رمضان المكرم لسنة ١٢٦٥ هجرية ، وأسماه أبوه «اسلام» وأطلق عليه هذا الاسم الى أن انتسب الى الطريقة البكتاشية العلية

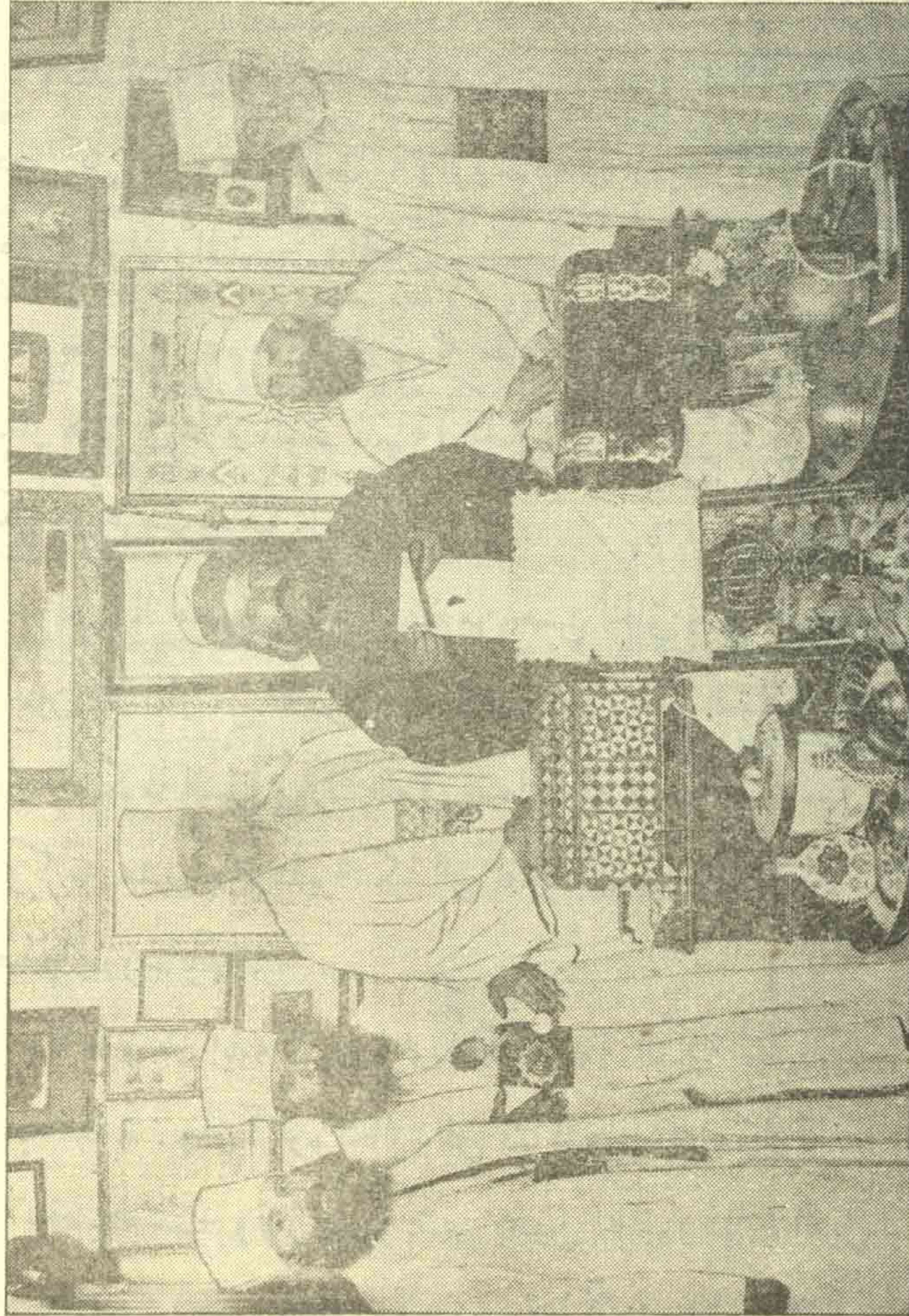
فسمى إذ ذاك (محمد لطفى) كما سيجىء ذلك بعد ؛ ونشأ فى هذه المدينة فى حجر والده الجليل «يحيى لامقو» افندى الذى كان يشار اليه بالبنان بين قومه لشدة ورعه وزهده وتقواه . ولما ترعرع ونشأ قرأ فى مدارسها القرآن ومبادىء العلوم وما زال كذلك حتى ظهرت عليه مخائل الذكاء وآنس فيه والده نزعة الى العمل الحر فحبب اليه التجارة فانتسب اليها ، وكان شعاره الأمانة والعفة وحسن المعاملة والاستقامة مع الأدب الجم . ولما بلغ السابعة والعشرين من سنى حياته الغالية (١٢٩٢ هـ) كان قد حذق التجارة وألم بأصولها ؛ فاستأذن والده فى السفر وقام مع اخوته من اركرى مسقط رأسه ونزل بمدينة «اسكجه» واشتغل فيها بالتجارة ولما كان ذا ميل غريزى الى التصوف والتقشف آثر أن يقف نفسه وحياته للزهد والتقوى والعبادة ووجد ضالته التى كان ينشدها فى أسكجه . ففى سنة ١٢٩٦ هـ وهو فى مستهل الحادية والثلاثين من عمره انتسب الى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ حسيب بابا شيخ تكية السادة البكتاشية فى «أسكجه» وكانت هذه التكية الشريفة دارا لتعليم الفضيلة والأدب كما أنها كانت مجمعا للزاهدين . ومنذ ذاك الحين أطلق عليه اسم «محمد لطفى» وكان دليله ابراهيم بابا . وعقب انتسابه صفى أعماله التجارية وترك حصته فيها الى اخوته . وفى سنة ١٣٠٠ هـ وعمره اذ ذاك خمس وثلاثون سنة بارح اسكجه الى دار الخلافة العلية ونزل فى تكية شاهقولى سلطان الكائنة بضاحية «مرديون كوى» فى الضفة الأسيوية . وانتسب الى حلقة المرشد الكامل والعالم العامل الحاج محمد على دده بابا شيخ التكية المذكورة وانكب على اكتساب رضائه العالى واهتدى بهديه المنيف فزاد اعتباره بين الاخوان وبرز على متقدميه بشمائله العالية وخصاله الحميدة وانقياده وطاعته فاسبغ عليه مولانا الشيخ كرمه وعنايته والبسه بيده الكريمة الخرقة الشريفة ووضع على رأسه التاج الشريف .

ولما أدرك الحادى والاربعين (١٣٠٩ هـ) شرع فى السياحة لزيارة الأماكن المقدسة فغادر استانبول ووصل الى كربلاء وتشرف بزيارة قبر سيدنا ومولانا أسد الله الغالب الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وعاد منها الى بلاد الأناضول فى سنة ١٣١٠ هـ ونزل بتكية سيدنا سلطان العارفين وبرهان المحققين القطب الأعظم والغوث الاكرم مولانا الحاج بكتاش ولى قدس سره الجلى . وأقام بها ثلاث سنوات واكتسب الفيوضات المعنوية فى مجالس الحاج محمد دده الملاطيهوى وحصل على درجة التجرد بهمة دليله الحاج فيض الله بابا وتجرد من الدنيا وعلائقها . وبعد أن حصل على هذه الدرجة الرفيعة اختلى للطاعة وداوم على المطالعة والعبادة وامتاز بين اخوانه بعلو المقام وسمو الدرجة وكان سالكا طريق الصدق والوفاء ومتابعة الشرع وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجانبة البدع ومخالفة الهوى حتى أصبح نور حديقة الحقيقة ونور حدقة هذه الطريقة ، وكان يحب الفقراء ويصنع الطعام لهم بيده المباركة ويخدم مائدتهم بنفسه .

وفى سنة ١٣١٣ هـ وهو فى الخامسة والأربعين عاد الى دار السعادة وأقام فيها عاما . ثم رحل الى بلاد الروملى لزيارة التكايا الشريفة التى بها ثم عاد ثانية الى استانبول .

ولما أكمل الخمسين توكل على الله وشرع فى تجهيز نفسه لأداء فريضة الحج فسافر الى الأرض المقدسة وبلغ غايته وكحل عينيه بتراب الكعبة الشريفة وأدى المناسك وطاف واعتمر ، ثم عاد الى دار السعادة وقضى بها عامين . وفى سنة ١٣١٩ هـ حصل على الاجازة الشريفة .

وكانت أعماله التى اشتهر بها فى التكية ، وتمسكه فى ايفاء أركان الطريقة وآدابها على الوجه الاكمل وورعه وزهده سببا فى توجيه مشيخة سجادة التكية البكتاشية فى مصر الى عهدته (سنة ١٣١٩ هـ) فقام من استانبول ووصل الى



الشيخ أحمد سرى بابا بين دراويشه

مصر وقوبل بالحفاوة اللائقة به لأن شهرته العالية كانت قد سبقته اليها . والتف حوله الاخوان والمريدون وما زال الى اليوم قائما بالوعظ والارشاد أمد الله فى عمره وبارك لنا فى حياته .

ومنذ أن ولى شئون التكية وهو دائب السعى فى اعلاء مقامها واحياء آثارها وحصر كل همته وقوته الجسمانية والروحانية فى ازدياد رونقها وبهائها وفى سبيل رفاهة الاخوان والمنتسبين والمحبين .

وبعد مرور عام واحد على تبوئه مقام المشيخة بمصر (سنة ١٣٢٠ ﻫ) وقع انفجار هائل فى مخزن المواد الملتهبة (الجبه خانه) المجاور للتكية أعقبه انهدام مبانى التكية ، وتخربت معالمها تماما .

ونظراً لما لفضيلة مولانا الشيخ من حسن الخلق وعلو الهمة فانه كان منظوراً اليه بعين الاعتبار من الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ؛ فرض الأمر على رجال الحكومة السنية وبارك الله فى مسعاه الخيرى وقبل ملتمسه وتيسر بفضل الله وكرمه تجديد بناء هذه التكية التى نفخر بانتسابنا اليها لأننا نشأنا من دائرة فيوضاتها وروحانيتها .

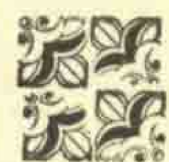
ولا غرو فان أيامه السعيدة هى أزهر عصور التكية الشريفة وذلك بفضل مساعيه الجليلة . وان آثاره الخالدة التى نشاهدها فى كل مكان لأكبر دليل على ذلك وفضيلته شيخ وقور صبور اشتهر بحسن الخلق وطهارة الذيل . محب للخير متفان فى عمله ؛ رحيم ؛ شفوق ؛ لا يضمر حقداً لأحد ؛ صاحب حمية وغيرة ؛ فاضل ، جامع لمحامد الخصائل ، وبالاختصار هو عنوان المرشد الكامل نسأل الله أن يمده بحسن توفيقه .

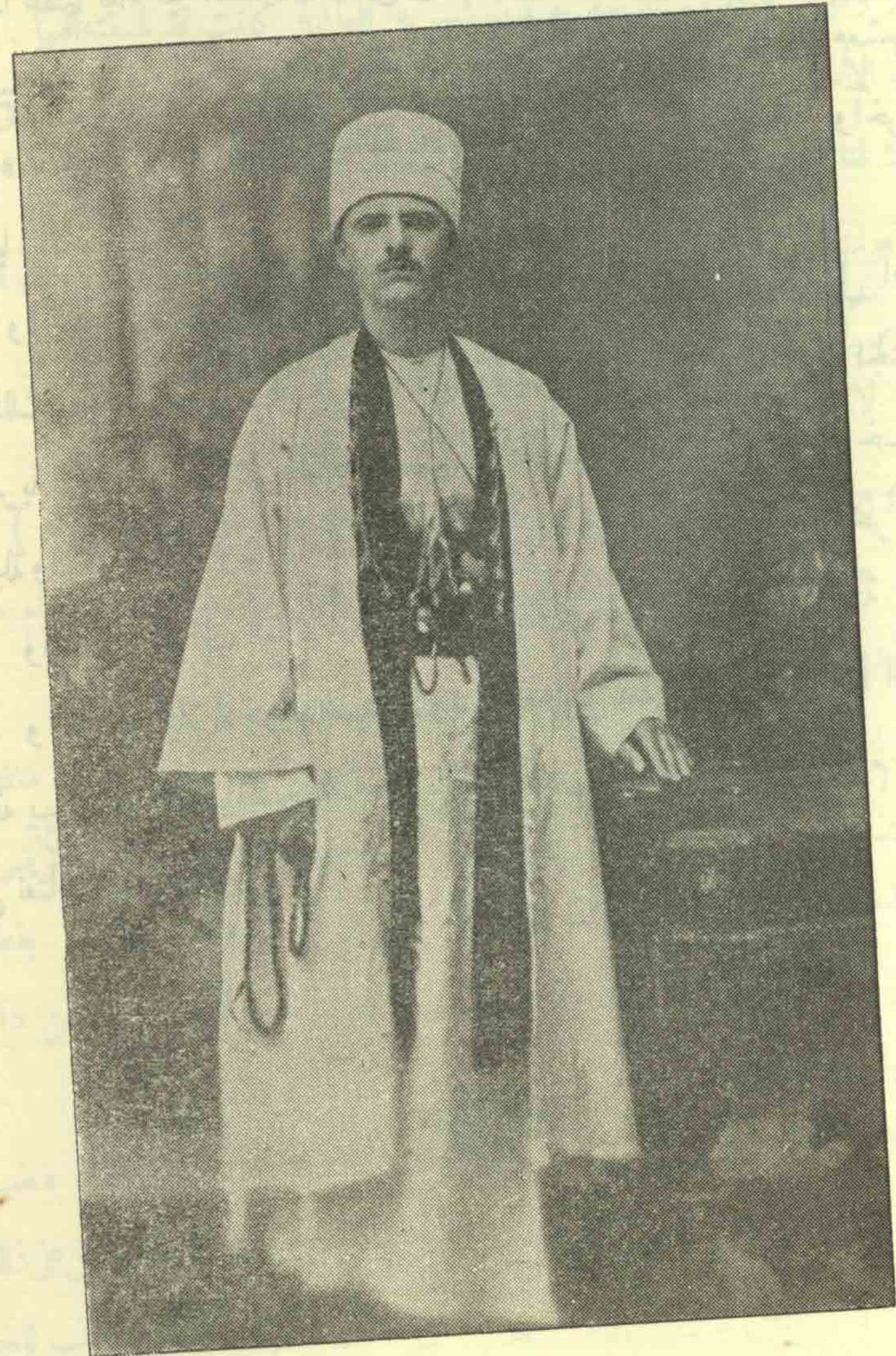
ومن فرط تمسكه باهداب الدين ، وايمانه بحب الوطن أنه بنى فى مسقط رأسه

مسجداً عظيما تقام فيه الصلوات وتتلى فيه خطبة الجمعة والعيدين كما انه حباً فى راحة مواطنيه أجرى ماء لذيذا الى داخل القرية وبنى لها سبيلا . وما زالت الى اليوم مشهورة بنبع « لطفى بابا » وقد لقب بأبى الفقراء لما يبذله لفقراء البلدة بين حين وآخر من العطايا والاعانات المالية .

ولم يكتف بمجهوده العظيم الذى صرفه فى سبيل اعلاء التكية بل أضاف على ذلك مفخرة عظمى ، فقد منح كل درويش مقيم فيها مائة من الجنيهات المصرية . وأمنهم من شر الفاقة والعوز . ونحن نعجز عن ايفائه حق خدماته الجليلة وذكر فضائله ومناقبه العظيمة فكل ما ذكرناه هو قطرة من بحر كرمه

وقد منح المؤلف العاجز الاجازة الشريفة فى غرة رجب الفرد سنة ١٣٤٢ واتخذه وكيلا له ووليا لعهده . واستخلفه من بعده على مشيخة « التكية » والله يسأل أن يمتعه بالصحة التامة ويبارك لنا فى حياته الغالية حتى لا يحرم مريدوه من نفثات قدسه . آمين .





صورة الشيخ احمد سرى بابا عند انتسابه للطريقة البكتاشية

اوصاف
تكية السلطان المغاورى

التكية العلية البكتاشية واقعة فى مصر المحروسة فى سفح جبل المقطم وراء قلعة صلاح الدين . وهى عبارة عن مجموعة حدائق غناء وعدة مغارات يصعد اليها راغب الزيارة نحو ثلاثين درجة ، فيجد الباب العمومى وعليه حجرة بديعة تطل على اطلال القاهرة والقلعة وقبور الخلفاء والنيل واهرامات الجيزة وسقارة .ويتمتع الناظر الى المدينة بمنظر يخلب الالباب ويسحر العقول خصوصا فى الليالى المقمرة. وعلى الباب من الخارج لوحة من الرخام مكتوب عليها بيتان من الشعر باللغة التركية هذه ترجمتهما :

ان دار العارفين هذه هى مقام السلطان المغاورى .
وهى صومعة عشاق الطريقة البكتاشية
وهى دار الصدق والصفا فادخل اليها بقدم الاخلاص
جدد حيدر بابا بناء هذا الباب بناء متينا

١٣٠٢

وثبتت وراء الباب العام من الداخل لوحة من الرخام تحوى بيتين من الشعر بالتركية ترجمتهما :

يفتح هذا الباب العظيم مواجها للعرش الأعلى
حيث تفتح فى وجه المؤمنين جنات النعيم
كلما يفتح هذا الباب يفتح باب السماء
ويقرأ الملائكة « بسم الله الرحمن الرحيم .

١٣٢٥ — أثر لطفى بابا

وبعد أن يرتقي الزائر عدة درجات أخرى يجد ميدانا فسيحا فى وسطه سبيل مربع من الرخام الثمين ذو منظر لطيف يستهوى العطشانين وباعلاه الشعار البكتاشى وهو عبارة عن التاج الذى يلبسه منتسبو الطريقة العلية . وهذا السبيل أنشأه الشيخ الحاج محمد لطفى بابا ومحرر بالخط الجميل على واجهاته الأربعة هذه الكتابات .

بسم الله الرحمن الرحيم
وجعلنا من الماء كل شىء
وسقاهم ربهم شرابا طهورا
انشأه لطفى بابا فاشرب ماء النيل

وفى يمين هذا الميدان باب يفتح على بستان عظيم وفيه بعض القبور . وفى يساره توجد الحديقة الغناء الواسعة التى تشتمل على المغارة التى أنشأها المغفور له صاحب السمو السلطانى الامير كمال الدين حسين نجل السلطان حسين كامل وسنعود الى وصف هذا الفردوس فيما بعد .

وفى مواجهة الباب العمومى باب آخر عليه لوحة من الرخام منقوش عليها ما ترجمته :

هذا المكان من آثار خيرات الخديو الأفخم
الذى أصدر أمره بتجديد بناء هذه التكية
فارخ (وجهى) ذلك قائلا
بنى ملك مصر هذا الخانقاه

ويجد الداخل من هذا الباب بهواً واسعاً يحتوى على عدة حجرات عن اليمين وعن الشمال لاقامة الدراويش . وبعد الخروج من هذا البهو يجد الناظر الى أعلى الباب آية الكرسي محررة بأحرف كبيرة ، ثم يجد الزائر بهوا صغيرا فيه حجرة



لشرب القهوة يجاورها مطبخ كتب على بابه فى لوحة رخامية ما ترجمته :

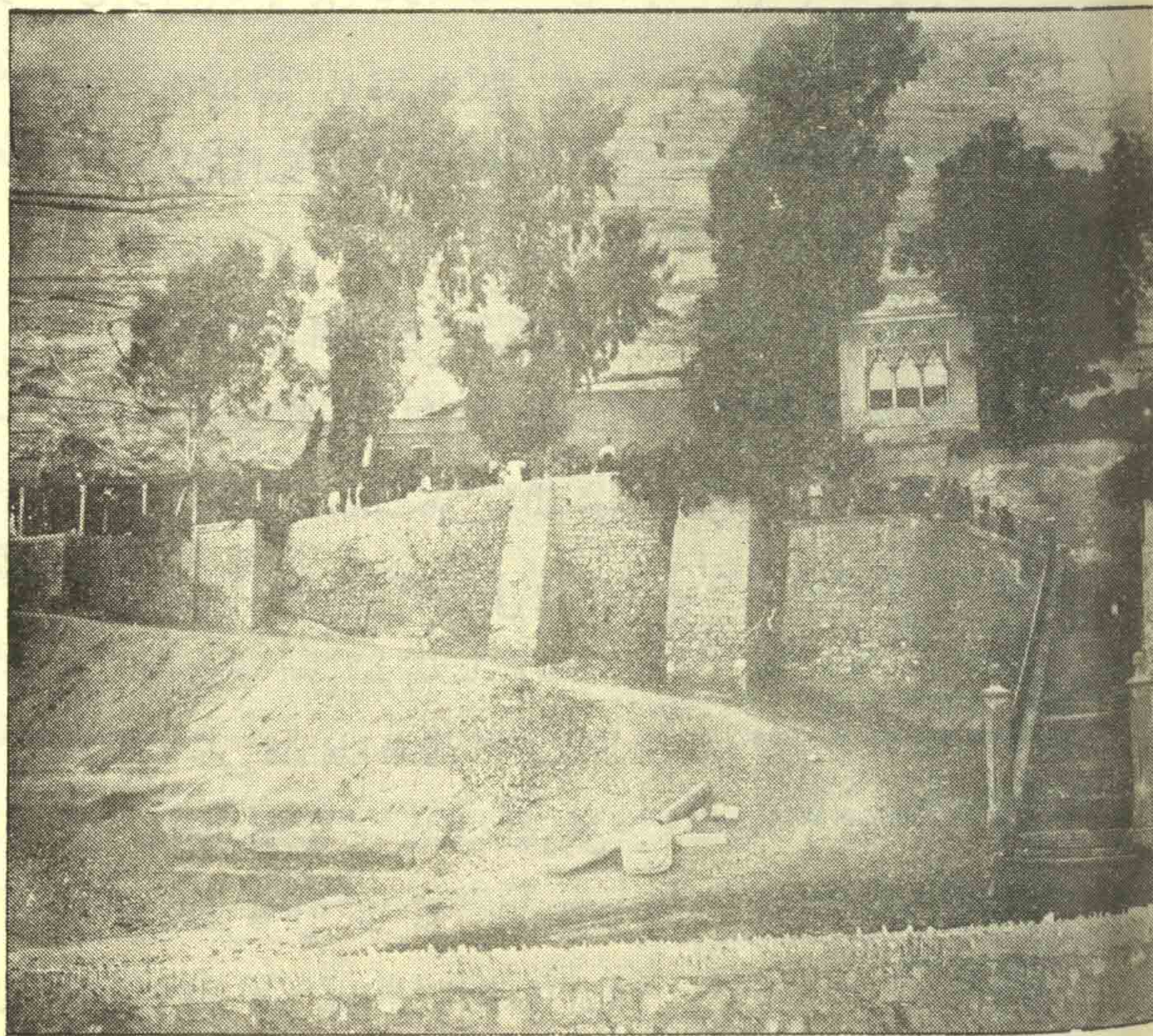
بقيت تكية المغاورى خرابا عدة سنين
وكان البوم ينعق فى سقوفها ومبانيها
الى أن قيض الله لها خيرات العادل
فلا غرو اذا كتب عطارد تاريخا
ذهبيا لهذه التكية فى ديوانه
فندعو الله أن يطيل عمر بانيها
ونأمل ان يقبل الله دعاءنا
لقد كتب (وجهى) هذا التاريخ
جدد بناء التكية فى عهد عباس بابا

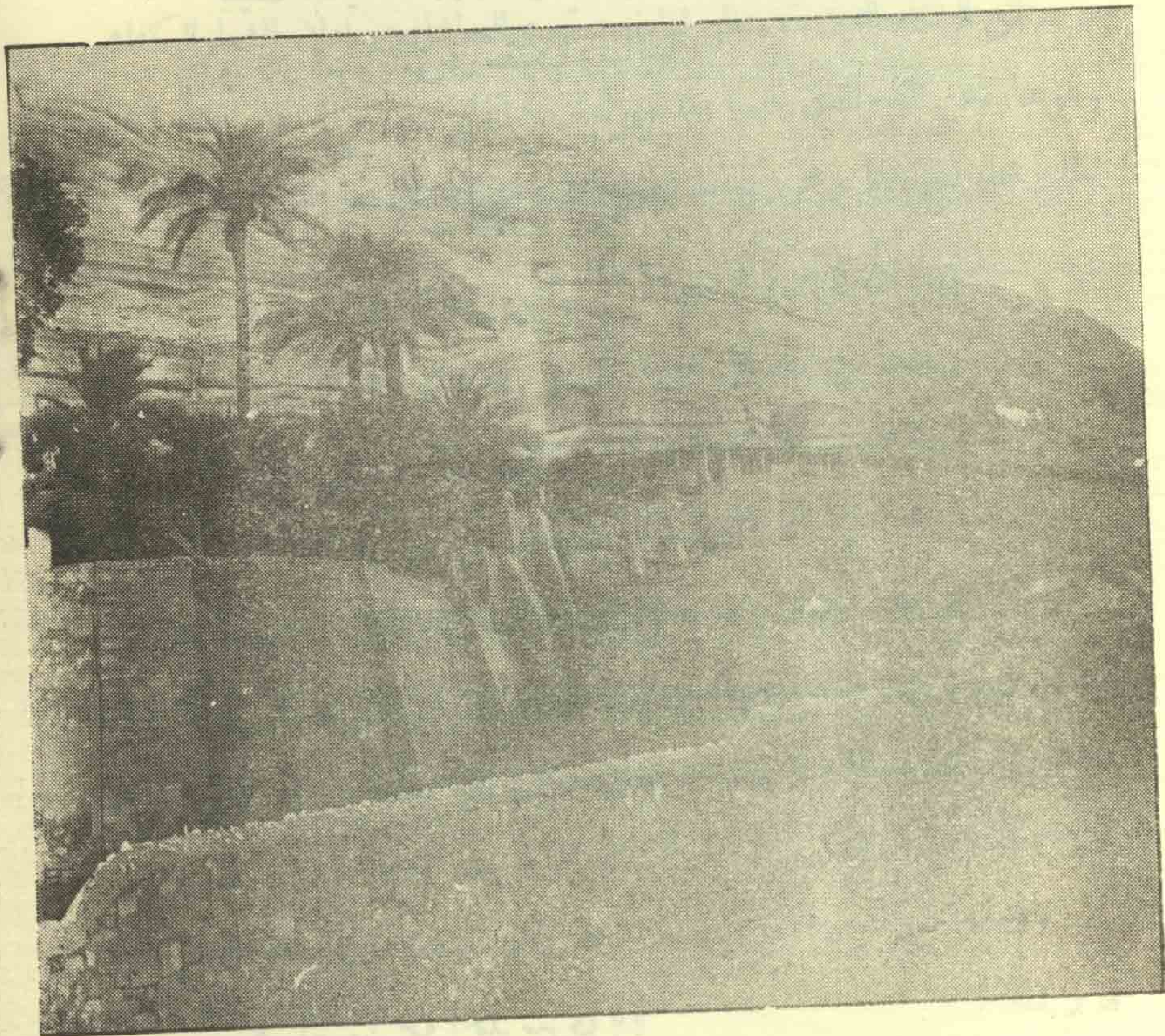
وفرشت أرض البهو بالفسيفساء الاثرى وأقيم فى وسطه نافورة جميلة بوسطها عامود قيم من الرخام يعلوه الشعار البكتاشى وينفجر منه الماء ونقش على صحنه ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٥٣ هجرية يلى ذلك :

ان الكوثر الذى تراه فى هذا الصحن
هو أثر من همة أحمد سرى بابا

وهناك سلسبيل أثرى جميل للغاية وبأعلاه طغراء يحوى اسم الشيخ أحمد سرى بانى النافورة والسلسبيل .

وفى الجهة اليسرى حديقة صغيرة مقام فى وسطها حوض عظيم يحوى عدداً كبيراً من السمك الاحمر ثم يصعد الزائر الى مسكن الشيخ والى المغارة الكبيرة التى تقام فيها الاذكار . وعلقت لوحة على باب المغارة كتب فيها : (أنا مدينة العلم وعليّ بابها) ويوجد فى المسكن حجرات للنوم وللمكتبة ثم يخرج الانسان الى





منظر عام لتكية السلطان عبد الله المغاوري

الشرفة الكبيرة التى تطل على القلعة وعلى مناظر جذابة وثبت فى جدار الشرفة لوحة من الرخام كتب فيها ما ترجمته :

عمر محمد لطفى بابا هذه التكية
فى سنة واحد وعشرين وثلاثمائة وألف
لأن مساكنها كانت تخربت قضاء وقدراً
فتجدد مأوى الدراويش ومسكنهم
هذه التكية مخصصة لطريقة الحاج بكتاش
فليكن عامرا هذا المكان المفرح على الدوام
يا الهى ! أطل عمر محمد لطفى بابا
ليروى ظمأ أهل الطريقة بماء ارشاده
قرأ حلمى دده هذا الدعاء وارخ
ما أجمل تجديد بناء خانقاه المغاورى

وفى هذه الشرفة التى تطل على مناظر شائقة يوجد سلسبيل من الرخام الثمين الملون مكتوب عليه شعر باللغة الالبانية هذا نصه :

na — ujet — ebekuar
gdo—gje-eshte—krijuar
sirrine-dyke — kujtuar
piniju - teuruar

وترجمته :

ان هذا الماء ماء مبارك
وجعلنا من الماء كل شئ حى
فاذكروا سرى بهذا التذكار
واشربوا منه أيها المباركون

وعلى مدخل المغارة العظيمة توجد كتابة بخط كبير محفورة فى الصخر هذا نصها :
« بسم الله الرحمن الرحيم ، ان أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ، إذ أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا صدق الله العظيم و (بلغ) رسوله الكريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . »

ويدخل الزائر من هذا الباب العظيم فيجد الى يمينه مسجدا جميلا . وممرا يؤدى الى نهاية المغارة ، وعلى جانبي هذا الممر أقيمت قبور منحوتة فى الصخر لحضرات المشايخ الكرام الذين تولوا المشيخة وبعض قبور الدراويش ، وفى نهاية المغارة يوجد سياج من الحديد به باب ينتهى الى قبر سيدنا ومولانا القطب الأعظم والغوث الاكرم العارف بالله عبدالله المغاورى وهو قبر عظيم عليه مسحة من المهابة والوقار يورث الرهبة ويشعر الزائر أن الراقد تحته رجل عظيم له مكانته العظيمة فيتأدب الانسان من تلقاء نفسه ، والمزار الشريف عبارة عن لحد منقور فى الصخر عليه تابوت من الرخام حفرت عليه آيات من القرآن الكريم وشاهد القبر مكتوب عليه الاسم الشريف . وعلى القبر قبة منحوتة فى الصخر تتدلى منها نجفة نحاسية ثمينة . وجدران القبة مكسوة الرخام المائل الى الحمرة ويوجد فى جهة القبلة محراب جميل من الرخام الملون الثمين وبجانبي المحراب لوحتين من الرخام الابيض مكتوبة بالقلم الفارسى الجميل بخط الأستاذ الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعى الشهير :

فاللوحة اليمنى محرر بها ما ترجمته :

الهى ! أطل عمر الحاج كمال الدين
نجل السلطان حسين ، والعائلة الكريمة

فهو الذى عمر مقام السلطان المغاورى

وسرت أرواح الاولياء من هذه القبة

ويعد أن رأى صبحى هذا العمران أرخ تاريخا هجريا

جددت هذه التكية السلطانية بفضل جود الأمير

١٣١٥ كتبه الشيخ محمد عبد العزيز

واللوحة اليسرى مخطوط بها ما ترجمته :

ان السلطان المغاورى مدفون فى هذا الكهف

وهذا القبر الطاهر مركز للارواح الطاهرة

جدد عمرانه الحاج محمد لطفى بابا

عندما كان شيخاً لهذه التكية فاصبح مطافا للزائرين

فزره بقلب مخلص وتزود بالفيض

فهو المكان الذى يتجلى فيه اخيار الدراويش

ان غار أهل الله هذا مأوى لأهل الطريقة

فادخله بشوق واحترام لأنه مكان السالكين

كتب هذا التاريخ البديع حلمى دده

ما أحلى عمران هذا القبر ، حقا أنه مكان مقدس

١ محرم سنة ١٣٢١

ويوجد فى أول المدخل من الجهة اليسرى القبر الفخم الذى شيده مولانا صاحب الفضيلة الحاج محمد لطفى بابا شيخ التكية فى حياته من ماله الخاص

أما الحديقة الواقعة الى يسار الداخل فيما يلى الباب العام فهى حديقة واسعة جميلة وانشأ الشيخ أحمد سرى بابا فى الجهة اليسرى جوسقا بديع الصنع أعد لأسراب الحمام الأصيل ويمشى الزائر تحت عرائش الكروم المقامة على عمد من الحجر ثم يجد

على اليمين سلسبيلا من الرخام الثمين أنشأه الشيخ أحمد سرى بابا فى سنة ١٣٥٧ ونقش عليه ما ترجمته :

ان هذا السبيل

هو سبيل الله للظمأى

سقاهم يا حسين

سلام الله على الحسين

لعنة الله على قاتل الحسين

ثم يجد الزائر ميدانا فسيحاً من الحشائش الناضرة والأزهار اليانعة وفى الوسط أنشئ حوض مستطيل غاية فى الجمال ويرى فى الجهة اليمنى المدفن الذى أنشأه المغفور له الأمير كمال الدين حسين لسموه ولعائلته الكريمة . وهذا المدفن نقر فى صخور الجبل . ثم يصعد الزائر بضع درجات فيجد البهو العظيم تحت صخور المقطم ويجد فى الجهة اليمنى مصطبة عليها أرائك على الطراز العربى ، وفى الوسط نافورة من الفسيفساء الأثرية مقام عليها عامود من الرخام الأثرى الغالى الثمن وبأعلاه التاج البكتاشى يتفجر منه الماء ونقش عليه الآية الكريمة :

« واذا استسقى موسى ربه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (سورة البقرة)

والى اليسار البستان الكبير الذى ضمه الشيخ أحمد سرى بابا الى الحديقة وهو عبارة عن صخور نقرت فى الجبل فتحولت الى جنات تحاكى الفردوس وثبت على باب هذا البستان لوحة من الرخام مكتوب عليها تاريخ الانشاء باللغتين التركية والالبانية ترجمتهما :

قد أنشأ أحمد سرى بابا الغلينه لى

هذه الحديقة داخل هذا الخانقاه

وأجرى فيها الزلال الصافى على روح أجداده

وقد جرى الماء فى محبة شهيد كربلاء

فأحيا الظمأى وجعلهم مسرورى البال

ذى الحجة ١٣٥٤

وحفرت على الصخور صورة سرى بابا

وبين المزروعات الخضراء أقيم جوسق ظريف فى صخرة من الصخور الكبيرة والدرجات والمقاعد وغيرها كلها منقورة فى الصخر . ومن طريق آخر يصعد الزائر الى المدفن الذى أنشاه الشيخ سرى بابا لنفسه .

وكتب على باب المدفن :

هذا ضريح أحمد سرى بابا شيخ تكية السلطان عبد الله المغاورى فى ١٣٤٧ هجرية و ١٩٣٨ ميلادية

وكتب على الوجه الأول من الشاهد ما يأتى :

«اللهم أنت صمدى، ومن عندك مددى ، وعليك معتمدى يا أبا الغيث الهى بحق ناد عليا مظهر العجائب تجده عونا لك فى النوائب ، لى الى الله تعالى حاجة أدعوك فى كل هم وغم ، سينجلى بنور عظمتك ، يا الله ، يا الله ، يا الله ، وبنور نبوتك يا محمد ، يا محمد ، يا د ، وبنور ولايتك ياعلى ، ياعلى ، ياعلى ، ادركنى ، ادركنى ، ادركنى ، يا على يا أبا الحسن يا أبا الحسين يا أبا التراب ، حل مشكل سرور دين شافع يوم الحساب، يا صاحب الجمال والكمال ، ياذا الهيبة والجلال ، اللهم بحق الحسين وأبيه وأمه وأخيه وبنيه ، خلصنى من كل هم وغم بما أنا فيه . الهى برحمتك يا أرحم الراحمين ويا خير الناصرين . يا مقلب القلوب والأبصار ، قلب قلوبنا وبصرنا بحق رضائك، ورؤية المشتاقين الأخيار ، لا فتى الا على ،

لا سيف الا ذوالفقار . ربنا تقبل بحق محمد وحيدر .

هودوست

وكتب على الوجه الثانى :

رحم الله عبده سرى بابا   ورعاه باللطف والاحسان

وسقاه من الشراب طهورا   وحباه بجنة الرضوان

هجر العالم الدنى وناجى   ربه وانطوى على الايمان

وكتب على الوجه الثالث :

نم قريراً بين القطوف الدوانى   عند سفح المقطم الفينان

فى حمى ساكن المغاور عبدالله   قطب الهدى وكنز الامانى

أنها روضة سقيت ثراها   وتعهدت غرسها بالحنان

وكتب على الوجه الرابع :

يا نزيل الخصيب فى أرض مصر   بين هذى الربا وتلك المغانى

رضى الله عن صنيعك فى الدنيا   فأولاك نعمة الغفران

فانزل الدار آمنا وتقبل   فضل ربى بالحمد والشكران

رامى

وهذه الأبيات من شعر الأستاذ الشاعر الكبير أحمد رامى .

وأمام باب المدفن أنشىء حوض ظريف من الرخام يعلوه عامود من الرخام كتب عليه :

يا واردا هذا السبيل   جرى زلالا سلسبيل

قل رحمة المولى على   من خلد الصنع الجميل

وهو من شعر الاستاذ أحمد رامى



الحاج محمد لطفى بابا بين دراويشه ويرى أحمد سرى بابا جالسا الى اليسار .

يوم عاشـــــــوراء

المبـــارك

يوم عاشوراء يوم محترم عند جميع أهل الكتب السماوية المسلمين والنصارى واليهود . وقد اكرم الله تعالى فيه جملة من أنبيائه بمختلف الكرامات . ففيه قبل الله تعالى توبة آدم وداود عليهما السلام ، وفيه رفع الله ادريس مكاناً علياً فى السماء ، وفيه استوت سفينة نوح عليه السلام على الجودىّ بعد ما قضى أمر الطوفان وغيض الماء ، وفيه ولد ابراهيم عليه السلام ، وفيه أوتى رشده ، وفيه نجاه الله تعالى من نار نمرود ، وفيه ردّ الله على يعقوب عليه السلام بصره ، وفيه أخرج الله يوسف عليه السلام من الجب ، وفيه كشف الله الضر عن أيوب عليه السلام ، وفيه ناجى موسى عليه السلام ربه ، وفيه نصره على عدوه فرعون حيث فلق له البحر فأغرق فرعون وجنوده ، وفيه أعطى سليمان عليه السلام ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وفيه نجى الله يونس عليه السلام من الغم وأخرجه من بطن الحوت ، وفيه ولد سيدنا عيسى عليه السلام ، وفيه رفع الى السماء ، وفيه غفر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفيه قتل سيدنا الامام الحسين ابن على رضوان الله عليهما بموضع اسمه « الطف » بكربلاء فى العراق هو وسبعون رجلا من أهل بيت رسول الله .

وجاء فى كتب التفسير ان يوم الزينة الذى ذكره الله تعالى فى سورة طه حيث قال « موعدكم يوم الزينة » هو يوم عاشوراء . وجاء فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للجلال السيوطى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة ، ومن تصدق يومئذ بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة يعنى عاشوراء » . وفى حديث آخر « من وسع على أهله وعياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته . »

وفى هذا اليوم المبارك يطبخ طعام الحبوب وسبب ذلك أنه لما استقرت السفينة بنوح عليه السلام على جبل الجودى فى يوم عاشوراء قال نوح عليه السلام لمن معه فى السفينة اجمعوا ما بقى معكم من الزاد، فجاء هذا بكف من الباقلاء (الفاصوليا) وجاء هذا بكف من عدس ؛ وآخر بكف من أرز وشعير وذرة وقمح فقال نوح أطبخوه جميعه فطبخوه وأكلوا منه جميعهم حتى شبعوا فكان أول طعام طبخ على وجه الأرض ، ومن أجل ذلك اتخذ المسلمون طعام الحبوب المسمى (عاشوراء) .

ويحتفل السادة البكتاشية بذكرى استشهاد الحسين الذى وقع فى مثل هذا اليوم من سنة ٦١ هجرية ، فيطبخون العاشوراء ويوزعونها صدقة للفقراء والمساكين الذين يقصدون التكية من كل فج وصوب . ويدعو شيخ التكية رجال السراى الملكية والوزراء والعلماء ورجال الدولة وسفراء الدول وأعيان المحروسة لتناول طعام العاشوراء على الموائد التى تقام فى حدائق التكية ثم يقرأ القرآن وتتلى الأدعية والصلوات الآتية .

بسم الله الرحمن الرحيم

«السلام عليك يا أبا عبد الله، السلام عليك يا ابن رسول الله ، السلام عليك يا ابن أمير المؤمنين ؛ السلام عليك يا ابن سيد الوصيين ، السلام عليك يا ابن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، سلام الله ابدا ما بقى الليل والنهار ؛ لقد جلت المصيبة بك علينا وعلى جميع أهل الاسلام ؛ وعظمت مصيبتك فى السموات على جميع أهل السموات ، اللهم اجعلنى عندك وجيها بالحسين فى الدنيا والآخرة ، فأسأل الله الذى أكرمنى بمعرفتكم ومعرفة أوليائكم ورزقنى البراءة من أعدائكم أن يجعلنى معكم فى الدنيا والآخرة وأن يثبت لى عندكم قدم صدق فى الدنيا والآخرة

وأسأله تعالى أن يبلغنى المقام المحمود الذى لكم عند الله ، اللهم اجعل محياى محيى محمد وآل محمد ، ومماتى ممات محمد وآل محمد ، اللهم ارزقنا شفاعة الحسين يوم الورود ، وثبت لنا قدم صدق عندك مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم دون الحسين ، واحشرنا مع الحسين يا أكرم الأكرمين ، السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ؛ السلام عليك يا فاطمة الزهراء ؛ السلام عليك يا خديجة الكبرى ؛ السلام عليك يا حسن المجتبى ، السلام عليك يا حسين المرتضى ، السلام عليك يا شهيد كربلا ، السلام على جدك وأبيك وامك وأخيك وعلى آل بيتك ومواليك وشيعتك ومحبيك ، ورحمة الله وبركاته وسلام على المرسلين وملائكتك المقربين ، وأولياء الله تعالى أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .»





الشيخ سرى بابا فى الجناح الخاص بالسكن امام الفسقية

تاريخ حياة المؤلف

ولد مؤلف هذه الرسالة المباركة الفقير الى الله تعالى احمد سرى بابا فى قرية « غلينة » الملحقة بمدينة « لسقويك » التابعة للحكومة الالبانية فى سنة ١٣١٣ هجرية ـ ١٨٩٥ ميلادية . ووالده هو المرحوم شاهين افندى نجل احمد جوجول افندى . ونشأ فى بلدته وصرف عهد شبابه فى تحصيل العلوم والمعارف . ولما بلغ السنة السابعة عشرة انتسب الى الطريقة العلية البكتاشية بعد أن حاز رضاء والده ثم هاجر بصحبة الشيخ سليمان بابا شيخ التكية البكتاشية فى مدينة « لسقويك » .

وكان ميله الى الزهد والعبادة وحبه لأهل الله سببا فى اتصاله برجال الصوفية وهو لم يزل في شرخ الصبا . لأن العاقل يطلب الكمال والجاهل يطلب المال ، وكما قيل « حب أهل الله مفتاح الجنة » فبعد أن أقام فى التكية المذكورة سنة واحدة ، أعلنت الحرب بين الحكومة التركية والحكومة اليونانية ، فاحتل اليونان مدينة « لسقويك » وأغاروا على المدن المجاورة واضطر الشيخ سليمان امام هذه الكارثة الى ترك البلدة وهاجر مع دراويشه الى مدينة « يانيا » ، وبعد أن أقاموا بها مدة قصيرة استأذن المؤلف من فضيلة شيخه وحصل منه على كتاب توصية الى الشيخ شعبان بابا شيخ التكية البكتاشية بمدينة « پرشتنه » وسافر اليها وأخذ العهد منه . وفى سنة ١٣٣٢ هجرية ـ ١٩١٣ ميلاديه احتل اليونانيون هذه المدينة أيضا فاضطر المؤلف الى الهجرة مرة ثانية ، وقام بصحبة الشيخ شعبان بابا وسافر الى ايطاليا بغية الابتعاد عن ساحة الحرب . ونزل فى فندق ميلانو بمدينة (سلساما جيورى) وأقاما مدة أربعة شهور . وبعد ذلك رحلا منها الى مصر المحروسة واستقرا بتكية مولانا السلطان المغاوري رضي الله عنه . وبعد اقامة مدة قصيرة انتقل شعبان بابا من الدنيا الفانية

الى عالم الأبدية ودفن فى المغارة الشريفة يوم ١٦ محرم الحرام سنة ١٣٣٣ هجرية الموافقة سنة ١٩١٤ ميلادية . (رحمة الله عليه رحمة واسعة)

ولما آنس فضيلة شيخ التكية من تلميذه احمد سرى ميلا الى النبوغ والوصول شرفه وعلمه فنال الفيوضات الربانية. وبعد أن أقام مدة حصل على تصريح من الشيخ للسياحة فبدأ بزيارة مقام مولانا القطب الأعظم مؤسس الطريقة الحاج بكتاش ولى فى بلاد الاناضول واقام بها سنتين تشرف فى خلالها بمجالس عظماء أهل الطريقة . وفى سنة ١٣٤١ هجرية اعتزم السفر منها الى مدينة طرسوس ، فلما وصل اليها كان شيخ تكيتها صادق بابا قد انتقل الى رحمة الله ، فأجمع الاخوان والمريدون أمرهم واتفقوا على تعيين المؤلف شيخاً عليهم . فلما رأى المؤلف اجماع رأى رجال الطريقة نزل على ارادتهم وحصل على اجازة من فضيلة الشيخ محمد لطفى بابا أحد خلفاء الطريقة وشيخ سجادتها بمصر وذلك اتباعا لآداب الطريقة وأركانها .

وفى ذلك الوقت كان حضرة صاحب الفضيلة والارشاد الحاج محمد لطفى بابا قد وصل الى سن الشيخوخة وكان فى حاجة ماسة الى الراحة والانصراف الى العبادة فكتب الى ولده المعنوى (المؤلف) وطلب منه القدوم الى مصر ليكل به بعض شئون التكية ، وازاء هذه الرغبة من شيخه الكريم تنازل عن المشيخة وفضل أن يكون درويشاً ولم يثنه حب الرئاسة عن القيام حالا تلبية لأمر مولاه ومرشده ، فقام فوراً من طرسوس وبصحبته الدرويش محرم ، وقدم الى مصر وتشرف بلثم يدى مرشده الفاضل ؛ وعندئذ جمع سيدنا الشيخ الحاج محمد لطفى بابا الدراويش والاخوان والمحبين وعقد مجلساً شريفاً وأعلن فى هذا الحفل انه اتخذ احمد سرى بابا وكيلا عاما عنه فى حياته وعينه شيخا على التكية من بعد وفاته ، فقابل رجال الطريقة هذا التعيين الذى صادف أهله بالارتياح التام والقبول وصادقوا عليه ؛

ولما حصل الشيخ من الدراويش وغيرهم على هذا القبول كتب اجازة شريفة وأعطاها الى المؤلف وكان ذلك فى غرة رجب الفرد سنة ١٣٤٢ هجرية - ١٩٢٤ ميلادية وفى سنة ١٣٤٣ أصيب المؤلف بمرض اضطره الى ملازمة الفراش فاشار عليه الاطباء بالسفر الى الخارج تغييرا للهواء وانتجاعا للصحة واسترجاعاً للعافية ، فسافر



المغفور له حسين شيرين باشا

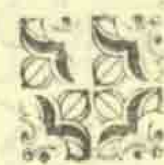
أحد دراويش الطريقة البكتاشية المتوفى سنة ١٨٨٢

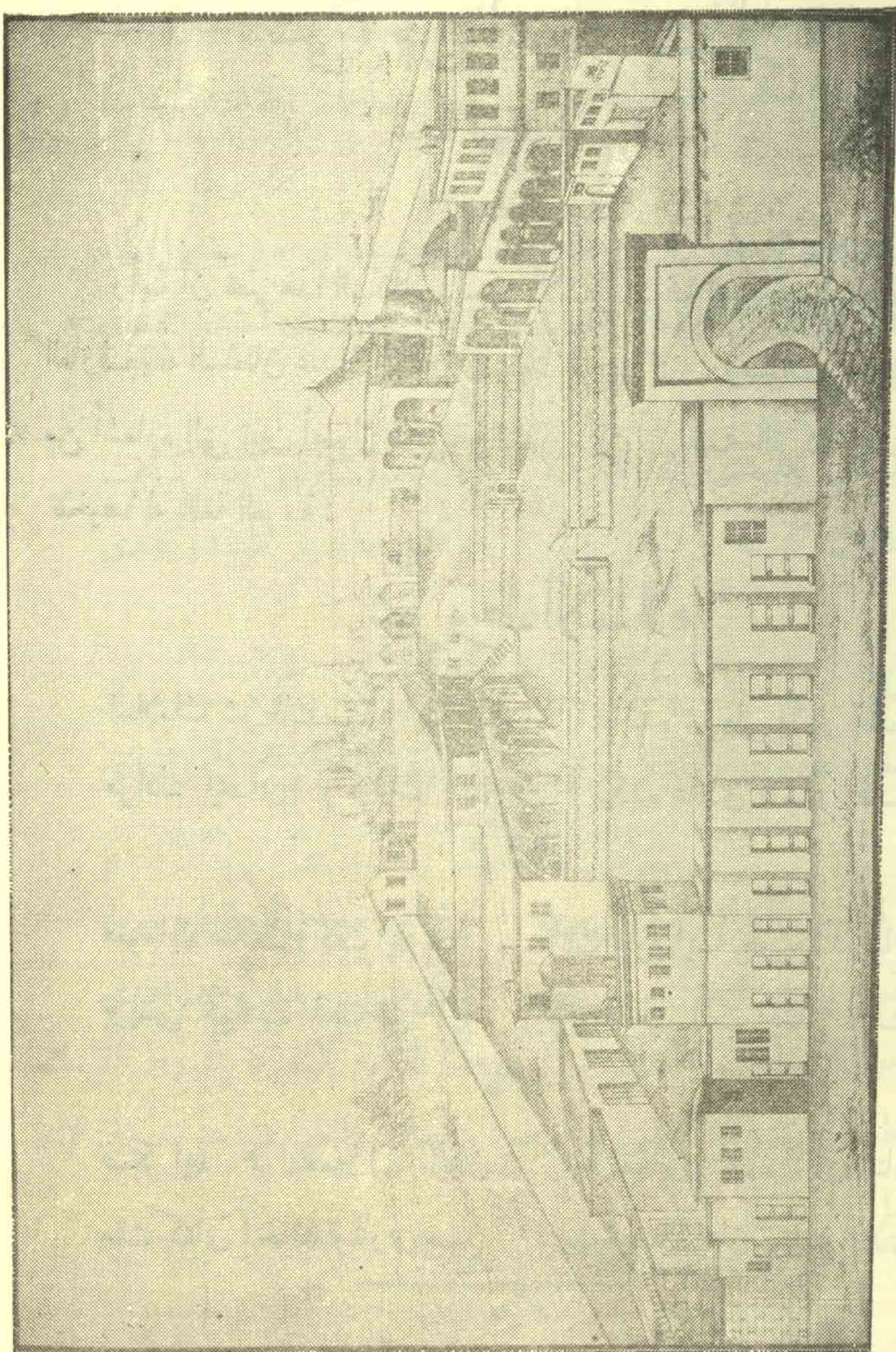
الى بلاد الارناؤط وأقام بها ستة شهور ، ثم عاد منها ، وبعد مرور مدة خرج الى السياحة فزار بغداد وكربلاء والنجف الأشرف وعاد الى مصر ، وقد أثرت متاعب السفر فى صحته وانقلب عليه المرض حتى انه اضطر الى السفر مرة أخرى استكمالا للعافية . فقام من مصر وهو متعب ووصل الى سلانيك وبالقرب من هذه المدينة توجد مدينة «قترينة» وتصادف أن انتقل شيخها جعفر بابا الى الآخرة

وبقى مكانه شاغراً فلما علم رجال الطريقة المنتسبين لهذه التكية بوصول المؤلف الى سلانيك دعوه لأن يكون شيخاً عليهم . فقبل رجاءهم وحصل على اجازة من أحد الخلفاء المقيمين بألبانيا وعين شيخا . وأقام بهذه المدينة عامين الى أن استبدل المرض بالعافية وزال ما يشكو منه ، وحينئذ عرض الأمر على شيخه لطفى بابا الذى أصدر أمره الشريف بعودته فلما وصل اليه هذا الأمر ترك المشيخة وأسرع الى العودة الى مصر .

وقد أنشأ منشآت جديدة فى خلال السنوات القليلة التى خلف فيها الشيخ الحاج محمد لطفى بابا ، منها النافورة الأثرية والسلسبيل المقامين أمام حجرة المطبخ والسلسبيل المقام عند مدخل الحديقة اليسرى وبرج الحمام ، والسلسبيل المقام فى الشرفة الواسعة الموجودة شرقى الجناح الخاص بالسكن والنافورة التى فى المصطبة والحديقة الجديدة التى ضمها للتكية والقبر الذى أنشأه لنفسه .

وأدخل النور الكهربائى فى جميع انحاء التكية فأنار المغارة الكبيرة ومرقد السلطان المغاورى ونثر الثريات هنا وهناك . وله نوايا وآمال خيرية سيقوم بها لدى حلول الوقت المرهون انشاء الله تعالى .





صورة جامعة التكية الحاج بكتاش الولى فى ناحية بكتاش ولى بتركيا ومقامه الشريف بها

شيء من أشعـــــــار

سيدنا عبدالله المغاوري

رأينا أن نختم هذا الكتاب ببعض الاشعار الدينية التي وضعها سيدنا ومولانا العارف بالله السلطان عبدالله المغاوري نفعنا الله ببركاته . وسنكتفي بنقل طائفة من أشعاره التي تبين أصول الدين، والشعر مكتوب باللغة التركية وسنذكر تلخيصا له باللغة العربية :

شروط الاسلام

اسلامك شرطك سؤال ايدرسك　　اجمالنده شرطي بشدر افندى
مرادك ايمانى اوكرنمك ايسه　　آنكده عددى ششدر افندى

***

صوم ايله صلات زكات ايله حج　　مالك چوق ايسه حق يولنده صاج
بريسى شهادت لسانني آچ　　بونه عجـــائب ايشدر افندى

***

فكر ايله هم پيغمبرلره اينان　　اينا نميانلردر هـم ناره ينان
ملك كتابي آخرتله اولمازمي حسن　　ايدرايسه ك ايماز خوشدر افندى

***

دين محمـد نبي جمله دن أجل　　أول غيرى دينلرى بيلمزم نصل
اوج فرضدن زياده دكيلدر غسل　　پاك، مضمضه، استنشاقدر افندي

***

بردەدرت بيليرز فرضي آبدستك　　كل سنده اوكرن وار ايسه قصدك
يومق ديرسكلرك پاي ايله دستك　　وجه رأسك باشدر افنـدى

***

أون ايكى شرطي واردر صلاتك　　قيـلوب انى منزلـنه ايلتك
عين اليقين وار ايسه غسلك　　اذ ده عددى ششدر افندى

***

حدثدن نجاستدن ايله طهارت　　أورت عورت يريني ايتمه كراهت
استقبال قبـله وقتيله نيت　　يوآلتي صايديغم طيشدر افندى

***

تكبير ايله الك باشنه كتور　　قيام قرائت ركوع سجود در
قعده اخيره ده برمقدار أوتور　　قيلارسه ك نه كوزل ايشدر افندى

***

(قيغوسز) أبدالك بيلديكي بويله　　وار ايسه نقصانى كل طوغرو سويله
صو بولنماز ايسه تيمم ايله　　ايكى ضرب بر نيت أوچدر افندى

ومولانا السلطان المغاوري يذكر في هذه القطعة الشعرية شروط الاسلام وشروط الايمان ويذكر شروط الوضوء والصلاة والطهارة مما هو معروف لدى كل مسلم .

الصلاة

أى امـير افنـدى　　بكا دخي نماز صورار ميسك
طور خبر ويره يم　　بكا دخي نماز صورار ميسك

ینار بو یوره کم اوددر   بیلمیانه مشکل دردر
صباح نمازی خود درت در   بکا دخی نماز صورارمیسك

کاه اغلرم کاه کولرم   تکریدن حاجت دیلرم
أوکله یی هم أون قیلرم   بکا دخی نماز صورار میسك

نماز صوروجیسك بیلدم   تفتیش ایتدم بن بولدم
ایکندی یی سکز قیلدم   بکا دخی نماز صورارمیسك

أقشام نمازی خود بشدر   آنی قیلمق بزه خوشدر
یاتسو نمازی اون اوچدر   بکا دخی نمازصورارمیسك

افندی صاریغك دکیرمی   ایشیت قولاغك صاغیرمی
تراویح نمازی یکرمی   بکادخی نمازصورارمیسك

کوندوزله کیجه قرق رکعت   اون یدی فرض یکرمی سنت
وتر واجب اوچ رکعت   بکا دخی نماز صورار میسك

کندمدن حیران أولورم   فرضی ، سنتی ، طانیرم
بریللق نماز بیلیرم   بکا دخی نمازصورار میسك

جاهلرده أولان امام   بونی بیلمز چوغی تمام
در تبیك التیوزسکسان سلام   بکا دخی نمازصورارمیسك

کیمه واجب در زکات   کیمه واجبدر صلات
یدیبیك بشوز التمش تحیات   بکا دخی نمازصورار میسك

کاملرده اولور همت   یاراداندن اللهه منت
یدی بیك ایکیوز سنت   بکا دخی نمازصورارمیسك

تمام اولدی چونکه نماز   کیمنی أوقو ، کیمنی یاز
التیبیك یوزیکرمی فرض   بکا دخی نمازصورارمیسك

کاملرده أولور عرفان   کوستر خواجه بنده نقصان
وتر واجب بیك سکسان   بکا دخی نمازصورار میسك

برنماز واردر جنازه   أوده کایر برکون بزه
(قیغوسز) کبی عقلسزه   دخی نماز صورار میسك

ویذکر مولانا فی هذه القطعة الصلوات الخمس ویذکر عدد الرکعات فی الیوم ویبین مجموع الفروض والسنن والرکعات الواجبة فی العام .

(نفس قیغوسز سلطان)

هر کوکلده معرفت کشف أولمیه
هر کیشی عمرنده لذت بولمیه

هرخارستانده تازه كولمى بيتر
هنرا هلنه ايريشمز هرهنر
صوكره شو مناجاتك علويتنه نه ديملى !

*

بزه اغيار أولانه حق يار اولسون
كوره يم دنياده برخوردار أولسون

*

بزم اوكمزجه قويو قازانه
اكا يارد مجى پروردكار اولسون
بزم ارد مزجه طاشلر آتانه
قوللرينه قوت الى وار اولسون

*

بزه بودنياده اولسون دينلر
دنيا لر طوردقجه عمرى وار اولسون
بزى جهنمه لايق كورنلر
يرى جنت مقامى كازار اولسون

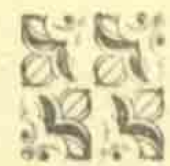
*

مزى هركيم كه بونده ذم ايدرسه
شفاعتجى اكا مختار اولسون
قيغوسز ابداله هركيم سوكرسه
حقدن نصيبى ديدار اولسون

فهرست

(تمت الرسالة الاحمدية)

هودوست



ابن الداية

أحمد بن يوسف الكاتب

- ٣٤٠ هـ

كتاب المكافأة

وحسن العقبى

حققه، وشرحه، وصححه

محمود محمد شاكر

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

[الطبعة الأولى]
رمضان ١٣٥٩
أكتوبر ١٩٤٠

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله

[أبو جعفر ، أحمد بن يوسف بن إبراهيم ، صاحب كتاب المكافأة وحسن العقبى ، لم نجد من ترجمه إلا ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ج ٢ ص ١٥٧ — ١٦٠ . وهذه الترجمة ـ على عادة شيوخنا رضوان الله عليهم ـ ناقصةٌ لم تستوعب شيئاً مما يحقق للمترجَم معنى الترجمة . وذكر ياقوت فى هذه الترجمة أباه : « يوسف بن إبراهيم » ، فذكر بعض خبره ، ثم ذكر أحمد بن يوسف ، وعدّد كتبه ، وذكر تاريخ وفاته ، ولم يذكر مولده . ونقل من هذا الكتاب القصتين المذكورتين برقم ١٣ ورقم ٢٦]

* * *

كانت أم « يوسف بن إبراهيم » ظِئْراً (١) لإبراهيم بن المهدىّ ، أخى هرون الرشيد ، [ولد إبراهيم بن المهدى سنة ١٦٢] ، وكانت مجدَّدة العَهْد ببيت الخلافة . وفى سنة ١٨٠ ولد للرشيد : أبو إسحق محمد بن هرون الرشيد ، وهو المعتصم أمير المؤمنين ، وفى هذه السنة ولدت أم يوسف ، ولدها يوسف ، فأرْضَعَتْه مع المُعْتَصِم . لهذا كان يوسف بن إبراهيم يعرف بابن الدَّايَة (١) ، لمكان أمّه من رعاية إبراهيم بن المهدىّ وحضانته وإرضاعه ،

(١) الداية والظئر واحد : وهى التى ترضع ولد غيرها وتحضنه

وكان يعرف برضيع المعتصم [1] ، لمكان رضاعه مع المعتصم وهو سَنِينه والناشئ معه

ونحن نرجّح أن يوسف بن إبراهيم نشأ مَعَ أبناء هرون الرشيد حتى مات الرشيد سنة ١٩٣ . فتخلّق بأخلاق بيت الخلافة حتى قال ياقوت عنه : « كانت له مروءة تامة وعصبيّة مشهورة » ، ويعنى بالعصبية انتصاره لأهل بيت الخلافة وتحققه بحبّهم وخدمتهم . والذى نراه أنّه وَلِع بالحساب والطبّ والأخبار والكتابة ، فأخذ عن جبرئيل بن بختيشوع طبيب الرشيد ، وعن إسماعيل بن أبى سهل بن نوبخت ، وأيوب بن الحكم ، وعن أحمد بن رشيد الكاتب ، وصحب إبراهيم بن المهدىّ فأخذ عَنْه

ثم لم يَزَلْ مع إبراهيم بن المهدىّ حتى صار حاسبه القائم بأمر ضياعه ، وكاتبه الذى يتولّى رسائله وصحبته وأسراره . وقد ذكر ولده أحمد بن يوسف « ص ١٣٦ » أنه ألّف كتاب أخبار إبراهيم بن المهدى . ولكن ياقوت الحموى خَلَط فى ترجمته ، فذكر أن يوسُف ألف كتاباً فى أخبار المتطببين ، واقتصر على ذلك . وأدْخَل « كتاب أخبار إبراهيم بن المهدىّ » و « كتاب الطبيخ » فى عدة مؤلفات ولده أحمد بن يوسف صاحب المكافأة . وهذا وهم فاسد ، فإنّ نَصّ كلام أحمد بن يوسف فى المكافأة « ص ١٣٦ » ، يدلّ دلالة واضحةً على أن مؤلّف هذين الكتابين هو أبوه : يوسف بن إبراهيم . وإنما رواهما

(1) انظر هذا الكتاب ص ١٣٦ ، وأخطأ ياقوت فقال : إنه رضيع إبراهيم بن المهدى

عنه أحمد بن يوسف ، وروى عنه أخبار إبراهيم بن المهدى أيضا : رضوان ابن أحمد جالينوس الصيدلانىّ ، ورواه عن رضوان أبو الفرج الأصفهانى ، وذكر بعض روايته عنه فى كتابه « الأغانى » .

ومما ترتاح إليه النَّفْس أنّ يوسف بن إبراهيم هرب إلى مِصْر أو الشام ، فى المدة التى استَتَر فيها إبراهيم بن المهدىّ بعد خلافته ومحاربته المأمون ، من سنة ٢٠٣ إلى سنة ٢١٠ ، إذ ظفر به المأمون فأخذه وعفا عنه واستبقاه . فلما رَجَع إبراهيم إلى بغداد ، وعاش بها فى أمان المأمون — رجع يوسف — وبقى معه إلى أن مات سنة ٢٢٤

وتزوّج يوسف بن إبراهيم ببغداد من بنت ميمونة مولاة حمدونة أم محمد بنت الرشيد [1] ، وهذه الزوجة ليست أم « أحمد بن يوسف » بغير شكّ . وقد ذكر أحمد بن يوسف فى المكافأة « ص ٥٦ » أخاً له لم يسمّه ، فلا ندرى أهو شقيقه ، أم أخوه أكبر منه من بنت ميمونة هذه ؟

وقد رَوَى يوسف بن إبراهيم [2] أنّه نزلَ دمشق سنة ٢٢٥ على عيسى بن حكم الدمشقى الطبيب ، فظاهرُ هذا أنّه فارق بغداد بعد وفاة إبراهيم بن المهدى ، ولكنّه رجع إليها وبَقِى بها إلى مابعد سنة ٢٢٧ ، وهى السنة التى مات فيها المعتصم . ويدل على ذلك خبرٌ رواه أبو الفرج الأصفهانِىّ فى أغانيه [3] ، يستبين منه أنّ

(1) ذكر ذلك فى المكافأة ص ١٢٧ - ١٢٨

(2) عيون الأنباء : ج ١ ص ١٢١

(3) ج ١٤ ص ١٠٦ - ١٠٧

يوسف بن إبراهيم كان ببغداد إلى وفاة المعتصم

فالراجح إذن أنّه رَحَل من بغداد إلى مِصْر بعد ذلك، فقد مات مولاه إبراهيمُ، ومات رضيعُه المعتصم، واضطربت الدولةُ اضطراباً شديداً. وكانَ هو قد اعتقد من المالِ ما يسوّغه النعمة في رغد العيش، فنزل مصر، وعمل في تقبُّل الضّياع، وحسن حالُه وظاهره، كما روى ذلك لولده «ص ١٢٦» م

ويدُلّ ما رواه أحمد بن يوسف في المكافأة «ص ١٣٦» على أن يوسف بن إبراهيم كان من كتاب مصر إلى سنة ٢٥٠، فإن حساب ضياعه كان في الدستورات القديمة التي طلبها أبو العباس بن بسطام ليعتبر منها عبر الضياع، فلما جاء ابن طولون عزله عن ذلك لما يعرف من أسبابه بالحضرة العبّاسية

ولم يزل يوسف بن إبراهيم بمصر إلى أن جاء أحمد بن طولون إليها سنة ٢٥٤. فلما استقر أحمد بن طولون بها جَعَل يُحكم أمر دَوْلتِه، ويأخُذُ بأفواه الطُّرق على كُلّ من لَهُ سببٌ إلى الحضرة العباسية (١). فمن ذلك ماجرى بينه وبين ابن مدبر، ثم ماكانَ من حَبْسه يوسف بن إبراهيم في داره ـ وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ـ [كما قال مؤلف المكافأة «ص ٢٨»] ثم أطلقه بعد ذلك

وقد ذكر ياقوت أن يوسف بن إبراهيم كانت له عصبيّةٌ مشهورة، وهي عصبيته لبيت الخلافة، فلما تُوُفّي بعث أحمد بن طولون خدمه فهجموا الدار،

(١) انظر المكافأة ص ٨٨

« وطالبوا بكتبه: مقدرين أن يجدوا فيها كتاباً ممن ببغداد » (١)، يعني الخليفة

فبيّنٌ أن وفاة يوسف بن إبراهيم كانت مابين سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠، وهو العهد الذي استقل فيه أحمد بن طولون بمصر واشتدّ فيه في ضبط المملكة لنفسه وولده. وأولى الأقوال بالصواب أن تكون وفاته في سنة ٢٦٠ أو بعدها بقليل؛ فقد روى صاحب المكافأة «ص ٢٩»، أن جماعة من مستوري مصر كانوا في مجلس أحمد بن طولون حين قبض على يوسف، وجاء في كلامهم أنهم قالوا: « إننا ثلاثون سنة ما فكرنا في ابتياع شيء مما احتجنا إليه، ولا وقفنا بباب غيره » يعنون «يوسف بن إبراهيم». فإذا صحّ أنّه قد دخل مصر بعد وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ فلا شك أن القبض عليه كان حوالي سنة ٢٥٨، وتكون وفاته بعد ذلك بعامٍ أو عامين على الأرجح

***

والراجح أيضاً عندنا أن يوسف بن إبراهيم تزوّج بعد أن دخل مصر سنة ٢٣٠، وأنّ أحمد بن يوسف يوم وفاة والده كانَ كبيراً مدركاً لا يقلّ عمره عن العشرين «انظر المكافأة ص ٥٦»، فمولده إذن فيما بين سنة ٢٣٥ وسنة ٢٤٥، وأقرب ذلك عندي أن يكون مولده في سنة ٢٤٠ أو نحوها، وعلى ذلك فأحمد بن يوسف عُمّر مائة سنة تزيد أو تقلُّ قليلا [مات أحمد سنة ٣٤٠]

فأحمد بن يوسف إذن مصريّ المولد مصريّ المنشأ مصريّ المَرْبَى،

(١) المكافأة ص ٥٦

تدلُّ على ذلك روايتُه فى كتابه هذا ، فإنّه لم يرو عن غيره من المصريّين ، ولم يحدّث إلّا عن أخبارهم ، أما أخباره الأخرى عن بغداد فهى مما رواه عن أبيه يوسف

وقد نشأ أحمد فى كنف أبيه ، فأخذ عنه ولعه بالكتابة والحساب والهيئة ، فقد قال ياقوت أنه « أحدَ وجوه الكُتّاب الفصحاء ، والحُسّاب والمنجمين : بجسطىّ أو قليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء »

وقد ذكر هو من شعره فى كتابه « ص ٢٢ » وفى « ٥٢ » ، وزعم أنّه كتب لأبى الفياض سوّار بن أبى شراعة الشاعر جزءاً منه ، فدخل به بغداد ، وعرضه على جماعة الأحرار ، واشتهر أمره ، حتى كان من ذلك ماقصه هناك من سؤالِ محمد بن سليمان عنه حين دخل مِصْر

والظاهر أن أحمد بن يوسف لم يَلِ شيئاً من أمر الكتابة فى مِصر فى عهد أحمد بن طولون ، لما كان يظن بأبيه من ممالأة الحضرة العباسيّة ، فانصرف إلى ضياعه وضياع أبيه يقوم فى أمرها . وكانت ضياعهم هذه فى جهة أهناس والبَهْنسا وسُمُسْطا فى صعيد مِصْر كما ذكر فى « ص ٢١ و٣٧ » ، وعمل كعمل أبيه فى تقبّل الضياع ، وفرغ للتأليف والكتابة

فألف كتاب المكافأة ، وكتاب حسن العُقبى [هذا المطبوع] ، ثم كتب سيرة أحمد بن طولون ، وكتاب سيرة ابنه أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن

طولون ، وسيرة هارون بن أبى الجيش ، وأخبار غلمان بنى طولون ، وكتاب مختصر المنطق ألفه للوزير على بن عيسى ، وكتاب الثمرة ، وكتاب أخبار المنجمين . وقد ذكر ياقوت فى عداد كتبه : كتاب أخبار الأطباءِ ، وكتاب الطبيخ ، وكتاب أخبار إبراهيم بن المهدىّ . وهذه الثلاثة هى كتب أبيه بغير شكٍّ كما مضى ، وأنا أرجّح أن كتاب أخبار المنجمين هو من عَمَل أبيه أيضاً ، ورواه هو عَنْه وزاد عليه

* * *

رأيتَ قبلُ أن يوسف بن إبراهيم وولده ، كانوا على عهد أحمد بن طولون مظنّة التهمة فى مراسلة الحضرة العباسيّة ، ولذلك أخذوا أخذاً شديداً ، وأخيفوا وراعهم مايلقى أنصارُ الخلافة العباسية من بطش ابن طولون . واستمروا على ذلك فيما نرجح إلى وفاة ابن طولون فى سنة ٢٧٠

وتولّى مِصْر بعده أولاده : خمارويه بن أحمد بن طولون إلى سنة ٢٨٢ ، ثم جيش بن خمارويه إلى سنة ٢٨٣ ، ثم هارون بن خمارويه إلى سنة ٢٩٢ ، ثم شيبان بن أحمد بن طولون وفى عهده انقضت دولة بنى طولون . والظاهِرُ أن أحمد بن يوسف كانَ مجاملًا لهؤلاء الوِلاةِ ، فلم يلقَ مِنْهم كيداً بعدُ الذى لقيه هو وأبوه فى عهد أحمد بن طولون ، ولذلك عُدَّ من أعوان الدولة الطولونية ، وكذلك توهَّم هو نَفْسَه

فقد ذكر فى « ص ٥٠ » قال : « لما دخل محمد بن سليمان مِصْر ، نزل فى

ظاهرها ، واستدعى الواحد بعد الواحد من أسباب الطولونية ، فاستصفى ماله بالسوط وعظيم الإخافة ، فراعنى أمره ، وخِفت أن يلحقنى عسفه » ، فلولا ماكانَ من اشتماله على المداهنة لولاة الطولونية لما خافَ هذا الخوفَ ، ولما استتر وتخفى من أصحاب دَميانة البحرى [١] الذى وكّله محمد بن سليمان باستباحة مصْر ، فنهبها أصحابه وأخذوا الأموال ، واستباحوا الأعراض ، [قال صاحب النجوم الزاهرة] : « ثم تعدَّوا إلى أرباب الدولة وأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرهاً ، وهرب غالبُ أهل مصر منها ، وفعلوا فى المصريين مالا يفعلونه فى الكفرة ، وأقاموا على ذلك أياماً كثيرة مصرّين على هذه الأفعال القبيحة »

كان ذلك فى سنة ٢٩٢ ، ولكنّ أحمد بن يوسف يقصُّ علينا فى «ص ٥٠ - ٥٢» كيف انتهى أمره مع محمد بن سليمان ، وكيف أجاره وحفظه ورعاه ، وكان أفضل عونٍ له فى أموره « ص ٥٢ » ، وأنه مالحقه شئٌ يكرهه حتى انصرفَ عن البلد « ص ٥١ »

وكان محمد بن سليمان هذا كاتباً ، وكان لايسمّى باسمه ولا بكنيته ، وما كان يُدْعى إلا بالأستاذ ، وقد كان أعظم ماعطفه على أحمد بن يوسف مارواه من شعره فاستحسنه ، حتى قال له : « والله لقد اشتقت الدخول إلى مِصْر من أجلك ! » « ص ٥٢ » . هذا ، على مايروى من أنّ حكمه فى أهل مصر كان

(١) انظر المكافأة صفحة « ٢٤ و ٢٥ »

بضرب أعناقهم ، وقطع أيديهم وأرجلهم ، وتمزيق ظهورهم بالسّياط ، وصَلْبهم على جذوع النّخْل ، ونحو ذلك من أصناف النكال . وحتى إنّه شرَّد رجال الدولة الطولونية ، ولم يبق بمصر مِنْهم أحد يذكر ، وخلت الديار وعفت الآثار ، وزالت الدولة الطولونية على يديه ، وكانت إقامته بمصر أربعة أشهر إلى مستهل رجب سنة ٢٩٢

وعاش أحمد بن يوسف بعد انقضاء الدولة الطولونية فى ظِلّ الولاةِ على ترتيبهم إلى الولاية الإخشيد ، ثم أنوجور بن الإخشيد ، ومات فى السنة السادسة من ولايته سنة ٣٤٠ . ولسنا نعرف على التحقيق شيئاً عن حياته فى ظِلّ هذه الدول ، ونستثنى صلته بالوزير على بن عيسى بن داود بن الجراح الكاتب البغدادى . فإنه ألّف له كتاب مختصر المنطق ، كما مضى ذكره . وكان على بن عيسى قدم من مكة إلى مصر ليكشفها فى سنة ٣١٣ وبقى بها ثلاثة أشهر ، ثم خرج عنها إلى الرملة ، وعاد إلى بغداد . ولم نجد فى كتابه هذا [المكافأة] ، مايدلُّ على شيءٍ من حياته وتصرّفه فى أعماله فى حُكْمِ الولاة من سنة ٢٩٢ إلى سنة ٣٤٠ ، ولعلَّه أقامَ واستقرّ وانقطع فى بعض ضياعه ، وكان دخوله الفسطاط قليلا

✡ ✡ ✡

كانَ عصر الدولة الطولونية فى مصر من أحسن عصورها فى ذلك التاريخ ، ولذلك أفرده أحمد بن يوسف بالتأليف كما ذكرنا قبل . وهذه الكتب التى كتبها فى سيرة الدولة الطولونية ، هى التى خلدت ذكره ، وسمّته بالكتابة ،

وجعلت قوله مشهوراً فى تاريخ هذا العَصْر

وليس بين يدىّ الآنَ شىءٌ مما كتبه فى سيرة ابن طولون، وقد بقى منها جزءٌ، فأرانى غير مستطيع أن أكتب عن حقيقة أسلوب الرجل فى التاريخ والرواية وتحرير القول. ولكن كتاب المكافأةِ أغنى بعض الغناءِ فى البيانِ عن شىءٍ من ذلك

فقد ساق أحمد بن يوسف كتابه هذا على مدرجة من القول فى المكافأة على الحسن والقبيح، وحسن العقبى فى الصَّبْر والتشدُّد ونفى الجزعِ عن النفسِ، وهو فى أكثره يروى الخبرَ عمن حدَّثه به أو يصوغ فى عبارته حكاية مالقيه أو شاهده أو استخرجه

وهو فى بيانه قليل التكلُّف، قريب اللَّفظ، بعيدٌ عن الغموض. وسهَّل له ذلك أنه بفطرته محدثٌ بارعٌ، أو كما قال ياقوت: «حسن المجالسة». فكانت سياقة كلامه فى كتابته أشبه بالحديثِ منها بالكتابة. وهو إذا عرض لغرضٍ أبانَ عنه بوضوح وترتيبٍ وتساوقٍ، ثم هو فى خلالِ ذلك جزلُ الرأىِ، مُحكم الفكرةِ، قريبُ الغَوْر

وسَبَبُ ذلك أن أحمد بن يوسف كان صاحب منطق، وحساب وهندسة، كما رأيت، ومن طبيعة التحقق بدراسة هذه العلوم أن تجعَل المرأى جزالةً وإحكاماً ليست لغيره ممن عَدِمَ النَّظر فيها والتمرس بها. وقد صدق الشافعى رضى الله عنه إذ يقول:

«من تعلّم القرآنَ عظمت قيمته، ومن نظر فى الفقه نَبُل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حُجتُه، ومن نَظَر فى اللغة رقَّ طبعه، ومن نَظَر فى الحساب جَزُل رأيُه، ومن لم يَصُنْ نفسه لم ينفعه علمه». ولم يخل أحمد بن يوسف من أكثر ذلك

وقد اعتمد أحمد بن يوسف فيما يقصُّه أن يتَّبع رأى الجاحظ فى رواية بعض القول على وَجْهه كما يجرى فى الحديث، غير مستنكر أن يكون فيه اللحنُ والخطأ فى اللغة، مادلَّ ذلك على حكايةِ لفظٍ يختَلُّ حالُه إذا أزيل عن الوجه الذى نطق به

ومع ذلك، ومع ما عرف عنه من حُسْن المجالسة، فإنّه كان ركيناً ثابتاً قليلَ الحظِّ من الفكاهة والسخرية والعبث، فقد جرى فى كتابه بعضُ مالو أُزيلَ قليلا عن وجهه لكان غايةً فى استدعاءِ الضَّحِك واستخراج الهُزأة، ولكنه كان يعدِلُ عن ذلك لقلّة حظّه من اللّهو، وكأنّ ذلك كان الأدب الذى أدّبه به أبوه من آيين (١) بيوت الخلفاء، ثم مالقى من الأحداثِ الكثيرة المفزعة التى كانت تنفِى عَنْه أفراحَهُ ونشاطه للّهو، ثم لما لعلّه كانَ فيه من الحرصِ الذى هو شيمة أصحاب التقبّل بالضياع والأموال وما شاكلها، وما لازمه مع ذلك من الخوفِ من أول حياتِه، كما رأيتَ من خبره يوم وفاة أبيه وما تبع ذلك، ثم طبيعة النَّفس وانصرافها إلى الفِكْر فى علم الحساب والنَّظر فى الهيئة

(١) الآيين: هو قريب مما نسميه الآن «الإتيكيت»

وقد استعمل أحمد بن يوسف في كتابه هذا كثيراً من الألفاظ المصرية التي لا تزالُ باقيةً إلى يوم الناسِ هذا ، وعرَض بعضَ العادات القديمة التي لا تزالُ تنحدرُ إلينا من ذلك العَصْر ، ولكنّه كان قليل الحَفْل بالبيان عنها وكشفها ووَصْفها واستيعاب القول فيها . وذلك لأنّه كان يرمي إلى غرضٍ بعينه ، فلم يَسِر في قصصه سيرة الجاحظ في الاستطرادِ والتوسّع ، وتشقيق المعاني العارضة في وجوهٍ كثيرةٍ . وكأنّ ما تعوَّده من الضبط في الحساب ، هو الذي حَمَله على الضّبْط في الحديث ، ولو فَعَل لكان في كتابه بعضُ التاريخ الاجتماعي الضائع للعصور العربيّة الزاهرة التي لا نعرفُ إلّا بعضَ رسمها وأشتاتاً من صفاتها

***

وبعد ، فهذا غاية ما أعانَ عليه الوقتُ ، وهو ما هو ، من ترجمة « أحمد بن يوسف » ، فإن تكُن في العُمْر بقيّةٌ ، نأتِ في ترجمته بما يعين الله عليه ، مع التحرير والضّبْط والتفصيل بعد الإجمال . وبالله التّوْفيق ، ومنا العجز والتقصير ؟

محمود محمد شاكر

مصر الجديدة :

ليلة الاثنين ١٢ رمضان سنة ١٣٥٩
١٤ أكتوبر سنة ١٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا أبو محمد عبد الله الفرْغانيّ ، قراءةً منّي عليه ، قال : أخبرنا أبو جعفر أحمدُ بن يوسف الكاتبُ ، قراءةً منّي عليه ، قال :

سَدّد الله فِكْرَك ، وأحْسنَ أمْرَك ، وكَفاك مُهِمَّك

إنَّ أشدَّ على المُمْتَحَنِ من مِحْنَتِه ، عُدُولُه في سَعْيه عن مَصْلحته ، وتنكُّبُه الصوابَ في بُغْيَته . ولكلِّ وِجهةٍ من الجَدْوى مأتًى تُسْتَنْزَل به عوائدُها ، ويقرُبُ معه ما استصعَبَ منها ، يستثيره حُسْنُ الرَّوِيّة ، [ويَهْدِي إليه] صالحُ التَّوْفيق

وقد رأيتُكَ لا تَزيد مَن رَغِبْتَ إليه ـ فيما تَحْدُوهُ على بِرّك ، وتحثُّه لِما أغفل من أمْرك ـ على نَصّ مكارِمِ مَنْ سلَفَ (١) . وترى أنّه يَهَشُّ إلى مُساجَلتهم ، فلا تَبْلغ في هذا أكثرَ من إحرازِ الفضيلة المرغوب إليه ، ولا تُوجِد في الراغب فضيلةً تحثُّه على شَفيع قَصْده (٢) . ولو عدلتَ عن مكارِمِ من رُغِبَ إليه ، إلى حُسْن مُكافأة من أُنْعِمَ عليه ، لكانت لك ذرائعُ يَمُتُّ (٣) بها الرّاغب ، تُوجِدُ

(١) نصّ الشيء ، ينصه : رفعه وأظهره
(٢) شفيع قصده : هو المكافأة والشكر
(٣) متّ إليه ، يمتّ : توسل إليه

المرغوبَ إليه سبيلاً إلى الإنعام ، وتَفْسَح أمَلَه فى مُوَاتَرة الإحسان (١)

ولم يُؤتَ الجودُ من مَأْتًى هو أغْمَض من مُغادرةِ حسنِ المكافأة . ولو أنعمتَ النَّظرَ فيها : لَوَجَدْتَها أقوَى الأسباب فى مَنْع القاصد ، وحيرةِ الطالب . ولو كانت تُوجد مع كلٍّ فعل اسْتَحقَّها ، لآثَرَ الناسُ قاصِدِيهم على أنفُسهم ، ولَجَرَوْا على السُّنن المأثورةِ عنهم

[وقد كتبتُ لك] فى هذه الرسالة أخباراً — فى المكافأة على الحسَن والقبيح ، تُنْعِم (٢) الخاطرَ ، وتقرِّب بُغْية الراغب — مما سمعناه عمن تَقَدَّمنا ، وشاهدناه بعَصْرِنا ، وبالله التوفيق

(١) المواترة : المتابعة

(٢) فى الأصل : « تعم »

١ — المكافأة على الحسن

خالد القسرى وديوانيانه

١ — حدثنى أبو محمد يحيى بن الفضل ، عن عبد العزيز بن خالد الأموى ، عن أبيه خالد ، قال : أخبرنى محارب بن سَلَمة كاتب خالد القَسْرىّ :

« أنَّ دِيوَانيانَ خالدٍ (١) أخرج من ديوانه وَثيقةً على بعض المتضمِّنين (٢) فدفعها إليه ببِرٍّ تَعَجَّله منه . فدعا به خالدٌ وأمر بقطع يده بين يديه ، فقال له : « اسْتَبْقِنى ، أصلح الله الأمير ! » ، فقال : « وما يكونُ منْ مثلِك ؟ » ، فقال له : « إنْ لم يُقدَّرْ فى الزمان رِفعتى إلى منزلتك ، فلا تأمَنْه على حَطِّك إلى مَنْزلتى ، فيكونُ منِّى ما تَحْمَدُه ! » ، فقال خالد : « أطلِقُوه ففيه عظيمٌ ! »

فلم يمضِ حَوْلٌ حتى وَرَدَ العراق يوسُف بن عُمَر متوليّاً لعمله فحبسه فى حُجرة من ديوانه ، ووكَّل بباب الحُجْرة جماعةً . فتدسَّس الدِّيوانيانُ حتى دخَل فى جُمْلتهم ، وتلطَّف للجماعة حتى رَأَسَها بالخِبْرة وحُسْن المداخلة . وتحرَّم (٣) خالدٌ طعامَ يوسف بن عمر — خوفاً من أن يكون مسموماً — فطوَى (٤)

(١) الديوانيان : صاحب الدّيوان وحافظه

(٢) المتضمن : الكفيل الذى يتحمل بأموال الضياع وخراجها وأدائها لبيت المال

(٣) تحرم الطعام : أمسك عنه فلم يقربه

(٤) طوى : تعمد أن لا يأكل ولا يشرب

وتأمَّل من ذلك الديوانيانُ ، فحمل فى منديلٍ نظيف ما يكُفّ جَوْعتَه من طعامٍ قد تأنَّق فيه ، ودخل إليه كالمتجسّس عن حاله ، فقال له : « أنا الدّيوانيانُ الذى عَفوْت عنه ، وهذا طعامٌ تأمَنُ فيه ما تخافُه من غِرّةٍ (١) » . فأقام أياماً يأتيه من طرائف الأطعمةِ والفواكه ما يَنْسَى به وَحْشته ، ويكُفّ فاقتَه ، ثم دخل إليه فقال : « ليس هذا الذى أفعلُه مقدارَ ما يقتَضيه إحسانُك إلىَّ ؛ وقد آستأجرت الدّارَ التى فى هذه الحَجْرة (٢) ، وأحضرتُ قوماً أثِقُ بهم من حُذّاق النقّابين ، حتى نَقَبْتُ سَرَباً إلى موضِعك (٣) ، ولم يبق إلا أن تركُضَ بعض بلاط هذا المجلس رَكْضةً فتُفضِىَ إلى السَّرَب . (٤) وقد أعددْتُ فى الدّار نجيبَين (٥) أحدُهما لك والآخرُ لى » .

فلمّا صَلَّى الديوانيانُ العصرَ أغلقَ البابَ ، ومضى إلى الموضع المُكْترَى (٦) ، وركضَ خالدٌ الموضعَ وخرج من السَّرَب ، وركبا نجيبيهما وحثَّا المسيرَ . فما فطِن بخالدٍ إلا فى غدِ ذلك اليوم ، فطلبته الخيلُ والنُّجب (٥) ففاتها . ولم يزلْ يُوضِعُ (٧) فى البلاد حتى لحق

(١) الغرّة . الخديعة ، وفى الأصل : « فى غرة »

(٢) الحجرة : الناحية

(٣) السرب : الطريق الخفى ، السرداب

(٤) ركض الشىء برجله : ضربه

(٥) النجيب : الخفيف السريع من الإبل ، والجمع نجب

(٦) اكترى الموضع : استأجره

(٧) أوضع فى الأرض : أسرع

مَسْلمة بن عبد الملك ، فشفَع له إلى هشام وردَّه إلى عمله

* * *

ابن مرزوق ومتضمن

٢ — وحدثنى هارون بن مَلُول ، قال :

« كنت عند أحمد بن خالد الصّريفىّ — وهو يتولَّى الخراج بمصر ، ووُجوهها عنده ، وقد أكبَّ على حاصلِ ما استُخْرج فى أمسِه ، وهو يقابل به ثَبَت المُصادرة (١) — ، فقال لصاحب حَمالته (٢) : « ما أرى آسمَ فلانٍ المتضمِّنِ فى هذا الحاصل ، وقد صادَرْنا بالأمس على خمس مائة دينار ؟ » فقال : « ما صحَّ له شىء ! » فقال : ٱبعَثْ إليه من يسحَبُه صاغراً حتى يَحْمِلَه على خُطّة المطالبة (٣) » ، فقال له رجل من المتضمِّنين يُعْرف بماشاء الله بن مرزوق : « الخمسُ المائة — أيدَك الله — تصحّ لهذا الرجل فى هذه العشيّةِ إن شاء الله ، إن أُعْفى ممّا قد أمرتَ به فيه » ، فقال : « هى عليك ؟ » ، فقال : « نعم ! » ، فتقدَّم إلى (٤) صاحبِ الحَمالة ألّا يَعرِض له . فالتفتَ إلىَّ ماشاء الله فقال : « تعرفُ هذا الرجل ؟ » ، فقلت : « نعم ! ومن العجب ألّا تَعرِفه ! » ،

(١) الثبت : الفهرس أو الدفتر (أو ما نسميه الآن الكشف) صادرت فلانا من حسابى على كذا ، وفارقته ، إذا قطعت الأمر بينك وبينه على أمر وقع عليه اتفاقكما

(٢) صاحب الحمالة : من أعمال بيت المال ، وكأنها وظيفة القائم بحساب المتضمنين

(٣) هذه العبارة كثيرة الورود فى كتب هذا العصر ، ويراد بها التعذيب للمطالبة ، على طريقهم فى ذلك

(٤) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به

فقال : « يا أخى أَمرٌ فى رجل يجرى مجرانا فى مَعاشنا بما لم أُطِقْ والله احتماله ، وعندى ضِعْف ما طُولِب به ، وكانت صِيانتُهُ أحبَّ إلىَّ مما حَوَيْتُهُ . فإذا لَقِيتَه فعرِّفه أنّى أُورِد المالَ عنه لئلا يُورِد المالُ مُضعّفاً » .

وانصرفتُ من مجلس أحمد بن خالد ، فلقيتُ الرجلَ فى طريق ، وهو مجدود (١) ، فسألته عن خبره وأخبرته الخبر ، فقال : « يا أخى ! ومافى هذا من الفرج ؟ إنما انتقلتُ من غمّ إلى رِقّ ! ومتى أقضى إلى هذا الرجل إحسانَه إلىَّ ؟ والله لوَدِدْت أنّ أمرَ السلطان نفَذَ فىَّ ، ولم أتحمّل هذه العارفة منه (٢) ! » .

قال أحمد بن يوسف ، فقال لى هارون : « وحضرتُ [مَوْتَ] ماشاء الله بن مرزوق بعدَ هذا بأربع سنين ـ فى الوقت الذى تُوفِّى ـ فاتّفق أنْ كان إلى جانبى رجلٌ قد ألقى بعضَ رِدائه على وجهه ، وهو يَعِجّ بالبكاءِ والشهيق (٣) ، ثم كشَف وجْهَه فكان الرجلَ الذى أَوْرَد ماشاءُ الله عنه الخمسَ مائة الدينار . فقال : « مَنِ الوَصِىّ من جماعتكم » ، فقال له الوصىّ : « ها أنا ذا ! » ، فقال : « عندى لهذا الرجل رحمه الله ألفَا دينارٍ وخمسُ مائة دينار » ، فقلت له : « حَدثت بينكما مُعاملة بعدى ؟ » ، فقال : « لا والله ، ولكنها الخمس مائة الدينار ، صرتُ بها إليه عند تَيَسُّرها فقال : « وما [أَبغِى بها] ؟ تكون عندك

(١) يريد أنه صاحب حظ وجدّ
(٢) العارفة : المعروف
(٣) عجّ يعج : رفع صوته بالبكاء أو الدعاء

إلى أوانِ حاجتى إليها » . فسألته [الإذن] فى شَغْلها . فقال : « هو مالُكَ ، اعمَلْ به ماشِئْتَ » . فلم تزل تَنْمِى وتَزِيد حتى بلغتْ هذا المقدارَ . فقال هارون : « ووجَدْتُ ماخلَّفه ماشاء الله لبناتٍ كُنَّ معه شيئاً نَزْراً ، فجَبَرَهُنَّ الله بذلك المال » .

* * *

ابن دعيم وأعرابى

٣ ـ وحدثنى أحمد بن دُعَيْم ـ وكان من خاصةِ قُوّاد أحمد بن طُولون ـ بعدَ أن ترك الديوانَ ، وحَسُنَ انقطاعُه إلى الله ، قال : « قلّدنى أحمدُ بن طُولون الصَّعيدَ الأوسط . وخرج عليه سوّارٌ أبو عبد الرحمن العُمَرىّ (١) ، فكتب إلىّ يستخبرنى عن حاله ، فأعلمتُه ضَعْفَ يده ، وانتشارَ أمره لِقلّة المال . وقبضتُ على رئيسٍ من الأعراب اتهمْتُه بمكاتبته وأنْهيت خبرَه إليه . فكتب إلىّ أحمد بن طولون : يأمُرنى بحَمْل الأعرابىّ ، [وجَمْع] ماقدَرتُ عليه من النُّجُب ، والشُّخوصِ إليه ؛ ليقِفَ من مُشافهتى على مالا تبلُغه المكاتبة . فامتثلتُ أمرَه .

فما سِرْتُ مَرْحلةً حتى لَحِقَ بى وُجوه تُجّار العَمَل ، ومعهم شابٌّ أعرابى ، وقالوا لى : « جئناكَ فى أمر هذا الأعرابىّ المحمول ، فإنّ معنا من يَبْذُل فى إطلاقه خمسَ مائة دينار » ؛ فقلت لهم : « قد أنهيتُ أمرَه إلى الأمير ! » ؛ فقال الأعرابىّ الذى معهم : « فَخُذْ

(١) فى الأصل : « القرنى » ، وهو أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد ، من ولد عمر بن الخطاب

الخمس مائة على أن تجعلنى مكانه » ؛ قلت : « أفعلُ » . فأحضرْتُ الأعرابىَّ ؛ وكان من عشيرتى ؛ فقلت له : « والله لقد كنتُ مغموماً بك حتى سرَّنى خلاصُك ! » ؛ قال : « بماذا تخلَّصْتُ ؟ » ، فقلت : « بَذَل لى رجلٌ خمس مائة دينارٍ على أن يكون بمكانك وأُطْلِقك ! » .

فقال : « ومن هذا الرجُل ؟ » ؛ فأحضرْته إيَّاه . فلمَّا رآه قال : « أمضِ لشأنك » ، ثم التفت إلىّ فقال : « يَحْسُنُ بشيخٍ مِثلى أن يَسترْبح فى المعروف ؟ هذا رجلٌ لقيتُه وقد أكبَّتْ عليه خيلٌ لتسلُبه ثيابه وما كان معه ، ففرَّقْتُها عنه حتى تَخَلَّص ، فرامَ أن يُخَلِّصنى بحصوله فى موضعٍ لا يخرُج منه أُخْرى الليالى ، و [هو] غرمٌ ثقيل على مثله . والله هذا مما لا أقبله ولا أرْكَنُ إليه » ، فقلت له : « انْصرِف فى حفظ الله فقد رَضِى الرجل » ، فقال : « والله لئن أمضَيْت هذا لأَلحقنّك ، ولأُخْبِرَنَّ الأمير بصَنيعك » ، فتوقفتُ ، وبكى الأعرابىُّ فقال : « إذا كان مَحْبِسُ الأميرِ على ما تَصِف ، وليس ترجُو خلاصاً منه : فما أعمل فى عارِفتك عندى ؟ وأنا أنْشُدك اللهَ لما قبلْتَ مِنِّى ما بذلته وأعظمَ منه ؛ وأزلتَ هذه العارفة عن عُنُق ؛ فإنَّ عاراً و نقيصةً على الكريم أن يموتَ وعليه دَيْنٌ من ديون المعروف » ؛ فقال له : « إذا رأيت رجلا أحاطتْ به خيلٌ تُريغ سَلْبَه (١) فذُدْتَها عنه ؛ فقد كافأتَ عارفتى ؛ أنصرفْ مُصاحَباً (٢) » . فعرض عليه ما معه من المال ؛ فقال : « ما بى إليه

(١) تريغ : تريد وتحتال
(٢) مصاحباً : تصحبك السلامة

حاجةٌ ! » ، فأكبَّ على رأسه ورجليه يقبّلُها ويبْكى ؛ فأبكى جماعتَنا

فلمَّا دخلتُ على أحمد بن طولون شافهتُه من خبر العُمَرِىِّ بما سرَّه ؛ وعَرَضت عليه النجُب ؛ فقال : « حسنة والله » ؛ فقلت : « معى أيها الأميرُ ما هو أحسنُ من هذا » ، وحدَّثته الحديثَ . فأحضر الأعرابىَّ وخَلَعَ عليه وأثبتَه فى ديوانه ، وأمرنى بإنفاذِ رسولى معه فى الأعرابىِّ الآخر ، فلمَّا وافى خَلع عليه وأثبته . فلم يزالا فى خاصَّته إلى وفاته

* * *

أبو مصلح ومحبوس

٤ — وحدثنى موسى بن مُصلح المعروف بأبى مصلح ـ وكان هذا من الثِّقات عند أحمد بن طولون ـ

أنَّ أحمد كان يُراعى أمر المحبوس حتى يَمضىَ له حولٌ (١) ، فإذا جازه لم يذكره . وكان يقول لى سِرًّا : « إذا تبيَّنْتَ من رجلٍ براءة ساحة فسهِّلْ عليه واستأمِرْنى (٢) ؛ فإنى أستعملُ التشدُّدَ للضرورة إليه » ،

قال موسى بن مُصلح : « وكان فى الحبْس رجل قد زادَ على سنتَيْن منقطِعاً إلى الله برغبتِه ؛ لا يسأُلنا شيئاً من أمره ؛ وهو يُكِبُّ على الصلاة والتّسبيح والتضرُّع إلى الله

فقلتُ له يوما : « الناس يضطربون فى أمورهم ؛ ويسألونى إطلاقَ الرُّقعة (٣) إلى ذَوِى عِناياتِهم ؛ وأنتَ خارجٌ عن جُمْلتهم ؟ » ، فجزانى

(١) الحول : السنة
(٢) استأمره : شاوره
(٣) إطلاق الرقعة : يعنى إرسال الرسائل

خيراً (١) . ورقّ قلبي عليه وكَبُر في نفسي محلُّه ، فخلوتُ به وقلت له : « لو استجزتُ إطلاقك بغير إذنٍ لفعلتُ ؛ ولكن استعِن بي في أمرك » . فقال : « والله ماأعرف في هذا البلد غيرَ أبي طالب الخليج ـ وكان هذا الرجلُ يتولّى شُرْطتَيْ أحمد بن طولون بمصر ـ ولو وصلتُ إليه سِرًّا ؛ أو برسالة مع من (٢) يفهمُ ؛ لرجَوْتُ تسهيلَ أمري » فقلت له : « والله لآتينّ في أمرك ماأُخطِر به على نفسي . أنا أُطلقك سرًّا على أن تَوثّقني بأيمان مُحرِّجة أنك لاتهرُبُ عنّي ولا تُخفِرُني » (٣) ، فقال : « إذا كنتُ عندك بمنزلة مَنْ يُشكُّ فيه ؛ فلا حاجة لي بإخراجك إيّاي » . فوافقته ـ من غير يمينٍ ارتهنْتُه بها ـ على أن يقيمَ ثلاثة أيام ، فأطلقتُه ليلةَ الجمعة ، وفارقْتُه على أن يصيرَ إليَّ ليلةَ الاثنين

فلمّا كان سَحَرُ يوم السبت ، وافاني كما فتحتُ (٤) باب السجن ، فلمّا دَخَلَ سَجَد وحَمِد الله ، وقال لي : « بعثتُ إلى أبي طالب الخليج امرأةً من أهلنا وطَوَيْتُ عنه إطلاقي ، وسألته أنْ يَلْطُف في أمري فوعَد بذلك ، وخلّف المرأة حتى ترجعَ إليَّ بالجواب . وركب إلى

(١) جزاه خيراً : قال له ، « جزاك الله خيراً »

(٢) في الأصل : « بمن »

(٣) أخفر ذمته : نقضها

(٤) كما فتحت : يريد (حين فتحت) وقد ورد هذا الحرف في كثير من كتب هذا العصر ؛ وانظر هذا في آخر القصة (٦٨)

الأميرِ عَشِيّةَ الجُمُعَة ، فأقام إلى قريب من العَتَمَة ، ثم انصرفتْ إليَّ المرأةُ فقالت : « وافَى أبو طالب الأميرَ وهو مغمومٌ ، فقال لي : « كلّمته فيه فقال : « والله لقد أذكرْتَني رجلاً يحتاج إلى عُقوبة ! » ، ثم تقدَّم إلى رجلٍ أن يَصِيرَ بك إليه عند جُلوسه في يوم السبت ، ووَجّه إليّ أن أرجعَ إلى الله عز وجل في أمْرِك ، فليتني لم أتكلّم فيك ! » . فسَحِرْتُ (١) ـ مع ما تيقّنْتُه في أمري ـ خوفاً أن يأتيَك رسولُه فلا يجدُني ، فيلحقَك مكروهٌ منه . ورأيتُ كُلَّ ما يُوعِدُني به أسهلُ عليَّ من أن أُخفِرَ ظنَّك بي ، وتقديرَك فيَّ »

فما ترَجّلَ النهارُ (٢) حتى وَافَى الرجلُ فتسلمه منّي . وحضرتُ الدّار ـ وقد أحضره أحمد بن طولون ، ومجلسُه بين الخاص والعام ـ فلمّا رآه بكّتَه بالإجلاب عليه في الثَّغْر (٣) . فاعتذر بعُذْرٍ قَبِلَه ، ولقيَه بالرأفة ، بضدِّ ما خِفْتُه عليه ، وأطلقه . فكان من آثَرِ إخواني عندي (٤) إلى أن فرّقت الأيّام بيني وبينه »

٭٭٭

ابن أسباط والخناق

٥ — وحدّثني عمي إسحاق بن إبراهيم ، قال :

(١) سحر : بكر في السحر

(٢) ترجل النهار : ارتفع ، كما يرتفع الرجل عن الصبا

(٣) أجلب عليه : أعان عليه عدوه ، والثغر : موضع المخافة من أطراف البلاد

(٤) من آثرهم : أي من أحبهم وأقربهم

« انتظرتُ أبا عبد الله الواسطيَّ ـ كاتبَ أحمد بن طولون ـ فى داره ، حتى رَجَع من عند أحمد بن طولون . فأوصلَ إليه بعضُ الحُجّاب ثَبَتَ من وقف بالباب ، فرأى فيه إسماعيلَ بن أسْبَاط فسأل عنه . فقيل له : « وقف بالباب طويلاً وآنصرَف » . فقال : « إنّ هذا الرجلَ ممّن عَمَر هذه المنزلةَ مدّةً طويلة ، ولست أشكُّ أنّ مجيئه لحاجةٍ له ، ومن الجميل أن أركبَ إليه فأقتضِيَه حوائجَه ، وأبْلُغ فيها مَحبّته » . ثم ركبَ وسِرْتُ معه ، حتى دخلنا دارَ إسماعيل ابن أسباط ـ وهى التى ملكها الشّيرُ بعده ـ ، فرأينا داراً عاريةً من الستورِ والفُرُش ، وتأمّلنا مَنْ فيها من الحَشَم على حالٍ سيئةٍ . فآستقبله إسماعيل بالشُّكر والدعاءِ له ، فقال له الواسطى : « إنه لا فرقَ بينك الساعةَ عندى فى المرتبةِ التى كنتَ فيها . ومن جَمالنا فيما أفضى إلينا أن نُحْسِن فيه خِلافةَ من تقدّمنا ، وأن نراهم كالآباء المستحقّين البرَّ من أولادِهم » . وسأله عن حاجته ، فقال : « أُخبرُك بها بعد أن أحدّثك بشىء يدُلّ على أنّ المعروفَ ينفعُ عند مستحقّه من غيرِ المستوجبين له »

« كانتْ لى ـ أيّدك الله ـ دارُ خيلٍ نحو المَنْظَر [١] ، وكنتُ أركبُ إليها فى غداةِ الليلة التى أُعاقِر فيها إخوانى . فركبتُ إليها يوماً فألفيتُ فى الصَّحراء جَمْعاً من العامَّة ، وقد ضاقَتْ بهم ، ومعهم عاملُ المَعُونة . واستقبلَتْنى امرأةٌ قد هَتَكَت سِتْرَها ، وكَشَفَت

(١) المنظر : يريد الصحراء

شَعَرَها ، فقالت : « ياسيّدى ! أخى ، وواحِدى ، وكافِلِى ، يُعْرَض على القَتْلِ الساعةَ ! » . فعدَلْتُ إلى صاحب المَعُونة وسألتُه عن حالِ الناس ، فقال : « اجتمعنا لضَرْب خَنّاقٍ بالسوط » ، فقلت له بحضرة الناس : « ماحقُّ هذا إلّا الإحراقُ بالنّار ، وأنا أكتب فيه إلى السلطان » ، فأعلنَ الجميع بالدُّعاء لى ، وانصرَفُوا . فسألتُه البِعْثَةَ بالخَنّاقِ إلىَّ ، فوعدنى بذلك فى المساء . فلمّا صلّيت عِشاءَ الآخرةِ أنفَذَ إلىَّ منه شابًّا مُكْفَهِرَّ الوجه لا تَخْفَى قَسوَتُه ، فقلت له : « أما تَسْتَحِى من الله وتخافُه فى طُعْمَتِك ؟ [١] » ، فقال : « ياسيّدى ! أنا أُشْهِد اللهَ أنى لا أعاوِدُ هذا الفعلَ أبداً » ، فأوصيْتُه بخير ، وأضفْتُ إليه من أخرجه عن البلد فى حالِ سَتْرٍ »

« وأقمنا بعد ذلك سنين ، وتقاصَرَتْ أمورُنا وتغيّرت أحوالُنا بتقليدِ إسحاق بن تميمٍ علينا . فلمّا بَلَحْنا [٢] بما نُطالَب به ، أشخصَنى وأخى أحمدَ إلى الحضرة ، فطالبَنا الوزيرُ بما لفّقه آبنُ تميمٍ علينا ، فشكونا إليه شدّةَ اختِلالِنا [٣] ، فقال : « فُلان ! » فوافاه رجلٌ بمنزلةٍ أثيرةٍ [٤] عندَه : غليظ الطَّبْع ، كريهِ الوجْه ، تتأمَّل الشرَّ فى سجاياه ، فقال : « استخرِجْ من هٰذين مائةَ ألفِ دينارٍ اليومَ » .

(١) الطعمة : طريقة كسب الرزق ، يقال : « فلان طيب الطعمة أو خبيثها »

(٢) بلح الغريم : أفلس

(٣) الاختلال : الحاجة والفقر

(٤) أثيرة : مكينة مقربة

فانتزعنا من بين يديه بفظاظةٍ أيقنّا بالهلكة. ثم صارَ بنا إلى حُجْرةٍ له في دار الوزير، فسألنا عن بلدنا ونِسْبتِنا، فلما سمع «أسباط»، سكن فَوْرُه ورَقَّ قلبه، وقال: «من تكونون من إسماعيل؟»، فقلت: «أنا إسماعيل!» فبكى وانكبَّ على رأسي ورِجلي، وقال لي: «ياسيِّدي! أتعرفني؟»، قلت: «لا»، قال: «أنا الخنّاق الذي أطلقتني بمصر! ووالله ماخنقتُ أحدا بحمدِ الله بعد إطلاقي، ولكنَّ شراسةَ طبعي عدلَتْ بي عن الزّهادة إلى مادون الخنْق، وهو استخراجي للوزير الأموالَ بالتّعذيبِ، وقد وَجد عندي فيه مالم يجدْه عند غيري». ثم طعن[1] في تلك الحُجْرة فأخرجَ إليَّ صندوقاً يحمله غُلامان، فقال: «في هذا من المالِ والحلْيِ ما نكتفي به، فقوموا بنا حتّى نهربَ لئلّا يقعَ بكم بأس». فأعلمته أنّا نخاف في الهرَب تتبُّعَ الولدِ والأهل. فرجع إلى الوزير يبكي بين يديه ويحدثه محلّنا ـ كانَ ـ وما أوليْناه، فعجِبَ الوزيرُ من رقّته علينا، لما وقفَ عليه من فظاظته، وكان ـ شهِدَ اللهُ ـ أقوى الأسباب في دَفْع المطالبة عنّا

«ثم سأل أبا عبد الله الواسطيَّ ـ بعد هذا الحديث ـ حوائجَ وقَّع بها في مجلسه، ووكَّل بها مُتَنجِّزا من خاصَّته، ولم تزل ألْطافه[2] تعتاده إلى أن تُوفِّيَ».

(١) طعن في الحجرة: أخل ومعند

(٢) المتنجز: المتعجل. الألطاف: جمع لطف، وهي التحفة والهدية

***

٦ ـ وحدثني يوسف بن إبراهيم والدي، قال: حدَّثني إبراهيم ابن المهدي عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس، عن أبيه: محمد بن علي ومسلمة

أنه كان مع أبي عبد الله محمد بن عليّ ـ أبي الخُلَفاء ـ برُصافة هِشامٍ بعد وفاة أبي محمد عليّ بن عبد الله، وأنّه أقام ثلاثةَ أشهرٍ برُصافة هشامٍ لا يأذنُ له هشامٌ عليه، إلى أن بَلَغَ أبا عبد الله إجماعُ مَسْلَمةَ القُدومَ على هشام، فتلقّاه على أميالٍ من الرُّصافة، وشكى إليه جَفْوةَ هشامٍ وتأخيرَه الإذن عليه. فقال له مسلمة: «أرجو أن يزولَ هذا بقُدومي»، وأمره أن يُقيم بباب هشامٍ إذا دخل عليه مسلمةُ، ولا يَريمُ ما أقام مسلمةُ عنده[1]؛ فأقام أبو عبد الله إلى وقت زَوالِ الشمس

قال عيسى بن علي: فخرج مسلمةُ إليه، فقال له: «قوِّضْ رَحْلَك أبا عبد الله! فما لكَ عند الرجل من خيرٍ! لأنّي خاطبته في أمرك ـ بعد ما انقضى سلامي عليه ـ: «محمد بن علي بن عبد الله على شابكةِ رَحِمِه برسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يقيم ثلاثةَ أشهرٍ ببابك فلا يؤذن له عليك؟» . فقال: «أُلْهُ عنه أبَا سعيد»، فأمسكت حتى حَضَر الطعامُ، فأعلمتُه أني لا أستجيزُ الأكلَ وإنّه قائمٌ على الباب! فغضب غضباً زاد به حَوَلَه[2]، وقال: «يسمّى

(١) لايريم. لايبرح مكانه

(٢) كان هشام بن عبد الملك أحول

أبنَيْه عبدَ الله وعبدَ الله ، ويرجُو بهذا أنْ يَلِيَا الخِلافةَ ، ثم يَطْمَعُ فى خيرٍ منّى ! والله لولا ماسَّةُ رَحِمه برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لقطَعْتُ من وسطه شِبرا (١) »

ثم عانقَ أبا عبد الله ، وقال : « رسُولى إليك صائرٌ » . فرجع أبو عبد الله إلى رحله فقَوَّضه ، وبقى فى حَيْرة لعجْزه عما يُنْهِضُه . ووافاه رسولُ مسلمةَ يقول : « لم أقدرْ فى سَفَرى هذا طولَ اللُّبْثِ ، وأُشْهِد الله أنى ما حملتُ معى إلا ألفاً وثلاثمائة دينارٍ ، وقد وجَّهتُ إليك بالألف ، وخلَّفتُ الثلاثمائة لنفقتى » قال إبراهيم بن المهدى : فحُدِّث بهذا الحديثِ الرشيدُ فى حَديثة المَوْصل فبكى ، وقال : « وَصَلَتْ أبا سعيدٍ رَحِمٌ ، والله لادخلْتُ الرِّقَّة حتى أقضىَ عارِفتَه عندنا ! » . فلما وافَيْنا حصنَ مسلمةَ ، أحْصَى مَنْ فيه من وَلَده الذّكورِ والإناثِ فوجَدَهم أربعين ، فأمرَ لهم بأربعين ألف دينار »

***

ابن نصير والورّاق

٧ — وحدّثنى أحمدُ بن وليد ، قال :

« ودّعت إسحاقَ بن نُصير العِبَاديَّ فى بعض خَرَجَاتى إلى بغداذَ ، فأخرج إلىَّ ثلاثة آلاف دينارٍ وقال : « إذا دخلتَ بغداذَ ، فادفَعْ ألف دينار إلى ثَعْلَب ، وألف دينار إلى المبرِّد ، وصِرْ إلى قَصْر وَضّاحٍ ، فانظُر إلى أوّل دُكّانٍ للورّاقين ، فإنك تجد صاحبَها — إن كان حيًّا لم يَمُت — قد شَاخَ ، فاجلِسْ إليه وقُلْ له : « إسحاق بن

(١) يريد : لخصيته

نُصَير يقرأُ عليك السَّلام : وهُو الغلامُ الذى كان يقصِدُك كُلَّ عَشيَّة — راجلا من دارِ الرُّومِيِّين — بدُرَّاعة (١) وعِمامةٍ ونعلٍ رقيقة ، فيستعيرُ منك الكتابَ بعد الكتاب ، فإذا اقتضيتَه كِرَاءَ ما نَسَخ منه (٢) قال : « اصبِرْ علىَّ إلى الصُّنع (٣) » . فإذا استقرَّتْ معرفتى فى نفسِه دفعتَ إليه هذه الألف الدِّينار وقلت له : « هذه ثمرةُ صَبْرك علىَّ »

قال لى أحمدُ بن وليد : فلمّا دخلتُ بغداد — ودفعتُ الألفَيْ دينار إلى ثعلب والمبرِّد — ، مضيتُ إلى قصرِ وضّاحٍ ، فألفيتُ الدكّان التى وَصَف لى قفرًا ليس فيه كتابٌ ، ورأيتُ فيها الشيخَ الذى وصَفَه لى فى حالٍ رثَّةٍ وثيابٍ خَلَقة (٤) ، وقد أفضى به الأمرُ إلى التوريقِ للناس (٥) . فجلست إليه وسألتُه عن حالِه ، فقال : « يا أخى ! ماظنُّك بحالٍ : ما تتأمَّـله فى أحسنُ مافيها ؟ » ثم خَرَجْنا إلى المسألة إلى أشياءَ كان فيها خَبَرُ إسحاقَ بنِ نُصَير ، فقال : « قد كان يجيئُنى من دَارِ الرُّوميين غلام — ووصفَهُ — فأسْمَح له بالنُّسْخة بعد النُّسخة — يقال له : « إسحاق » ، وكان يَعِدُنى فى كلّ شيءٍ يأخُذه إلى الصُّنع ، وأُخبِرْتُ أنه وَقَع بنواحى مِصْر وما حَصَل لى منه شىء !؟ » فأخرجْتُ الألف

(١) الدرّاعة : جبة مشقوقة المقدم
(٢) الكراء : أجر المستأجر
(٣) الصنع : يريد صنع الله ولطفه
(٤) خلقة : بالية
(٥) التوريق : نسخ الكتب — على الورق — وتجليدها . وهو الورّاق

الدّينار وقلتُ له ، يقول لك : « هذه ثمرةُ صَبْرِك » ، فكاد والله يموتُ فرحا . فقلت له : « ليستْ دراهم وهى دنانير ! » . وانصرفت عنه وهو أحسنُ من فى سُوقه حالاً .

قال لى أحمدُ بن وليد : واجتزت بعد ذلك فرأيت دُكّانه معمورةً ، وهو متصدِّرٌ فيها على أحسنِ حالٍ وأوفاها .

***

ابن الزنق والقاسم بن شعبة

٨ — وكان بنَحْوِ دارِ العُنْقودِ شيخٌ يتنخّس (١) فى الدَّوابِّ — يُعْرَف بابن الزّنق — قد لَحِقَ بمصر أكابرَها ، ورأيتُه فى أيام أحمد ابن طولون قد عَلَتْ سِنه ، وضَعُف عن التصرُّف . وكان له ابنُ أخت — خفيفُ الروح ، مقبولُ الصورةِ ، حُلْوُ الألفاظ ، يتنخّس فى الدَّوابِّ — نَخِفّ على قلب القاسم بن شُعبَة . وكان شُعْبَةُ من أكابر أصحابِ أحمد بن طولون ، ومات فى طاعته ، فردّ إلى القاسمِ ابنِه إحدى الشُّرْطَتين بمصْر . فانصرَف ابنُ أخت ابن الزنق من عند القاسم وقد خَلَع عليه دُرّاعة خَزّ من تحتها جُبّة مُلْحَم (٢) ، فنظر إليها خالُه ابن الزنق ، فقال : « ماهذه الخلعة الرائعة ؟ » ، فقال : « خلعها علىّ القائد . ! » ، يريد القاسم بن شُعْبَة . فقال : « يا بُنَىَّ ! إن كنتَ تَصبِر على التَّدَلِّى معه فى مِحَنِه ، كما تَتَدَلّى فى نِعَمِه ، وإلاَّ فاعتزلْه ، ولا تَفْضَحنا بالقعود عنه فى نَوَائبه » ، فقال : « أرجو أنْ يصونَه اللهُ

(١) النخاس : بائع الدواب . ويتنخس فيها : يتجر

(٢) الملحم : ضرب من الثياب تختلف لحمته عن لحمة غيره فى نوعها

وما أنعم عليه به ، من نائبةٍ تَلْحَقه ، أو مكروهٍ يقع به » ، فقال : « وأنا أرجُو هذا أيضاً له ، ولكنْ ينبغى أن لا تَنْسَى نصيبَه منك فى الشِّدَّة ، كما عُنِىَ بك فى النِّعْمة » .

واتّصل بأحمد بن طولون عن القاسم بن شعبة شىءٌ أنكره ، فحبسه ووكّل بداره جماعةً ، واختفى النَّخَّاسُ فى دارِ خاله . فسأله بعد يومَيْن عن سبب مُلازَمته المنزل ، فقال : « وَجَدتُ عِلَّةً » ، إلى أن اتّصل الخبرُ بالشَّيخ ، فدخل إلى ابن أُختِه فقال : « قبَّحك اللهُ ! سرقْتَ معروفَ هذا القائدِ ، وخلَّيته يُقارِع شَجْوَه بمِحْنَته ؟ ! » . وأسرجَ حماراً له وركبه ، وجيرانُه يناشدونه اللهَ ألَّا يَفْعَل ، فقال : واللهِ القَتْلُ أحسنُ مما أتى به هذا الوَغْدُ » .

ثم قصد دارَ القاسم بن شُعبة — وعليها جماعةٌ من الموكَّلين وأصحاب الأخبار (١) — ، فوقف على الباب فقال : « كيف حالُ القائد أبى محمد أيَّده الله ؟ » ، فقالوا : « امْضِ يا شيخُ » ، فقال : « ما أمْضِى حتى أُبْلِىَ عُذراً ! هذا رجل قد لَزِمَتْنى له عارفةٌ ، وهذا أوانُ تَقَاضيها » . فوقع خبره إلى أحمد بن طولون فأحضره ، وقال : « ما كنت تَعْمَله للقاسم ابن شعبة ؟ » ، قال : « أَوْلانى فى بعضِ أقاربى جميلاً ، فانتَصَبْتُ الساعةَ لما يحتاجُ إليه ؛ وما أحقَّ الأميرَ أن يَفْضُلَنى بحُسْنِ المكافأةِ عن طاعةِ والدِه له ، فقد كان مشهورا بها ! » .

فحدّثنى أبو العباس الطَّرَسُوسِىّ . أنّ أحمد بن طولون قال له فى

(١) أصحاب الأخبار : الجواسيس

هذا المجلس : « ما أحسنَ ما اهتدى هذا الشيخ إلى إذكاري بحقِّ قاسمٍ وعَطفنِي عليه ! » ، ثم أحضر القاسم بن شُعْبة وخَلع عليه خِلعَةَ رِضًى ، وصَرَفه إلى منزله . وعَدَل الشيخ ولم يدخل معه داره ؛ وانصرف إلى بيته وقد قام بما قَعَد عنه ابنُ أخته

* * *

هارون بن ملول وابن تميم

٩ — وحدثني هارون بن مَلُّول ، قال :

لما مات أبي وَرِثتُ منه مالاً جَمًّا ومُسْتَغَلَّاتٍ نفيسةً ـ وكان يَقْصُرُني على زيِّ التجار ، ويَمنَعُني من التَّخَرُّق (١) والسَّرَف في الهيئة ـ ، فعَمَدْتُ إلى أثوابِ وَشْيٍ سَعِيدِيٍّ (٢) كانت في المتاجر التي خَلَّفَها والدي فقطعْتُها ، وقَطَعْت لخدمٍ ـ أرتَبِطُهم للتجارة ـ من المُلَحَّم والدِّيباج مالا يتسمح به أحدٌ من أبناء الترفه . وجلستُ في الوَشْي ، وقامَ الغلمان بين يديّ فيما قطعْته لهم

ووافانا إسحق بن إبراهيم [بن تميم] مُفتَقِدا ، فتأمَّلني فقال : « لقد سرَّني بُعْدُ يُتْمَتِك وحُسْنُ زيِّك (٣) ، بارك الله عليك ، وأحسَن إليك ! » .

ثم وافى جماعةٌ من إخوان أبي وأصفيائه ، فوالله ما أنكر عليّ واحدٌ منهم ماخرجتُ إليه من زيّ أسلافي . فلما كان في عَشِيّ ذلك اليوم ، ووافاني رسولُ إسحاق بن تميم : « عندي من لا تحتشمه ، فتُؤْنِس

(١) التخرق : التوسع في العطاء والمعيشة

(٢) وشي سعيدي : ضرب من برود اليمن موشية تعرف بالسعيدية ، منسوبة إلى سعيد بن العاص

(٣) اليتمة : حالة اليتم ، ولم ترد في كتب اللغة

جَماعتنا بحُضورك ؟ فقد أعجبني اليومَ حُسن زيِّك ! » . فزدت في الخِلْعة ورَكِبْتُ ، فلما دخلتُ إليه لم أفْقِد عنده أحدا من إخوان والدِي . فلمَّا توسَّطت الصَّحْنَ ابتدرَني الغلمان ، وصاح بي إسحاق : « تتوهَّم ياجاهلُ أنَّ أباك مَضَى واستَرَحْتَ ! ولا تعلمُ أنَّ أباك خلف لك هؤلاء الآباء بأَسْرِهم يردُّونك عن الخطإ بأليم العقوبةِ ، ولا يَشْفَعون في مصلحتك من عَظيم ماكان أبوك يَرِقُّ عنه فيك ؟ » ثم بُطِحت في وسط الدار ، فصحتُ بهم : « يا سادتي ! والله ماقُرِعت قطُّ بِمِقْرَعةٍ ! » ، فقال إسحاق : « ولا أتيتَ بمثلِ هذا الفعل ! » . وضُربت ضَرْباً مُبَرِّحا ، ولم تُرْفع المِقرَعة عنّي حتى حلَفت لهم ألاّ أزيدَ على مَعْرِض والدي وآقتِصاده ، فأقمت على هذا إلى اليوم »

وما زالَ عنه إلى أن تُوُفِّيَ

* * *

المؤلف وعراب من القيسية

١٠ — ولما استفْحَل أمرُ ابنِ الخليج ، انحازَ عنه جيشُ مصر إلى الإسكندرية وخلَا الفُسْطاط منهم ، وكنتُ بمدينة أهْناس (١) ، واضطربتِ النواحِي ، واحتجت إلى مُشَاهدة الفسطاط . فتخفَّرت بأربعة نَفَرٍ من القيسيّة ، دَفَعْت إليهم عشرين دينارا وخرجت معهم ، فأحسنُوا العِشْرة ، وأجمَلوا الصُّحْبة . وكنَّا لانجتازُ بحيٍّ ولا جماعة إلاّ كَفَوْنا مَؤُونة كلامهم ، وصَرَفوا عنَّا بأسَهم . ولم يَزَل كذلك

(١) أهناس : بلدة بالصعيد من عمل البهنسا

دأبنا حتى بَلَغْنا قصر الجيزة، فأقبلت رَعْلة من الأعراب [1] - قدَّرتُها برأي العين خمسين فارساً - كانت من غير حيّهم، فصمَّمت نحونا برماحها، وعملت على نهبنا وقتلنا، ورأيت الموت في أسنّتهم. وأحسنَ الأربعةُ - الذين تخفَّرنا بهم - لقاءَها والتضرُّع إليهم، وناشدوهم ألّا يُخفِروا ذمّتهم، وأجملوا التأتّي حتى انصرفوا [2].

وجدَدْنا في السير حتى انتهينا إلى حيّ المُخفِّرين لنا، فقال المخفِّرون: «قد بلغتَ إلى من تأمنه، فحُطَّ رحلك، فما تستقلُّ [3] دوابُّك الزيادةَ على هذا السير». فنزلت وتقدَّمتُ إلى الغلمان في إطعامهم، ولم أجد للطعام مَساغاً من فرط ما لحقني من الرَّوع.

وعملت في المخفِّرين هذه الأبيات:

جزَى اللهُ خيرًا معشرًا حقنوا دمي
وقد شُرعت نحوي المثقَّفةُ السُّمْرُ

دراهمُهم مبذولةٌ لضيوفهم
وأعراضُهم من دونها الغَفْرُ والسِّترُ

إذا ما أغاروا واستباحوا غنيمةً
أغارَ عليهم في رحالهم الشُّكرُ

وإنْ نزلوا قُطرًا من الأرض شاسعاً
فما ضرَّه ألّا يكونَ بها قَطْرُ

(١) الرعلة: القطعة من الخيل قدر عشرين

(٢) تأتى للشيء: ترفق له وأتاه من وجهه

(٣) تستقل: تحتمل

فلَحظني واحدٌ منهم وأنا أكتبها، فظنَّ أني أكتب إلى السلطان فأشتكي ما كان من الفرسان الذين لقونا بقصر الجيزة، فقال: «قد سلَّمك اللهُ من أولئك القوم، وقد أحسنوا إلينا في حسن الإجابة لنا، فلا تكتُب فيهم بشيء». فقلت: «والله ما كتبتُ فيهم ولا في غيرهم إلى السلطان بشيء»، فقال لي شيخ من المخفِّرين - وقد قَرُب مني -: «فما تكتب؟»، قلت: «أكتب أبياتاً مدحتُكم فيها»، فقال: «وإنك لتَقرِض الشعر؟»، قلت: «نعم!»، قال: «أنشدني على اسم الله»، فأنشدته إياها، فقال: «برَّك الله ووصلك!».

ثم صاح بالثلاثة، فلما اجتمعوا أنشدهم إياها، فما خرَم - شهد الله - حرفاً واحداً، فعجِبتُ من حفظه لها ولم أُعِدْ عليه حرفاً منها، وتبيَّنت الفرح في سائرهم، وحفظوها بأجمعهم. ثم صاح بهم الشيخ: «ما تنتظرون؟ أرحضوا [1] السوءةَ عنكم». فأدخلوا أيديهم في جيوبهم، وجمعوا شيئاً أخذه الشيخ منهم، ثم قال لي: «قد شكرنا صنيعتك، والله لا نجمع بين شعرك ووفرك!»، ووضع العشرين الدينار بين يديَّ فأكبرتُ ذلك وأعظمته. فقالوا لي: «الصوابُ ألّا يعلم بها عشيرتنا، فيرجع عليك منها أكثرُ مما خفتَه ممن لقيك بقصر الجيزة». وركبتُ فسرت مع جمعٍ كثيرٍ منهم وهم ينشدون تلك الأبيات، فالتمست أن يقبلوا مني برًّا فلم

(١) رحض الثوب: غسله من وسخه

أصِلْ إلى ذلك ، ورأَوْا أنّ الشِّعْرَ أحسنُ موقعاً ممّا ملكته

* * *

المؤلف وعباسى

١١ — ونزل فى حارَتنا غلامٌ أمردُ تأخُذه العين ، وكنت أُسلِّم عليه إذا اجتَزْت به ، كما أفعل هذا بغيره من جيرتى . فانصرفتُ يوماً إلى منزلى فوجدتُه قائماً على بابه ، فدفع إلىّ رقعةً يذكُر فيها أنه عبّاسِى من وَلَد المأمونِ ، ويسألنى فيها بِرّه . ودخل من كان معى بدُخولى ، فقضيتُ شُغْلى بالجماعة حتّى انصرفُوا ، ووضعت المائدةَ بينى وبين العبّاسىّ فأكلْنا ، وهو يتأمّلنى فلا يجد فىّ شيئاً قدّرَه . فلما غَسل يدَه ، دفعتُ إليه ثلاثةَ دنانير ، واعتذرتُ إليه من تقصيرى فى حَقّه ، وانصرفَ وقد رأيتُ تبْجيلى فى حَماليق عَيْنَيه

فلما كان بعد ذلك بسُنَيّات (١) — وأنا فى ضياع تقبّلتُ بها (٢) ولى فيها غلّةٌ (٣) بمالٍ جسيم ، خِفْتُ أن أدخُل الفسطاط فتَخْرَبَ الضياع وتتعطّلَ عِمارَتُها ؛ فكنتُ أكمنُ نهارًا فى بعض منازل الفلّاحين ، وأظْهَر ليلاً فأعقِدُ منها ماتهيأ لى عَقْدُهُ (٤) . فإنى لكامنٌ فى يوم من الأيام حتى سمعت رَجّة شديدةً ، فدخل إلىّ بعض

(١) تصغير سنوات
(٢) تقبل بخراج أوجباية : تكفل بها والتزمها بعقد
(٣) الغلة : الدخل من كراء دار ، أو أجر غلام ، أو فائدة أرض
(٤) يعقد منها : يريد يجمع منها

غِلْمانى . فقال : « دَخل أصحاب دُميانة الضَّيْعَةَ ، وعَمِلوا على نَقْل الغَلّاتِ ! » ، وأيقنت بتَلَفِ أكثر ما أملِكه ، ثم سكَنَتْ أصْوَاتُهُم

ودخل إلىّ غلام لى فقال لى : « يامولاى ! كانت هذه الضِّياعُ قد أشْفَتْ على نَقْل مافيها (١) ، حتى نَظَر إلىّ العَباسىُّ الذى كان فى جِوارنا ، فقال لى : « ألستَ غُلامَ أحمد بن يُوسف ؟ » قلتُ : « نعم ! » ، قال : « فهذه ضِيَاعه ؟ » ، قلت : « نعم ! » ، فصاح بالجماعةِ التى دَخَلَتْ من أصحاب دُميانة : « اُخرجوا بأسْرِكم عنها » ، فخرجوا . ثم قال لى : « قل لمولاك : ياسَيِّدِى ! مَحَلّى عند الأمير دميانة مَحَلُّ الأخ ، فاظْهر واركب إليه ، فقد آمنك الله على نَفْسِك ومَالِك » . فسألت الغلام : « ماكان زِيُّه ؟ » ، فقال : « كان عليه كساءُ صوفٍ مما يُنام فيه ؛ وتحته خُفْتانٌ » (٢)

فأحضرتُ بعض مشايخ الضَّيعة ، وحملت معه إليه دُرّاعةَ خَزٍّ كُحليّةً ، ومُطْرَفَ خزٍّ (٣) ، وخمسين دينارا ، وسألته أن يَقْبل مايحتاج إليه من ناحيتى . فقبِل الدُّرّاعةَ الخزَّ ، وردَّ المُطْرَفَ والدنانير ، وقال لرسولى : « والله للثلاثة الدنانير — التى وَهَبها لى لِشَرَفى لا لشىءٍ مما ظننته به — أحسن موقعاً عندى مما رَدَدْته إليه ،

(١) أشفى على كذا : أشرف وقارب
(٢) الخفتان : ضرب من الثياب ، وكأنه قريب مما نسميه (القفطان)
(٣) المطرف : ثوب يكون فى أطرافه وشى وأعلام

فكثّر الله فى الناس مثله !

فلم يزل عَضُدًا لِى وسِتْرا علىّ ، حتى انصرف دميانة عن الناحية

* * *

يحيى بن نجه والرخجى

١٢ — وحدثنى يحيى بن الفُضَيْل ، عن يحيى بن نجه - وكان هذا الرجل حسَنَ الكتابة - ، قال :

« ترددتُ إلى عُمَر بن فَرَج الرُّخَّجِى مُدّةً ، فدخلتُ عليه فى يوم من الأيام . فقال : « قد أنضيْناك (١) ! قد استتممْتَ فى هذا اليوم سنةً » ، ووقّع لى بتقليد عَمَل سَنِىّ . واضطربت فيما أحتاج إلى التجهّز به ، فلما لم يبقَ علىّ إلا نَصّ (٢) رِكابى ، برَّزْتُ ظَهْرى وثَقَلى (٣) ، ووقفت على باب دارِ أمير المؤمنين المُنتصِر أنتظر توديعَ عُمَرَ والخروج إلى عملى . فرأيتُ غلمانَ عُمَر يتسلّلون فسألت عن السبب ، فقيل لى : « سَخِطَ أمير المؤمنين على عُمَر ! » فحِرْتُ ، وخِفْتُ أنْ أرجعَ إلى مَنْزِلى فأخْسَرَ جميعَ ما أنفقتُه . فإنى لفى تلك الحَيْرَة حتّى خرج عُمَر بن فرج ، ومعه رجُلٌ من شِيعَة بنى العباس ، فقال لى : « أين كُلّ من كان معى ؟ » ، فقلت « تسلّلوا للحادث ! » ، فقال : « وقد وُكِّل بى هذا الشيعىّ على

(١) أنضاه : أتعبه

(٢) نص الركاب : تسييرها

(٣) الثقل : متاع المسافر وحشمه

أنْ يَنفِيَنى إلى بلاد التُرْك ، ولم أُعِدَّ شيئاً ولا أجد من يُعِدُّه لى » ، قلت : « هذه قُبّةٌ وظَهْرٌ يُقِلُّك ، وأنا أصحبُك شكرا على ما أسلفتنى من التَّقْليد »

فركب القُبَّة ، وأحضر الشيعى قُبّةً له ، وركِبْنا وأنا أُعادِلُه (١) ، وانتهى المسيرُ بنا إلى خُراسان . وكنّا لا نُفضى من بُلدان خراسان إلى بَلدٍ إلا وجدناه أغاظ طَبْعاً من البلدِ الذى فارقناه ، حتى بلغْنا بُخارى ، فرأينا قوماً فى نهايةٍ من غِلَظِ الطباع ، فقال لى - حين رآنى أتعجّبُ منهم - : « كيف لو رأيتَ التُّرك وبلدانَهم ؟ يقتُلون المُسْتجِيرَ بهم ، ويُغيرُ بعضهم على بعض ، فيَهلِك النّازِعُ إليهم بينهم (٢) ! » ، فزادنى هذا القول تهيُّباً للسَّيْر معه ، ثم ملكتُ ما استغْرَبَ (٣) منّى ، وتماسكتُ

وجدّ بنا السَّير عن بُخارى إلى أرضِ التُّرْك ، وإنى معه فى القُبّة - وهو يُحدّثنى بشىء قد شغَلنى عن تبيُّنه ما يُقلِقُنى من ركوبِ ما أقدمتُ عليه من الخطَر - حتى سَمِعْنا حلَق البَرِيد ، فتشوّفْنا لها ، ووافى بها رَسول أمير المؤمنين وكتابُهُ بما أمَرَه بالحضرة : من الرِّضا عنه وردّه إلى مَرْتبته ؛ ويأمُرُه فيه بكَشْفِ مُدُن خراسانَ ، وتجريدِ عُقُودها على أصْوَب ما استقرت عليه ، واستثارة التوفير بها والزيادة

(١) عادله : ركب معه فى الجانب الآخر من محمل البعير

(٢) النازع : الطارئ الغريب

(٣) ما استغرب منى : ما تباعد عنى من عزيمتى ورأيى

فيها . فلما استتم قراءته ؛ حمد الله وألقى الكتاب إلىّ ؛ وقال : « بارك الله لك فى الخلاص وهنّأك المزيد » . وردّ إلىّ تأمّل ما أمر به أميرُ المؤمنين من كشف عُقودِ النّواحى »

فانصرفت إلى منزلى بمائة ألف دينار ؛ مع ارتهان شكرِ المعاملين وإحمادِ السلطان » (١)

* * *

والد المؤلف ومصطنعيه

١٣ — وحدثنا أحمد بن يوسف ، قال :

« حبس أحمد بن طولون يوسفَ بن إبراهيم والدى فى بعض داره - وكان اعتقال الرجل فى داره يُؤيِس من خلاصه (٢) - ، فكاد سِتْرُه ينهتِك لخوف شمْلِه عليه . وكان له جماعةٌ من أبناء السّتر يتحمّل مُؤَنها ، مقيمة عليه لا تنقطع إلى غيره . فاجتمعوا - وكانوا زُهاءَ ثلاثين رجلا - فركبوا إلى دار أحمد بن طولون ، فوقفوا بباب له يعرف بباب الجبلِ ، واستأذنوا عليه فأذِن لهم . فدخلوا إليه ، وعنده محمد بن عبد الله بن الحكم وجماعةٌ من أعلام مَسْتُورِى مصر ، فابتدروا كلامه بأن قالوا : « قد اتفق لنا - أيّد الله الأمير - من حُضورِ هذه الجماعةِ مجلسَه ، ما رجَوْنا أن يكونَ ذريعة إلى ما نأمُله ؛ ونحن نرْغب إلى الأميرِ فى أنْ يسألها عنّا ، ليقفَ على منازلِنا » . فسألهم عنهم ، فقالوا : « قد عُرِضت العَدالةُ على أكثرهم فامتنع

(١) أحمده السلطان : رضى فعله ووجده مستحقا للحمد

(٢) آيسه الأمر : مثل أيأسه

منها » (١)

فأمرهم أحمد بن طولون بالجلوس ؛ وسألهم تعريفه ما قصدوا له ؛ فقالوا : « ليس لنا أن نَسْألَ الأمير مخالفةَ ما أمر به فى يوسف بن إبراهيم ، لأنه أهْدَى إلى الصواب فيه ، ونحن نسأله أن يُقدّمنا إلى ما اعتزم عليه فيه : إن آثر قتلَه أن يقتُلنا ؛ وإنْ آثرَ غيرَ ذلك أن يُسْلِف بنا (٢) ، وهو فى حِلّ وسَعَة منه » ، قال : « ولم ذلك ؟ » ، فقالوا : « لنا ثلاثون سنة ما فكّرنا فى ابتياع شىء مما احتَجْنا إليه ؛ ولا وقَفْنا بباب غيْرِه . ونحنُ والله أيّها الأمير نَرْتمِض (٣) البقاء بعده من السّلامة من شىْء من المكروه وقَع فيه » ، وعجوا بالبكاء بين يديه . قال أحمد بن طولون : « بارَك الله عليكم فقد كافأْتم إحسانه وجازيتم إنعامَه » ، ثم قال : « علىّ بيوسف بن إبراهيم » ، فأُحضِر . فقال : « خُذُوا بيد صاحبكم وانصرِفوا » . فخرجوا معه ؛ وانصرف بهم إلى منزله »

* * *

المؤلف وبعض التجار

١٤ — قال :

« وطالبنى بعض عُمّالِ الخراج بمصر بمالٍ زاد على ما فى حاصلى ؛ فاحتجت إلى مُعاملة بعض التجار عليه ؛ فدُللتُ على رجل من

(١) العدالة : تزكية الشهود عند القاضى وتعديلهم ، أى أن يقول إنهم عدول ، وكانت من وظائف القضاء

(٢) يسلف بنا : يبدأ بنا ويجعلنا سلفاً ، والسلف : المتقدمون

(٣) ارتمض الرجل من الشىء : إذا اشتد فأقلقه كأنه يقف فى الرمضاء ، وهى حر الحجارة من شدة حر الشمس

أهلِ الشام يعامل برُهون ؛ فصار إلىّ ـ وأنا فى بيت المال ـ منه شيخٌ حَسَنُ الصورة جميل اللِّقاء ، فقال : « إلى كم تحتاج ؟ » قلت : « إلى مائتَى دِينار » . فأخرج من كُمِّه مالا فوزَنه ، واستزاد من غلامٍ كان معه دنانيرَ حتى أكمل المائتين ، ثم سلَّمها إلىّ واقتضانى خطًّا بها ، وقال : « قد كُفِيتَ مؤونة الرّهن » ، فقلت : « فكيف أكتُب الخطَّ ؟ » ، قال : « بمائتى دينار كما أعطيتك » ، فقلت له : « سبيلُ المعاملة غيرُ هذا ! » ، فقال : « واللهِ لا قَبِلتُ منك فيها رِبحًا ، ولو وهبتُها لك لكان من أصغرِ حقُوقك علىَّ » ، ثم قال لى : « تعرفُنى ؟ » ، قلت : « لا ! »

قال : « ركبتُ مَركبًا أريد الفُسطاط من تِنِّيس ، وحملت فيه تجارةً لى ما كنت أملك غيرَها ، حتى إذا بلغتُ المَحلَّة ووازَيْت ضياعا كانت فى يدك ، كُسِر بنا ، وغَرِق جميع ما أملكه ، وسلِمتُ بحُشاشة نفسى (١) . فجلستُ على الشطِّ أبكى وأنتحِب ، فأقبلتَ فى جماعة معكَ فسألتَنى عن حالى فأخبرتك بها ، فبَثَثْتَ فى حَشد من يغُوص على المركَب ومافيه وحطَطْتَ على الشطّ ، فأخرجوا بَزًّا كان لى وتالِفَ ما سواه ؛ واستحلفتنى على ماذهبَ لى فأخبرتُك به ـ وكانت قيمتُه سبعين دينارا ـ فقسَّمْتها لى على وُكَلائك وكُتَّابك

(١) الحشاشة : بقية رمق الحياة والروح فى المريض والغريق وماشاكلهما

فلما حصلتَ لى أعطيتنى دنانيرَ من عندك وقلت لى : « هذا أرْشُ (١) ما لحِقك فى الثِّياب » ، وأمرتَ أن يُكترى [لى] إلى تِنِّيس ، وكتبت لى إلى جماعة معامليك بتنيس بما لحقنى ، وبمعونتى على أمرى ، فرجعتُ إلى ما أمْلِكُ ، واكتسبت جاهاً بتِنِّيس تضاعف مالى به ، وحسنت معه حالى »

« وأخذ خطِّى بالمال وانصرف »

* * *

أحمد بن بسطام وصاعد

١٤ ـ وسمعت أبا العباس أحمدَ بن بِسْطام يُحدّث أبا الطيب أحمد بن على ، قال :

« لمّا سَخِط الموفّق على صاعدٍ وكَّل به من يطالبه ، وأقرّنى والطائىّ على ما كنا نتقلّده له . وكان صاعدٌ محسناً إلينا ، جميلَ العِشْرة لنا ، فلم نترك شيئا نصل إليه مما خفف عنه إلاّ بَلَغْناه . وكانت بينى وبين الطائى إحْنَة (٢) ، فدعانى الموفّق فى يوم من الأيام ـ ونحن بواسِط وقد بَلَح (٣) صاعدٌ ، واستنزل المستخرج جميعَ ما وصل إليه منه ـ ، فقال لى : « أحمدُ ! ادخُلْ إلى صاعدٍ فقل له : أظُنُّك أرضَيتَ المستخرجَ حتّى فَتَر فى مطالبتك ، وتاللهِ لئن لم تخرج مُحْتجِبَك ، لأتولَّيَنّ تعذيبَك بنفسى ! »

فدخلت إليه وأدّيت الرسالةَ ، فقال لى : « يا أحمد ! واللهِ ما بقىَ

(١) الأرش : دية الجراحات والجنايات التى ليس لها قدر معلوم وهو الذى نسميه « التعويض »

(٢) إحنة : حقد وعداوة

(٣) بلح : أفلس

لى شىءٌ ، وما ملكتُ قطُّ ماهو أحبُّ إلىّ من نفسى ؛ فتقول له :
ياسيِّدى ! والله ما أملِك على الأرض ولا فيها ديناراً ولا درهماً ولا
جوهراً ، وأنت أولى بالتطوّل (١) على خادمك » . فانصرفت من عنده
وأنا أخاف أن يُغْرِيَه ذلك الجوابُ . ودخلتُ إليه وقلت له :
يقول لك : « ياسيدى ! ما أملك على وجه الأرض ولا بطنِها غير
مائةِ ألف دينارٍ عند الطائىّ » . فأمر بإحضاره ، فلما مَثَل بين يديه ،
قال له : « المائةُ الألف الدينار التى لصاعدٍ عندك ، قد بعث إلىّ
يحلِف أنه لايملك غيرها » . فقال له : « وهى بمدينةِ السَّلام ، فيُنْظِرنى
الأميرُ مسافةَ الطريق ، وأنا أستسْلِف له ما تيسَّر منها من التجار
هاهنا ؟ » . فقال له : « اكتُب خطَّك بها » . فكتبه وسلّمه إلى
الموفق ، فسلّمه إلى غلامٍ من خاصّته ، وانصرف الطائىّ .

فاستقبحت ماصَدَر منّى فيه ، وعَظُم فى نفسى لتصديقِه صاحبَه ،
وتركِ معارضته بما يدفعُ به المرءُ عن نفسه . فدنوتُ من الموفق
وقلت له : « أيُّها الأمير ! جميع ما أدّيتُه إليك عن صاعدٍ منى تقوّلتُه ،
وقد قَبُح فى عينى ، وسيدى الأمير مخيَّرٌ بين الصفح عنه والعقوبة
عليه » . فقال : « أحسنت ! بارك الله عليك » . ثم أمر بردّ
الطائى ، فقال : « لِمَ لمْ تتقرّب إلىّ بذِكْر هذا المال ؟ » فقال :
« أيها الأمير ! يمنعنى من ذلك ماتولّاه من اصطِناعى » فقال له :
« ليس يُقْنعنى إلاّ أن تحلف برأسى على هذا المال ، وفى أى وقت

(١) تطوّل عليه : تفضل عليه وأحسن إليه

دَفعه إليك » . فقال : « يعفينى الأميرُ من ذلك » . فقال : « والله
لافعلتَ » . فقال : « وحقِّ رأسِ الأمير ماله عندى درهم واحد
فضلا عنه ، ولكنى لما رأيتُه قد عاذَ بالدعوى علىّ ، تيقّنتُ أنه لم
يبق له حيلة فى المدافعة عن نفسه ، فعملت على تحمُّل هذا المال ،
ووالله ما أملكه ، ورجوتُ أن أصِلَ إليه بجاهى ولطيفِ حِيلتى »
فاستحضر الموفّق الخطّ ودفعه إلى الطائى ، فقال له : « خَرِّقْه » .
ثم تقدّم بإعفاء صاعد من المطالبة »

* * *

نجاح بن سلمة وابن تميم

١٦ — وكان نجاح بن سَلَمة — مع ما يؤثَر عنه من زَعَارة
أخلاقِه ، (١) وقبح تسلُّطه — يحبُّ التبسُّط على طعامه ، ويحسن
المكافأة عليه . فحدثنى يعقوب بن إسحاق بن تميم ، قال :
أقام إسحاق والدى ببغدادَ خمساً وعشرين سنة فى رفع حِسابه ،
ينقُض الكُتّاب جماعاتِه ويسلّطون الإعناتَ عليه ، قال لى يعقوب ،
فحدثنى أبى : أنّ أغلظَ الكتّابِ بأسْرهم كان عليه ، نجاحُ بن سلمة .
قال : «فلما أفرط علىّ سوءُ تحكمه ، جلست فى منزلى ، فمرَّ به اسمى ، فقال :
« قد عزم إسحاق بن تميم على أن يتربَّص بنا كما كان يتربَّص بمن كان
قبلنا ؟ » . ثم نظر إلى بعض المضمومين إليه فقال : « بكِّر إلى إسحاق
ابن تميم فأحْضِره الدارَ إلى أن أنصرف » . قال : فباكرنى فَظٌّ من
الجُنْد لم أملكْ نفسى معه حتى صار [بى] إلى دار نجاح ، فوجدناه

(١) الزعارة : الشراسة وسوء الخلق

قد ركب فحَصَّلنى على البابِ وجلس معى [(١)]، وتعالَى النهار واشتدّ جوعى، فقلت له: « امضِ معى إلى المنزل لنأكل جميعاً ونرجع! » فأبَى. فقلت لحاجب نجاح – ورأيته متمكناً من داره: – « أصلحك الله، إنى قليل الصبر على الجوع، وأخاف أن يتأخر الأُستاذ وأضعُفَ عن حُجتى فى حضوره لغَلَبَة الصَّفْراء علىّ، وقد سألتُ هذا الرجل أن يُطْلق لى الذهابَ إلى منزلى لآكُل وأرجعَ فأبَى »، قال: « لم لا تأكل هاهنا؟ ». وأجلسنى فى بُشَّخانة [(٢)] فيها، واستحضر الطعام، فأُحضرت مائدةُ نجاح بن سلمة، ولم يبق حُلوٌ ولا حامِضٌ ولا حار ولا باردٌ إلا نُقِّل علينا. حتى إذا بلغتُ إلى الحَلْواء من الطعام، دخل الدار نجاحٌ فجلس فى المجالس، ورآنى فى دخوله، ومكانى من البشخانة [(٢)]، فبعث إلىّ غلاما له [يقول]: « بحياتى استَتِمّ أكْلَك ولا تتجوزْ فيه ». فأقمت حتى فرغ الطعامُ، وجاءونى بالغَسْل والبَخُور، ثم قمتُ. فلما رآنى ضحك إلىّ وقال: « من علّمك على هذا؟ »، قلت: « التوفيق »، قال: « أجل! »، ثم قال لى: « ارفع حِسابك كيف شئتَ واحْشُه، فقد أمَّنك اللهُ من اعتراضك بشىء تكرهه »

(١) حصله على الباب: يريد، وصل به إليه وأبقاه

(٢) فى الأصل: « نشاخه » فى الموضعين، وأقرب ما أعرف إلى هذا الرسم هو: « بشخانه »، قال الخفاجى: يقال لها الناموسية، عامية معربة « بشه خانه » أى بيت البعوض، أو كما أخبرنى بعضهم أنها بيت الحاجب

قال يعقوب: قال لى أبى: « فغدوتُ إليه بحسابى، فوالله مازاد على التوقيع فى الجِمَاعات بإمضائها وتخليدها. ثم قال: « متى تعزم على بلدك؟ »، فقلت: « ياسيدى! إنما أنتظرُ فيه إذْنك، فكل شىء لى مفروغٌ منه »، فقال: « اجعلْه بعد صلاة الجمعة »، قلت: « أفعلُ ». ثم قال لى: « تروح إلىّ لألقاك فى حوائجَ لى؟ »، فقدّرتُ أنْ يحمِّلنى فى الحوائج غُرْم الألف الدينار

فلما رحتُ إليه، دخلتُ وهو خالٍ، فقال لى: « إنك ترجع إلى بلدٍ قد يَئِس منك فيه أهلُه، فأدخلَ الجارُ من جيرانِك الخشبةَ فى حائطِك، والجارُ فى البستان قد تحيّف حدودَك [(١)]، فهب لى ما بينَك وبينهم ». قلت: « أفعل »

قال: « وترى ببلدك جماعة قد ارتفَعُوا، أبناءَ خامِلين، فلا تنهرْهم بدِقّةِ [(٢)] أصولهم، وانصرِفْ [(٣)] عما كان عليه سَلَفُهم، فإنه يزرعُ لك المقتَ فى قُلوبهم ». قلت: « أفعلُ »

قال: « وأصحابَ البريد، فاحذَرْ أن يرِد فى كتُبهم ذكرٌ لك بخير ولا شرٍ ». قلت: « أفعل »

ثم أومَى إلىّ يعانقنى، قلت: « ياسيدى! حوائجَك؟ ». قال: « هى ماعددته عليك، إنك قد حللت منّى بانبساطك محلَّ القرابة

(١) تحيف الشىء: نقصه وأخذ من جوانبه وحافاته وأطرافه

(٢) دقة الأصل: خسته ولؤمه

(٣) فى الأصل. والصدق

الذى أُسَرّ بصوابه، ويَغُمُّنى زَلَله، فإن حزَبك (١) أمرٌ فى بلدك فلا تعدِل به عنى، وأنا أستودعك الله»

«فانصرفت عنه وأنا على غايةٍ من الشكر»

* * *

محمد بن يزيد ومسافر

١٧ — وحدثنى محمد بن يزيد ـ وكان حسنَ التقشُّف، سديدَ الرأى ـ قال:

أُطْلِق جماعةٌ من حبس أحمد بن طولون كانت قد وقعت بهم ظِنّةٌ بالتلصص، وكانوا ينزلون كُورة أَهْناس. فإنى عند بعض أصحابِ الأكسِيَة حتى وافاه غلامٌ أصفر، خبيثُ المنظر، متمكّن من نفسه، من الخارجين من الحبس، فرحَّب به، وجلس عنده، وهنّأه بسلامته. ثم سأل عن حاله، فقال: «خرجتُ من الحبس كما ترانِى، وما معى نفقةٌ تبلّغنى منزلى»

فقلت له: «ما اسمُك؟»، فقال: «مسافر»، فقلت له: «يافتى! قدِّم اللهَ فى أمورك ولا تعدِلْ عنه، فإن الراحةَ فى ظلِّه»، فقال لى: «ياسيدى! الحقُّ فيما قلتَه، والنفسُ أمّارة بالسوء، والتوفيق إلى الله دون خلقِه»، فأعجبنى جوابه، وقلت له: «كم يكفيك إلى منزلك؟» فقال: «دينار!»، فدفعته إليه وقلت له: «إذا حدَّثتك نفسُك بإخافةِ السبيلِ فابعث إلىَّ حتى أُمسِكَ من رَمَقِك، وأكُفَّ فاقتَك»

(١) حزبه الأمر: اشتد عليه وضغطه

فما مضى شهر حتى اضطربت ناحية أَهْناس والبَهْنَسا بتسلُّط رَجُلٍ من اللصوص ـ فى جمع كثير ـ على كثيرٍ من المواضع، وكَبْسِهم الضياعَ. وكانت لى أسْلافٌ (١) بسُمُسْطا ونواحيها، فخرجت لقبْضها فى رُفْقةٍ من التجار، قد حملوا البَزَّ والطِّيب وما يُحتاج إليه للأرياف. فإنّا بنواحى المحرَّقة، حتى لقينا قطعةً من اللصوص، فساقتنا بأسْرِنا إلى موضع منقطع عن المارّة، وفيه شابٌّ أصفرُ راكبَ فرسٍ، ومعه مقدار خمسة فوارس، فعُرِضت الجماعةُ عليه إلى أن بَلغنى، فتأملتُه فوجدته «مسافراً»، فأكبَّ على رأسى وتحَفَّى بى (٢)، ثم قال لأصحابه: «أخطأ والله حَزْرُكم (٣)، هذه رُفْقة شيخى وسيّدى، ووالله لادخَلَ إلىّ منها شىء». وسار معنا حتى أخرجنا إلى الأمن، ثم قال لى: «أنا أعلم أنك لاتأكُل طعامى، ولا تقبلُ شيئاً منّى، وقد والله ياسيدى حبَّبْتَ إلىَّ مجانبةَ ماأنا بسبيله، فنشدْتُك الله لَمّا جعلتَنى طريقَك فى الرَّجْعَة!». فتضمنت له ذلك

ودخلنا مدينة أَهْناس، فشاع خَبَرُ ما أولانى فى الناس. وكان المتقلِّد لها رجلاً من أصحاب أحمد بن طُولون ـ يُعرَف بفَهْم ـ

(١) الأسلاف: القروض، جمع سلف وهو القرض بغير فائدة

(٢) تحفى به: احتفى، وبالغ فى إظهار السرور والفرح به، وأكثر السؤال عن حاله

(٣) الحزر: التقدير، حزر الشىء: قدره بالظن

مُتقدِّمًا عنده، أثيراً لديه (١) فبعث إلىّ، وعَرَف مذهبى، فقال: «قد أحفيتُ المسألةَ عن هذا الغُلامِ، فرأيتُه لايرى القتْلَ، ولا هَتْكَ الحريم، وإنما يتعلقُ بأطرافِ الأموال ولا يبلُغ الاِجْتياح (٢). وأنا أسألك أن تَسْفِرَ بينى وبينه (٣)، فإنى أُؤَمِّنه وأُكرِمه وأُقلِّده سِيارةَ البـلد». فرجعتُ فى حاجة فهْم إليـه، فألقيته والجماعةُ بين يديه، فأدَّيت إليه رسالتَه، وأعلمته أنّ هذا الرَّجلَ صحيحُ الضَّمان، فقال: «ياسيدى! مابينى وبينه فى الأعمال إلاّ أُنْسُ الناس به». ثم قال لأصحابه: «مَنْ يساعدنى على الخروج إلى الله عز وجل؟»، فقالوا بأجمعهم: «نحن!». فسار معى حتى إذا قَرُبنا من أهناس، وضَع حبلًا فى عنقه وقال: «ادخُل بى فى زِىّ الأسْرَى وهذه الجمـاعةِ»، فدخلوا، والناس يبكونَ لما اتَّفق لهم من حُسْن الهداية، ورأى الناسُ عَجَبًا من سَوْق شيخٍ مثلى ضعيفٍ رجلًا قد أعجز خَيْلَ السلطان. فطلب فهْم أن يقبلَ له خِلْعةً، فامتنع من ذلك، وأضاف أصحابه إلى فَهْم، وأقام إلى وقت الحجّ فخرجَ إلى مكة راجلًا، ثم فقدتُه»

* * *

المقرى وراعى غنم

١٨ — وحدَّثنى أبو حبيب المقرى، قال:

(١) الأثير: المحبوب المقرب المقدم على غيره
(٢) الاجتياح: الاستئصال والمحق
(٣) سفر بين المتخاصمين: سعى بينهما فى الإصلاح

«ضاقتْ أحْوالى، فلم يبقَ لى إلّا جارية أُحِبُّها، ومنزِلا أسكنه. فبعتُ المنزلَ بألف دينار، وخرجتُ إلى مكة بالجارية، فقلت لها: «يكون هذا المـال فى وسطك» فكانت إذا نزلت فى منزلٍ حفرتْ فى خَيْمتها حَفيرةً، وأودعت المـالَ فيها وطَمَّتها (١). فإذا نُودِىَ بالرحيل أثارته وشَدَّته فى وَسَطها

قال: فاتفَّق أنْ رَحلنا عن مَنْهَلٍ ونسيَتِ المـالَ فى الحفْرة، فأخبرتْنى الجاريةُ بذلك، قال: فخارَ فِكْرى، وطاشَ رُوعى (٢)، ولم أدرِ ما أعمل. ودخلنا مكّة، فحدثتْنى نفسى ببَيْعها فلم يُطِعْنى قلبى. فلما رَجَعنا ونزلنا المَنْهل الذى خلَّفت فيـه الكِيسَ، رأيت صحراء، وغلامٌ على رابيةٍ يرعى غُنيماتٍ له، وأقبلتُ أدور وأنظر إلى الأرض، فقال لى: «ويْحك! ماتطلُب؟»، قلت شيئاً أوْدعته أرضَ هذا المَنْهَل»، فقال لى: «صفْه لى»، قلت: «كيسٌ أحمرُ فيه مال»، فقال: «ومالِىَ فيه إن دَلَلْتك عليه؟»، قلت: «نصفُه!»، قال: «هاهو ذاك فى الرابية». فلما رأى تحيُّرى فيـه، قام حتى أخرجه ووضَعه بين يدىّ، فحمدت الله، وقسمت الكيسَ قسمين وخيَّرته أحدَهما، فقال لى: «إنى أرى قِسْمِى منه كثيرا، وأنا أكتفى بنصف أحد القسمين»، فقسمته بقسمين، فقال: «تَقْسِمه أيضاً بقسمين»،

(١) طم الحفرة: كبسها، بالتراب
(٢) الروع: القلب

ففعلتُ ، فقال : « ما أعجب أمرك ! أتَرْكُه كله حراماً ، ونصفه حلالاً ، وآخذ منه شيئا ! هذا مالا يكون ، انصرف بمالك » .

فقلت له : « يا غلام ! أنت حرٌّ أو مملوك ؟ » ، فقال : « مملوك » .

فقلت : « لمن ؟ » ، فقال : « لشيخ هذا الحىّ »

فدخلت الحىّ فألفيت الشيخ والناس عنده ، فقلت له : « رأيتُ غلاماً فى المنهل يرعى غُنَيْمات وأسألك أن تبيعنيه » ، فقال : « اشتريتُه بعَشرة دنانير » ، فقلت : « أنا آخُذه بعشرين » ، فقال : « إن لم أبِعْه ؟ » ، قلت : « أُعطيك به ثلاثين ديناراً » ، فقال لمن حوله : « أمَا تسمعون مايقول ؟ ومايحمِلُك على أن تبذُل به هذا الثَّمن ؟ » ، فقلتُ : « جمعَ علىّ ضالَّة ، فنَذَرْتُ أنْ أُعْتِقه وأبتاع الغنم يرعاها له ، وأُمَلِّكه إيّاها » ، فقال : « نَذَرْتَ أن تفعل به هذا لَفَعْلةِ واحدةٍ من الجميل أوْلاكها[1] ، ولنا فى كل يوم منذ ملكناه حسنة تقتضى أكثرَ مما نأتيه له ؟ وأنا أُشهِد الجماعةَ أنه حرٌّ لوجه الله ، وأنّ مايرعاه له »

فانصرفت عن الشيخ وقد بلَغ بى ماأمَّلتُه له »

* * *

ابن أبى عصمة وابن طغان

١٩ — وقلت يوما لأحمد بن محمد المعروف بابن أبى عِصْمة كاتب أحمد بن طُغَان — وكان لِى صديقا مُصافِيا — : « قد كثَّر الناس

(١) أولاه الجميل : فعله ابتداء من غير مكافأة على جميل سابق.

فى إصابتك[1] مع ابنِ طُغَان ! » ، فقال : « ما أخطئوا فى التكثير ، وكان صاحبى سَمْحا[2] ؛ ولقد أصابنى منه فى جهةٍ واحدةٍ ثلاثون ألف دينار » ، فسألته عن تلك الجهة ، فقال : « كان لا يُمسِكُ مالاً ، ولا يعتقِدُ ذَخِيرَة[3] ، فقال لى يوما : « لم يُصبح فى حاصلى درهمٌ واحد ، فاستسلفْ لى شيئاً أنفقه » . فمضيتُ إلى منزلى فحملتُ إليه ألفَ دينار . فلما وضعتُها بين يديه ، فتَح الكِيسَ وقلّب مافيه ، فلما رأى الدنانير صِحاحاً جيدة ، قال : « ما هذه دنانير صَيْرَفِىّ ، فبحياتى ممَّن أخذْتها ؟ » ، فقلت له : « كانت عندى » ، فقال : « ماظننت هذا موضعك ! » ، وسكت

وكان له فى كل شهر ألفَ دينار نُزْلٌ[4] ، فجئتُه به عند استيجابه إيّاه ، فقال لى : « ما هذا ؟ » ، قلتُ : « النُّزْل » ، فقال : « اقضِ به دنانيرَ الرَّجُل » . ثم جئته به مرة أخرى بنُزْل الشهر الثانى ، فقال : « اصرِفه إلى الرَّجل » ، قلت : « قد قضيتُه ! » ، فقال : « اصرفه إليه كما آمُرك » . فلم يزل يفعلُ بى هذا حتّى مضى ثلاثون شهرا حصَّلت فيها ثلاثين ألف دينار »

(١) كثروا فى إصابتك معه ، أى : أكثروا وتزيدوا فى تقدير ما استفاده من الأموال

(٢) السمح : الجواد السخىّ السهل العطاء

(٣) الذخيرة : مايدخره الرجل ويحفظه . واعتقدها : أمسكها وجمعها وكأنه عقد عليها عقدة

(٤) النزل : رزق العامل وأجره — (المرتب)

* * *

نصرانى ومستتر

٢٠ — حدثنى هرون بن مـلُّول، قال، حدثنى ياسين بن زُرَارَةَ، قال:

« كان ببعض أرياف مصر نَصْرانىٌّ من أهلها كثيرُ المالِ، فاشِى النِّعمة، سَمْحُ النَّفْس؛ وكانت له دارُ ضيافةٍ، وجِرَاياتٌ[١] واسعةٌ على ذوى السَّتْر بالفُسطاط. فهَرب من المتوكّل رجلٌ - كُنِىَ عن اسمه - خطيرُ المنزلة، لميلٍ كان من المنتصِر إليه، وتبرّأ من حاشيته ولبس جُبّة صوف، فانتهى به المسير إلى مصر. فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداذ، فخاف أن يُعرَف فنَزَعَ إلى أرْيافها[٢]، فانتهى به المسير إلى ضِيَاع النَّصرانى، فرأى فيها منه رَجلًا جميلَ الأمر. وسأله النصرانىُّ عن حاله، فذكر أنّ الاختلالَ[٣] انتهى به إلى ماظهر عليه، فغيَّر هَيْأَتَهُ، وفوَّض إليه شيئا من أمره، فأحكمَه فيما أسْنَدَ إليه واضْطلَعَ به. ولم يزل حاله يتزايد عندَه حتى غلب على جميع أمره، وقام به أحسن قيام، فكان محلُّ الرجلِ الهاربِ من النصرانىّ، يفضُل كلّ ما ذَهَب له

ووَرَد على النصرانىّ مُسْتَحِثٌّ بحَمْلِ مال وجَب عليه، [٤]

(١) الجراية: الصدقة الجارية التى لاتنقطع

(٢) نزع إلى الريف: تباعد إليه فى رحلته

(٣) اختل الرجل: افتقر واحتاج، والخلة: الحاجة والفقر

(٤) المستحث: الذى يستحثه ويستعجله

[وسأله] النصرانىُّ عن خَبَرِ الناس بالفُسْطاط، فقال: « ورد خَبَرُ قتلِ المتوكل وتقلُّد المنتصر، ووافَى رسولٌ من المنتصر فى طلبِ رجل هرَب فى أيام المتوكل يُعرَف بفلان بن فلان، ويُوعِزُ إلى عمّال مصر والشام بأن يتلقَّوْه بالتَّكْرِمة والتَّوْسِعةِ، فيلحق أميرَ المؤمنين فى حال تُشْبِهُ محلّه عنده »

فعدل النصرانى بالمستحِثّ إلى بعض من أنزله عليه، وخلا الهاربُ بالنصرانىّ فقال: « أحسن اللهُ جزاءَك! فقد أولَيْتَ غايةَ الجميل، وأحتاج إلى أن تأذنَ لى فى دُخول الفُسْطاط »، فقال: « ياهذا! إن كنتَ استقصَرْتَنى[١] فاحتَكِم فى مالى، فإنى لاأرُدُّ أمرَك، ولا أزول عن حُكْمك، ولا تنأى عنى »، فقال له: « أنا الرجلُ المطلوبُ بالفُسطاط، وقد خلّفتُ شَمْلا جَمًّا ونعمةً واسعة، وإنما عَدَلَ بى الخرف على نفسى »، فقال له: « ياسيدى! فالمالُ فى يدك، وما عندك من الدوابِّ فأنت أعرفُ به منّى، فاحتكم فيه » فأخذ بِغالا وماصَلَح لمثله، وخرج النصرانى معه، وقدّم كتاباً إلى عامل المَعونة[٢] من مُسْتَقَرِّه، فتلقّاه عاملُ المعونة فى بعضِ طريقه، ووصَّاه وجميعَ العُمّال بالنصرانىّ. وصار إلى الحضرة، فأصدر إليهم الكُتُبَ فى الوَصَاة به؛ إلى أن قدم بعضُ العمال المُتَّجِرة، [٣]

(١) استقصره: وجده مقصراً

(٢) عمل المعونة كان من أكبر وظائف الدولة كولاية الخراج

(٣) يريد العمال الذين يجعلون سلطان عملهم تجارة، فيظلمون الناس ليتكسبوا منهم

فتتبّع النصرانىّ ورامَ الزيادةَ عليه ، فخرج إلى بغداذ

قال لى هرون ، أنّ ياسين قال له ، أنّ النصرانى حدّثه ، : أنه دخل بغداذ فلم يرَ بها أوْفَى محلا وأكْثر قاصداً منه

« ثم استأذنت عليه وعنده جمعٌ كثير ، فخرج أكثرُ غِلْمانه حتى استقبلونى ، فلما رآنى قام على رجليه ثم قال : « مرحباً بأستاذى وكافِلى والقائمِ بى حين قعد الناس عنّى » ، وأجلسنى معه . وانكبّ علىّ ولدُه وشَمْله ، وأنا أتأمّل مواقعَ الإحسان من الأحرار . وسألنى عن حالى فى ضِياعى ، فأخبرته خبر العامل ، وكان أخوه فى مجلسه ، فنظرَ إليه من كُنّا عنده وقال له : « كنتُ السبب فى تقليدِ أخيك ، فصار أكبرَ سبب فى مَساءتى ! » . فكتَب من مجلسه كتاباً إليه بجليّةِ الخبر وأنفذه . وأقمتُ عنده حوْلا فى أرغد عِيشة وأعظم ترَفُّهٍ . وورد علىّ كُتُب أصحابى ، فخبّرونى بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترضَ عليه فى أمرى ، وأخرج أمرَ السلطان فى إسقاط أكثر خرَاج ضِياعى ، والاقتصار بى على يسيرٍ من مالها » .

قال ياسين ، فكتب النصرانىُّ ببغداذ حجة (١) أشهَد فيها على نفسه أنّ أسهُمَه فى جميع الضياع التى فى يُده ـ وسمّاها وحدّدها ـ لهذا الرجل الذى كان هرب ، وصار بها إليه ، فقال له : « قد سوّغك الله هذه الضياعَ ، (٢) فإنى أراك أحق بها من سائر الناس » .

(١) الحجة : كتاب يكتب ليكون وثيقة وحجة

(٢) سوغه الشىء ، أى : جعله له سائغاً سهلا

فامتنع الرجلُ من ذلك ، وقال له : « عليك فيها عاداتٌ تُحسّن ذكرَك ، وتردُّ الأضغانَ عنك ، ولست أقطعُها بقبْض هذه الضياع عنك »

ورجع النصرانى إلى الفسطاط فجدّد الشهادة له فيها . فلما توُفّى النصرانىّ أقرّها فى يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال »

* * *

يحيى البرمكى والفضل بن سهل

٢١ ـ حدثنى أحمد بن أبى يعقوب عن أبيه ، قال :

« كان يحيى بن خالد بن برْمَك قد تبنّى الفضلَ بن سهلٍ وأجراه مُجْرَى الولَد ـ ونظر إليه ولدُه بعينِ الأخِ لهم ـ . فضمّه إلى المأمون . وكان يحيى بن خالد حَسَنَ المعرفة بالنجوم ، والفضلُ بارعاً فيها ، فاتّفقا على ما تُوجِبهُ النجوم فى مُدَد البرامكة (١) ، وتبيّنا سعادةً تنتهى إليها حالُ الفَضْل ، وكان كلٌّ واحدٍ منهما كالمشاهد لما انْتهَى إليه

وأوقع الرشيدُ بالبرامكة ، فاعتصم الفضلُ بمحلّه من خِدْمة المأمون ؛ وكانت يده تَعْجز عمّا يُصْلِح يحيى وولدَه عند الرّشيد ، فوجه إليه : « سيدى ! قد كَرَبنى أمرُك (٢) ، ولستُ أصِل إلى

(١) المدد : جمع مدة ، ويريد : مدد بقاء سلطان البرامكة

(٢) كربه الأمر : ضيق عليه الكرب وشدده

حُسْن الدِّفاع عنك ، فأحِلَّ ذِمَامَهُ فى هذه المِحْنة (١) ؛ فإنى أرجو أن أقضيَه عنكَ عندَ آنتهائى إلى سعادتى »

قال آبن أبى يعقوب : فحدثنى أحمد بن أبى خالد الأحول ، قال : « آتَّصَل بى من ضِيق يحيى ما كدَّر عَيْشى . وذكرتُ إحسانَه إلىَّ ، وحُسْنَ صَنِيعِه بى ، فضاق بىَ العَرِيض . ووجدت ما أملكُه أربعة آلاف دينار ، فقسمتُها قسمين ، وحملتُ أحدَهما ، وتوصَّلت إلى الدخول إليهم فى مَحْبِسهم ، فوضعتها بين يدى يحيى ابن خالد ، فقال لى : « ليس يَحْسُن بنا أن نَغُرَّك من أنفسنا ، ولا أن نَعِدَك عنا مالا تَفِى به الأيام لك ، وقد انتهى أمرُنا ، فإن كنتَ تُقدِّر أن أحوالنا تصلحُ فأمسِك عليك مالك » . فقلت : « ماذهبتُ فى ذلك إلا لقَضاء بعض الحق عَنِّى » . فأخذ بيضاءَ (٢) فكتب فيها : «ياأبا العباس أيدك الله ! هـذا رجل خَلَصَ على تجرِبتنا (٣) ، وأحسَنَ بنا مع استحكام يأسه منا ، وأنا أذكِّرك العهدَ ، وأرغبُ إليك فى قضاء حقّه عنى ، وتخفيفِ ثقله علىَّ ، أحْسَنَ الله عونك ، وكفاك ما أعْجزَك » . ثم ثناها وقطعَها عرْضا بقطعتين ، وقال لى : « احفظ هـذا النِّصفَ معك ، ولا تفرطْ فيه فيفوتَك حظٌّ كبير » .

(١) الذمام : العهد والميثاق ، وأحل الذمام : جعله حلالا لايلتزم عهده وشرطه
(٢) يريد : ورقة بيضاء
(٣) خلص على التجربة ، أى : تبين إخلاصه بعد التجربة والمحنة

ثم فرق ذلك المالَ فى قوم ضَعُفَتْ أحوالُهم بما لحِقه ، وانصرفتُ من عنده وقد آيَسَنى من رجوع حاله ، وأعطانى نصفَ رُقْعة لا أقف على ما تُوصِل إليه . وتَقَضَّى أمرُهم (١) ، ومات الرشيدُ بطُوس ، وغلب الفضلُ بن سهلٍ على المأمونِ بخراسان ، وخلَفَه على جميع أمره ، وشَجَر الأمرُ بين الأمين والمأمون (٢) ، فظهرَ المأمون عليه (٣) ، وصحَّت وِزارة الفضل ابن سهلٍ للمأمون ، ووردت بادِرةُ المأمون (٤) بذلك إلى سائر النواحى . وطالت عُطْلتى ، واشْتَدَّت فاقتى ، وفقدت من كان يُؤْثِرنى وينحاش إلىَّ (٥)

فإنى لجالس فى منزلى ـ فى يوم قد أعوزنى فيه قوتُ يومى ، وعلىّ ثوب خَلَقٌ ، وليس لى إلا خِلْعة أركبُ فيها ـ حتى دخل إلىّ غلامى فقال : « بالباب جماعة من أصحاب طاهر بن الحسين ! » ، فلبستُ ثيابَ رُكوبى ، وأذِنتُ لهم ، وتقدّمهم رئيس لهم تبيَّنت إعظامى فى نفسه ، فقال : « الأميرُ طاهرٌ يسألك المسيرَ إليه » . فنهضتُ ، فلما دخلتُ قدَّمنى وأعظَمَنى وقال : « ورد كتابُ الوزير أيّده الله علىّ فى حملك إلى حضرته على حالِ تَكْرِمَةٍ ، ومعك

(١) تقضى أمرهم : انتهى وانقضى
(٢) شجر الأمر بين الصديقين : إذا اختلفا وتنازعا وتشاجرا
(٣) ظهر عليه : غلبه وفاز به
(٤) البادرة : أوائل من يأتى بالأخبار والبشرى
(٥) انحاش إليه ، يريد : اكترث له ، أو اجتمع إليه

نصفُ الرُّقعة التى دفعها إليك يحي بن خالد، وأمرنى بدفع ألفىْ دينار إليك لحَمولتك ومُخلَّفيك(١).

فقويتْ نفسى، وانفسح رَجائى، وخرجتُ بعد قبْض المال مع رسول طاهرٍ. فلما دخلتُ إلى الفضل بن سهل، لقينى بأجمل لقاء، وسألنى عن نصف الرُّقعة فأحضرتُها، ثم أسرَّ إلى بعض خاصَّته شيئاً، فمضى، وجاء برقعة فوصلها بها فكَمَلت، فلمّا استتمَّ قراءَتَها بكى، ثم قال: «رحم الله أبا العباس! فما كان أعرفَه بتصرُّفِ الأيام، واستدعاءِ الشكر فيها، والتحيُّزِ من الذمِّ بها! (٢)»

ثم أدخلنى إلى المأمون، ووَاكَدَ أمرى عنده(٣)، حتى بلغتُ معه إلى أخصِّ أحوالِ كتّابه، ومَنْ وثق به فى مُهِمِّ أمره»

* * *

على المتطبب وولد أفلاطون

٢٢ — وحدثنى علىٌّ المتطبِّب المعروف بالديدان ـ وكان حسن المعرفة بكُتُب أفلاطون ورُموزه، ومبَرِّزاً فى الطبّ ـ، قال:

«خرجت مع رجل ـ يُعرف بابن برُّوخ ـ من قوّاد السلطان إلى

(١) الحمولة: مايحمل عليه القاعد من الدواب، والمخلفون، يريد: أهله الذين يخلفهم وراءه

(٢) تحيز من الذم: تنحى عنه وتأخر

(٣) واكده ووكده: أوثقه

طَرَسُوس، فغنم سَبْيا كثيراً(١)، وكان السَّبْى فى دارِ خرابٍ فى الموضع الذى نزلَ فيه، فدخلتُ لتأمُّله؛ فوجدتُ فى السبْى شابًّا حسَنَ الصورة جميلَ السَّمْتِ(٢)، وأكثرُ السبْى حوله، ومكانُه منهم مكانُ المْولى من المماليك: يتسرَّعون إلى جميع ماأوْمَى إليه، ويكفُونَ أخْذَه بنفسه. فكلّمتُ فيه بعض السبْى وسألته عنه، فقال لى: «هذا من ولد أفلاطون!»، فارتحْتُ إليه لانتفاعِى بجَدِّه، ودخلتُ إلى ابن برُّوخ فقلت: «هبْ لى من هذا السَّبْى غلاماً»، فقال لى: «خُذْه»

فدعوت بغُلامٍ يشتمل على أمرى(٣)، ووصفتُ له الشاب الذى فى السبْى، وقلت له: «إذا سلَّمه إليك غلامُ ابنِ برُّوخ فأطعِمْه ممّا أعدَدْتَ من طعامى، وألْبِسْهُ من فاخرِ ثيابى، وطَيِّبْه ومكِّنْه من مجلسى إلى أن أنصرفَ إليكم». وتشاغلتُ بأمور ابن بروخ إلى آخر النهار، وانصرفتُ، فوجدتُه على الهيئة التى آثرتُها، ورامَ منِّى مايفعله غِلمانى من الوقوف، فمنعتُه من ذلك، فقال لى بالرومية: «ياسيدى! ما الذى وعَدَتْك به نفسُك منِّى؟ فإن كان عندى بذلتُه لكَ وكنتَ حقيقاً به، وإن لم يكن لدىَّ صَدَقْتُك عنه، ولم أتغنَّمْ منك ما لا يشبهنى تغنُّمه(٤)»، فقلت له:

(١) السبى: الأسرى من العدو

(٢) السمت: الهيأة والمنظر والحركة

(٣) يشتمل على أمره: يخدمه فى جميع أمره ويحوطه

(٤) تغنم الشىء: طلب أن يجعله غنيمة بغير جهد

« قد اقتبَسْنا من جدِّك أنواراً حَسُن بها أثَره علينا ، ووجب علينا بها وِقايَتُك بأنفسنا » ، فقال : « والله إنَّ الطِّباعَ التى لأسلافِنا معنا ، ولكنّا شغلناها فى رَعْيِ الخنازير ، فبعُدْتُ بها ممن قرَّبتْنى له ، وأكرمتنى بسببه »

فخيَّرتُه بين الدخول معى إلى مصر ، على أن أُشاطره مِلْكى وعيشى ، أو أحتالَ له فى ردِّه إلى بلده ؟ فاختار ردَّه إلى بلده . فلَطفْتُ له (١) ـ بإنفاذ بعض من أثق به مع الرُّسُل المتوجهين معه ـ حتى وصَل إلى بلده »

* * *

محمد بن سليمان والمؤلف

٢٣ — وكانت تنتابُ عجائزَنا (٢) عجوزٌ جميلةُ المذهب ، ضعيفةُ الحال ـ تُعرَف بأم محمد ـ ، فيجتمعنَ على كل صالحة ، وكنت أخصها بكفايتها . فلمّا دخل محمد بن سليمان مصرَ ، نَزَلَ فى ظاهرها ، واستدْعَى الواحد بعد الواحد من أسباب الطُّولونية (٣) ، فاستصفَى مالَه بالسَّوْطِ وعظيمِ الإخافة (٤) ، فراعنى أمرُه ، وخفتُ أن يلحقنى عَسْفُه

(١) لطف له وبه : ترفق

(٢) انتاب القوم : إذا قصدهم ، وأتاهم مرة بعد مرة

(٣) الأسباب : المودات ، ويريد أصدقاء بنى طولون الذين يمدون إليهم بسبب

(٤) استصفى مال الرجل : استخلصه وأخذ صفوه ، واستخرج أكثره

فإنى لجالسٌ فى يوم من الأيام وأنا خائف ، حتى دخلتْ جاريةُ أمّ محمد العجوزِ ، فسلّمت علىّ ، فظننتُها والله تقتضى بعضَ ماعوَّدْتُها ، فقالت : « سيِّدتى أمُّ محمد تقرأُ عليكَ السلام وتقول : « جاءنى الساعةَ رسولُ ابن عمى وسيِّدى أبى علىٍّ محمّدِ بن سليمان يسألُ عنِّى فعرَّفتُه أنى كنتُ فى كِفَايتك » ، والرسول على الباب يُريغُ الوصولَ إليك » ، فقلت : « يَدْخُلُ »

فدخل شابٌّ حسن الصورةِ يُعرَف بناشِى ، فقال : « جزاك الله خيراً ! فقد وصفتْك ابنةُ عم سيدى بما أرجو أن يحسُنَ أثَرُه عليك » . ودعا بأصحابِ الأرباع ، فتقدّم إليهم بأن يَمْنَعُوا مَنْ تعرَّضَنِي ، فعرَضْتُ عليه بِرًّا فقال : « وأىُّ برٍّ أكثر مما أتيته إلينا ؟! » ، وانصرف عنّا

فرجع إلىّ ناشى هذا برُقْعة بخط ابن سليمان : « سر إلينا لننظُرَ فى أمرك ، ونبلُغَ فيه محبَّتَك ، فإنى أرْعَى لك متقدمَ حُرْمَتِك ، ووَكِيدَ أسبابِك ، إن شاء الله » . وما لحقنى منه شىء أكرهه حتى انصرف عن البلد

* * *

ابن أبى شراعة والمؤلف

٢٤ — وكان أبو الفياض سَوَّار بن أبى شُراعَة الشاعر صديقاً لى ، ومائلا إلىّ ، فلمّا اعتزم على الرجوعَ إلى العراق ، سألنى أن أكتبَ له شيئاً من شِعْرى ، فكتبتُ له مقدار خمسين ورقةً منه ، وكان يستحسنه ويُعْجَب به . فصار إلى بغداذ وعَرَضه على جماعة

الأحرار (١)، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه، وطهارة نيّته

ودخل محمد بن سليمان مصر، وقد رُدّ البريدُ بها إلى أبى عُبَيْد الله أحمد بن صالح، فسأله عند دخوله إيّاها عن أحمد ابن يوسف، فأحضر أحمدَ بن يوسف ـ كاتباً كان لأحمد بن وصيف، ولابن الجصّاص بعده ـ، فقال له: «تعرف أبا الفيّاض؟»، قال: «لا!». فقال لهم: «ليس هذا الرجل الذى طلبتُ»، فأُحْضِرتُ، فلمّا رآنى استشرف إلىّ (٢)، وقال: «تعرف أبا الفيّاض؟»، فقلت: «ذَكَرك الله وإيّاه بكلّ صالحةٍ! نعم أعرفه، وكان خِلاًّ لى!»، فقال: «هل أنشدَك من شعره؟»:

ظَللنا بها نَسْتَنْزِلُ الدَّنَّ صَفْوَه

فَيَنْزِلُ أقْباسًا بغيرِ لَهِيبِ»

قلت: «لا ياسيدى! ولكنّى أنشدتُه إيّاه من شِعْرى!»، فضحك وقال: «والله لقد اشتقْت إلى الدخولِ إلى مصر من أجلك!». وكان والله أفضلَ عَوْنٍ لى على أمورى

* * *

علان بن المغيرة وفقيه

٢٥ — وحدثنى أحمد بن سقلاب، قال:

«كان بمصر رجلٌ من الفقهاء مشهورُ الاسْم، وله حَلْقَة

(١) الاحرار: الأشراف والأفاضل، جمع حر

(٢) استشرف إليه: تطاول وتطلع إليه، ثم خرج إلى لقائه

عظيمة بالجامع. فبينا هو فى صدرها إذ وافَى عِلاَّن بن المغيرة (١)، فلما رآه مقبلاً نحوه قام إليه على رجليه، ثم خطا إليه حتى لَقِيَه. فأكثرت الجماعةُ قيامَ شيخٍ مثلِه إلى حَدَثٍ (٢) مثل عِلاَّن، وتحفّيه به، وعَرْضِ نفسه عليه، وأنّه لم يدع شيئاً يفعله تابع بمتبوع إلاّ بَذَله، وأسْرَرْنا الموجدةَ عليه (٣). فلما قام عِلاَّن قال لجماعتنا: «ما أعلمنى بما أضمرتم! ولكنّى أريكم عُذرى فيما خرجتُ إليه:

«كانت عندى ألفُ دينار وديعةً لرجلٍ بالمغرب قد طال مُقامها، وطالب زوجُ ابنتى بإدخالِ امرأته عليه، فجلستْ أمُّها بحَضْرتى فقالت لى: «ما الذى تراه فيما قد ألحّ فيه هذا الرجل؟»، فقلت لها: «نستعمِل فيه التجوُّز» (٤)، فقالت لى: «لنا حُسّاد نخاف شماتتهم، ولا بُدّ من أن تُعِينَنى على التجمُّل»، فقلت: «إنْ كان ماتُريدين فى قدرتى لم أبخلْ به عليكم». قالت: «هو فى قُدْرتك!» قلت: «ماهو؟»، قالت: «تمكِّنّى من هذه الوديعة، ونحتاط فيما نبتاعه من الجهاز حتى يصل إلينا ثمنُه فى أىِّ وقتٍ أردناه، ونُدْخِل هذه الصبيّةَ على زَوْجها. فإن جاء صاحبُ الوديعة بِعْنا

(١) فى الأصل: «ابن علان بن المغيرة»، ثم ذكره فقال. «علان»

(٢) الحدث: الحديث السن الصغير

(٣) الموجدة: الغضب المكتوم

(٤) التجوز: التساهل

ما آشتريناه ولم نُوضَعْ فيه (١) إلاّ مايسهُل علينا غُرْمه » ، قلت : « هذا قبيح عند الله وعند خلقه ! » . فلم تزل تُلِحّ بى وتحتالُ علىّ ، حتى أجبتها . فجهّزتِ آبنتَها بجميع المالِ ، وأدخلتْها على زوجها

فلم يمضِ بنا بعد ذلك إلاّ شهران حتى وافى صاحبُ الوديعة يطلبُها ، فقلت لها « ما تفعلين ؟ » ، فقالت : « أمضى فأحمِل المَتاع وأبيعُه » . فمضت إلى ابنتها ورجعت إلىّ ، فقالت : « لاتشغَلْ نفسَك بهذا المتاع ، فقد حلَف زوجُها بطلاقِها أنه لايَخْرُج منه شىءٌ عن منزله » ، فسُقِط فى يدِى (٢) ، ورأيتُ الفضيحةَ فى الدَّارَيْن متصدِّيةً لى : فوُضع إفطارى بين يدىّ فلم أَطْعَم ، وآعترانى ماخفتُ منه على عَقْلى ، وبِتُّ بليلة ما بِتُّ بمثلها ، وأنا أتبين سهولةَ ذلك على زوجتى فى جَنْب ما أحرَزَتْه لبنتها . ثم آنتبهتُ قبلَ الفجر بمنازِل ، فصحتُ بالغلام « أسْرِج لى ! » ، فقام (٣) وأسْرج ، وقال : « ياسيدى ! أين تمضى ؟ » ، فقلت : « ليس لك الاعتراضُ علىّ »

وركبتُ وسِرْت بطَوْع عِنانى ، فلم يزل بَغْلى يسير حتى دخلتُ

(١) أوضع فى المال (بالبناء للمجهول) : وكس وغبن وخسر

(٢) سقط فى يده : (بالبناء للمجهول) : إذا زل الرجل وأخطأ فندم على مافرط منه

(٣) أسرج له : أى وضع على الدابة سرجها

زُقاقَ علاّن بن المغيرة ، فوقفتُ على باب دارِه ، وصاح الغلام بالبوّاب وعرَّفه بموضعى . فسمعتُ حركةً فى داره ، ثم فُتِح الباب وأُذِن لى بالدخول . فدخلتُ عليه ، فوجدتُ بين يديه شمعةً وهو يكتب جواباتِ كتُبِ وُكَلائه . فلمّا رآنى قام إلىّ ، وقال لمن حضره من الغلمان ، « تَنَحَّوْا ! » ، وأقبل علىَّ فقال : « والله لو بعثت إلىّ لسرْتُ إليك ولم أُجشِّمْك السعْىَ إلىّ ، فاشرحْ لى أمرك » ، فغلبتنى العَبْرةُ وحالت بينى وبين الكلام ، فما زال يُسَكِّننى حتى نَصَصْتُ له إنفاقَ الوديعة (١) ، وهو مغمومٌ بأمرى . ثم قال : « فكم هذه الوديعة ؟ » ، فقلت « ألفُ دينار ! » ، فضحك ، وقال : « فَرَّجت وَالله عَنِّى ! ما توسَّمْتُ أنى أملِكها (٢) ، فكان الغمُّ يقع بها ، فأمّا وهى فى القدرة فما أسهلَها علىّ ، وأخفَّها لدىّ ! » ، ثم قال لغلامه : « جئنى بتلك الصِّرار (٣) التى وردتْ علينا من المغرب فى هذا الشَّهْر » ، فجاء بأربع صِرارٍ فنظرَ فيما عليها وجمعَه وقال : « هذه ألف دينار وخمس مائة دينار ، ألفٌ للوديعة ، وخمس مائة تصلح بها ما بينك وبين من عندك » ، ثم قال لى : « متى أشكر إفرادَك إيّاى ـ بعدَ الله عز وجل ذكره ـ بتأميلى فى حادِثةٍ حدثت عليك ، فأعاننى الله على مكافأتك ؟ » . وأضاف إلىّ من خَفَرنى إلى منزلى »

(١) نص الحديث إلى فلان : رفعه إليه وأظهره

(٢) توسم الشىء : توهمه وتخيله

(٣) الصرار : جمع صرة ، وهى التى تصر فيها الدراهم

فقالت الجماعةُ : « قد سمعنا عُذْرك ، وعلينا عهدُ الله إنْ لقيناه أبداً إلّا قياماً »

***

الطالبي ووالد المؤلف

٢٦ — وبعثَ أحمد بن طولون ـ فى الساعة التى تُوُفِّىَ فيها يوسف بن إبراهيم والدى ـ بخدَمٍ فهَجَمُوا الدَّار (١) ، وطالبوا بكتبه : مقدِّرين أن يجدوا فيها كتاباً ممّنْ ببغداذ . فحملوا صندوقين وقبضوا علىَّ وعلى أخى ، وصاروا بنا إلى داره . وأُدْخلنا إليه وهو فيها جالس ، وبين يديه رجل من أشرافِ الطالِبيِّين . فأمر بفتح أحدِ الصندوقين ، وأدخل خادمٌ [يَدَهُ] ، فوقع دفترُ جراياته على الأشرافِ وغيرهم . فأخذ الدفترَ بيده وتصفَّحه ـ وكان جيِّدَ الاستخراج ـ فوَجدَ اسمَ الطالبىّ فى الجِراية ، فقال له وأنا أسمع : « كانت عليكَ جرايةٌ ليوسف بن إبراهيم ؟ » ، فقال [له : « نعم ! أيُّها الأمير !] ، دخلتُ هذا البلد وأنا مُمْلِقٌ (٢) ، فأجرى علىَّ فى كل سنة مائتى دينار ومائتى إرْدَبّ قمح ، أُسوةً بابنى الأرقط والعَقِيقىّ وغيرهما . ثم امتدَّت يَداى بطَوْلِ الأمير (٣) فاستعفيتُه منها ، فقال لى : « نَشَدْتُكَ اللهَ إن قطعتَ سبباً لى برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ! » ، وتَدَمَّعَ الطالبى (٤) ، فقال أحمد بن

(١) هجم الدار : دخلها بغتة بغير إذن

(٢) أملق الرجل فهو مملق : نفذ ماله فهو فقير

(٣) امتدت يده بكذا : اتصلت . والطول : الفضل والإحسان

(٤) تدمع : أى سالت دمعته وبكى ، ولم يوجد فى اللغة ، ولكنه كثير فى كتب عصر ابن طولون

طولون : « يرحمُ الله يوسف بن إبراهيم ! » . ثم قال لنا : « انصرِفوا إلى مَنازلكم ، لا بأس عليكم »

فانصرفنا فلحقنا جَنازة والدنا ، وحضَرَنا العلوىُّ وقد أحسن مكافأة والدنا فى مُخلَّفيه

***

موسى بن مصلح ورجال من التجار

٢٧ — وحدثنى موسى بن مُصلح ، قال :

أنفذ إلىَّ حسن بن مهاجر ـ كاتبُ أحمدَ بن طولون ـ عشرةَ رجال من التُّجّار ، وقال : « اعتَقِلْهم بمَعْزِلٍ عن المسجونين ، حتى أعرِضَهم فى غَدٍ على الأمير » . فتسلمت منه قوماً تشهدُ لهم القلوبُ بالفضل ، فآنستُ وَحْشتَهم ، وفَسَحْتُ رجاءَهم . فقالوا لى : « قد شكرنا جميلَ صَنيعك ، ولنا إليك حاجة ، » ، قلت : « ماهى ؟ » ، قالوا : « فينا فتًى يضعُفُ قلبهُ عن لقاءِ الأمير ، فتقبَّلْ مِنّا بدَلًا به ، ولك علينا مائة دينار » ، قلت : « أنا أفعل ، إن وجدتُم من يُجيب إلى هذا ! » . ـ وكان عندى أنه كالممتنع ـ ؛ فأخذ شيخٌ منهم رُقعةً وكتب فيها إلى رجلٍ كان قد أوْلاه عارفةً ، فسأله ذلك ، فأجابه الرجل : « إنى بإثرِ رُقعتى »

قال موسى : « فتوهَّمتُ أن هذا قولٌ لاثمرةَ له ، فلم أشعر به حتى وَافَى فقال : « ما أخَّرنى عنكَ إلّا أنّى جدّدت وصيةً ، وأحكمتُ ماخِفْت أن يقطعَنى عنه مادَعَوْتَنى إليه » ، وقال : « لستُ أُجيبك إلى ما التمسْتَ ، حتى تكون المائةُ الدينار من عندى دون جَماعتكم » ،

وأخرجها من كُمّه ودَفعها إلىّ، وصرفتُ الرجل. وأقامَ هـذا مكانَه، فلم أتبيّن منه غمًّا بهذا ولا قَلَقاً له. وظلّوا ليلتهم يتحدّثون ويتناشـدون، والسلامةُ غالبةٌ على خواطرهم، حتى أصبحوا.

وأخرجهم حسن بن مُهَاجر فعرضَهم على أحمد بن طولون، فتبيّن تحامُـله عليهم، فأمَره بـترك التعرّض لهم. فانصرفوا. وكانت ألْطافهم تَرِد علىَّ حتى فَقَدتهم»(١)

***

تاجر وزوجته

٢٨ — وحدثنى أحمد بن أيمن كاتبُ أحمد بن طولون، قال:

«دَخلتُ بالبصرة إلى تاجر ذَهَب عنّى اسمُه، فرأيتُ بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافة، فلما رآنى أُقْبِل بنظرى إليهما، قال لى: «أُحِبّ أن تعوّذهما(٢)»، ففعلتُ، وقلت له: «استجدتَ الأمَّ لحُسنِ نَسْلك!»، فقال: «ما بالبصرة أقبحُ من أمّهما، ولا أحبُّ إلىّ منها. ولها معى خبر عجيب»، فسألته أن يُحدّثَنيه، فقال:

«كنت أنزل الأُبُلَّةَ وأنا مُتعيّش(٣)، فحملتُ منها تجارةً إلى البَصْرة فربحتُ، وحَملتُ من البصرة إلى الأُبُـلّةِ فربحتُ ولم أزلْ أحمل من هذه إلى هذه فأربَح ولا أخسَر، حتى كَـثُرَ مالى، وتَعالم الناس إقبالى، وآثَرْتُ السُّكْنَى بالبصرة، وعلمتُ أنه لا يحسن بى

(١) الألطاف: جمع لطف، وهى الهدية والتحفة
(٢) عوّذه من العين والحسد، قال: «أعيذك بالله وأسمائه من كل ذى شر وكل داء وحاسد وعين»
(٣) المتعيش: الذى يتكلف أسباب المعيشة بالقليل من العمل والتجارة

المُقامَ بها بغير زوجة، ولم يكن بها أجلُّ قدراً من جَدّ هذين الغلامين. وكانت له بنت قد عَضَلَها(١)، وتعرّض لعداوة خُطّابها. فحدّثتنى نفسى بلقائه فيها، فجئته على خَلْوَة، وقلت له: «ياعَمّ! أنا فلان بن فلان التاجر»، فقال: «ما يَخفَى عنّى محلُّك ومحلُّ أبيك!»، فقلت: «قد جئتك خاطباً لابنتك»، فقال: «والله ما بى عنك رَغْبَةٌ، ولقد خطبها إلىّ جماعةٌ من وجوه البصرة وما أجبْتُهم، وإنى لكارهٌ من إخْراجِها عن حِضْنى إلى من يُقَوِّمها تقويم العَبِيد»(٢)، فقلت: «قد رفعها الله عن هذا الموضع، وأنا أسألك أن تُدْخلنى فى عَدَدِك، وتَخْلِطَنى بشَمْلك»، فقال: «ولا بُدّ من هذا!»، قلت: «لا بُدّ، وهو زائدٌ فى فضلك علىّ، واصطناعك إيّاىَ»، فقال: «اغدُ علىّ برِجالك».

فانصرفتُ عنه إلى مَلأٍ من التجار ذوى أخْطارٍ(٣)، فسألتهم الحضورَ معى فى غدٍ، فقالوا: «إنّك لتُحرّكنا إلى سَعْىٍ ضائع»، قلت: «لابدّ من ركوبكم معى». فركبوا على ثِقَة من أنه يردّهم، وغدَوْنا عليه فأحسنَ الإجابةَ وزوّجنى، وأطعمَ القومَ ونَحر لهم، وانصرفوا

ثم قال لى: «إن شئتَ أن تَبيتَ بأهلك فافعل، فليس لها

(١) عضل المرأة: حبسها ومنعها الزوج
(٢) قوّم السلعة والعبد: قدر قيمتها فى الشراء والبيع
(٣) الملأ: الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم. والأخطار: جمع خطر، وهو القدر والمنزلة الرفيعة

مايَحْتاج إلى التلوُّم عليه (١) » ، فقلت : « هذا ياسَيّدى ماأُحِبُّه » .
فلم يزل يحدّثنى بكل حَسَنٍ حتى كانت المغربُ ، فصلاّها بى ، ثم سَبّح وسبّحت ، ودعا ودعوتُ ، إلى أن كانت العَتَمة فصلاّها (٢) بى ، وأخذ بيدى . فأدخلنى إلى دارٍ قد فُرِشَت بأحسن فَرْشَةٍ ، بها خَدَمٌ وجَوَارٍ فى نهاية من النّظافة ، فما استقرّ بى الجلوس حتى نَهَضَ ، وقال: « أستودعك الله ، وقدّم الله لكما الخِيَرَة ، وأحرَزَ التّوْفيق » .
واكتنفنى عجائزُ من شَمْله ، فجَلَوْنَ ابنتَه علىّ (٣) . فما تأمّلت طائلا وأرخَتِ الستورَ علينا ، فقالت : « يا سيدى ! إنى سِرٌّ من أسْرارِ والدى ، كتَمه عن سائر الناس وأفضى به إليك ، ورآك أمَلا لِسَتْره عليه ، فلا تُخْفِرَظّنه فيه . ولو كان الذى يُطْلَب من الزوجةِ حُسْنُ صورتها دون حسن تدبيرها وعَفَافِها ، لَعَظُمَت مِحْنتى . وأرجو أن يكونَ معىَ منهما أكثرُما قصّر بى فى حُسْن الصورة »
ثم وثبت فجاءت بمالٍ فى كِيسٍ ، فقالت : « يا سيدى ! قد أحلّ الله لك معى ثلاثَ حرائرَ وما آثرتَه من الإماء (٤) ، وقد سوّغتُك تزوّج الثلاث وابتياع الجوارى من مالِ هذا الكيس ، فقدأوقفته

---

(١) تلوم على الشىء : انتظر وتلبث

(٢) العتمة : ثلث الليل الاول بعد غيبوبة الشفق ، وهووقت صلاة العشاء . وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن تسمية صلاة العشاء « العتمة »

(٣) جلا العروس على بعلها يجلوها : زينها وصقلها وأدخلها عليه ، وذلك « جلوة العروس »

(٤) الحرائر : جمع حرة ، وهى المرأة التى لم يجر عليها الرق ، فتكون أمة ، وهى المملوكة ، وجمعها إماء

على شَهَواتك ، ولستُ أطلب منك إلاّ سَتْرى فقط »
فقال لى أحمد : فخلفَ لى التاجرُ : « إنها ملكت قلبى مِلْكا لم تصل إليه حسَنَةٌ بحُسْنها ، فقلت لها : جزاءُ ماقدّمتِيه ماتسمعيه (١) منّى : « والله لاأصبتُ من غيرك أبداً ، ولأجعلنّك حَظّى من دنياى فيما يُؤْثِره الرجلُ من المرأة ! » ، وكانت أشفقَ النّساء ، وأضبطَهم ، وأحسنَهم تدبيراً فيما تتولاه بمنزلى ، فتبيّنت وقوعَ الخِيَرة فى ذلك . ولحقتنى السِّنُّ ، (٢) فصارتْ حاجتى إلى الصواب أكثرُ منها إلى الجِماع . وشكرَ الله لى ماتلقّيت به جميلَ قولها ، وحُسْنَ فعلها ، فرزقنى منها هذين الابنين الرّائعين لك ، ونحن منقطعون إلى جُودِه فينا ، وإحسانِه إلينا »

* * *

هرثمة بن أعين والرشيد

٢٩ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال :
« أنكر المهدى على هَرْثَمة بن أعين تحكّكه بمَعْن بن زائدة ، وأمر بنَفْيه إلى المغرب الأقصى ، فكلّمه الرشيدُ فيه ، واستَلّ سخيمتَه عليه (٣) . ومات معنٌ ، وزادت حالُ هرثمة ، وشكر للرشيد ماكان منه ، وأفضت الخِلافة إلى موسى الهادى ، فتمكّن منه هرثمة .

---

(١) هذا حكاية قول التاجرولذلك لم يبدّل مافيه من اللحن والخطأ ، وسيمر كثير من ذلك فى الكتاب

(٢) لحقته السن : أدركه الكبر فى السن العالية

(٣) السخيمة : الغضب والموجدة فى النفس . واستلها وسلها : أخرجها بتأنٍّ ورفق

وحدّثت الهادىَ نفسه بخلع الرشيد، وجَمْع الناسَ على تقليدِ آبنه العَهْدَ بعهده، وعلم بهذا هرثمة، وتذكّر عارفة الرشيدِ، فتمارَضَ

وجمع الهادِى الناسَ ودعاهم إلى خلع الرشيد ونَصْب آبنه مكانه، فأجابوه وحَلفوا له. وأحْضَر هرثمة، فقال له: «تبايع ياهرثمة؟» فقال: «ياأمير المؤمنين! يمينى مشغولةٌ ببيْعتك، ويسارى مشغولة ببَيْعة أخيك! فبأىّ يدٍ أُبايع؟ والله ياأمير المؤمنين لاأكّدتَ فى الرقاب من بيْعة آبنك، أكثرَ مما أكّده أبوك لأخيك فى بيعته، ومن حَنِثَ فى الأولى حَنِثَ فى الأُخرى (١). ولولا تأوّل هذه الجماعة بأنّها مُكْرَهة، وإسْرارُها فيك خِلافَ ماأظهرَتْ، لأمْسكْتُ عن هذا». فقال لجماعة مَنْ حَضَر: «شاهَتْ وجوهكم! والله لقد صَدَقَنى مولاى وكَذَبْتُمونى، ونَصَحنى وغَشَشْتمونى»

وسَلِمَ إلى الرشيدِ ماقدره الهادى فيه»

***

أبو يوسف والرشيد

٣٠ — وسمعت يوسف بن إبراهيم والدى يقول:

«لم يتمكّن أحدٌ من أحد تمكُّنَ أبى يوسف القاضى من الرشيد. ولقد سألتُ إبراهيم بن المهدى عن السبب فى ذلك، فقال:

«كان يستحِقّ هذا منه لما حدّثنى به مسرورٌ الكبير، قال:

«كنتُ فى خِدْمة المهدىّ، وكان الرشيد حفيًّا بى (٢)، محسنًا إلىّ، فلمّا آنتقل أمر الخلافة إلى الهادى، قال لى الرشيد: «إنّ

(١) حنث فى اليمين: نقضها بعد توكيدها

(٢) يقال: هو حفىّ به، أى: مبالغ فى الكرامة والبر

أخى قوىُّ الشَّراسة، وأنا أخاف إيقاعه بى وجَمْعَ الناس على بيعة آبنه بعده. وأنا على غايةٍ من الثقة بك، فآعدل إليه وكن لى عَيْنًا عليه (١)». فتقدمتُ عند الهادى حتى تولَّيت سِتْرَ بيت خَلْوَته.

وكان المهدىُّ قد قَرَن أبا يوسف بالهادى فتمكن منه، وقَبِل فى مُهمّاته مَشُورته، فلمّا حَلا بقلبه شاوره فى ذلك، فقال: «ياأمير المؤمنين! لاتحمِلْ نفسَك على قطيعة رَحِمك، وأولياءَك على الحِنْث بأيْمانهم، وآستدْعِ من الله زيادَته بما يُرضيه عنك»، فتوقّف بعض التوقّف. وسُعى إليه بالرشيد، وقيل له: «إنه [عاملٌ] على أن يغتالك». فدعا بأبى يوسف وأخبره بما تأدّى إليه؛ فقال: «ياأمير المؤمنين! لاتسمَعْ هذا، وأنا الضامنُ لك حُسنَ طاعته ووَكيد مُوالاته». فكنت أُنْهِى جميعَ ذلك إلى الرشيد فيشتدُّ سرورُه به، ويرغَبُ إلى الله فى مَعُونته على مكافأته

فلما أفضت الخلافةُ إليه، دعا به وقال له: «يايعقوب! لو جاز لى إدخالك فى نَسَبى، ومشاركتُك فى الخلافة المُفْضِيَة إلىّ، لكنتَ حقيقًا به! ألستَ القائلَ لأخى وقت كذا: كذا؟ وفى وقت كذا: كذا؟»، فقال: «ياأميرَ المؤمنين! من أنبأك بهذا؟ فوالله ماكان معنا ثالث!». فضحك الرشيد وقال: «مسرورٌ كان يتولى سِتْر بيت خَلْوَتهِ، وكان يُنْهِى إلىّ جميع ماصَدَر عنه»

قال مسرور: «فوالله مابرحتْ بى عنايةُ أبى يوسف حتى

(١) العين: الجاسوس

بَلَغتُ مع الرشيدِ هذا المبلغ ! »

* * *

أبو يوسف وبذل

٣١ — وحدّثنى أحمد بن أبى عمران الفقيه ، أن ابن الثلجى حدّثه ، أنّ بشرًا المريسى - وكان متزهِّدًا - قال :

«ما آشتهيتُ من مَراتب السُّلطان إلا مرتبةً رأيتُ أبا يوسف بلغها فى عشيةٍ من العَشَايا . كنت آجتزتُ به مسلِّمًا عليه ؛ فقال لى : « تُقيم عندى العشِيةَ لنتناظر فى طائفة من العلم ؟ » . فإنى لجالسٌ عنده — وقد آبتدأ فيما أثَرْناه — حتى وافى إليه رسولُ أمير المؤمنين الرشيد ، فقال لى : « انتظرنى » ، ومضى . فغاب عنّى مقدارَ ساعتين ، ورجع ، وخلفَه غلمان يحملون مالًا ، فوضعوه بين يديه وآنصرفوا فقال : «دُفِعتُ الليلة إلى عجائب ! » ، قلت : «ماهى ؟ » ، قال : «دخلت إلى دارِ أمير المؤمنين ، فآنتهى بى رسولُه إلى سِترٍ مُسْبَلٍ على بابٍ (١) ، مسرورٌ الكبير يُمسكه ، فقال لى : « سلِّم على أمير المؤمنين ! » ، فسلمتُ ، فقال : «وعليك [السلام] يايعقوب ! آدخُلْ وحدَك» ، فرُفِعَ الستر حتى دخلتُ ، فألفيت عنده محمّد ابن جعفر بن المنصور - مولى الجارية المعروفةِ ببَذْلٍ - ووَجْهُ كل واحد منهما محوَّلٌ عن صاحبه ، وبين يَدَى الرشيد سيفٌ مشهور

فقال لى : « يا يعقوب ! هذا الرجل يُديرنى مُذ الظهر على قتله ! » ،

(١) مسبل : مرسل

فقال له : « ترضى به حكما بيننا ؟ » ، قال : « نعم ! » ، قال : « ألقِ هذا السيف من يَدِك ، وآرْضَ بالحقّ لكَ وعليك » . وآستدارا جميعاً حتى جلسا مجلسَ الخُصوم بين يدىَّ

ثم قال الرجل : « سألنى أميرُ المؤمنين أن أبيعَه جارية علىَّ فيها أيمان مُحَرَّجة لا كفّارة لها ، ألّا أبيعَها ولا أهَبَها » ، قال فقلت له : « فتَسْمح بها لأمير المؤمنين إن أخرجتُك من يَمينك ؟ » ، قال : « إى والله ! وإنّ ذلك لسهْلٌ علىَّ » ، فقلت : « هَبْ لى نصفها ، وبِعْهُ نصفَها » . فقال : « قد أجبْتُ ، وجعلتُ ثمن النصف هديَّةً لك » . وتعانقا جميعاً ، وآنصرفتُ إليك ، ولحِقنى هذا المال » . فوجدنا المال المحمولَ خمسة وعشرين ألفا ، فقلت فى نفسى : « أُحيِى نفساً ، وأُصلِحَ بين خليفةٍ وآبن عَمّه فى مقدارِ ساعتين من النهار ! »

قال بشر : « فوالله ما فرَغنا من صلاةِ المغرب حتى آبتدَرنا الغلمان يحملون مالا وبَزًّا وطِيباً (١) ، ومعهم جارية حصيفةٌ (٢) ، فقالت : « تقرأ عليك السلامَ سيّدتى وتقول لك : « أجازَنى سيّدى أمير المؤمنين بما حملته إليك ، فجعلتُه ثواب الفُتْيا التى كانت سَبَبَ وصولى إليه »

فكان المال منه خمسة وعشرين ألفا »

* * *

(١) البز : الثياب

(٢) حصيفة : جيدة الرأى محكمة العقل

رجل من صنائع الأمويين والمنصور

٣٢ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب قال: حدثنى أبى أبو يعقوب، عن جدى واضح، مولى المنصور، قال:

«كنتُ بين يدى المنصور، وقد أحضر رجلا كان من رجال هشام بن عبد الملك، وهو يُسائله عن سيرة هِشام لأنها كانت تُعجب المنصورَ. فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره، فأحفظ ذلك جماعتَنا (1)، فقال له الربيع: «كم تترحّم على عدوّ أمير المؤمنين؟»، فقال الرجل للربيع: «مجلسُ أمير المؤمنين — أيّده الله — أحقّ المجالس بشُكْر المحسِن، ومجازاةِ المُجمِل، ولهشام فى عُنُقى قِلادةٌ لا يَنزِعها إلّا غاسلى»، فقال له المنصور: «وماهذه القِلادة؟». قال: «قلّدنى فى حياته (2)، وأغنانى عن غيره بعدَ وفاته!»، فقال له المنصور: «أحسنتَ بارك الله عليك! وبحُسن المكافأةِ تُستَحثّ الصنائعُ، وتزكو العَوارف (3)»، ثم أدخله فى خاصته».

***

بعض أقوال الفلاسفة فى حسن المكافأة

وقد مثّل بعضُ الفلاسفة لِحُسْنِ المكافأةِ، بالحُسام الصقيل، الذى يُحْدِث له وقوعُ الشمس عليه: انبعاثَ شُعاعٍ منه يجلو غياهب

(1) أحفظه: أغضبه

(2) قلدنى: يريد قلده عملا من أعمال السلطان

(3) استحث الصنائع: جعلها سريعة متتابعة متصلة، والصنيعة: الجميل والإحسان، والعوارف: جمع، عارفة، وهى المعروف. زكا المعروف يزكو: نما وازداد

الأمكِنة المظلمة، ويكون وُفور شُعاعه على حسب صِقاله

وقال أفلاطون: «من حَسُنت مكافأته، لم تُغْضِبه خَيْبتُه فيما لتمسَهُ؛ لأنه يُقيم العوارِفَ مقام دُيونٍ يتحمَّلها لا يَسَعُه إغفالُ قضائها. وإنما يغضَب من المنع: مَنْ آثَرَ تحصيلَ العارِفة وإغفالَ المكافأةِ عليها»

***

خاتمة المؤلف لهذا الباب

ولأنّ المرغوبَ إليه إذا كان يحتاج إلى مُطالعة حُسْنِ المكافأة للإحسان فيثابِر عليه، وسوءِ المكافأةِ على الإساءة فيتأخّر عنه، كان الراغبُ محتاجًا إلى أن يكونَ فى خَلَده من أخبار من أساءَ الصنيع فساءَت مكافأته، مايوازى ماأثبتناه من حُسْن المكافأة للإحسان

٢ — المكافأة على القبيح

ملك الهياطلة وفيروز

٣٣ — حدثنى أحمدُ بن يوسف بن جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس، عن أبيه، عن جدّه مولى عبد الله بن المقفع — أنّ عبد الله حدّثه، قال

«كان فيما ترجمتُه من سِيَرِ الفرس: أن فيروزاً لمّا تقلّد مملكة فارس حدّثته نفسه باجتياز بلد الهَياطلة. وكان به للهياطلة مَلِك صحيحُ الرأى حَسَنُ الجوار، فجمع ذوِى الرأْى فى بلده وسألهم عمّا يرون، فعرضوا عليه أموالهم والخروج معه، فجزّاهم خيرًا وانصرَفوا. وخلا به وزيرُه — وكان عالِىَ السن[١] — فقال له: «أيها الملك إنّ يسيرَ الحيلة ربّما بلغ أوْفَى منازل المكافحة والذى عندى من الرأى أن تُظهر السُّخط علىّ فتقطع يدىّ ورجلىّ، وتنفِيَنى إلى أقاصِى عَمَلك، وتكتُبَ إلى عاملك هناك فى حبْسى، وتظهِرَ أنّك تبينْت منّى مَيْلاً إلى فيروز»، فقال له: «إنّ حسن الحيلة إنّما يقع بغير إضرار يلحق صاحبها، وإذا بلغنا بك هذا، فقد جاوزنا بك ماتخافه من فيروز لو حصلتَ فى يده»

فقال: «أنا مُذْ تكامَلَ تمييزى أحسُب مالِىَ وعلىّ، فإذا وُهِبَتْ لى نعمةٌ علمتُ أنّ علىّ فيها محْنة، وأنّ الرغائبَ بالنوائب[٢]. وقد

(١) عالى السن: كبيرا مسنا

(٢) الرغيبة: الشىء العظيم المرغوب فيه

عشتُ فى سلطانك — أيها الملك — فى هــذه السّن العالية، عزيزَ الجانب، خصيبَ الأفْنِية، وشَمْلى فى نهاية من رَفَاغة العيش.[١] وليسَ من الجميل أن أُمْسِك عن قضاء حقّ النعمة علىّ لسلطانى وشَمْلى وأهلى وولدى، وصِبْيَانهم، بما عَرَاهم بنفسى[٢]. وأعلم أنّى لو خدمتُ السلامةَ لنفسى، لمات ذِكْرى بموتى، ولم أُبْقِ شَرَفًا لأهلى! ولعلّ أجلى قريبٌ، فأفوز بحُسْن الذكر فيما أتيته وقضَيْتُ به حقَّ سَوالف الإنعام علىّ، والإحسان إلىّ. وإنّما آعتمدتُ هذا الأمرَ الفظيعَ لأعدلَ بفِكْر فيروز عن الحِيلة، وأضطرّهُ إلى السكون إلىّ»

«فلمّا رأى أنه لايرجع عمّا أشار به عليه، دعَا به وقطعَ يديه ورجليه، ونفاه إلى آخر مسالحه[٣]، فكان محبوساً هناك

«ووجَدَ فيروز فى سفره، فوافى الموضع الذى فيه الوزير، فوجده خالياً ممن كان فيه، ولم يرَ به غيرَ رجلٍ مقطوعِ اليدين والرجلين، فسأله عن حاله فقال: «كنت وزيراً لهذا الخائن فاستشارنى، فأشرْتُ عليه أن لايناهِضك، وأن يسألك إقرارَه فى البلد، وحملَ خَرَاجه

(١) رفاغة العيش: سعته وخصبه

(٢) عراه الأمر الشديد: أصابه وغشيه

(٣) المسالح: جمع مسلحة، وهو الموضع المخوف يكون فيه جماعة بسلاحهم يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غفلة، فإذا رأوه أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له

إليك . فاستشاط ، وسوّلت له نفسه مُناوأتك ، وقد جمع جيشاً له كثيرَ العَدَد قوىَّ النِّكاية ، وقدَّر أن يلقاك فى هذه الطريق . وعندى حيلةٌ أجازيه بها على سوءِ صنيعه »

« وآستجْلَى فيروزُ الوزيرَ [1] فقال له : « إن عَدَلْتَ عن هذه الطريق وتجشَّمت قطع بَرِيَّة يُقيم السائرُ فيها يومين ، تَحتاج إلى حمل الماء إلى مسيرةِ يوم منها ، ثم تُفْضِى إلى مياهٍ متدفِّقة . فإذا قطعتَها وصلتَ إلى بلد الهَيَاطلة ، وهو وجَمْعُه فى الطريقِ الذى آثرتَ سلوكَها ، فتدخل البلدَ بغير حربٍ »

« فحملته الاستنامةُ إليه ـ لما رآه به ـ على تصديقه [2] ، ولَحِج فى البرِّية بجميع جيشه [3] ، ـ وقد كان وَاطَأَ [الوزيرُ] الملكَ على تكمين جَمْعٍ له آخر فى البرِّية [4] ـ ، فسار يومَه وبعضَ غدِه فى قفرٍ لا يوجد به ماء ولا نَبْتٌ ، فتساقطت الدوابُّ من العَطَش ، وآفترق الجيش لطَلَب الخلاص ، وخَرَج عليه مِنْسَرٌ من جيش الهياطلة فأَمرُوا عليهم [5] ، وأخذوا فيروزاً أسيراً . فمنَّ عليهِ ملكُ الهياطلة

(١) فى الأصل : « واستخلى فيروز الملك » . واستجلى صاحبه الأمر : طلب أن يجلوه له ويكشفه

(٢) استنام إليه : اطمأنّ وسكن ، حتى كأنه فى نوم وغفلة

(٣) لحج فى البرية : مال إليها ، ودخل فيها

(٤) واطأه على الأمر : وافقه عليه اتفاقا . كمن الجمع تكميناً : جعله كميناً مختفياً فى مكمن لا يفطن له العدوّ

(٥) المنسر : جماعة الخيل ما بين المائة إلى المائتين تنقض على العدو . أمروا عليهم : كثروا عليهم فغلبوهم

بالإمساكِ عن قتله [1] ، وجمع وجوه بلده وأضافَ إليهم وجوهاً من عسكر فيروز ، وآستحلفَ فيروزاً بحضرتهم أنه لايجاوزُ حَجَراً جعله فصْلاً مشتركا بينه وبينه . وأثبتَ المُفارَقة فى صحيفةٍ بخطِّ فيروز [2] ، وأشهد عليه الجماعةَ ، وأطلقه على غايةٍ من التبجيل والإكرام

« فدخلت فيروزاً خَجْلةٌ من رجوعه إلى مملكته بعد أسْرِ ملك الهياطلة له وتَعْفيرِه به [3] ، وحدَّثته نفسُه بمعاودة قتاله ، فخرج إليه . وسوّلت له نفسه أنه إنْ حَمَل الحجَر حتى يدخُل به بلد الهياطلة لم يَحْنَثْ فى يمينه ، فحمله بين يديه وسار بجمع كثير . وخرج إليه ملك الهياطلة ، فالتقيا فى مُنْتَصَف طريقَيْهما

« فلمّا تراآى الجمْعان ، آنفرد ملكُ الهياطلة عن جمعِه ، وسأل فيروزاً مُوَازاتَه ليسمع منه شيئاً . فبرَزَ فيروز . فقال له : « أنا وإيّاك فى قَبْضة من حَنِثْتَ فى اليمين به ، وهو عزَّ وجلَّ يشكُرُ للمحسن إحسانَه ، ويعاقب المسىءَ بإساءته . وقد أنعمتُ عليك ، وأحسنتُ إليك ، وأنا أُخَوّفك الله وأحذِّرُك سَطَواتِه ، فإنى أعلم أنّ حياءَك مما جرى عليك هو الذى رَدَّك ، فينبغى أن يكونَ استحياؤُك من الله عز وجل أشدَّ من

(١) منّ على الأسير : أنعم عليه بإطلاقه بعد الظفر به

(٢) المفارقة : العهد الذى يقع عليه الاتفاق بين اثنين ثم يفترقان على الوفاء به

(٣) فى الأصل : « وتمعيره به » ، وهى محرفة . عفره وعفر به : ألصقه بالعفر وهو التراب ، يريد : أذله وحقره

استحيائك من خَلْقه. وليس يُخرِجك من يمينك حَمْلُ هذا الحجر بين يديك، لأنّ اليمين إنما تكون على نِيّة المستحلِف لا على نِيّة المستحلَف. فتدبَّرْ قولى، واعلَمْ أن من سَمِعك من أصحابى على غاية من الثقة بالله فى نصره، ومن سَمِعك من أصحابك على ذُعْر من أن تَهْلِكَ بحَوْبِك (١)». فقال له: «لستُ أرجع عن قتالك».

«فأمر أن تُرَكَّب الصحيفةُ على أطول رمحٍ فى العسكر وحَمَل عليه، فهُزِم جيشُ فيروز، وقُتِل فيروز فى المعركة».

* * *

ابن الزيات والمتوكل

٣٤ — وسمعتُ أبا جعفر محمد بن هرثمة يقول:

«كان محمد بن عبد الملك الزيات يسعى على المتوكِّل — فى أيام الواثق — ويحرِّضه عليه، فتغيّرتْ عليه نيّته، حتى أدّاه ذلك إلى حبسه عند محمد بن عبد الملك.

«فسمعت المتوكل يقول — فى اليوم الذى تقدَّم فى إدخاله إلى التنُّور الحديد (٢) —: لم يُمْنَ أحدٌ بمثل ما مُنِيتُ به من ابن الزيّات! ضَيَّق علىّ محبسى، ومَنَعنى مما اقتضَتْنيه عادتى. وكنتُ قد رَبّيت

(١) الحوب: الإثم العظيم

(٢) كان محمد بن عبد الملك الزيات الوزير قد اتخذ تنوراً (موقداً) يعذب فيه من يتعمد عقوبتهم. فاذا بلغ بأحد العذاب وقال له: «ارحمنى أيها الوزير» يقول له: «الرحمة خور فى الطبيعة». فلما أدخله المتوكل فى تنوره، استعاذ به وقال ما كان يقال له: «ارحمنى يا أمير المؤمنين»، فقال له: «الرحمة خور فى الطبيعة».

وَفْرَةً فلم يُطلق [لى] تنظيفها (١)، فكثُرت الدَّوابُّ فيها. وتأدّى ذلك إلى الواثق، فكتبت إلى الواثق رُقعةً، فقال لمحمد بن عبد الملك: «أطلِقْ لجعفر طَمَّ شَعَره (٢)، وتنظيفَ ثوبه وتطييبَه!». فانصرف كالمغيظ وضَرَب الموكَّل بى، وقال: «تركتَ مَحْبِس جعفرٍ شارعاً من الشوارع حتى تسهُل شكوى أُمِّه!». ثم أمر بإخراجى، فخرجت، فوجدتُ أمارات الغضَب فى وجهه، فوقفت ساعةً لا يرفَعُ فيها وجهَه إلىَّ، ثم قال: «نِطْعٌ (٣)»، — فأوهمنى أنَّ الواثق أمر بضَرْب عنقى — فبُسِط بين يديه، ثم أومى إلى الغلمان بإدخالى فيه، ولم أشُكَّ فى القتلِ، ثم قال: «الحجّام (٤)»، فقلت: «أظنّه يَخْلَع أضراسى قبل قَتْلى»، وأنا فى سائرِ هذا قائمٌ. فلما وافى الحجّام قال: «احلِقْ شَعَره»، فأجلسنى يحلق شعرى. فآليتُ على نفسى أنّى لا أستبقيه لحظةً إن ظَفِرْتُ بالخلافة». فمات محمد بن عبد الملك بالتنور فى اليوم الثالث».

* * *

(١) الوفرة: شعر الرأس إذا بلغ إلى شحمة الاذن. أطلق له أن يفعل كذا: أذن له

(٢) طمّ شعره: جزّه، أو عض منه ولم يأخذه كله

(٣) النطع: فراش من جلد، وأكثر مايوضع عند القتل ليكون فيه الدم لئلا يفسد البساط

(٤) الحجام: هو الذى يخرج الدم الفاسد بالمحاجم التى تمصه، وكان الحجام فى زمانهم يتولى بعض الطب كخلع الأضراس وعلاجها وما إلى ذلك

ابن سليمان وجلاد

٣٥ — وحدثني نسيمُ خادمُ أحمد بن طولون ، قال :

« صار إليّ ابن سليمان بن ثابت — وكان ابنُ سليمان هذا يكتُب لخادمٍ يعرف بشُقَيْر ، يتقلّد الطراز من خِدَم السلطان (١) ، ثم عمل سليمانُ بعد ذلك لأحمد بن طولون على أملاكه — ومعه رُقْعة ، فقال : « توصِّلها لي إلى الأمير ؟ » . فقرأتُها ، فكان يذكر فيها أن شُقَيْراً أودع أباه أربع مائة ألف دينار . فلمّا قرأها الأمير قال : « انظر ما تقول واصْدُقْني عنه ! » ، فقال : « الأمرُ واللهِ على ما وصفته للأمير » ، فقال : أمْسِكْ عن هذا ، واطوِ مجيئَك إليّ عن أبيك وعن سائر الناس ، وانصرِف مَكلُوّاً (٢) » .

فقال : « فكثُر تعجّبي من إمساكه عن ذكر هذا لأبيه . فلم يمض حولٌ حتى مات سليمان بن ثابت ، فأظهر غمّاً به وتفجعاً عليه . ثم دعا بابنه الرافعِ للرقعة ، فردّ إليه ما كان بيد أبيه من أملاكه ، وضمّ إليه من الرجال مَنْ تَقْوى به يدُه . وأقام به شهوراً ثم دعاه وأنا قائم بين يديه ، فقال له : « كيف حالُك مع مُخلّفي أبيك ؟ وهل أنكرت شيئاً منهم ؟ » ، فقال : « قد أعزّ اللهُ جانبي بالأمير ومَنَع منّي » ، فقال له : « احمل إليّ الأربعمائة ألف التي عندكم لشُقَيْر الخادم » ، فَلَجْلَجَ ، فردّ أمرَه إلى أحمد بن إسماعيل بن عمّار ، وأمره بمُطالبته بالسَّوط .

(١) الطراز : هو الموضع الذى تنسج فيه الثياب — معامل الثياب

(٢) كلأه : حفظه وحرسه ، ومكلوءاً محفوظاً محروساً ، وتركت الهمزة فصارت (مكلواً)

فضربه خمسين سوطا ، واصطفى ما كان له (١) ، فلم يجد عنده بعض ما تَقَوّله على أبيه . وعاود مطالبتَه ، فضربه مرّةً أخرى فمات

فقال لي : « فعجبتُ من هلاكه بهذا المقدار من الضَّرب . فأُخبرتُ أنّ هذا المضروب كان يستزيرُ الفواسدَ من النساء في وُفور حاله (٢) ، فزارتْه امرأةٌ كانت رَبيطةَ الجلّادِ بالسوط (٣) ، وعلم الجلّاد بذلك فبكّر إليه ووقف له ، حتى إذا خرج ، انكبّ على فَخِذِه وقبّله ، ثم قال : « ياسيدي ! قد أغناك الله عن مَسَاءَتي بما بسَطه من الرزق عليك وظاهَرَه من الإحسان لديك (٤) ، وكانت مُهْجتي عندك البارحة . فإن رأيت أنْ تَهَبَها لي ! فلك منها عِوَض ، وليس لي عنها مَعْدِل ! » ، فصاح في وجهه وأمر بإبعاده . فلمّا شُدّ بالعُقابين (٥) ، تقدّم الجلّاد فضربه ضرْبَ القتْل فأتى على نفسه »

* * *

العمري وغلمانه

٣٦ — وحدثني نسيم الخادم أيضا :

« أنّ أحمدَ بن طولون كان مذعوراً من خُروج أبي عبد الرحمن

(١) اصطفى واستصفى : استخرج أكثر ماله وخياره

(٢) استزاره : طلب زيارته . وفور الحال : سعته ووفرته

(٣) الربيطة : هي في اللغة الدابة تُربط للخدمة ، وأراد بها هنا المرأة تربط في المنزل وتبقى لحاجة سيدها وخدمته ومتاعه وتكون من سواقط النساء

(٤) ظاهر الإحسان : ضاعفه وأكثره

(٥) العقابان : خشبتان يشبح الرجل بينهما مشدوداً فيجلد ، وهي من آلات التعذيب

العُمَرِىّ (١) ، فوافاه الخبرُ بقتلِ غلمان أبى عبد الرحمن إياه وانتشارِ أمره . ثم صار إليه جماعةٌ تقارب العشرة ومعهم رأس فقالوا : « نحن غلمان العُمَرىّ ، وهذا رأسه ! » . فجمع الخاصّ والعامّ وأدخلهم إليه ، واستحضر قوماً استأمَنُوا إليه ، فسألهم عن الرأس ، فأجمعوا على أنه رأس أبى عبد الرحمن ، وأنّ الغلمان من خاصّته »

« فقال أحمد بن طولون لهم : « هل كان مسيئا إليكم ؟ » . قالوا : لا والله ، ولقد كان مُحْسِناً إلينا ، ومُفْضِلا علينا » . قال : « فما حملكم على قتله ؟ » ، قالوا : « طلبنا الحُظْوة عندك ، والمكانةَ منك ! » . فقال : « قتلتم مَوْلاكم المُحسِنَ إليكم بالتطرُّب (٢) إلى المزيد ؟ » .

« ثم أمر بهم فشقّ عن جماعتهم (٣) ، وأخذتهم السِّياط حتى سقطوا وضُرِبوا على رؤوسهم بالشُّدوخ حتى ماتوا جميعا (٤) . وأمر بدفن رأسِ أبى عبد الرحمن »

* * *

متسلط عامل

٣٧ — وسمعتُ أبا عُبَيد علىّ بن الحسين القاضى يحدّث قال :

(١) انظر ص (٧)

(٢) تطرب : أخذه الطرب والفرح ، وتطرب إليه : اهتز له وطمع فيــه

(٣) شق عنهم : أى شقوا عنهم ثيابهم يهيئونهم للجلد بالسياط

(٤) الشدوخ : جمع شدخ ، وهو الرخص الطرى من الشجر ، يضرب به حتى يشدخ رأس المضروب

« كانت لى بواسط حِصّة أُؤَدّى عنها إلى السلطان خَرْجا (١) فقدِم علينا عاملٌ قد جُمِع من الظُّلم ، وسوءِ التسلُّط ، وفَظاظة الطبْع . فجمع المعاملين بأسْرهم على التحيُّل له بما لا يُوصَل إليه من أملاكهم ، ولا يستحقُّه عليهم ، فضرب قوما ، واستخفَّ بآخرين ، فقال له رجل ممّن حضر : « إن رأيتَ أن تؤخِّرنى إلى نصف النهار ! » ، فقال له : « لعلك ممّن يقول : إنّ من عَمودٍ إلى عَمودٍ فرَجاً ! » فقال له الرجلُ : « أنا والله أعتقد من لحظة إلى لحظةٍ فرجا يُرْجى من الله » ، فتضاحك من كلامه . فوالله مامضت ساعة حتّى دخلت إلينا ـ فى الموضع الذى كان فيه ـ رَعْلَةٌ من الخوارج وهى تقول : « السُّلَيطين السليطين !! » (٢) ، فقطّعتْه بأسيافها وخرجتْ ، ولم تقتل غيره ، ولا طلبت شيئاً لأحدٍ . فعلمتُ أنهم عقوبة اعتمدته »

* * *

عامل الصدقة ومتظلم

٣٨ — وحدّثنى عمر بن يزيد البَرْقىّ ـ وكان جميل المذهب ـ قال :

« حضرتُ مُصَدِّقا شديدَ الاستحلال (٣) ، بعيداً من الرأفة ، وهو جالس على رابيةٍ ، وبين يديه حِوَاءٌ يحتاز به ما يُحَصّل له من

(١) الحصة : النصيب الموروث من الأرض ، والخرج : المال الذى يؤدى على الأرض

(٢) تصغير سلطان

(٣) المصدق : هو الذى يأخذ حقوق الصدقة من الإبل والغنم

الإبل (١). قال: «فعُرِضَتْ نَعَمُ رجلٍ حسنِ الطريقةِ، مُتَعالَم بعفاف الطُّعْمَة (٢). فتخيّر عليه المصدِّق ما احتازه من إبله، واستعملَ من سوءِ التحكم عليهِ مالا يصبر عليه غيره. فأمْسَكَ، ثم نظر بعد انفصال ما بينهما إلى فصيلٍ سمينٍ كان فى إبله؛ فقال لغلمانه: «خُذُوا هذا الفصيلَ حتى يُصْلَح لنا غَدَاءً»، فقال صاحبُ الإبل له: «قد أخذت زيادةً على حقك، فما هذا؟»، قال: «لابدَّ لى من أخذه»، قال: «فإنّى لا أُسلّمه»

فأمر بوَجْءِ عنقِه (٣)، وأُخذت مقادَتَه من يده، فصاح بأعلى صوته: «كُلْ هذا بِحَيْنِك ياجبَّارُ (٤)!». فحلف لى عُمَر أنه جاءَ من الحِواءِ فحلٌ - وخرج منه وهو يَرْغُو -، فأخذ بعُضده، ولم يزَلْ يضربُ به الأرضَ حتَّى قتله. وانصرفَ الرَّجل بفصيله»

✡ ✡ ✡

عدى بن زيد والنعمان

٣٩ — وفيما أخبرَ به الهيثم بن عديّ قال:

«كان عديٌّ بن زيد قد تقدّم عند كِسرى أبَرْوَيزَ فى ترجمة

(١) الحواء: المكان الذى يحوى الإبل وغيرها من الأشياء، أى: يضمها ويجمعها

(٢) الطعمة: وجه الارتفاق والاكتساب

(٣) الوجء: اللكز، أو ضرب العنق بالأيدى أو بالحديد

(٤) فى الأصل: «بعينك» وقوله «كله بحينك»، أى: كله ومعه حينك والحين: الموت

العربىّ إلى الفارسىّ، وكان رجلاً جاراً للنعمان بن المنذر، فرام منه النعمان أن يكون عيناً له على كسرى، فامتنع من ذلك، ولم يرْضَ بهذه السَّجِيَّة (١). فتركه النعمان حتى اطمأنّ إليه، ثم سأله أن يزورَه. فكلَّم كسرى، وسأله أن يأذنَ له فى زيارته شهراً واحداً، ونصَّب عَدِيٌّ ابنَه مكانَه - وكان حُلْو الشاهد (٢) مضطلعا بما يُسنَد إليه -، فأذن له. فلمّا حَصَل فى يد النعمان قتَله، وكتَب إلى ابنه يُخبره بأنه ماتَ حتفَ أنفه (٣)، وأنَّه على غاية من الأسَى عليه (٤). وتأدَّى خبرعديٍّ إلى ابنه على الصحّة، فلم يَخْرَق فيه (٥). وأقام يتتبَّعُ غوائله، ويعمل الحيلة فى افتراصِ وِتْرِه (٦).

فجرى فى يوم من الأيام ذكرُ الجوارى بين كسرى وبين ابن عديٍّ - وكان أبرويز مُسْتَهْتَرا بهنّ -، فقال ابن عديّ: «أحسنُ

(١) السجية: الطبيعة والخلق والخصلة

(٢) حلو الشاهد: حلو العبارة واللفظ جميلهما. يقال: ماله رواء ولا شاهد، أى: ماله منظر ولا لسان يشهد له

(٣) الحتف: الموت نفسه، وحتف أنفه: أى أن موته كان بخروج روحه مع تنفسه من أنفه وهو على فراشه، لم يقتل فى حرب

(٤) الأسى: الحزن

(٥) خرق فى الشيء: دهش ثم تعجل فلم يحكم عمله. يقول: لم يتعجل

(٦) الوتر: الثأر. افترص الشيء: اغتنمه وانتهزه عند سنوح الفرصة

النساء حُرَقة بنت النعمان » . فكتب أبرويز إلى النعمان كتاباً يأمره فيه بحمل حُرَقةَ ابنتِه إليه . فعظم هذا على النعمان ، وكتب إليه كتاباً يذكر فيه قَشَفَ (١) تربيةِ العرب لأولادها ، وتقصيرِهم ببذاذة الهيئة وسَخ المِهْنة (٢) ، وأنّ في عِين العراق للملك عِوَضاً منهن (٣) ؛ وأنفذ الكتاب إلى كسرى . فأمر كسرى ابنَ عدىّ أنْ يقرأه عليه ، فأمَرَّه على طَرْفه ثم ألقاه ، (٤) وضرب بيده على جبينه ، وقال : « لا يستطيعُ لساني مواجهةَ الملِك بما فيه ! » ، فعزم عليه الملك ليُخبِرَنّه . فقال : « ابنتي لا تَصْلح لك ، فإذا قَرِمْتَ إلى الجماعِ فعليك بالبَقر » (٥) . فغضب كسرى ، وأنفذ رُسُلا إليه فأُشخِص . فلمّا قرب من مقرّ كسرى ، أخرج أربعةَ آلافِ جارية بالحُلىّ وفاخرِ الكُسْوَة ، وأذن له ، ثم قال له بالفارسية : « ياكلب ! مَنْ كان له هؤلاء يصلُح له مجامعةُ البقر ! ؟ » ، وأمر بشدّ يديه ورجليه ، وألقاه في الأرض ، وأطلق الفيَلَة عليه فوطِئته ، حتى مات تحت قوائمها »

---

(١) القشف : رثاثة الهيئة وسوء الحال وضيق العيش . ومنه المتقشف : الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع

(٢) البذاذة : رثاثة الهيأة وترك الزينة . والمهنة : الخدمة والعمل والامتهان

(٣) العين: جمع عيناء ، وهى المرأة الواسعة العينين الجميلتهما . والعيناء أيضاً : البقرة لاتساع عينيها

(٤) أمرّه على طرفه : أى جعله أمام عينيه وأسرع القراءة

(٥) قرم إلى الشيء : اشتهاه وهم به

* * *

شريف ومريض

٤٠ — وفيما جاء به الزُّبَيْر بن بكّار ، قال :

« اجتاز رجُل من أشراف المدينةِ بمريض مُلْقىً على كُناسةٍ قريبة من منزلِ رجل من الأولياء اختَلّت حاله (١) ، ومَرِض ولا قَيِّمَ عليه (٢) وتبرّم به رُفقاؤه فأخرجوه من منزلهم ، وهو مُلْقىً في الطريق . فأمر الشريف بحمله إلى منزله ، وتقدّم إلى ابنة عمه في حُسْنِ القيام عليه بحَشَمها ، وأن تُرَفِّه عيشَه إلى أن تقضِىَ عِلّتُه . فابتدره كُلّ من في منزلِ الشريفِ بالخدمة حتى تكاملت صحّته ، وصار في منزلهم كأحدهم ، وقَفَلَ إلى دِمَشْق (٣)

فلمّا كان في الوقت الذى توجه جيشُ يزيد للحَرَّةِ (٤) ، وافى فوقف على باب دارِهم ، فظنّوا به أنّه وافَى لحمايتهم ، وحُسنِ المدافعةِ عنهم ، ليَقضِيَهم سَوالِفَهم لديه (٥) . فدخلَ الدار ومعه ثلاثة غلمان ، فلما تمكّن منها أخذوا في جَمْع الأثاث ، فقال لهم الشريف : « ماهذا؟ » ، فقال : « إنى استوهبتُ دارَك بما فيها من الأمير ووهبها لى ،

---

(١) الأولياء : جمع ولى ، يريد عمال الدولة . واختلت حاله : افتقر

(٢) القيم : المدبر الذى يقوم على أمره

(٣) قفل : رجع

(٤) وقعة الحرة : هى الوقعة التى انتهكت فيها حرمة مدينة رسول الله فأبيحت ثلاثاً لجند يزيد بن معاوية ، يقتلون الناس ويأخذون المتاع والاموال

(٥) السوالف : جمع سالفة ، وهى الإحسان السابق ، أو الإساءة السابقة

وكنتُ أحقّ الناس بها ، إذ كانت الأحوال بيني وبينكم وَكِيدة » .

فقال له الشريف : « رجعتَ يابن اللّخناء إلى لُؤْم أصلك ، وفساد مُرَكَّبك » ، ثم عَلاه بسيفه . وفرّ الغلمان ، وهَدَأتْ وقْدَةُ الفتنة ، وطُلَّ دَمُه[1] .

✡ ✡ ✡

حول للعباسيين وأموى

٤١ — وحدَّثني نافع ابن مَصْقَلة الحِمْصِيّ ، قال : سمعتُ أبي يقول :

« رأيت مشايخنا مجتمعين على أمرٍ لحقَهُ أسْلافهم : أنَّه كان يسكن بحِمْص شابٌّ من أهلِ العراق ، حَسنِ الصُّورة ، ليِّنِ العريكة ، فأقام معهم مدة . ثم صار الأمر بعدَ ذلك إلى بني العباس ، فتقلّد ذلك الفتى حمص ، وكان مولًى من موالي أبي العباس . فلما دَخلها قصد إلى دار رئيس كان بها ـ من أصحاب بني أمية ـ فذبحَه فيها وجماعةً من غلمانه ، ثم خَرَج

فأحسن السيرةَ ، وألان الجانبَ ، فقيل له : « ليس يُشْبه ما أنت عليه ، ما فرَط منك إلى الرجل الذي ذَبحْتَه وشَمِلَه ! » ، فقالَ :

« اسمعوا مِنِّي ماجرى على عِلَّتِه

« اجتزتُ به ـ وقد نظّفتُ أثواباً لي لا أملك غيرَها ، وقد دُعِيت إلى أمرٍ لا يسعُني التأخُرُ عنه ، أحتاجُ فيه إلى حُسنِ الهيئة وإظهار التجمل ، ومعي رسولُ مَنِ اسْتَحْضَرَني ـ وهو قاعدٌ على الباب ،

---

(١) طلّ دمه : أهدر وأضيع ، فلم تكن له دية ولا ثأر

فراثت دابّتي[1] بحيث تقع عليه من رَحَبَةٍ مبلّطة لداره . فأمصّني[2] ، وأمر الغلمان بترجيلي وضرْبي ، فركبتني أيديهم . ثم حلف ألّا أبْرَح حتى أكنُسَ رَوْث دَوابِّه بيدِي في كُمِّي ، وأحملَه في ثوبي وحِجْرِي ، وأُخِذْتُ فجُرِرت إلى ذلك ، ولم تزل حاشيته تضحك مما نزَل بي ، فحدّثت مولايَ ، فاستحلفني بحقِّه على غليظِ ما أتَيْتُه إليه »

✡ ✡ ✡

أحد الأكاسرة وولده

٤٢ — ومما قرأته من سِيَر العجم :

أن جماعة المنجِّمين حكموا لبعض الأكاسرة أنَّ ابنه يقْتله ويتولَّى ملكه ، فعَمَد كسرى إلى سُمومٍ وَحِيّةٍ فجعلها في قواريرَ[3] ، وختمها وكتَبَ عليها : « دواءٌ للجماع ، الشَّرْبة مثقال » ، وكانت وَزْنة قيراط تقتُل من تلك السموم . وقال : « إن كان الأمر كما حكاه المنجِّمون فسآخذ بطائلتي منه »[4] . فعدا عليه ولده وقتله ، وكان شديد المحبَّة للجماع ، ورأى تلك القوارير ، فشرب مثْقالا فمات

✡ ✡ ✡

مروان الجعدي وخالد بن سهم

٤٣ — وحدثني أحمد بن أبي يعقوب ، قال حدثني أبي ، عن جدِّي

---

(١) راث الفرس وغيره من الحيوان : أرسل روثه ورجيعه

(٢) أمص الرجل : إذا شتمه فقال « يامصان » وهو اللئيم الراضع . يريد سبه سباً قبيحاً

(٣) سم وحيّ ، وموت وحيّ : سريع

(٤) الطائلة : الثأر

واضح ، قال :

« سمعت خالد بن سهم ، يحدثُ المنصور — وكانَ هذا الرجل خاصاً بمروان بن محمد الجعدى (١) — فطلب منه مروان جارية له كان يُحبُّها ، وتجرَّم عليه (٢) ، فأطال حبسَه ، وأخذ الجارية منه . وكان ذا رأيٍ ونَجْدَة (٣) . فلما استفحل أمر أبى مسلم وكسر عساكرَ مروان ، أخرجَه من الحبس ووَعَده جميلاً — ، قال خالد :

« كان مروان يضحكُ من زِيّ المسوِّدَة (٤) ويقول : «لو أسَرناهم مابلغنا بهم مابلغوا بأنفسهم من التشويه والشُّهْرة ! (٥) » . فلما اضطُرَّ إلى مُكافحتهم ومُواقعهم ، رأيته قد تَهيَّبَ معارَكتهم ، فقال لى : « ياأبا يزيد ! — وما كنّانى قبل ذلك اليوم — ، إنى قد ارْتَعت ، فهل ذلك بَيِّنٌ فىَّ ؟ » ، قلت : « بلى يا أمير المؤمنين ! » ، — وكنت أداجِنُه ، (٦) ويَسُرنى حُؤول أمره (٧) ، فقال : « ما أجِدقلبى يُطيق مُوافَعتهم ! » ، فقلت : « إن كانَ هذا ، فتحصَّنْ منهم بالانهزام ، فإن خيلك أنجى من خيلهم (٨) » .

---

(١) هو آخر خلفاء بنى أمية المسمى « مروان الحمار »

(٢) تجرّم عليه : تجنى عليه مالم يجنه من الذنوب والجرائم

(٣) النجدة : الشجاعة والمضاء والبأس الشديد

(٤) المسوّدة : هم العباسيون ، فقد جعلوا شعارهم السواد

(٥) الشهرة : الفضيحة والشنعة الظاهرة

(٦) داجنه : لازمه وأحسن مخالطته بالرياء والمداهنة

(٧) حال الأمر يحول حؤولا : تغير وتبدّل وتحوّل فزال

(٨) أنجى من خيلهم : أسرع نجاء ، والنجاء : العدو السريع

فانهزم ، وتوقَّف أصحابُ أبى مسلم عن طلبه ، فلما بلغ إلى سَوَاده (١) قال لى : « قد عزمتُ على الدخول إلى بلد الروم » . — وكان من أصوب تدبيرٍ له — ، فنَفِسْتُ عليه بالرَّأى (٢) ، واستعملتُ مغالطته فقلت : « تدخلُ بأحداث من وَلَدك وشَمْلك (٣) مستجيرين بكافرٍ قد أمِن سِرْبُه (٤) ، واستقام أمره ؛ ولعلّ ولدك يروقُهم مايرونه فى مملكته ، فيحملُهم ذلك على التنصُّر ! ولأنْ تمادى فى مسيرك حتى تدخل مصر فتجد فيها الرجال والكُرَاع والمالَ (٥) ، تملك بها اختيارَك » . فركَن إلى قولى ، فسرْنا . فلما دَخلْنا مصر خَرَج إلى صعيدها ، واستأمنتُ إلى عامرٍ — لحالٍ كانت بينى وبينه — ، وقُتِل ببوصِير الأشْمونين »

* * *

احمد بن طولون وابن المدبر

٤٤ — ولما قدِم أحمد بن طُولون إلى مصر متقلِّداً بها عمَل المعونة ، أهْدى إليه أحمد بن مدبّر من دِقّ مصر (٦) ، ودوابِّها ، والرقيق المجلوب إليها ، مامقداره عشرة آلاف دينار . فردَّ ذلك

---

(١) سواد العسكر من الجيش : ما يشتمل عليه من الآلات والدواب ، ويكون مجتمع سواد الجيش (المعسكر)

(٢) نفس عليه الشئ : حسده عليه وضنّ عليه به

(٣) الأحداث : الصغار ، جمع حدث

(٤) أمن سربه : أى اطمأنت نفسه ، والسرب : النفس

(٥) الكراع : اسم لجماعة الخيل والسلاح

(٦) دق مصر : هى الثياب الرقيقة الدقيقة الصنع التى كانت تصنع بها ، وتعرف بالقباطى جمع قبطية

عليه ، وذكر أنه لاحاجة له بشيء منه . فثقل ذلك على ابن مدبّر ، وقال : « ماينبغي أن يثق السلطانُ - بمن لم يكُنْ لعشرة ألف دينار في عينه قَدْرٌ - على طَرَفٍ من أطراف مَمْلكته ! »

فلما مضت أيامٌ بَعَث إليه : « قد كنتَ أنفذْت إليَّ طائفةً من برِّك فرددتُها عند وُقوع الاستغناء عنها ، وقد بلغني أنّ عندك مائةُ رجل من مولّدي الغُوْر [١] ، وبي إليهم أمسُّ حاجة » . قال ابن المدبر : « قد ظَهَرت في هذا الرجل علامةٌ أخرى ، يَرُدُّ الأعراض والأموال ، ويستهدِي الرجال ! »

وكان حسينُ بن شعرة - مضحكُ المتوكل على الله - قد انضوى [٢] إليه ، فحَمَى به ضياعَه وأملاكَه . ووقف على استثقال ابن مدبّر لأحمد بن طولون ، وأخرج حِكايته في تَزَمُّتِهِ [٣] وكلامِهِ ، فيضحكُ ابن مدبّر ومن حضره . فاتصل ذلك بابن طولون ، فأحضره ثم قال له : « بلغني أنك تتنادَرُ بي [٤] ، ولك في الناس مندوحةٌ فاحذرني ، فإنك إن وقعت لم ينفعك ابن المدبّر ولا غَيْرُه » ، فجحدهذا واعتذر إليه منه . ثم انصرف إلى ابن المدبر وقال :

(١) الغور : بلاد موحشة بين هراة وغزنة ، كان يؤتى منها بسبي يولد ويربى

(٢) انضوى إليه : مال إليه ، واحتمى به

(٣) التزمت : الوقار والسكون وقلة الكلام والضحك ، وكان ابن طولون من أشد الناس وقاراً

(٤) تنادر به : تهزأ وسخر وجعله من نوادره

« ياسيدي ! لو شاهدتَ أحمد بن طولون يُؤَنّبني ! » ، فقال « ماقال لك ؟ » ، قال : « اصبِرْ حتى أُرِيَك حكايةَ صُورَته ومُعَاتبته » ، ثم تلبَّس وجَلَس يَحْكيه ويقتَصُّ مالقِيَه به [١] . ثم اتصل ذلك بأحمد ابن طولون فأمسَك عنه ، وتتبَّع غوائله

« واضطربت الرعية لِنزاعِ السِّعْر [٢] ، وقد بلغ ثلاثة أرادبّ حنطة بدينار . فركب وتقدَّم بعُقوبة القمّاحين ، وازدحمت النّظارَة من السطوح عليه . فوقع مِرْكَنٌ فيه ريحان إلى الأرض [٣] ، بمزاحمة مَنْ تشوَّف إليه من النساء [٤] ، فمَسَح كَفَلَ دابّة أحمد بن طولون ، [٥] فسأل عن الدار : « لمن هي ؟ » ، فقالوا « لحسين بن شعرة ! » ، فأحضَره وضربَه ثلاثمائة سوط ، وطاف به . وكان ماأوقعه به من أجل متقدّم سَوَالِفِه إليه ، ولم يفلح الحسين بن شعرة بعدها

« وزاد أمر أحمد بن طولون في القوّة وزيادة المال ووفور الكفاية ، حتى تهيَّبه ابن مدبر ، فحدثني أبو العباس الطَّرَسُوسِيّ ، أنه سمع أحمد بن طولون يقول له : « ياأبا الحسن ! أنشُدُك الله إن تعرَّضْت لي ولا ترَسَّمْتَ بعداوتي [٦] ، فقد اجتهدت في استصلاحك

(١) اقتص الشيء : تتبعه واحدة واحدة

(٢) نزاع السعر : ارتفاعه وغلاؤه

(٣) المركن : إجانة يستنبت فيها الرياحين (قصرية)

(٤) تشوف إليه : تطلع إليه وتطاول لينظر

(٥) مسح كفلها : مس عجزها ومؤخرها

(٦) ترسم بالشي : جعله رسما له يعرف به

فلم أصِلْ إلى ذلك » ، فقال له آبن مدبر : « والله ماأردُّ أمرك فيما أتقلّده ، وإنى فيه كالمقيم من قِبَلكَ ، فأىَّ شىء أنكرت علىَّ حتى أتجنّبه ؟ » ، فقال : « أُنكِر عليك المكاتبةَ إلى الحضرة (١) ، وقد قلّدتك البَغْىَ » ، فحلف له آبن المدبر أنه لا يكتب إلا بشكره

« وصُرِف آبن المدبّر عن مصر بأبى أيوب ـ ابن أخت أبى الوزير ـ فلما أجمع الشُّخوص عنها قال له أحمد بن طولون : « يا أبا الحسن ، لو أردتُ بك سوءًا لقَدَرْتُ عليه ، وأحتاج إلى أن تجدّد تلك اليمين » ، فحلف له بالمحرّجات أنه لا يألو حرصاً فى تزيين آثاره (٢) وتطييب أخباره ، وأشهد عليه الله بذلك . وخرج عن مصر متقلدا للشام فأقام مع ماجور

« فحدثتنى نَعْتُ مولاة أحمد بن طولون : وأمُّ ثلاث بنات كُنّ له ـ فقالت : « كنت عند مولاى بائتةً فسمعته يحلُم فى نومه ، فخفتُ أن أنبهه فينكر علىّ هذا ، فآنتبه وجلس ومسح عينيه وقال : « خيرٌ إن شاء الله » . فسألته عما رأى فقال : « رأيت آبن مدبّر قائماً فى وسط بريّة ، ومعه قوسٌ مُوتّرةٌ وسهام ، وأنا تِجاهه قائم ، ومعى جميعُ السلاح إلا القوس ، وبيننا نَهَر ، فكأنه يسدّد السَّهم نحوى ويرمى ، فأخطأنى . وكأنّ قائلا يقول : « لو رماك يومه كلّه لما أصابك به ، لأنه عاهدك ، ومايضرّ هذا الفعلُ غيرَ نفسه » فكأنه آشتدّ

(١) الحضرة : يريد حضرة الخلفاء من بنى العباس ببغداد
(٢) لا يألو : لا يقصر

علىّ انهماكه فى الرمى لى ، وليس فى يدى غير سيفٍ وشَرْخ وما أشبههما ، (١) لا تعمَلُ فى البُعْد ، وقد حال النهر بينى وبين العبور إليه . فإنّا على هذا ، حتى نَضَب النهرُ فلم يبق فيه قطرة (٢) ، فعبرت إليه ، فكأنى كنتُ كلما قَرُبت منه يصغُر ، حتى صار بمنزلة من يواريه الكَفُّ ، فأخذته بيدى أستَطْرِفه (٣) ، ثم ألقيته من قامتى على رأسه فمات . فتأوّلتُ سهامه : المكاتبةَ فىَّ والتحريضَ علىَّ ، والنهرَ الذى منعنى منه : مَقام ماجور بدمشق ، ونُضوبَه : موتَ ماجور ، وصغرَه : قدرتى عليه ، واحتيازَه فى كفّى : قبضى عليه ، وقولَ القائل لى فى السّهام إنها تُخطِئُك : أن الله لا يُعينه علىّ »

« فحدّثت هذا الحديث سعْدًا الفرغانىَّ ـ غلامَ ابن طولون ـ فقال لى ماسمعت بهذا إلا منكَ ، والذى عندى من خبره مطابق لهذه الرؤيا . وذلك أن الحسن بن مَخْلَد بَرِم بكَيْد الكتّابِ وانتقاضِ الأولياء . (٤) فكتب إلى أحمد بن طولون يذكرُ له رغبتَه فى المُقام بمصر . فكتب إليه أحمد بن طولون : « إنما أنا وليُّك (٥) ، ومَقامُ صنيعةٍ من صنائعك ! » .

(١) الشرخ : النصل الذى لم يشق بعد ولم يركب عليه قائمه
(٢) نضب النهر نضوباً : ذهب فى باطن الأرض وغار وبعد وقل
(٣) استطرف الشىء : وجده طرفة ، أى طريفاً غريباً
(٤) برم : ضاق وضجر ، وانتقاض الأولياء : نقضهم العهود وخروجهم عليه
(٥) الولى : التابع من عمال الدولة

وصوب رأيه فيما آثره. فحجَّ من بغداد، وثَنَى عنانه إلى مصر، فمنعه صاحب البذرقة (١). فأنفذ كُتُباً إلى أحمد بن طولون، فكان أولُ ماصدر منها أربعين كتاباً جميعاً بخطّ ابن المدبر، يُعظِم فيها أمرَ أحمد ابن طولون ويقول: «إنه قد عزم على أن يجلس خليفةً»، ويصفه بكل غَدْر، فعجب منها ابن طولون. ثم مات ماجور، واحتاز دمشقَ والشامَ، وأنفذني إلى الرَّمْلة فقبضتُ عليه وأشخصته إليه. فأقام مدة فى حبْس ضيِّق، وجَفْوٍ مما جرت به عادته (٢)، حتى ذهب بَصَرُه ومات»

* * *

ابن المدبر ومتقبل

٤٥ — وحدثني سهل بن شُنَيْف، قال:

«رجعت [مَرَّةً] مع أحمد بن محمد بن مدبر إلى داره، فاستقبلته امرأةٌ فقالت: «أيها السيّد! نحن مائة عَيِّل على فلانٍ المتقبِّل، (٣) وقد ضاعَ شمْله لحبسه، فاتّقِ دعوةً تعرُجُ إلى الله مِنّا فيك!»، فقال وهو متهزِّئٌ: «إذا عزمتم على هذا، فليكن الدعاءُ فى السَّحَر فإنه أنجعُ له»! قال لى سهل: «فارتعتُ من الكلمة، فما مضى له شهر حتى تقلد محمدُ بن هلال الخراجَ وصرفه عنه، واجتمعا عند

(١) البذرقة: هى خفارة الطريق وحراسته، والمبذرق الخفير
(٢) جفا الشئ جفاء وجفواً: بعد عنه، يريد، وابتعاد عن عادته
(٣) المتقبل: هو الذى يتقبل الخراج أى يتكفل بجمعه وإيراده لبيت المال، والعيل: هو الذى يحتاج، إلى من يعوله ويمونه ويتكفله، والجمع عيال

أحمد بن طولون، فاهتدى محمد بن هلال إلى مالم يَظُنَّ أنه يقف عليه، لأنه أول ماناظره قال: «رزق الخراج: كذا وكذا، وأرزاق الدواوين المضافة إليه: كذا وكذا، فهل قبضتَ جملةَ هذه الأرزاق؟»، قال ابن المدبر: «نعم! ماحضرنى كتاب أمير المؤمنين بإطلاق جميع الرزق لك؛ لأنه يجوز أن يكون استعمالك على جميع الأعمال برِزْق الخراج وحده». فانقطَع [إلى] ابن المدبر، وطالَبَه بالمال، فقال: «ما يلزمنى؟». ورُدَّ إلى يد محمد بن هلال، فأُلبس جُبّةً كانت على بعض السَّاسة، (١) وأُقيمَ فى الطريق على كُناسة، وخُتِمت الجبة فى عُنُقه

«فكان أولَ من وافاه الامرأةُ التى قال لها: «يكونُ دعاؤك فى السَّحَر هو أنجع له»، فقالت: «جزاك الله يا أبا الحسن خيراً، فقد نفعتنا بأكثر مما ضَرَرْتنا؛ لأننا جرّبنا ما أشرتَ به فوجدناه أنجعُ شيء يُلْتَمَس [به]». فبكى ومن حوله من الموكَّلين به، وانصرفت المرأة داعيةً له»

* * *

خمارويه وابن أبى الساج

٤٦ — وكان محمد بن أبى الساج قد هادَن خُمارَوَيْه بن أحمد ابن طولون، وحلَف بالمحرّجات أنه لايشاقُّه ولا يُجهِّز إليه

(١) الساسة جمع سائس: وهو الذى يقوم على خدمة الدواب ورياضتها

جيشاً أبداً (١) ، وخلَّف عنده ابنَه - المعروفَ بداود - رهينةً ، فسكن خُمارويه إلى هذا . ثم تواترت الأخبارُ بتجييشه عليه (٢) ، وما آثَرَه من المسير إليـه ، فدعا بابنه وقال : « قد نَقَض أبوك مابينى وبينه ! » ، فقال : « ياسيدى ! ما أعرف لى أباً غيرك » . فرَقّ له وأجازه ، وأقرَّ أَثَرَتَه (٣) ، ثم توجَّه إلى ابن أبى الساج فالتقيا بالثنيَّة ، فحدثنى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا - وكان معه - قال :

« لمـا ترآى الجمعان أمَر بإلقاء حصيرِ الصَّلاة فأُلقيتْ ، ونزلتُ معه فصلّى ركعتين ، فلما آستتمَّهما ، أدْخل يده فِى خُفِّه ، فأخرج منه خَطّ ابن أبى الساج الذى حَلَف فيـه بوَكِيد الأيمـانِ أنه لايحاربه ، فقال : « اللهم إنى رضيتُ بمـا أعطانيه من الأيمـان بك ، ووثقتُ بكفايتكَ إياىَ غدْرَه [بى] وبحِلفه واجترائه على الحِنث بمـا أكَّده لى اغتراراً بحلمك عنه ، فأدِلنى عليـه ! (٤) » . ثم ركبَ ، فرأيتُ مَيْمَنة خمارويه قد انهزمت ، وتبعتها مَيْسَرته ، فحمل فى شِرْذِمَة يسيرةٍ على جيش ابن أبى الساج - وهو فى غايةٍ من الوُفور - فانهزموا بأسرهم

(١) شاقه يشاقه مشاقة : خالفه وعاداه ، من الشقاق وهو غلبة العداوة والخلاف

(٢) جيش عليه : جمع الجيوش لقتاله

(٣) أقر أثرته : أى رضى إيثاره إياه بالأبوة وأقره عليها ، وفى الأصل المطبوع « وأقر أترابه » وهو خطأ بين

(٤) أداله عليه : جعل له الدولة عليه ونصره عليه

فوقف على نَشَز (١) ، وأطفتُ ومن حضره به ، فاستأمنت إلينا عِدّة كثيرة . فقلت له : « إن مُقامَنا أيها الأمير مع هذه الجماعة خطرٌ » فأمرنى بالمسير بهم إلى مستَقَرّ سواده (٢) . فسرتُ معهم - وأنا على رِقْبَة من طمع فيـه أو كَيْد له - فبلغوا نهراً احتاجوا إلى عُبوره ، فرأيتهم قد خلعوا الخِفاف وحَطُّوا الرحالَ ، وسلـكوا سلوك المطمـئن ، فأنِستُ إليهم »

* * *

قريب لابن يعفر وعجوز يمـانية

٤٧ — وكان فى حارتِنا شابٌّ قد قدم من العِراق ، ذكىُّ الروح هادئُ السَّعى ، يذكر أنه قَرابةٌ لابن يَعْفُر القائم كان باليمن . وكان بمصر فى دون قومه ، فأشار عليـه من شاهَدَ آبنَ يعفر وسَعَة أمره ، بالخروج إليه ، فأخذتُ له حَجَّةً من بعضِ أهلِنا (٣) ، وأضفت إليها بِرًّا يفى بتحَمُّله (٤) ، وخرج . فالتقى بمكة عجوزاً يمـانِيَةً جليلةَ القدر فيهم ، فعرَّفها موضعَه ، فقالت : « أنا أتكفل بمُؤُونَتِك وتحمُّلك ، وأغتنم هذه اليد عند الأمير » ، وحملتْه حتى صارت به إلى عشيرتِها ، فقالت لهم : « إن آبنَ يعفر قتل مِنّا فى العام المـاضى رجلاً ، ومعى قرابةٌ له فاقتُلوه به » ، وآجتمع

(١) النشز : المتن المرتفع من الارض

(٢) السواد : المعسكر ، انظر ص (٨٥)

(٣) حجة : يريد نفقة حجة عمن مات قبل أن يحج وقد وجب عليه الحج

(٤) يريد ، مايقوم بنفقة حمولته فى السفر

الحىُّ ، وتسلمه أولياءُ القتيل ، فلما جُرِّد السيفُ اضطرب وبكى ، فقال أولياء القتيل : « مانرضى أن نقتل هذا بصاحبنا ، صاحبُنا شُجاعٌ وهذا جبان ! »

فبعثوا به إلى ابن يعفر . وقالوا لرسولهم إليه : « إنا لانرضى أن نقتادَ من هذا (١) » . فلما وافى ابنَ يعفر ، دعا له بالسيف والنِّطْع ليقتله ، وقال « هتكتنى فى هذا الحىّ من العَرَب ! » .

فقال له وزيره : « إنَّ هذا الفتى خرَج من فاقة وأمْنٍ إلى موقف تُضرب فيه عُنقه فاضطرب ، وإنما يقتل الأمير من قادَ الجيوشَ ، وتطعّم بحلاوةِ الأمر والنهى فيه (٢) ، وتمكّن من الرئاسة ثم عدل به طبعه إلى الخَوَر ، والذى أراه للأمير : أن يعقِد له الرئاسة على جماعته ، ويُنفِذه إلى مهماته ، فإنَّ أكثر الفضائل إنما تظهَر بحُسْن الارتياض (٣) »

ففعل الملك ما أشار به عليه وزيره . فحدثنى أبو عبد الله محمد بن عامر اليمانى : أنه دَرَج بهذا التدبير (٤) فظهر من شجاعته مالم يُرَ فى آل يعفر مثله ، ثم غزا الحىَّ الذى كانت تلك العجوز منهم ، فقتل أولاداً كانوا لها ، وأقفر به ذلك الحى »

(١) اقتاد منه : جعله قوداً أو قصاصاً يقتل بالمقتول من قومه
(٢) تطعم الشىء وتطعم به : ذاقه ليتبين طعمه حلو هو أو مرّ ؟
(٣) الارتياض : الرياضة والتذليل والتعليم ، يقال ، راضه وروضه وارتاضه
(٤) درج به : درب به وترقى درجة بعد درجة

❁ ❁ ❁

الخيزران أم الرشيد وامرأة هشام

٤٨ – وحدثنى يوسف بن إبراهيم [والدى] . قال حدثنى إبراهيم بن المهدى:

« أنه دخل على الخيزُران أمِّ الرشيد ، فوجدها جالسةً فى الدار المعروفة بها ـ وصارت إلى أم محمد بنت الرشيد بعدها ـ على نَمَط أرمينىٍّ (١) والنمَّط على بساط أرمينى ، وعن يمين النَّمَط ويَساره نَمارقُ أرمينيَّة (٢) ، وعلى أعلى نُمْرُقةٍ منها زينبُ بنت سليمان بن على ، وعلى يَسار النَّمارق أمّهات أولادِ المنصور ونسوةٌ من نساء بنى هاشم ، إذ وقفت امرأةٌ على طَرَف البساط فسلَّمت ثم قالت : « يازوج أمير المؤمنين ! أنا مُرَيَّةُ زوج هشام بن عبد الملك ، ثم مروان بن محمد من بعده ، نكَبَها الزمن ، وزَلَّت بها النعل (٣) ، حتى أصارها إلى عارية ماتستتِر به مما عليها » ، فتبيَّنت الدموعَ تدورُ فى عين الخيزُران . وخافت زينبُ أن تدخلها رِقَّةٌ ، فقطعت على مُرَيَّة الكلام بأن قالت : « يا أمَّ أمير المؤمنين ! اتقِى الله أن تُدخلك رأفةٌ بهذه الملعونة ، فتتبوَّئى مَقْعَدك من النار »

ثم التفتت إلى مُرَيّة فقالت لها : « بِكِ قَدَام ماأنت فيه يامُرَيَّة ! كأنك نسيتِ دخولى عليك بحرّان ، وأنت جالسة بصحنِ دار مروان ،

(١) النمط : ضرب من البسط (جمع بساط) له خمل رقيق وطئ
(٢) النمارق : جمع نمرقة ، وسادة وثيرة موشاة
(٣) زلت به النعل : زلق ووقع وافتقر بعد استواء الحال والنعمة

على هذا النَّمط ، وتحته هذا البساط ، وعن يمينِ نمطك ويساره هذه النمارق ، وعليها أمهات أولادِ جبابرتكم ، وقد مَثَلْتُ فى مثل هذا المكان الذى أنت فيه ماثلة (١) ، وأنا أسألك وأتضرَّعُ إليك فى استيهاب جُثّة إبراهيمَ الإمامِ من مروان لئلاَّ يُمثِّل به ، وقولك وأنت كالحةٌ فى وجهى : «ما للنساء والدخولَ فى أمور الرجال؟» ، ثم أمرتِ بإخراجى من دارك بغِلْظَةٍ ، فلجأت إلى مروانَ فوجدتُه على حالٍ أشدَّ تعطُّفاً على رحمِهِ منك ، وقال لى : «لقد ساءَتْنى وفاةُ ابن عمى وما دَبَّرتُ المُثْلَة [به](٢) ». وقد خيَّرنى بين إطلاقى تجهيزه له ، وبين تسليمه إلىّ ، فاخترتُ تسليمه ، وأمر له بجهازٍ فقبلته منه »

« قال إبراهيم : « فالتفتت مُرَيَّةُ إلى زينب فقالت لها : « كأنك يابنت سليمان حَمِدْتِ لى عاقبة أمرى فى قطيعتى رحمى ، فأردت أن تزينّى قطيعة الرحم لأمّ أمير المؤمنين ! » ، ثم التفتت إلى الخيزُران فقالت : « صدقت زينبُ فيما ذكرتْ عنّى ، وذلك الفعلُ منى أحلَّنى هذا المحلَّ . والسعيدُ من اتعظ بغيره » ، وانصرفت . فبعثتْ إليها الخيزران ما أعاد إليها [حالها] ، وكفَّ اختلالها

✲ ✲ ✲

اليون مَلك الروم وميخائيل البطريق

٤٩ — وحدثنى يوسف بن إبراهيم والدى ، أنه سمع بُطْرُسَ (٣) ـ

(١) مثل بين يديه مثولا : انتصب قائما

(٢) المثلة : التنكيل بالميت أو الحى والتشويه . مثل به تمثيلا

(٣) فى الأصل : « بطوس » وسيأتى اسمه فى ص (٩٨)

ـ رَجُلاً ـ يحدِّث إبراهيم بن المهدى :

أن « نقفورَ الملكَ » ـ لما تأدَّى إليه الخبرُ بوفاةِ الرّشيد ـ جَعَل ذلك اليوم عيداً للروم ، ثم جعل عيداً أعظمَ منه فى اليوم الذى تأدَّى إليه وقوع الشرّ بين محمَّدٍ الأمينِ والمأمون ، ثم عيَّدَ عيداً ثالثا فى الوقتِ الذى بلغه خروجُ أبى السَّرايا ، ثم خرج إلى البُرْجان ليحاربهم فقُتل

فسأل بطارقةُ الروم بطريقَهم اختيارَ رجل ليُقلَّد مملكتَهم ، فاتّفق معهم على رجل من أبناءِ العرب يقال له « اليون » فملَّكوه ـ وكان ذا نِكايةٍ ـ فدفع عنهم وَقْدَةَ البُرْجان (١) . وقَوِى اليون على ضبط المملكة ، وكانت الروم فى أيامه أعَزَّ منها فى أيام نقفور ، إلا أنهم أنكروا عليه بَسْطَ اليد بالهِبَاتِ ، والعفوَ عن أسْرى المسلمين . ثم اجتمعت البطارقةُ الاثْنَا عَشر فى مجلسٍ على نبيذٍ لهم ، فتذاكروا أمرَه ، واستشنعوا فعلَه . وكان أغلظَهم كَدْحا عليه (٢) ميخائيلُ البطريق الذى مَلَكَهم ، ومَلَكتهم امرأةٌ بعده ، فبلغ اجتماعُهم وما قالوا اليونَ ، فوجّه فى يوم سبتٍ إلى ميخائيل فأحضره ، ثم دعا بتِلِّيس من شعرٍ بطول ميخائيل (٣) ، فأدخل رجلاه فى قرارةِ التلّيس ، ثم أمر بالتِّلِّيس فرُفع وأقيمَ ميخائيل ، فبلغ رأسُ التليس

(١) الوقدة : الشدة والبأس والالتهاب فى الحرب وما شاكلها

(٢) الكدح : السعى الحديد ، ويريد السعى فى إيذائه والإيقاع به

(٣) التليس : وعاء كالعيبة يسوّى من الخوص

إلى رأسه. ثم أمر أن يُحشَى رملاً فحُشِى، فبلغ الرمل فَمَ التليس ـ ثم أمر فخِيط بشَعَر جُمَّة ميخائيل (١)، ودعا الطَّبّاخين فأمرَهم أن يُعِدُّوا له طعاماً كثيراً مثلَ ما يُعَدّ فى الأعياد، ثم قال للبطارقة ـ وميخائيل بين يديه على تلك الحال ـ: «إذا نحن تَقرَّبنا فى غدٍ، ألقيتُ ميخائيل فى البحر، ثم تغدَّينا وجعلناه يومَ سرور!»

قال بطرس: «فاجتمع البطارقةُ بعد انصرافهم من عنده وقالوا: «هذا العربىُّ قد امتدَّت يدُه إلى ميخائيل، ونخاف أن يجترئ على كافَّتِنا»، فأجمعوا على الاشتمالِ على سيوفِهم، والدخولِ إليه وقتلِه، ففعلوا ذلك. ثم جلسوا للمشاورةِ فيمن يُنْصَب بمكانه (٢)؛ واستشرف كل واحد منهم إلى أن يكون ملِكا، فقال أحدهم لسائر الجماعة: «الصوابُ أن تُملِّكوا ميخائيلَ؛ فإنه يرى أنكم أنعمتم عليه بالحياة». فاستشرفوا إلى ذلك؛ ورأوا موضع السَّدَاد منه، فأخرجُوه من التلّيس وغسلوه، وأحضرُوا البطريقَ وثيابَ الملكِ فألبسُوه إياها، وأعلموه أنّ اليون قد قُتل، وملَّكوه عليهم

«ثم صاروا إلى مجلس المملكة والموائدُ منصوبةٌ، فقالوا له: «تغَدَّ أيها الملك بالطعام الذى دبَّر اليونُ أنْ يأكله بعد قتلك!»».

(١) الجمة: مجتمع شعر الرأس إذا طال

(٢) نصب مكانه: أقيم مكانه خليفة له

فقال ميخائيل «عارٌ بالملك أن يَطْعَم طعاماً وفى عُنُقه يدٌ لإنسانٍ من أوليائه ورعيتِه، قبلَ أن يكافِئَه عنها، وقد أحييتمونى بعد موتى، ولست أطْعَم طعاماً حتى يخبِّرنى كل إنسان منكم بجميع حوائجه فى مُدَّة عمره». فقال كل واحد منهم ما تناهى إليه أمله، مما يصل ميخائيل الملك إليه. فقضَى جميع حوائجهم، وسألوه الأكلَ فقال: «قد فرغْنا مما يجب لكم، وبَقِى [ما] لله وللملك اليون، ولا يُحْسُن بى أن آكلَ حتى أفعل ما يجب لهما»، ثم قال للبطريق: «ما جزاء من منع ملِكا عليه من شمِّ النسيمِ ورَوْحِ الحياةِ (١)؟»، قال البطريق: «يُمْنَع النسيمَ ورَوْحَ الحياة»، فقال لهم: «قد حكمَ عليكم البطريق بما لا يجوز خِلافُه!». وأمر بضرْب أعناقهم وابتدأ بطعامه

* * *

سيف بن ذى يزن وملك الحبشة

٥٠ — ومما نقله ابنُ المقفع عن الفُرسِ وتعالَمُه العرب:

أن ملك الحبشة لما غلبَ على مملكة سيف بن ذى يَزَن، خرج إلى كسرى مستصرِخاً إليه، ومستجيراً به عليه. وكان ملكُ الحبشةِ يُجرى على ترْجُمان كسرى رزقاً مُثيباً على تحريف دَعْوى المتظلّمين منه (٢). وكان لكسرى يومٌ فى كل شهر يركب فيه، ويقرُب من عامَّته، ومن لا يصل إليه ممن انتجعه (٣). فتوخَّى سيف ابن ذى يَزَن ركوبَه فى ذلك اليوم، فلما رآه قال: «أسعَد الله

(١) روح الحياة: برد نسيمها وطيبه وخفته

(٢) الرزق المثيب: المصلح للحال بعظيم غنائه

(٣) انتجعه: أتاه يطلب معروفه وخيره

الملكَ ! أنا سيف بن ذى يَزَن ، أغار عليَّ متملِّك الحبشة بفَرْط تعدِّيه وسوء جِوَاره ، فأخرجنى من مملكة عَمَرتها أنا وآبائى مُذْ أكثر من مائتى سنة . وأنا أسأل الملكَ أن يُنجِدنى عليه (١) ، ويردّنى بطَوْله إلى مملكتى ومملكة آبائى » . فسأل الترجمانَ عن قوله فقال : «يقول : « أنا رجل من جِـلَّة العرب (٢) ، وقد اختلَّت حالى ، واضطرب شملى لشدّة الفاقة ، وقد قصـدتُ الملكَ مُسْتَتِرًا به ، ومستميراً منه (٣) » ، فأمر له بجائزة . فرأى سيف بن ذى يزن مالا يشبه ماابتدأه به

وصبر إلى اليوم الذى يسهُل فيه كلامه وانتظره فيه ، فلما رآه قال : « أنا أيّد الله الملِكَ ذو نعمةٍ وكفايةٍ ، وإنما وَفَدْت على الملك لأقتَبِس من عزه ، وأنتصر بقُوَّته » ، فسأل الترجمان عما قال ، فقال : « يقول أمَرْت بما يقصر عن حاجتى » ، فأمر له بجائزة أخرى . فوقف على تحريف الترجمان لكلامه

فانتظره فى اليوم الثالث ، فلما رآه قال : أيد الله الملك ، إنَّ الغادرَ » ... فأدى إليه هذا الحرفَ ، فقال : « الخائنَ » ... فرأى فى وجه الملك الاستفهام ، فقال : « الكذاب » ... فأشار إليه الملك

(١) أنجده على فلان : أغاثه وأعانه عليه
(٢) الجلة : جمع جليل ، وهو الكبير العظيم
(٣) استمار فهو مستمير : طلب الميرة ، وهى الطعام والرزق وما إليهما

بيده من هو ؟ فأوْمَى إلى الترجُمان ، فأحضر الملك ترجمانا آخر ، فقصَّ عليه قصَّته ، فضرب عنق الترجمان ، وأحْسَنَ تَلَقِّىَ سيف بن ذى يزن لما تبيّن منه فى التأنِّى لإفهامه (١)

ثم أحضره مجلسه فسأله عن مقدارِ حاجته ، وما الذى يُؤْثِرُه من أصناف الناس ؟ فقال له : « أسأل الملك أن يُطْلِق لى من محابِسه الكهولَ ، فإنهم أصبرُ فى المعارك ، وأسمح بالنفوس » ، فأطلق له جملة من [فى] الحبس كهولاً بأسْرهم ، فحملهم فى مَرَاكب ، وركب معهم حتى وَافَى مملكته

فلما نَزَل جميعُهم ، أحرق المراكب ، واعتمد ذلك سراً منهم . فلما نظروا إلى المراكب قد أحرقت ، قال للرجال : « إنه لايحسن بكم التَّعذيرُ فى القتال فتهلِكُوا (٢) » ، ولكن جِدّوا جدّ من لا نَجَاة له فى البحر » . فجرّد الجيشُ العِنَاية ، وصَدَقوا حتى بَرَزُوا على من أقامَ بمملكته (٣) ، واحتازُوا له طائفةً كبيرةً من أرض الحبشة ، وقهر مَلِكها وآتّقى جانِبَه

* * *

أبو الوزير وجماعة من العمال

٥١ — وحدثنى هارون بن ملّول ، قال :

« تقلّـد أبو الوزير ـ خالُ أبى أيُّوب ـ الخراجَ على حالِ

(١) تأنى للشىء : ترفق فى إتيانه وإدراكه
(٢) عذر فى الأمر تعذيرا : قصر بعد جهد يبلغه العذر فى الإخفاق
(٣) برز عليه : فاق عليه وغلبه

أضطرابٍ من الأولياء . واستعمل ـ من فَرْط الاستقصاء على أرباب الخراجات ، وإخراج البُقوط (١) عليهم ـ ما ثقلت به وطأته على الناس . وكان له كاتب ذهب عنّى اسمه ، فى النهاية من الجزالة والضَّبْط (٢) ، وكان يُعزَى إليه أكثر صنيعِ أبى الوزير ، فقال لى هارون : « فقصده جماعةٌ من الأولياء ، فأحسَّ بالشرّ فيهم ، فأغلق الباب عنهم ، ثم تأمّلهم حتى عرفهم ، فكتب بفَحْمةٍ : « يا سيدى قتلنى فلان وفلان » ، وسمّى جماعة رؤسائهم ، وكسروا الباب ودخلوا إليه فقتلوه . وركب أبو الوزير حتى شاهده ، ثم تأمل حائطَ مجلسه ، فوجدَ الكتاب بالفحمة ، فقبض عليهم فصدَقوا عنه وقُتِلوا به » .

* * *

ابن الأبرد وكاتبه

٥٢ — وكان لرجل من جِلَّة كُتّاب الجيش بمصر ـ يعرف بابن الأبرد ـ رغبةٌ فى وصفه بالنُّصح فى أعمال السلطان ، ولابسه محمد بن أبَّا [القائد] ، فقدَّم العنايةَ به والتعصُّب له ، ومكّن له عند خُمارَوَيْه محلا ردَّ إليه بعض أعماله من الخراج . واحتاج فيه إلى كاتب يحملُ عنه ، فارتاد رجلا يعرف بنَصْر بن القاسم (٣) ـ يَخْلُف [ابن] الأبرد فيما أُسْنِد إليه ـ ، فكان يسعى به إلى كاتب خمارويه .

(١) البقوط : جمع بقط ، وهو ثلث خراج الأرض والبساتين أو ربعه يلتزمه المعامل

(٢) الجزالة : جودة الرأى وأصالته

(٣) ارتاد الشيء : طلبه متخيراً

فكتب يوما رُقعة تشتمل على ما كرهه ابن الأبرد من التَّغْميز به والانتقاص له (١) ، ويشيرُ فيها بأشياء تُفْسد محله ، وبعث بها إلى كاتب خمارويه . فغلط الغلام وجاء به إلى ابن الأبرد ، فاستعرض فيها أشياء قبيحة ، وفارَقَ الكاتب . ورأى الكاتبُ أنه قد أحرز ـ بما أتاه من السعاية ـ مكانةً عند كاتب خمارويه . وقُتِل خمارويه ، وثبتت يد كاتبه على الأمر ، فرامَ نصر بن القاسم أن يدخُلَ فى جملته ، فامتنع من ذلك وقال : « من سعى إلينا سَعَى بنا » ، فمات نصر ابن القاسم كمداً .

* * *

عمرو بن العاص وتنكره

٥٣ — وسمعت سعيد بن عبد الله بن الحكم يقول :

« وُجد فى أخبار مصر المسندة أنَّ عمرو بن العاص عند تغلُّبه على مصر كان يَتنكّر ويخرج وحده ، متشبها بالرجل من عامَّته ، ليرى ما عليه القِبْط من النيَّة للمسلمين . فتمادى به السيرُ راجلا حتى لحق بطرَفٍ من الفُسْطاط ، فرأى جماعةً قد التأمت على سوءٍ فيه (٢) ، فقال لها : « اعملوا بى كُلّ ما تُؤْثرون من السوءِ ولا تردُّونى إلى يد الأمير ، فإنى هربت منه » ، فقال بعضهم : « ردُّوه إلى يد الأمير فإنه يقتله ، ويكون لكم بذلك عارفةٌ عند الأمير » . فساقوه إلى دار [الإمارة] ، فأخذ يَتضوّر ويتأبَّى فى سِياقته حتى قرُب من الدار (٣) ،

(١) التغميز : الطعن على الرجل وإظهار غميزته ، أى عيبه

(٢) التأم القوم على الشيء : اجتمعوا عليه

(٣) تضوّر : تلوّى واضطرب وصاح من خوف أو وجع أو جوع

فقام إليه الشُّرَط . فقال : « لا يفوتَنَّكم منهم أحَدٌ ! » ، فجُمِعوا له ، فأتى على آخرهم ، ولم يعاوِد التنكُّر .

* * *

الدفانى والخناق

٥٤ — وكنت أعرف شيخاً فى أيام خمارويه ، حُلْوَ النادرة ، مليحَ الألفاظ ، يُعرَف بالدفَّانى ، وكان معاشُه من التوصُّل بكتب الولاة إلى مُعامِليهم . فحدثنى أنه خرج بكُتُبٍ إلى الشَّرقية ، فالتقى مع رجل فى زِىّ بعض المانيّة من الأطباء (١) : « وهو على حمارٍ بخُرجين ، وكنتُ على حمار . فاستخبرنى عن صِناعتى ، فتحسَّنتُ عنده بأن قلت : « أنا تاجر فى الغلّات » ، فطمع فىَّ ، وكان مُبنِّجاً (٢) ، فقال لى : « هذا موضعٌ طيِّبٌ ، فلو أكلنا فيه ! » ، فقلت : « ذاك إليك ! » ، فأخرج من أحد خُرْجيه رغيفين مَشْطُورين (٣) ، فوضع أحدَهما بين يدىّ والآخرَ بين يديه . ثم أخذ كوزاً معه ومضى يسعَى به ، فشرِهَتْ نفسى إلى الرغيف الذى كان بين يديه ، فأبدلته حتى صار بين يدىَّ وصار رغيفى بين يديه . وجاء بالماء ، وابتدأنا بالأكل ، فما ابتلع لقمةً حتى شَخَص بصرُه وتمدَّد (٤) ،

(١) المانية . هم المانوية الزنادقة أصحاب مانى
(٢) البنج . نبات ينتبذ ، إذا استعمل خدّر وفتر وأرقد . وبنجه : سقاه منه
(٣) المشطور : المقطوع شطرين ، والشطير : نصف الرغيف والجمع شطائر ، وستأتى
(٤) شخص بصر الميت : إذا ارتفعت أجفانه إلى فوق وجعل لا يطرف .

واجتاز بنا جماعة فقالوا : « مالصاحبك ؟ » ، قلت : « لا أدرى والله ! » ، فقالوا لى : « أنت مبنِّج بنجت هذا المسكين ! » ، وساقونى

فكان من لُطْف الله أنَّ خليفة لموسى بن طُونيق كان ببلدهم ويُجاورنى يتقلَّد المعونة ، فساقنى القوم إليه ، والرجلُ محمولٌ معنا ، وهم يقودون الحِمارَيْن ، وقالوا له : « هذا مُبنِّج وجدناه ! » . فلما رآنى ضحك إلىَّ وقال : « متى تعلمت التبنيج ؟ » ، قلت : « اليوم » ، وقصصت عليه خَبَرى ، وأخرجت كتابَ موسى بن طُونيق فى برِّى . ففتش خُرْجَيه ، فوَجد فيه شطائرَ تبنيج وشطائرَ خالية ، ووجد معها أوتاراً للخنق ، وأحجاراً للشَّدْخ . فشدَخ رأسه بها ، وخَنَقه بتلك الأوتار حتى فاظ » (١)

* * *

خاتمة المؤلف للباب الثانى

وإذْ وَفَّيْنا ماوعدناك به — من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح — مارجونا أن يكونَ ذلك عَوْناً للاستكثار من مُواصلة الخير ، وتطلُّب العارفة فى الحَسَن ، وزَجْرِ النفس عن متابعة الشرِّ ، وإبعادها عن سَوْرَة الانتقام فى القبيح (٢) ، وقد قالوا : الخيرُ بالخير والبادى أخْيَر ، والشر بالشَّر والبادى أظلم . . . ، رأيتُ أنْ أصِلَ ذلك — حفظكَ الله — بطرَفٍ من أخبارِ من ابتُلِى فصبَر ، فكان ثمرةُ صبره حُسْنَ العُقْبَى ؛ لأنَّ النفس إذا لم تُعْنَ عند الشدائد بما يجدِّد قُوَاها ، تولَّى عليها اليأس فأهلكها

(١) شدخ رأسه : كسرها ، وفاظ الرجل : خرجت روحه فمات
(٢) سورة الخبر وغيرها : حدتها وشدتها ووثوبها فى الرأس

وقد علم الإنسان أن سفورَ الحالة عن ضدها حَتْمٌ لابدَّ منه ، كما علم أنّ انجلاء الليلِ يُسْفِر عن النهار . ولكنّ خورَ الطبيعة أشدُّ مايلازم النفس عند نزولِ الكوارث ، فإذا لم تعالَج بالدَّواءِ ، اشتدَّت العلة وازدادت المِحنْة . والتفكُّر فى أخبار هذا الباب ، مما يشجّع النفسَ ، ويبعثُها على ملازمة الصبرِ وحسن الأدب مع الرَّبِّ عز وجل ، بحسن الظَّنِّ فى مُواتاة الإحسانِ عند نهاية الامتحان . والله ولىُّ التوفيق

----

٣ — حسن العقبى

٥٥ — * [سقط من الأصل أول الكلام]

ابنا الاخبارى وغلام يتشطر

إلىّ بالشىء بعد الشىء مما تخلّف عن تلك الوديعة ، وعجوزٌ تختلف بذلك ، لها ولدٌ يتشطّر ويلعَبُ بالحمام (١) ، فوردت عليهما بَدْرَةُ دراهم (٢) ، وقد انتهى بهما السعى فى الإيداع . فقالا للعجوز : « صيرى بها إلى ابنِك مع هذا الغلام حتى تُودِعِيها لنا عنده » ، فمضت بها والغلام معها ، فحدَّثنا الغُلام قال :

«صرنا إليه وقد فَتَح باب البُرْجَ وأخرجَ فِراخًا زُغْباً (٣) ، وهو ينظر إليها ، فأدَّينا الرسالةَ إليه ، فقال : « ليس لى خزانةٌ ولا صندوق ، ولكن اجعلها فى هذه المِحْضَنة الخالية من البُرْج (٤) » ، قال : « ففعلتُ »

« وانصرفنا جميعاً على أنه يُمَزِّقها مع الغِلْمان وسُبّاق الحمام (٥) .

---

(١) شطر شطارة وتشطر : خرج عن أهله وتركهم وأعياهم خبثاً ، وهو الشاطر وهو صاحب الفتوة والمروءة والقوة

(٢) البدرة : كيس يكون فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار والجمع : بدور وبدرات

(٣) زغب : جمع أزغب ، وهو فرخ الطائر يكون عليه الزغب ، وهو أول مايبدو من دقاق ريشه

(٤) المحضنة : الموضع الذى يحضن فيه الحمام على بيضته

(٥) السباق : هم الذين يتراهنون على سباق الحمام

ثم صَلَح ما كان الْتاثَ من أمرِنا(١)، واطمأنت نفوسُنا مما كان أخافنا. فبعثنا فيما كُنّا أودعناه الشيخ، فقال للغلام: «غَلِطْتَ بى، وليست الرسالةُ إلىَّ»، فلما رجع بالجواب إلينا، تحيّرنا وركبنا إليه، فاستمرّ فى الجحود، وتضاحكَ مما لقيناه به، ورجعنا وقد لحقَنا من فَقْدِ الوديعة أكثرُ مما كنا نخافه من النَّكْبَة. ومَيَّلنا بين مُطالبته بما نُنبِّه به على مقدار ما أودعناه(٢)، ونُطمِع مَنْ خفناه، وبين الإمساك عنه، وتربُّص الأيام به، فمالت نفوسنا إلى الإمساك لمّا اجتمعت لنا الصغائرُ المُغادَرة للعدل(٣). واجتازت بنا العَجُوز فقالت: «قد رددنا ما أوْدعْناهُ وبقى ابنى». واقتضتنا الغلامَ يحمل البدرة فبعثنا به معها

فحدّثنا الغلام قال: «وافيناه بين يدى البُرْج، فأدّت العجوز إليه الرسالة، فقال للغلام: «ادخل فخُذْها من المَحْضَنَة التى خلفتها فيها»، فصار بها إلينا الغلامُ وعليها ذَرْق الحَمام(٤)، فوزنّاها فوجدناها على ما كانت عليه. فكثُر تعجُّبنا من أمانته؛ وأخرجنا من البدرة ألفَ درهم، وتقدّمنا إلى الغلام بالمصير بها إليه. فرجع الغلام إلينا فقال: «رمى بها إلىَّ وشتمنى». فآثرنا ارتباطه(٥).

(١) التاث الأمر: اختلط والتف وفسد
(٢) ميل بين الأمرين، ومايل بينهما: فاضل ووازن
(٣) هكذا فى الأصل
(٤) ذرق الطائر: سلحه وخرؤه
(٥) ارتبطه: أوثق صلته به

وقلنا للعجوز: «صيرى به إلينا السّــاعة!»، فوافانا، فقلنا: «انبسطنا إليك فانقبضت عنا!»، فقال: «الخيانةُ - أعزّكم الله - أسهلُ من أخذِ أجرةٍ على الأمانة»، فقلنا: «جزاك الله خيرا، فقد وجدنا فيك مالم نجده فى غيرك»، فقال: «وتخلّف عنكم شىء مما أودعتموه»، فقلنا: «نعم!»، فقال: «عرِّفونى، فإنى أرجو أن آخذه لكم بألطفِ حيلةٍ»، فرأيناه - لما فيه من فَضْل النفس وكَرَم السجيّة - أهلا لأن نَبُثّه وَجْدَنا(١)، فأخبرناه؛ فقال: «ينبغى أن تتقدّما إلى بعض من تثقان به من غلمانكما، أن يتيقّظ؛ فلعلّى أن أناديَه الليلة»؛ فقلنا: «وما تريد بذلك؟»، فقال: «مالا يجوز أن أُبديه، وأرجو عون الله عليه، والتفريج عنكما به»، ففعلنا ذلك، ومايتطاول سؤلنا إلى ماأتاه(٢)

فجمع إخوانا له فى عدّة كثيرة من الشُّطّار(٣)، واقتحم على المستودَع وقال له: «ماجئْنا لنهْبِك، ولانتعرّضُ لشىءٍ من مالك، وما جئنَا إلّا لوديعةِ ابنى عُمَر الأخبارى. فإن أدّيْتَها خرجنا وكأنّا مادخلنا. وإن جحَدْتَ واعتمدت بصياحٍ قتلناكَ الساعةَ، وسهُل علينا عقوبتُنا فيك وقَتْلُنا بك، لأنّا نُرْزَق الشهادة فى القتل والمَثوبةَ، إذ كنا نجاهد عمّا اختزلته(٤)»، وضرب إلى لحيته

(١) بثه وجده: أطلعه على مايكتم من الأسف والحزن
(٢) السؤل: البغية
(٣) الشطار جمع شاطر انظر ص (١٠٧)
(٤) اختزل المال: اقتطعه وانفرد به

وأعجله (١) ، فقال : « هى فى هذه الخزانة » . ودعا بغلام فقال :
« أخرِجْ جميع ما [أَوْدَعَناه ابنا] عُمَر » ، فأخرج سَفَطًا كان فيه
جواهر ، وسَفَطًا (٢) فيه أثواب وَشْى مذهَّبة صِحاحاً ، وبُدُورا فيها
مال (٣) ، فقال : « والله لئن خالفْتَ شيئا لنُطَلَّنَّ دمك (٤) ، ولئن
كنت أدّيت الأمانة لنكوننّ أولياءك والمقيمين بأمرك » .

فوافَوْا باب منازلنا ، فصاحوا بالغلام وهم يحملون الوديعة ،
فوضعوها بين أيدينا وحدّثونا بحديثهم ، وقالوا : « استعرِضوا
وديعتكم ، فنحن فى الدهليز حتى تفرُغا وتُخبِرانا : هل بقى منها
شىء أم لا ؟ » ، فلما عرضْناها على ثَبَتِها عندنا (٥) ، ماغادرتْ شيئاً
منه ، وعادت بما ردّ إلينا نعمتَنا ، وانحسمت فاقتُنا ، ولم نجد
فى الجماعة من قبل شيئا بما بذلناه ، وانصرفوا » .

* * *

رجل مختل الحال وعباس البرمكى

٥٦ — وحدثنى أحمد بن أيمن قال :

« كنت أكتب فى حداثتى للعباس بن خالد البرمكى ، وكان
طويلَ اللسان مَخْشِىَّ الغَضَب . فإنى لجالس بين يديه فى داره
بمدينة السلام ، حتى دَخل علينا شابٌّ حسنُ الصورة رثُّ الهيئة ،

(١) ضرب إلى لحيته : أى ضربها بيده فأمسكها
(٢) السفط : الوعاء الذى تعبى فيه الثياب
(٣) البدور : جمع بدرة ، انظر ص (١٠٧)
(٤) طل دمه : أهدر وأبطل ديته
(٥) الثبت : جريدة تثبت فيها الأشياء - (الكشف)

فأكبّ عليه فقال : « ألست ابن فلان صديقنا ؟ » ، فقال : « نعم ،
ياسيدى ! » . فقال : « قد كان حسَن الظاهر جميل الهيئة ؛ فما بلَغ بك إلى
ما أرى ؟ » ، قال : « كان تجمُّله أوفى من عائدته ! وتُوُفّى ، فكنتُ
أتبلَّغ بما يستعمله المُوقّى على جاهه (١) ، إلى أن خانَ طبعى البارحة
ولم أُطِق سَتْرَ ما بى فقصدتُك » ، فدعا بمائة درهم ، وقال : « تمسك
بهذه إلى أن أنظر لك فى عائدٍ عليك من الشُّغْل » . فلما قام من عنده
قال لغلام يثق به : « قُصَّ أثَرَ هذا الفتى ؛ فانظر ما يبتاعُه بهذه
الدراهم وأحصِه عليه حتى يدْخل منزله ، واعرف المنزل وصِرْ إلىّ » .
فرجَع إليه وقال : « ياسيدى ! هذا غلام عيَّار ! (٢) ابتاع بنَيِّف
وثلاثين درهما سَميذًا وسُكَّرًا وعسَلا ولحماً كثيرا وحوائجَ
الأعراس (٣) ، وأخذ طبّاخاً من طبّاخى الأعراس ، وأحسب أنّ
عنده دعوة وقد عرفتُ منزلَه » ، فقال : « دَعْهُ »

فلم تمض إلا أيام يسيرةٌ حتى وافى الفتى فأعرض عنه ، واستثقل
جلوسَه بين يديه ؛ فقال : « ياعمّى وسيّدى ! ليس يشبه هذا اللقاء
ما لقيتنى به فى الأولى ! » ، قال : « كنتُ فى الأُولى راجيا لصلاحك ،
وأنا اليوم آيسٌ منه » ، فقال : « وكيف ظننتَ ذلك ؟ » ، قال :

(١) تبلغ بالشيء : اتخذه بلغة يكتفى بها
(٢) العيار : أصله الكثير المجيء والذهاب الذكى الطواف ، وهو هنا (البلطجى)
(٣) السميذ : دقيق تتخذ منه الحلوى

« أخبرنى غلامى أنك أنفقتَ إلى أن بلغت منزلك نَيِّفًا وثلاثين درهما ، وكان حقُّك أن لاتزيد على ثلاثة دراهم » ، فقال : « لو عرفت خبرَى لقدَّمت عُذرى ! » ، قال : « ماخبرك ؟ »

قال : « كنت مع تضايُقِ حالى ، أُمْسِك نفسى عن المسألة ، وأقتِصرُ وأهلى على البُلغة [١] . وأنا ساكنٌ وأهلى فى ظهر دار فلان ـ ووصف رجلا ظاهرَ اليَسار من التجّار ـ وقال : « له طاقاتٌ فى مطبخه تُفضِى إلى منزلى . فأولم وليمةً لاأشك فى حضورك إياها . فشَرِقَ منزلى بروائح الأطعمة ، وكانت الصَّبِيَّةُ من صبيانى تخرُج فتقول : « رائحة جَدى يُشْوَى ! » وأخرى تقول : « رائحة نَقَانق تُقلى ! » وهذه تقول : « ياأَبَهْ ! أشتَهى من هذا الفالوذج الذى قد شاعتْ رائحتُه لقمةً ! » ، وقولهم يُقَرِّح قلبى [٢] . وأمَّلت أن يدعوَنى فأتحمَّل التزليل لَهُم [٣] ، فوالله مارآنى أهلا لذلك ، فقلت : « ولعلّه إذ نَقصْتُ عنده من منزلةِ من يدعونى أن يبعث إلىَّ ؟ فوالله ما فَعل . فبِتُّ بليلة لايبيتُ بها الملدوغ ، فأصبحتُ فى الغداة فكنتَ أوثَق فى نفسى مِن سائر مَنْ بمدينة السلام . فلما أعطيتنى تلك الدراهم اشتريتُ بها حوائج أُصْلِحُ منها مااشتهوه ، فأكلوا أيَّاما منه ، وهم يدعون الله فى الإحسان إليك ، والخَلَفِ عليك »

---

(١) البلغة : كل مايكتفى به

(٢) يقرح قلبه : يجرحه ويملأه قروحاً

(٣) التزليل : حمل الطعام من الوليمة عند الانصراف عنها

فقال له العباس : « أحسنتَ ! بارك الله عليك ! » ، ثم صاح : « ياغلمان ! أسرِجُوا لى » ، ولبِس ثيابَه ، وركب وركبتُ معه ، ودخل إلى صاحب الصَّنِيع [١] فقال : « دعوتَنى وجماعةَ وُجُوه بغداذ إلى طعام مَقَتنا الله عليه ! وعرّضت نعمتَنا للزوال ، وأنفسنا إلى اخترام الأعمار ! » ، وقصَّ قصّةَ الفتى ، وقال : « عزمتُ على أن أُصدِّق عن كلِّ من حَضَر وليمتك [٢] ، وتكونُ سبباً لتخلّف الناس عنك ، والإمساك عن إجابتك أخرَى الليالى » ، فقال : « أنا أفتدى إذاعتك بما غفلتُ عنه بخمس مائة دينار » ، قال : « أحضِرْها » ، فأحضرها ، فقال : « اقبِضْها » ، فقبضْتُها

ثم ركب إلى جماعةٍ فقال : « أعطونى فى مَعُونة رجلٍ من أبناء النِّعَم اختَلَّتْ حالُه » ، فأخذ منهم خمس مائة دينار أخرى ، ورَجع إلى منزله ـ وقد كان أمرَ الفتى ألَّا يبرَح منه ـ ، فأدخله إليه ، وقال : « فِيمَ تهش إليه من التجارة ؟ » ، فقال : « فى صناعة الأنماط [٣] ، فإنها صناعةُ أسلافنا ، ومَنْ بها يَعْرِف حُقُوقَنا » . فدعا برُجل منهم حَسَنِ اليسار ، فأخرج إليه الألف الدينار التى أخذها ، فقال : « هذا المالُ لهذا الفتى ، فليكن فى دُكَانك ، واشترِ له بها ما يُصلحه من المَتَاع وبصِّرْه به » ، ثم قال للفتى : « احذر أن تُنْفِق إلامن رِبْح » . فانصرف الفتى ، وقد رُدَّ عليه سَتْرُه »

---

(١) الصنيع : الوليمة

(٢) صدق عنه : أخرج صدقة

(٣) الأنماط : جمع نمط ، وهى ضرب من البسط له خمل رقيق

فحلف لى أحمد بن أيمن : « أنَّ بضاعته تَثمَّرت [١] ، وأرباحه اتصلت ، وعامَلَ السلطان ، ودخل فى جُمْلة التجّار وجِلَّتهم »

* * *

أبو يوسف القاضى والغنوى

٥٧ — وحدثنى أحمد بن أبى عمران ، عن مسلم بن أبى عُقبة ، عن أبيه عقبة ، — وكان عقبةُ هذا مصادقاً لأبى يوسف القاضى وترباً له [٢] — ، قال :

« كان أبو يوسف قد انقطع إلى أنحاء الفِقْه [٣] ، فأحسنَ القولَ عن أبى حنيفة ؛ وكانت زيادته فى العلم ، بمقدار نقصانه فى الرزق . وكان كل من يستعرض حاله بالكوفة ، يشير عليه [بالرِّحْلة] إلى بغداد . ويرى أبو يوسف صوابَ مايُشار به عليه ؛ فيُقْعِدُه نقصانُ حاله عن المركب الفارِه [٤] ، واللِّبسة التى تُشبه من حلَّ محلَّه من العلم ، ونُزِع إليه من أقصى النواحى [٥]

« وكان له غلام كان لأبيه ، حاذقٌ بعمل الجَوَاشن والدُّروع وكثيرٍ مما يحتاج إليه من آلة الحرب [٦] ، وكان يأتيه فى كلِّ شهر

(١) تثمرت : نمت وكثرت ثمرتها وأرباحها

(٢) ترب المرأة : هى صاحبتها التى ولدت معها ، وأما الرجل فهو « لدته وسنه »

(٣) أنحاء الفقه : وجوهه وأبوابه ونواحيه

(٤) الفاره : النشيط الحادّ القوىّ من الدواب

(٥) نزع إليه : قصد من بعد

(٦) الجواشن : جمع جوشن : درع وزرد يلبسه الصدر والحيزوم من العنق

بما يقوته فى حاضرةِ الكُوفة ، ولا يُعينه على حَضْرة السلطان . فرغب فى الغلام عامل للمهدىّ على الكوفة — قد ذهب عنِّى اسمه — ، فطلبه من أبى يوسف — وهو يومئذ من أصاغِر رَعَاياه — ، فباعه منه بتسعين ديناراً

« وخرج عند ذلك إلى بغداد ، فارتاد دابَّةً وثياباً

« وكان لعبد الله بن القاسم الغَنَوِىّ — أحدِ أصحاب الأعمش — محلٌّ من المهدىّ ، ولم يكن فى المجالس التى تنعقد ببغداد فى الفِقه أجل من مجلسه . فدَخَل أبو يوسف مع كافَّة من دخل ، مِنْ غير تسليم على عبد الله ، ولا مُقدِّمة لحضور مجلسه . وكان أبو يوسف حَسَنَ الصورة ، جميلَ الإشارة ، لطيفَ التخلُّص والاحتجاج ، فقبِله قلبُ عبد الله ولم يعرفه

« وجرت مسائلُ وأجوبةٌ ،كان حظُّ القياس فيها مقصِّراً ، وكان الاحتجاج على ظاهِر القول . فتكلم أبو يوسف فيها فأحسن الاحتجاج وجوَّد ، وأعانه على هذا طُولُ لِسانه وحُسْنُ بيانه ، ثم سألهم فقصَّروا عن الجوابِ ، فأبان عنه لهُمْ برفق . فلما تقضى المجلس عاتبه عبد الله على تخلُّفه عنه وتعريفِه مكانَه ، وسأله أين نَزَل ، فأخبره . فرغب له عن الموضع الذى سكنه ، ودعاه إلى منزلٍ بالقرب منه ، وقرَّر خبره عند أبى عبيد الله كاتب المهدى ، فوصله بالمهدىّ وأسْنَى رزقه [١] ؛ ثم قَرَنه بالهادى فأقام معه مُدَّة

(١) أسناه : جعله سنياً أى رفيعا عظيما

أيامه ؛ وبلغ مع الرشيد مالم يبلغْهُ عالم بعلمه ، ولا محبوبٌ بمرتبته »

***

على بن سند وأبى الجيش ثابت

٥٨ — وحدَّثنى على بن سند ـ وكان انقطاعه فى أيام الموفَّق والمعتضد إلى أحمد بن محمد بن بسطام ، وكان آل عُبَيد الله بن وهب يَحْقِدُون [عليه] سوالِفَ مُنْكَرَةً ، ولم يكن مع عُبَيْد الله من سوء المباداة مامع القاسم ابنِه (١) . فلما حُبس أحمد بن محمد ابن بسطام ، قُبِض علينا معاشرَ خلفائه فى الأعمال ، وأُثبِتْنا فى جَرِيدةٍ (٢) ، وتُقدِّم بإحضارنا إلى داره ، فيئِسْنا من الحياة ـ ، وقال لى علىُّ بن سندٍ:

« فلم يكُن فى جماعتِنا أضعفُ حالا منى ولا أقلُّ ناصراً ، فرأيت الموتَ . وحُمِلنا إليه ، وقد أحْضَر الجلاّدين والسِّياط والموكَّلين بالمعابر (٣) ، قال : فقُدِّم منا رجلٌ من جِلّة أصحاب أحمد بن بسطام نضُرب ، وأُخذ خطُّه بما أعلم أنه لاتصلُ إليه يدُه . وبين يديه رجل ظهرُه إلينا لا نعرفه ، فلما فرغ [من] أمره ، سمعت الذى بين يديه وهو يقول : « هَنِّئْنى عارفتَك ! » ، فقال : « ذَرْهُ ! حتى يرى عِظَم ماسلم منه بكَ » ، فقال : « هو يراه غدًا » ، فقال القاسم : « سلّموا علىَّ بن سـند ـ لا رعاه الله ! ـ إلى صاحبه أبى الجيش ثابت » ،

(١) باداه مباداة : أظهر له مافى نفسه من عداوة أو غيرها

(٢) الجريدة : ورقة تجرد فيها الأسماء وتكتب (كشف بيان)

(٣) المعابر : هكذا بالأصل ، ولا أدرى ماهو ، ولعله يريد بعض آلات التعذيب

فرأيته وقد قبَّل يده ، ورُدَّت علىَّ الحياة بشفاعته ، وأُطلِقتُ من غير مصادرة ولا عقوبة (١)

« فلما رجع ثابتٌ إلى مكانِه ، وصار بى رسولُ القاسم إليه ، قال لى : « مرَّ بىَ اسمُك فى الجريدةِ فاستوهبتُك ، لأنّ أباك كان من إخوانى » . فجزَّيتُه الخيرَ على رِعايته والدِى ، فِىَّ

***

محمد الغورى ولص

٥٩ — وحدثنى محمد بن صالح الغُورِىّ ، قال :

« كانت لى بضاعة أعود بفَضْلها على شملى ، فافترقتُ فى معاملاتٍ فى الصَّـعيد ، وخرجتُ إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمس مائة دينار . وخرجت أريد الفسطاط فى رُفْقَة كثيرةِ الجمع ، فلما كان مُنْتَصفُ طريقِنا ، وافَى جمعٌ من الصَّعاليك فسلبَ الناسَ جميعاً . ودَهِشْتُ (٢) ، فرأيتُ منهم شاباً حَسَنَ الصورة ، فقلت له : « والله ما أملك غير هـذا الكِيس ، فارفعه لى عندك ! » ، فقال : « وأين بيتُك بالفسطاط ؟ » ، فقلت : « فى دور عَبَّاس بن وليد » ، فقال : « ما اسمـك ؟ » ، قلت : « محمد الغورِىّ » ، قال : « امضِ لشأنك » . وجاءَ منهم من قلَّع ثِيابى وسراويلى ، وانصرفُوا عنا . ولم أزد أن سوَّغتُ واحداً منهم جميع ماكان معى (٣) ، ودخلنا إلى

(١) المصادرة : توثيق الاتفاق على مال يدفع يفترق على أدائه أحد الطرفين

(٢) دهش : تحير واضطرب

(٣) سوغه : أعطاه له سائغاً سهلا

الفسطاط ونحن فقراء. فرجع كل واحد منهم إلى ما تخلّف لهُ، وبقيت ليس معى درهم أُنْفِقُه

« وإنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة، حتى رأيتُ رجلا قد وَقَفَ بى، فقال لى: « هاهنا منزل محمد الغورىّ ؟ »، قلتُ: « أنا هو ! »، ولا والله ! ما اهتديتُ إلى الرجل الذى أعطيته المالَ، لأنه كان عندى أوّلَ مال ذاهبٍ، فقال لى: « عَنَّيْتَنِى ! » (١)، وأخرج الكيس فدفعه إلىّ، فَرُدَّتْ علىّ جِدَتى وتطعّمتُ الحياةَ (٢)

وكان بالقرب منّا قائد يُعرَف بابن قَرَا، كنتُ مُعامِلا له وكان له محلّ (٣)، فسألت اللص المبيتَ عندى ففَعَل. فأصبحت وصرتُ إلى ابن قرا وقصصت عليه قصّة الرجل، فقال لى: « الطُفْ لى فيه، فوالله لأُنَوِّهَنّ باسمه، ولأُكافِئَنّه عنك ». فرجعت إليه فأخبرته، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب، ومَضَى معى؛ فأحسن تلقّيه، وخلع عليه، وصيّره سِيارةً لعَمَله، (٤) وضمّ إليه عِدّة وافرة. ولم يزل فى حَيِّزه إلى أن تُوفّىَ »

* * *

(١) عنيتنى: أتعبتنى

(٢) الجدة: الوفر والغنى، وتطعم الشىء: ذاقه وتمتع به

(٣) يريد: كان له محل رفيع ومكانة

(٤) وردت هذه الكلمة قبل صفحة ٣٨ ولست أحقق معناها، وهى على كل حال: عمل من أعمال الدولة فى ذلك العصر

مصقلة ومعن ابن زائدة

٦٠ — حدثنى أحمد بن أبى يعقوب، عن أبيه، عن جَده واضح، قال:

« كانت بين المهدى وأخيه جعفر بن أبى جعفر عداوةٌ فى أيام المنصور، وكان مَصْقَلة بن حبيب يَنْقل عنه إلى جعفر مايكره، ولا يُمْكِنُ المهدىّ أن يسطُوَ على مصقلة ولا يَمَسَّهُ بسوءٍ. فلمّا تولى الخلافة نَذَر دمه، فاختفى. فحدثنى مَصْقلة أنه نَبَا به موضعُه الذى كان به، فخرج مستترا يريد غَيْرَه، فلحقه رجل من أعدائه وصاح فى أصحاب الأرْباع (١)، « هذا بُغْيَة أمير المؤمنين ! »، : « فتسرَّعَ إلىّ الشُّرَط ورأيتُ الموت عِياناً. فبينا أنا فى أيديهم، اجتاز بى معن بن زائدة، فصحت به: « ياسيدى ! ياأبا المنذر ! أجرنى أجارَك الله ! »، فقال للشُّرَط والرجلِ المتشبّثِ بى: « خلُّوا عنه »، فقال الرجل: « ماذا أقول لأمير المؤمنين ؟ »، قال: « تقول له إنّه عندى »، ثم أمَر بحملى على جَنيبةٍ من جنائبه (٢)، وسار بى إلى منزله، وقُدّم طعامُه فأكلت معه ومع وَلَده. فلمّا فرغنا من الطعام قيل له: « وافى رسولُ أمير المؤمنين ! »، فقال لولده: « اقضُوا حقّى عليكم بألّا تسلّموا مَصْقَلة، فقد استجار بى ! ». فحلفوا له

(١) أصحاب الارباع: هم فيما نستظهر من بعض النصوص، الذين يتولون مراقبة المسافرين، والنظر فى أحوالهم، ويكون لهم حق حبس الداخلين إلى المدينة عن دخولها، وقد مضى ذكرهم أيضاً فى ص (٥١) والارباع هنا هى النواحى: أى نواحى المدينة ومداخلها

(٢) الجنيبة: هى الناقة التى يحمل عليها الطعام والميرة، والجمع جنائب

على ذلك ، وركب

« فلما رآه المهدى قال : « تُجـيرُ علىّ يامَعْن ؟ » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ! » ، قال : « ونعم أيضاً ؟ » ، قال : « ياأمير المؤمنين ! قَتَلْتُ فى دَوْلتك زُهاء ثلاثين ألف عدوّ ، ولا أستحق أن أُجيرَ فيها عدوّاً واحداً ! » ، قال : « نعم تستحقُّ ذلك ، قد وهبناك دمَه » ، فقال : « ياأمير المؤمنين ! ليس هكذا يُنْعِمُ مثلُك بالحياة ! إذا تصدقت على أحدٍ بحياته فاجعلها فى خفضِ عَيْشٍ من نِعمتِك[١] » . قال : « يُعطى ألفَ دينار » ، قال : « ياأمير المؤمنين ! لاتستوِى جائزتُك وجائزةُ عبدك مَعْن ! هـذا ما سمحت له به » ، فقال : « ادفعوا إلى جار معنٍ ألفىْ دينار » . فحُمِلَتْ معى إلى منزلى ثلاثة آلاف دينار ، وأمنتُ على نفسى »

* * *

أولاد ابن طولون وابن أخيهم

٦١ — وحدّثنى رَبيعة بن أحمد بن طولون ، قال :

« لما توفى خُمارويه ، قَبَض علىّ — وعلى مُضَر وشَيْبان ابنى أحمد بن طولون — جَيْش بن خمارويه ، وحُبِسْنا بدمشق . فلما قَفَل إلى مصر ، حبسنا فى حُجرة من الميـدان معـه . وكانت لنا فى كل يوم مائدةٌ نجتمع عليها ، وكان فى الحجرة رِواق وبيتان ، وجُلوسنا فى الرِّواق . فوافى خدَمٌ له ، فأدخلوا أخانا مُضر فى البيت وأغلقوا عليه الباب ، فانفصل عنا . وكانت المـائدة تُقدَّمُ إلينا ، ونُمْنَع أن

(١) الخفض : السعة والدعة واللين فى العيش

نُلقِىَ إليه منها شيئاً ، فأقام خمسـة أيام لا يَطْعَم ولا يَستغيث . ثمّ وافانا ثلاثة من أصحاب جَيْش ، فقالوا : « ماماتَ أخوكم بعدُ ؟ » ، فقلنا : « مانسمع له حِساً ! » ، ففتحوا الباب فوجدوه حياً ، ورامَ القيامَ فلم يصل إليه ، ورماه الثلاثة بثلاثة أسهم فى مقاتله فَطَفِئَ[١] . وكانت الليلة التى دخـلوا فيها ليـلة جمعـة ، وأخرجوه وأغلقوا البابَ علينا

« وأقمنا يومَ الجمعة والسبتَ لم يقدَّم إلينا طعامٌ ، فظننّا أنهم يسلـكُونَ بنا طريقَه . فلمّا كان يوم الأحد ، سمعنا رجَّةً فى الدار وفُتِح بابُ الحجرة ، وأُدخل إلينا جيش بن خُمارويه ، فقلنا : « ماخبرك » فقال : « غلب أخى على أمرى ، وتولى إمارة البلد هارون بن خُمارويه » فقلنا : الحمدُ لله الذى قَبَضَ يدَك ، وأضْرَع خدَّك »[٢] ، فقال : « ماكان عزمى إلّا أنْ أُلحِقَكما بأخيكما » . وأنفَذ إلى جماعتنا مائدةً ، فلمّا طَعِمْنا بعث إلينا خادماً : « إنّ جيشاً كان قد عزم على قتلكما كما قتل أخاكما ، فاقتلاه وخُذا بثأركما منه ، وانصرفا على أمانٍ » ، وبعث إلينا خدَما ، فتسرَّعوا إليه فقُتِل . وانصرفنا إلى منازلنا وقد كُفِينا عدوّنا »

* * *

أحد ملوك الهند وتاجر

٦٢ — وحدّثنى منصور بن إسماعيل الفقيه ، قال :

(١) طفئ الرجل : خمد وهمد وانطفأ لهب حياته
(٢) أضرعه : أذله وأخضعه

« خرج رجل نعرفه بتجارة، قَصْدُه إلى الهند؛ فرجع إلينا بأنواع من الطِّيب كثيرةٍ لها قيمةٌ خطيرة، وهو فى نهاية السُّرور، فقلنا له: « كم ربحتَ فى التّجارة التى خرجت بها من عندنا؟ »، فقال: « غرقتُ وسائرُ من كان معى، فسلمتُ بحُشاشة نفسى فى جزيرة من جزائر الهند، فتلقّانى قوم فيها وجاءوا بى إلى ملكهم فقال لى: « قد نَفِدت الموهبةُ الخارجةُ عنك، فما معك من الموهبةِ الثابتة عليك؟ »، قلت: « معى الكتابُ والحسابُ »، فقال الملك: « ما بقى لك، أفضل من الذى ذهب منك، والصوابُ أن تعلّم آبنى الكتابَ بالعربيّة والحسابَ، فأرجو أن نُعَوِّضك أكثر مما [فقدته] »، وسلَّم إلىَّ من آبنَه: أذكى صَبِىٍّ وألْطَفَه، فتعلَّم فى مدة يسيرة ما يتعلّمه غيرُه فى مدة طويلة

فلمّا رأى أنه قد توجّه وآستحققتُ منه الإحسان (١)، صار إلىَّ صاحبُ الملك فقال: « معى هديّةٌ من الملك إليك »، وأدخل إلىَّ بقرة فتيّة، ثم قال: « أدفعها لك إلى الراعى؟ »، فقلت: « افعل »، وصغُرَ فى عينى أمرُ الملك على عظم شأنه. فما مضى زمنٌ قصير حتى جاء الراعى فقال: « ماتت البقرة! »، واستقبلنى كلُّ خاصّة الملك بالتغمّم (٢). ثم ظهر فى آبنه تزيُّد (٣)، فبعثَ إلىَّ

(١) توجه: أى قصد الوجه الصحيح
(٢) تغمم: أظهر الغم والهم
(٣) تزيد: يريد زيادة فى العلم

ببقرة فتية أخرى فردَدْتها إلى الراعى، فما مضت مدّة يسيرة حتى وافى يبشِّرُنى فقال: « قد حملت البقرة! ». فلما انتهى حملُها وَضَعَتْ فهنّأنى حاشية الملك بأسْرهم. ثم جلس الملك مجلساً عاماً، وأحضر التجارة التى رأيتموها معى، ثم قال:

« لم يذهب علىَّ ما يجبُ لك فى تعليم ابنى، ولم أبعث بالبقرة الأولى لفضل البَقَرة عندى، ولكن نزلت بك محنةٌ فى البحر أتَتْ على مالك، فامتحنت بالبقرة ما أنتَ عليهِ منها. وعلمتُ أنى لو أعطيتُك جميعَ ما ملكتْ يدِى ـ وقد بقى منها شىءٌ ـ لضاع منك وهلك لديك. فلما أُخبِرت أنها ماتت علمت أنّك فيها (١). ثم آمتحنت أمرك بالبقرة الثانية، فلما أخبرت أنّها قد حملت علمت أنها قد آنحسرَتْ عنك، فسُرِرت لك بذلك، وآستظهرت بانتظارِ الوِلادة. فلمّا ولدتْ شخصاً كاملا صحيحَ الأعضاء، علمتُ أنك قد فارقت محنتك. وهذا ما أعددته لك! ». ثم وَصَلنى بِطيب قوّمته عشرين ألف دينار، وحملنى فى البرّ فسلمتُ، وزاد بأرض العرب ثمنه على ما قوّمْتُه »

قال منصور: « فرأيته قد أيْسَر بعد الخَلّة والتلفيق فى المعاش (٢)! »



(١) قوله « علمت أنك فيها »: أى أن شؤمك ومحنتك متلبسة بها
(٢) أيسر: غنى بعد شدة وعسر. والخلة: الفقر

الفضل بن يحيي وشامى

٦٣ — وحدثنى أبو محمد يحيى بن الفضل ، قال :

« اختفى عند والدى كاتبٌ للفضل بن يحيى بن برمك عند إيقاع الرشيد بهم ، وكان يُواصل البكاءَ عليهم ، ولا يسمع الوَعْظ فيهم ، فقال له أبى : « أنا أرجو أن يُخلِفَ الله عليك ولا يُضيعك » ، فقال : « والله ما بكائى لما فاتنى منهم ، وإنما بكائى لجلالة أخطارِهم ونَفَاسة أقدارِهم ، ولقد كان لصاحبي فى الجمعة السالفة مالم أسمع بمثله لقديمٍ ولا حديثٍ ، قال لى : « قد كَثُر الزوّارُ علينا (١) ، فانْظُر مقدارَ من انصرف ، وارفع إلىّ عِدّةَ من بقى من الزوّار لأتقدّم فى بِرِّهم ؛ واحذر أن ترفَع إلىّ رجلاً من أهل الشام » ـ ، لأنه كان يتشيّع (٢)

« فخرجتُ فألفيت من فَضَل عن المنصرفين أربعة وثلاثين رجلاً . وجاءنى رجلٌ من أهل الشام كاملُ الأدب ظريف الشّاهد (٣) ، فأعلمته ما تقدَّم به إلىّ ، فقال : « يا أخى أسألك أن تُغالط بى وتثبتنى فى وسط الجريدة » ، ففعلتُ ذلك . فنظر إلى الأسماء ثم قال : « ألم أتقدم إليك أن لا يكون فى الجريدة شامِيٌّ ؟ » ، فقلت : « وأين الشامى ؟ » . فوضع ـ شهد اللهُ ـ يدَهُ على اسمه وحَلّق (٤) ،

(١) الزوّار : هم العفاة والمجتدون وطالبو المعروف ، وكانوا يسمون « السؤال » ، فسماهم البرامكة « الزوار » إكراماً لهم عن شناعة اسم السؤال

(٢) يتشيع : يتعصب لشيعة على رضى الله عنه وأهل بيته

(٣) ظريف الشاهد : ظريف اللسان

(٤) حلق : أدار حلقة دائرة على الاسم

ووقَّع بيده لكل واحد غيرِ الشّامى ، فما قصّر بأحدٍ عن مائة دينار ، وأمرنى بإطلاقها وإنفاقِها فيهم . فجلستُ أفرِّقها ، ووافى إلىّ الشامى ، فأريته اسمَه خالياً وحدّثته حديثَه ، فقال : « لو قُضِى شىء لكانَ ، وأحسن الله جزاءَك على ما قدّمته من العنايةِ بى » ، وانصرف وقد غمّنى أمره ، ولم يبق فى الزوّار أحد حتى أخَذ

« فأنا فى منزلى قريباً من نصف الليل ، حتى وافانى رسوله ، فصرت إليه ، فقال : « أوَيْتُ الساعة إلى فِرَاشى ، واستعرضتُ بفكرى شُغْل الزوّارِ وما أمرتُ به لهم ، فحَسُنَ عندى ، ثم قبّحه فى عينى حِرْمانُ الشامىّ المِسكين ، ورأيته نقصاً فى مُرُوّتى ، فتقدّم فى دفع مقدارِ ما وصل إلى جماعةِ الزوّار إليه » ، فقلت : « ياسيدى ! وصل إلى جماعة الزوّار خمسة عشر ألف دِينار ، وهذا يكفيه ألف دينار ! » ، فقال : « والله ما تفى ألف دينار بغَمِّه وقد رأى غيرَه يأخذ وقيامه عنك محروماً ، قُمْ فادفع إليه الخمسة عشر ألف ولا تَعذُلْنى ، فالخطأ فى الجميلِ أحسنُ من الصّواب فى القبيح ، وليس يَشْكرُ الناسُ من البرِّ إلاّ ما أفرط ، فأمّا ما بَلَغ الحاجةَ فمنسيٌّ عند أكثرهم ، والواجب على من آثر جميلَ الذكر أن يَتَغَنَّمَ أيامه (١) ، ولا يسوِّف بشىء من فعله »

قال أبو محمد : « فبكى والله أبى عند هذا الفصلِ من حديثِه حتى خفتُ عليه ، وقال : « ما أجهلَ الناس بقَدرِ ما فقدوه من

(١) يتغنم الشىء : يغتنم وينتهز

هذا الرّجل! »

قال الكاتب: « فخرجتُ وبَثَثْتُ الرسُلَ فى طلب الشامىّ حتى وجدوه، فوافانى وقد انحطّ أكثرُ لحمِه فى يومٍ واحـد، فقصصتُ عليه القصة، فحمد الله وأثنى عليه وشكَرَنا جميعاً، وقبض المالَ وانصرف على أحسن حال ».

***

والد المؤلف وابن المدبر

٦٤ — وسمعتُ يوسف بن إبراهيم والدى، وهو يقول:

« كانت بينى وبين أحمد بن محمد بن مُدبّر سَوالف تُرْعَى ويُحافَظ عليها، فلما تولى مصرَ رأى حُسْنَ ظاهرى، فظنّ ذلك عن أموالٍ جمّةٍ لدىّ. فجدّ بى فى المطالبة، وأخرج علىّ بقايا لعقود انكسرت من آفات عَرَضَتْ لِضياعها، ولم يسمع الاحتجاج فيها، واستقصر ماأوردته، و[ظنّه] إنما كان عن حيلة، فاحتبسَنى مع المتضمنين. فكان يَغْدُو فى كلّ يوم غلامٌ له يحجُبه يُعْرف بفَضْل، فيكتبُ على كل رجل مايؤدّيه فى يومه، فإن شكا أنه لا يَصِل إلى شىء، أخرجه فحُمِّلَتْ عليه الحجارة، وطُولِبَ أعنفَ مُطالبة.

« فلم يزلْ بى إلحاحه حتى بعتُ حُصُرَ دارى فضلا عما فيها، وعرضْتُ دارى فَمَنعنى من بيعها، ووَجّه إلىّ: « فأين يكون حُرَمُك؟ ». فوافانى كاتبى فى يوم من الأيام فقال لى: « يشهدُ اللهُ أنّا ما نَصِلُ لك اليوم إلى ما يُقيمُك، فضلاً عن شَىء تؤدّيه! ».

وأمسك فضل غلامُه عن الدخول فى ذلك اليومِ علينا، وتعرّف مايؤدّيه كل واحد منا، فلما صلّيت الظهر من ذلك اليوم أنفـذ إلىّ توقيعاً نُسْخَتُه:

« يا أبا الحسن أعزّك الله! قد ألويتَ بما بقى عليك [1]، وهو سبعة عشر ألف دينار، وآثرنا صيانتَك عن خُطّةِ المطالبة هذه المدة، فإن أزَحْتَ العِلّة فيها، وإلّا سلّمناك إلى أبى الفوارس مُزَاحم بن خاقان أيّدَهُ الله، وسبّبت به عليك لأصحابه [2] ».

« فكتبت إليه رُقعة أحلفُ فيها: « إنى ماأملك عَدَد هذا المال حبّ حِنْطَةٍ: ولو كان لى شىء لصُنْتُ به نفسى! فإن رأى السيّد رعاية السالفِ بينى وبينه وسَتْرَ مُخلّفِى، كان أهلا لما يأتيه، وإن سلّمنى إلى هذا الرجل رَجوت من الله عز وجل مالا يخطئ مَن رَجاه ».

« فرجع إلىّ بعضُ غلمانه ومعه رقعة مختومة، فاستركبنى. وسارَ بى إلى مُزَاحم، فلما قُرِئَت عليه الرقعةُ أدخلنى إليه، وعنده كاتب له يعرف بالمروزى فعرّفنى مزاحم ولم أعرفه ـ: وكان أبوه فى الحارة التى فيها دارُ أبى بُسر من رأى، وربّتـه أمّ امرأةٍ لى تعرف بميمونة، مولاةِ أمّ محمد بنت الرشيد؛ ولا علم لى بشىء من

(١) ألوى ولوى الدين: مطله وتأخر بالعلل عن قضائه

(٢) سبب عليه: أى جعله سبباً يأخذ عليه مالا من المرسل إليه كان يستحقه لديه، ويتولى المرسل إليه استخراج المال من الرجل المسبب عليه

هذا فقال: «أنت كاتب إبراهيم بن المهدى؟»، قلت: «نعم! أيد الله الأمير»، قال: «كنت أراك وأنا صَبِىٌّ فى حارَتِنا، ووالله ما طَلَبَ ابن المدبّر أن يروِّج علىّ مالاً (١)، وإنما أراد أن أقتُلَك بالمطالبة. وقد قبلتُ التسبيب، ورأيتُ أن أكتب إلى أمير المؤمنين أعرِّفُه رُزُوحك وقصورَ يدِك عن هذا المال (٢)، فإن سَهُل، وإلّا نَجَّمَهُ علىّ وعلى رجالى حتى يُقاضَوْا به فى كل نَجْمٍ (٣)»، ثم قال للمروزى: «هذا رُجل من مشايخى، وأُمُّ زوجته ببغداذ تولّت تربيتى، وقد استكتبته على أمورى وما أحتاج إلى قَبالَتِه من الضِّياع بمصر (٤)، وليس يُزِيلُك عن رسمِك (٥)»، وأخذ خاتماً قد كان يُخْتَم به الكُتُب بحضرته فأعطانيه. وسألنى عن العجوز التى رَبّتْه، فقلت: «هى بمصر معى!»، وانصرفت من عنده إلى منزلى. فكان أوّلَ من هنّأنى بمحلى منه ابنُ المدبر، ورجعت إلى نِعْمتى معه فى مدة يسيرة»

***

ابن العجمى المهندس وابنى موسى

٦٥ — وحدثنى أبو كامل شُجاع بن أسلم الحاسب، قال:

(١) روج عليه المال: عجله له

(٢) الرزوح: العجز والضعف والإعياء من الثقل

(٣) النجم: الوقت المضروب لأداء المال؛ ونجم المال: أداه نجوما (أقساطا) فى أوقات معلومة متتابعة مشاهرة أو مسانأة

(٤) قبالة الضياع: كفالة الرجل أموال خراجها، واحتماله بأدائها لبيت المال

(٥) الرسم: هو عندهم الولاية على بعض أمر الدولة

«كان إبراهيم بن الأعجمى المُهَنْدس قد تقاصَرتْ يدُه واختلّتْ حاله، فتكلَّم على شكْل من أشكال الهندسةِ ورَفعه إلى مَنْ أوصله إلى المأمون، قال أبو كامل: فحدثنى سَنَد بن على فقال:

«سأل المأمونُ محمَّدَ وأحمدَ ابنى موسى بن شاكر المنجِّم، عن منزلة إبراهيم بن الأعجمىِّ فى الهندسة، فقالا: «منزلة ضعيفةٌ، وفيه عاميَّةٌ»، فقال المأمون للسندى بن شاهك: «أحضرْنى إبراهيم ابن الأعجمى»، فلما أحضره ووقف بين يدى المأمون، تَهيَّبه، فلم تبدُ منه كلمةٌ، قال: فرأيتُ انقطاعه قد سَرَّ ابنَىْ موسى (١)، وقالا للمأمون: «قد عرَّفنا أميرَ المؤمنين أنه ليس بمحلِّ من يَدخُل إليه»، فقلت: «يا أمير المؤمنين! لولا أنك تَبْسُطنا بمناجاتك والمواظبةِ عليها، لكنّا بمنزلة إبراهيم فى الانقطاع من كلامِك؛ فأما تقصير هذين به فى الهندسة، فإنى أُشْهد سيدى أميرَ المؤمنين أنى من بعض تلامذته، وعليه ابتدأتُ قراءةَ الهندسة!»، فأمر بإيصاله إليه مع خاصَّته، وأجرى عليه ماوسعه»

«فقلت للسندىّ: «متى قرأت الهندسة؟»، فقال: «امتعضتُ والله ممّا لحقه من تعسُّف هذين الرجلين (٢)، فنزَّلتُ هذا القول لأرُدَّ به الإصْغار عنه (٣)»، فصلُحت حالُه، ورجع إلى أفضل ما كان عليه»

(١) انقطع الرجل: صمت أو أعيى فلم يستطع أن يتكلم أو يعمل

(٢) امتعض: شق عليه الأمر وعظم فتوجع منه

(٣) نزّل القول: وضعه وادعاه وتقوله كذبا، والإصغار: التحقير

* * *

محمد وأحمد ابنى موسى وسند بن على

٦٦ — وحدثنى [أبو كامل] شجاع بن أسلم الحاسب أيضاً، قال :

« كان محمدُ وأحمدُ آبنا شاكر ـ فى أيام المتوكل ـ يكيدان كلَّ من ذُكِر [بالتقدُّم] فى معرفةٍ . فأشْخصا سَنَد بن على إلى مدينة السلام وباعَداه عن المتوكل . ودبَّرا على الكندىّ حتى ضربه المتوكل ، ووجّها إلى داره فأخذا كُتُبَه بأسْرها ، فأفرداها فى خزانة سُمِّيت الكِندية ، ومكَّن هذا لهما آستهتارُ المتوكِّل بالآلات المتحركة (١)

وتقدَّم إليهما فى حفْر النهرِ المعروف بالجعفرىّ ، فأسندا أمرَه إلى أحمد بن كثير الفَرْغانى ـ الذى عمِل المِقياس الجديد بمصر ، وكانت معرفتُه أوْفَى من توفيقه ، لأنه ما تمَّ له عمل قطّ ـ فغلِط فى فُوَّهة النهرِ وجعلها أخفض من سائره ، فصار مايغمُر الفوَّهةَ لايغمُرُ سائرَه ، فدافع محمد وأحمد آبنا شاكر فى أمره . وآقتضاهما المتوكل ، فسُعِى بهما إليه فيه . فأنفذَ مستحِثًّا فى إحضار سَنَد بن على من مدينة السلام ، فوافَى .

فلما تحقق محمّد وأحمد آبنا شاكر أنّ سنداً قد شَخَص ، أيقنا بالهلكة ويَئِسا من رَوْح الحياة (٢)

(١) الآلات المتحركة : هى آلات رصـد النجوم المعروفة بالاصطرلاب

(٢) روح الحياة : نسيمها وطيبها

فدعا المتوكل سَنَدًا وقال [له] : ماترك هذان الرَّدِيئانِ شيئاً من سُوءِ القولِ إلا وقد ذَكَراك عندى به ، وقد أتلفا جُمْلةً من مالى فى هذا النهر ، فآخرج إليه حتى تتأمَّله وتُخبِرَنى بالغَلَط فيه ، فإنى قد آليتُ على نفسى ـ إن كان الأمر على ماوُصِف ـ أن أصلبَهما على شاطئه » . وكلُّ هذا بعين محمّدٍ وأحمدَ وسَمْعِهما ، فخرج وهما معه « فقال محمد [بن موسى لسند] : يا أبا أحمد « إن قُدْرَةَ الحرِّ تُذْهِب حَفيظَتَه ، (١) وقد فزِعنا إليك فى أنْفسنا التى هى أنْفَسُ أعْلاقنا (٢) ، وما نُنْكر أنّا قد أسأنا ، والاِعترافُ يَهْدِمُ الاقتراف ، فتخلَّصْنا كيفَ شئت »

« قال لهما : « أنتما تعلمان ما بينى وبين الكِندىّ من العداوةِ والمباعَدة ، ولكنَّ الحقَّ أولى ما اتُّبِع . أكان من الجميل ما أتيتما إليه فى أخذِ كُتُبه ؟ والله لا ذكرتُكما [بصالحةٍ] حتى تَرُدّاها عليه ! » . فتقدَّم محمّد بن شاكر فى حَمْل الكتب إليه ، وأخذ خَطّه باستيفائها . فوردت رُقعة الكندىّ أنه تسلّمها عن آخرها ، فقال لهما : « قد وَجَب لكما علىّ ذِمَامٌ بردِّ كُتُب هذا الرجل (٣) ، ولكما علىّ ذِمَامٌ بالمعرفة التى لم تَرْعَيَاها فىّ ، والخطأُ فى هذا النهر يستَتِرُ مُدّةَ أربعة أشهرٍ بزيادة دِجْلة ، وقد أجمع الحسّاب على أنّ

(١) الحفيظة : الغضب المكتوم فى النفس

(٢) الأعلاق : الذخائر النفائس

(٢) الذمام : الذمة والعهد والحق

أمير المؤمنين لا يبلغ هـذا المَدَى ، وأنا أخبره الساعةَ أنه لم يقع خطأ فى النهرِ إبقاءً على أَرْوَاحكما ، فإن صدَق المنجمون أفلتنا الثلاثةَ ، وإن كذبوا ـ وجازت مدّته حتى تَنْقُصَ دجلةُ ويَنْضَب النهر ـ أوقع بنا ثلاثتَنَا » .

« فشكر محمدٌ وأحمدُ هذا القول منه ، واستتَر الأمرَ واسترقَّهما[1] به ، ودخل إلى المتوكل فقال [له] : « ما غلطا » ، وزادت دجـلةُ ، وأجرى المـاءَ فيه ، واستتر حالُ النهر ، وقتل المتوكل بعد شهر[ين] من إجرائه . وسَلِم محمدٌ وأحمد بعد شِدّة الخوف مما توقّعا » .

* * *

حصار اقريطش والإخلاص لله

٦٧ — وحدثنى الحسن بن مسلم الأَقريطشىّ ـ ورأيته بعد أن علَتْ سِنُّه وبلغ المـائة سنة ، وكان صحيحَ التمييز ، سليمَ الحواسّ ـ قال :

« أَلَحّ غزوُنا على الروم ، ونالهم منا مكروهٌ عظيم . فوجدَ متملِّك الروم من هـذا[2] ، ونَذَر أن يُخرِّب أقرِيطش ولو أنفق ذخائر مملـكته . فنظر إلى راهب محبوب تتعالم الروم زَهادته . فأنزلَه من مُتعبَّده ، وضم إليه أكثر جُيوشِه ، فوافَى جمعٌ لم يُحِطْ بأقريطش مثلُه قط . ففزعنا إلى غَلَقِ الحصن[3] ، وتسرَّع الروم إلى بناء

(١) استرقه : استعبده وجعله رقيقاً أو كالرقيق
(٢) وجد من الشيء : غضب فى نفسه
(٣) غلق الحصن : أقفاله

مساكن لهم ، وخرجوا من المراكب ، وغلبونا على مِيرَةِ البلد وما يكون فى جواره[1] . واشتدّ الحِصار ، ونَزَع السِّعْر ، وتحاق المأكول[2] ، وشاع الجَهْد[3] .

ثم زادت المكارهُ حتى أكل الناس مامات من البهائم جوعًا ، وأجمعوا على أن يفتحوا البابَ له ، فقال لهم شيخ : « إنى قد أراكم قد حُرِمتم التوفيقَ فى قُوّتكم وضَعْفِكم ! والصوابُ أن تقبلوا منى ما أُشيرُ به عليكم ! » ، قالوا : « قل » ، قال : « آتركوا لله قبيحَ ما يحملكم عليه تَظاهُرُ النِّعْمَة والسَّلامة[4] ، وأخلصوا له إخلاص من لا يجدُ فَرَجَهُ إلاّ عنده ، وافصِلوا صبيانكم من رجالكم ، ورجالَكم من نسائكم » . فلمَّا ميَّزهم هذا التمييز صاح بهم : « عِجُّوا بنا إلى الله ! [5] » ، فعجُّوا عَجَّةً واحدةً ، وبكى الشيخُ وبكى أكثرُ الناس . ثم قال : « عِجُّوا أُخرى ، ولا تشتغلوا بغيرِ الله » ، فعجُّوا عجّةً أعظم من الأولى ، وبكى الناسُ أيضاً . ثم عَجَّ الثالثةَ وعجَّ الناسُ معه ، وقال : « تَشَرَّفوا من الحصن[6] ، فإنى أرجو أن يكون الله قد فرَّج عنَّا » .

(١) الميرة : الطعام والزاد
(٢) نزع السعر : غلا ، وتحاق المـأكول : هلك أو كاد كما يكون فى أيام القحط
(٣) الجهد : المشقة والعسر من الجوع
(٤) تظاهرت النعمة : تضاعفت وتكاثرت
(٥) عج بالبكاء والدعاء : رفع صوته
(٦) تشرف : أطل وتطلع

فحلف لى الحَسَنُ : « إنى تشرَّفتُ مع جماعةٍ فرأيتُ الروم قد قوَّضوا [رِحالهم] ، وركبوا مراكبهم . وفُتِح بابُ الحصن ، فوجدوا قوما من بقاياهم فسألوهم عن حالهم : فقالوا : « كان عميدُ الجيش بأفضل سلامةٍ إلى اليوم ، حتَّى سمع ضجّتكم فى المدينة فوضع يدَه على قلبه وصاح : « قلبى ! قلبى ! » ، ثم طَفِئَ » [1] . فانصرف من كان معه إلى بلد الروم . وخرجنا عن الحصن ، فوجدنا فى تلك الأبنية من القمح والشعيرِ ما وسع المدينةَ وأعادَ إليها خِصْبَها ، [وكُفِينا] جماعتَهم من غير قتال »

✲ ✲ ✲

٦٨ — قال أبو جعفر : سهل بن شنيف وابن بسطام

« ولما غَلَبَ ابنُ الخليج على مِصر ونواحيها ، لم يكنْ بمصر أسوأ قدرةً على أسباب أبى [علىّ] الحسينِ بن أحمد الماذرائى من أحمد بن سهل بن شُنيف ، فلم يمضِ شهور حتّى انهزم ابن الخليج وظُفِرَ به . وحُمِل إلى العراق . ودخل بعدذلك بشهور أبو العباس أحمد بن محمد ابن بسطام إلى مصر متوليّاً بالأمانة على الحسين بن أحمد ، وكاشفاً لما جرى عليه أمر الضِّيَاع بعد ابن الخليج وأصحابِه

فقرّر أبو علىٍّ أمرَ المتضمِّنِين بالحضرة عند أبى العباس ، فعرّض بسهل بن شُنَيف ولم يدع سُوءًا إلاَّ ذكره به . فقال أبو العباس : « سيعلم ما يَجْرِى عليه منّى ! » . واتصل [الخبر] بسهل بن شنيف

(١) طفئ : انطفأت حياته وخمد

فاستُطِير قلبُه وكَسَفَ بالُه [1] . وأُحْضر مع جماعةٍ أَجْلَبوا من الكتَّاب مع ابن الخليج [2] ، فلمّا دخلوا عليه كاد يقوم إلى سَهْل بن شنيف ، ثم رفعه حتى كان أقرب إليه من أخصِّ أصحابه . ودعا ابنَ حُبَيْش فسارَّه ، فنظر إلى سَهْل ، وقال لأبى العباس : « الأمرُ على ماوصفْت » ، ثم أطلق سهلا من ساعته إلى منزله . فسأله أبو على : « هل تعرفه قبل هذا ؟ » ، فقال : « لا والله ! ولكنَّه ورَد علَيَّ منه أشبهُ النّاس بأبِى » .

وأفرخ رَوْع سَهْل بتوفيق الله ولُطْفه ، [3] وما زال حفيّا به حتَّى مات »

✲ ✲ ✲

٦٩ — قال : المؤلف وابن بسطام

« وكنت قد عملتُ فى أيام ابنِ الخليج لحمايةِ ضِيَاع كانت فى يدى . فلمّا تمخّضت دولتُه اختفيتُ ونُهِبْتُ [4] ، وخِفْتُ الإيقاع بى ، واعتورضياعى العُمالُ [5] ، وأضاقتْ حالى ، فاجتمع الخوفُ والفاقةُ . فرأيتُ ـ بعد قدوم أبى العباس بن بِسْطام ـ فيما يَرَى النائم ، يوسفَ بن إبراهيم والدى ، وأنا أشكو إليه خلّتى وخَوْفى ، فكأنه

(١) استطير قلبه : ارتاع واضطرب ، وكسف باله : تغير وساء حاله

(٢) أجلب عليه : أعان الخارجين عليه

(٣) أفرخ روعه : اطمأن قلبه بعد فزع

(٤) تمخضت : كادت أن تولد ، وقربت ولايته الأمر

(٥) اعتوروا الضياع : تداولوها بالإيذاء والتضييق فى جباية الأموال

يقول : « أنا أتكلم فى أمرك حتى تعودَ إلى محبّتِك » . فلما أصبحتُ قصصتُ الرؤيا على من كنت مُختفياً عنده ، وكان حاذقاً بالعِبارة (١) ، فقال : « يجرى لك فرج بذكر أبيك » .

وطلب أبو العباس بن بسطام الدّستورات القديمةَ ليعتبر منها عَبْر الضِّياع (٢) . فأُخْرج إليه ما كان لسنة خمسين ومائتين وماقبلها ، فرأى فيها اسمَ والدى فى ضياع كثيرة ، فقال : « من هذا يوسف ابن إبراهيم ؟ » فقال له أبو على : « هذا صاحب إبراهيم بن المهدى ، ورَضِيعُ المعتصم ! » ، قال أبو العباس : « وصاحبُ كتاب الطّبيخ ؟ » ، قال أبو على : « نعم ! » ، قال : « فله ولدٌ ؟ » ، قال : « نعم فى ناحيتى ! » ، قال : « فخُذ لى منه كتاب الطّبيخ ، وكتابَ أخبار إبراهيم بن المهدى ، وصِرْ به إلىّ حتى يقرأهما علىّ » ، قال : « أفعلُ » .

وكان إسحاق بن نُصَيْر يعرف موضعى ، فقال له : « أحتاج إلى أحمد بن يوسف » ، قال : « تُؤمِّنه ، وعلىّ إحضارُه ! » ، فكتب له أماناً بخطِّه ، وحلَف فيه ألاّ يُسوءنى ولا يُطالبَنى . فخرجت إليه وأحضرتُه الكتابين . وفرّج الله عنى بأضعف سبب » .

* * *

(١) العبارة : تعبير الرؤيا وتفسيرها

(٢) اعتبر عبر الشىء : استدل على الشىء بالشىء وتدبر حسابه حتى يفهمه . والدستورات : جمع دستور ، وهى النسخ المحررة المكتوبة ؛ يريد دفاتر الحساب

قابلة أولاد خمارويه وأختها

٧٠ — وحدثتنى أُمّ آسية — قابلةُ أولاد خُمارويه بن طولون ، وكان لها دِينٌ ومذهب جميلٌ ، ومحلٌّ لطيفٌ من خُمارويه . وقد تذاكرنا لُطفَ الله عز وجَلّ فى أرزاق عباده ، وحُسْن الدفاع عنهم — : أنه تزوّجها وأُخْتَها أَخَوانِ ، فأقبلتْ حالُ زوج أُختها وأدبرت حال زوجها ، قالت : وتُوفّى زوجُها بأسوإ حالة ، وخلّف لها بنات ، وتعذّر عليها تجهيزُه من اختِلاله . وتُوفى زوج أختها ، وقد خلّف من العَيْن والمَساكن والأوانى لوَلَد أختها :

قالت : « فكنتُ أُجاهدُ فى مَؤُونة وَلَدى ، وإذا وَقَف أمرى ، صِرْتُ إلى أختى فقلت : « أقرِضينى كذا وكذا » ، استحياءً من أن أقول لها : « هَبِى لى ... » . ودخل شهر رمضان ، فلمّا مضى نصفه ، اشتَهَوْا علىَّ صبيانى حَلْوَا فى العِيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : « أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حَلْوَا فى العيد » ، فقالت : « يا أختى ! تَغِيظِينى بقولك : « أقرضينى » ، وإذا قرضتُك من أين تُعْطينى ؟ أمِن غَلّة دُورِك أو بُستانك (١) ؟ لو قلت : « هَبِى لى » ، كان أحسن » . فقلت لها : « أقْضِيك من لُطف الله تعالى الذى لا يُحْتَسَبُ ، وجُودِه الذى يأتى من حيث لا يُرْتَقَب ! » . فتضاحكت وقالت : « يا أختى ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بَضائِعُ النّوكَى ! » (٢) . فانصرفتُ عنها أجرُّ رِجْلىَّ إلى منزلى

(١) الغلة : الدخل الذى يغله العقار

(٢) النوكى : جمع أنوك : وهو الأحمق الذى لا عقل له

« وكان فى جوارنا خادم أسود لبنتِ اليتيم امرأةِ خُمارويه ،
فلما بلغتُ حارتنا قال لى : « فى جوارنا امرأةٌ تُطْلَق قد أوجَعَتْ
قلبى (١) . ادخلى إليها فليس لها قابلةٌ » (٢) . قالت أمّ آسية :
« ووالله ماعانَيْتُ مَمخوضَةً قَطّ (٣) ، فدخلت إليها ، فمسحتُ جوفَهَا ،
وأجلستُها كما كان القوابلُ يُجْلسننى فى طَلْقِى ، فولدت من ساعتها .
فلما أمسَك صياحُها ، جاء الخادم يسأل عنها ، فقلت : « قد وَلَدَتْ ! » ،
فعجب من سُرْعة أمرها ، وظَنّ أن هذا شيئاً قد اعتمدته بحِذْقِ
صِناعةٍ ، ولُطْفٍ فى مِهْنَةٍ . فمضى إلى سِتّه بنتِ اليتيم ـ وكانت
مُقرباً بأوّل ولدٍ حُمِل لأبى الجيش (٤) ، وقد عُرِض عليها قوابلُ
استثقلتهنّ ـ ، فقال : « فى جوارنا قابلةٌ أحضرناها لمرأةٍ فى حارتنا
تُطْلَق ، فوضعت يدَها على جَوْفها فسقَط ولدُها ! » ، ووصفنى
بما لا يُوجد فى قُدْرة أحدٍ إلا بالله عزّ وجل ! فقالت للخادم :
« إذا كان غداً فجئنى بها » ، فأتى الغُلام ودَعانى إلى مولاته ،
فأجبتُ بانشراح صدر وثقةٍ بالله تعالى . فاستخفّت رُوحى
وقالت : « إلى التمام تقديرُ الله تبارك وتعالى » . ثم شكت مَغْساً

(١) طلقت المرأة (بالبناء للمجهول) : إذا أدركها المخاض ووجع الولادة

(٢) القابلة : هى التى تتلقى الولد من بطن أمه ، (المولدة)

(٣) الممخوضة : هى الماخض ، وهى المرأة إذا ضربها الطلق ووجع الولادة

(٤) أقربت الحامل وهى مقرب : إذا دنا ولادها

تجده المُقرِب (١) ، فأدخلتُ يدِى فى ثِيابها ومَسَحْت جوفَها ،
وعَجّجْتُ إلى الله تعالى فى سِرّى بتوفيق ، وكنتُ أدعو ـ ومَنْ
حضَرَ من أهلها يتوهَّم أنى أرْقِى ـ فسكنَ ماوجدَتْهُ وتبرَّكَتْ بى .
ودخل إليها خُمارَويه وقال : « ما وَجَدْتِ » فقالت : « مَغْساً فى
جوفى ، فوضعت قابلةٌ أردتُها يدَها عليه ، فزال ما أجده ! » ،
وأخرجتنى إليه ـ وكان قريباً من حُرَمِهِ ـ ، فقال لى : « أرجو
أن يُخَلّصها الله عز وجل ببركتك »

قالت أم آسية : « ودخلنا فى العَشْر الأواخرِ من شهر رَمَضان ،
وقد تمسّكتُ من الإخلاص لله عز وجل بما لا يَصِلُ إليه من
ساحَ فى الجبال ، خوفاً من شماتة أُخْتى بى . فلم تمض إلّا ثلاثةُ
أيام حتّى تَخِضت ، فأجلستُها على كُرْسِى الوِلادة ـ وكان مقدارُ
طَلْقِها ساعتين ـ ، فولدت ابناً أسهلَ وِلادةٍ ، وأبو الجيش يقوم
ويقعُد ، ويذهَب ويَجِيء . فلمّا ولدت ـ وكانت تتوقّع من الولادة
أمراً عظيما ـ فلما ألْقَتْه قالت لى : « هذا الطّلق ؟ » ، قلت : « نعم ! »
فقبّلت ـ يَعلمُ الله ـ عَيْنَىَّ من الفَرَح . وصاح خُمارويه : « أخبرينى
يامباركةُ بخبرها » ، فقلت : « وحَياةِ الأمير إنها فى عافيةٍ ، وقد
ولدت غلاماً سوىَّ الخَلْق بحمدِ الله » . فوجه إلىّ بألف دينار ،
وألحّ أبو الجيش فى النَّظر إليها لفَرْط إشفاقِه عليها ، فاستوقفته
إلى أنْ نقلتُ حَوَائجَ الوِلادة وقلت لها : « ياسيدتى ! أضحكى فى

(١) المغس والمغص : تقطيع يأخذ فى أسفل البطن والمعى

وَجهه كما تَريه (١) » . فلما دخل إليها ضحكت فى وجهه ، فتقدَّم بصدقة بمالٍ كثير عنها وعن ولده »

وقالت لى أمُّ آسية : « لما كان يوم الأسبوع ـ ووقع قبل العيد بيوم واحدٍ ـ ، أمرت لى بخمسمائة دينار ، وحصل من أتباعها ألفُ دينار ، فحصل لى ألفان وخمسمائة دينار . وخلعت علىّ وسائر حَشَمها أكثر من ثلاثين خِلعةً ، وحُمِل إلىّ مما أُعِدّ للعيد ثلاث موائد خاصّة . وانصرفت إلى منزلى ، فأرسلتُ إلى أختى مائدةً ، ووافتنى مهنّئة ، وقد تقاصرَ خَطْوُها ، فأَرَيْتُها ما حصل لى من المال والخِلَع والطِّيب ، وقلت لها : « يا أختى ! أنكرتِ علىّ قولى : "أقرضينى" ومن هذا كُنْتُ أقضيك . فلا تستصغرى من كان اللهُ مادّته ، وعليه مَدارُ ثقتِه وتعويضِه »

واكتسبت هذه المرأةُ بمحلّها من أبى الجيش مالا كثيراً ، وقضت لجماعةٍ من وجوه البلد حوائجَ خطيرة

* * *

سند بن على والمجسطى

٧١ ـ وحدثنى شجاع بن أسلم الحاسب ، قال : قلت لسَنَد ابن علىّ : « من كان سببَك إلى المأمون ، حتى اتصلتَ به ، وكنت [فى جلسائه] من العلماء ؟ » . فقال : « أحدِّثك به :

« كان والدى يتكسّبُ بصناعة أحكامِ النجوم مع قومٍ من أسباب السلطان يَوَدُّونه ويحبّونه . وتعلّق قلبى بعد فراغى من

(١) كما تريه : تريد ، حين ترينه ، وقد مضى مثل ذلك فى ص (١٠)

قراءةِ كتاب أُقليدِس بكتاب المِجسطى (١) . وكان ـ فى أيام المأمون بسُوقِ الورّاقين ـ رجلٌ يُعرف بمعروفٍ ، يُورِّق هذا الكتابَ ويبيعهُ (٢) ـ بعد تكامُل خطِّه وأشكالِه وتجليدِه ـ بعشرين دينارا فسألت والدى ابتياعَه لِى ، فقال : « أنظِرْنى يا بُنَىَّ إلى أن يتهيّأ لى شىء آخُذُه (٣) ، إما من رزقٍ وإما من فضل ، وأبتاعُه لك

وكان لى أخٌ لا يشتهى مما [تقدمت] أنا فيه من العلم شيئاً ؛ إلّا أنه كان يخدُمُ أبى فى حوائجه والإشفاقِ عليه . فلما سَوّفنى أبى بالكتاب وطالتِ المدّة فيه ، ركبتُ معه لأمسك دابّته فى دخوله إلى من يدخُل إليه ، ولى إذْ ذاك سبع عشرة سَنَة . فخرج إلىّ غلمانُ من كان عنده فقالوا : « انصرف ، فقد أقام أبوك عند مَوْلانا » . فمضيت بالدّابّة فبعتُها بسَرْجِها ولجامها بأقلّ من ثلاثين ديناراً ، ومضيت إلى معروفٍ فاشتريتُ الكتابَ بعشرين ديناراً

وكان لى بيتٌ أخلو فيه ، وجئتُ إلى أمى فقلت لها : « قد جنيتُ عليكمْ جنايةً » ، واقتصصتُ عليها القصّة (٤) ، وحلفتُ لها : إن شَحَذْتَ أبى علىّ حتّى يمنَعُنى من النّظر فى الكتاب (٥) لأخرُجَنّ

(١) هذان الكتابان من أشهر كتب يونان المترجمة إلى العربية ، الأول فى أصول الهندسة ، والآخر فى الهيئة

(٢) ورّق الكتاب : نسخه وأعدّه كاملا للبيع

(٣) أنظره : أخّره وأجّله

(٤) اقتص الشىء : حكاه متتابعاً

(٥) شحذه عليه : حرضه عليه وأغضبه

عنهم إلى أبعد غاية ، ورَدَدْت عليها فَضْلَ ثمنِ الدّابة ، وقلت لها : « أنا أُغلق بابَ هذا المنزلِ الذى لى ، وأرضى منكم برغيف يُلْقى إلىَّ كما يُلْقى إلى المحبوسِ ، إلى أن أقرأه جميعَه » . فتَضَمَّنت لى بتسكين فَوْرَتِه ، ودخلتُ البيت وأغلقته من عندى . فمضى أخى إلى والدى فى الموضع الذى كان فيه ، فأسرَّ إليه الخبر ، فتغير وجهُه ، وتلجلجَ فى حديثه ، فقال له مَنْ كان عنده : « قد شَغَلْتَ قلبى وقلبَ مَنْ حَضَر بما ظهر منك ، فبحقى عليك إلا أخبرتنا لِم ذا ؟ » ، قال فحدثه ؛ فقال : « هذا والله يَسُرّنا فى ولدك ؛ فاتَّعِدْ فيه بكل جميل (١) » ، ثم استحضر من إسْطَبْله بَغْلا أفرهَ من بغلِ أبى (٢) ، وسَرْجاً خيرا من سَرْجه ، وقال لأبى : « اركَبْ هذا البغلَ ، ولا تكلِّم ابنَكَ بحرف »

قال سَنَد : « وأقمت ثلاثَ سنين كيومٍ واحد ، لا يرى لى أبى صورةَ وجه ، وأنا مُجِدٌّ حتى استكملتُ كتاب المجسطى . ثم خرجتُ وقد عَمِلت أشكالا مُسْتَصْعِبات ووضعتُها فى كُمى . وسألت : « هل للمهندسين والحُسّابِ موضعٌ يجتمعون فيه » ؛ فقيل لى : « لهم مجلس فى دارِ العباس بن سعيد الجوهرى ترْبِ المأمون ، يجتمع فيه وجوهُ العلماء بالهَيْئة والهندسة » . فحضرته ، فرأيت جميع من حضر مَشايخ ، ولم يكن فيهم حَدَثٌ غيرى ، لأنى كنت فى العشرين سنة (٣)

---

(١) اتعد : يريد انتظر فيه وعده بكل جميل
(٢) أفره ، من الفراهة : وهى نشاط الدابة وقوتها ! فهى فاره
(٣) الحدث : الصغير السن

« فقال العباس : « من تكون ؟ وفيمَ نَظَرتَ ؟ » فقلت : « علام يحبُّ صناعةَ الهندسة والهيئة » ، قال : « ماقرأتَ ؟ » قلت : « أُقليدس والمجسطى » ، قال : « قراءَة إحاطة ؟ » ، قلت : « نعم » . فسألنى عن شىء مستصعب فى كتاب المجسطى ، كان تفسيره فى الأوراق التى كانتْ فى كمِّى ، فأجبتُه . فعجب وقال : « مَنْ أفادك هذا الجواب ؟ » ، قلت : « استخرجتْهُ قَريحَتى ، وما سمعته من غيرى ، وهو وغيرُه فيما مرَّ بى فى وَرَقٍ معى » ، قال : « هاته » . فلما رآه اغتاظَ واضطرب ، ثم قال لبعض من بين يديه من غلمانه : « السَّفط » (١) ، فجىء به ، فنظر إلى خاتَمه فوجده بحاله ، ثم نَضَّه وأخرج منه كُرّاسةً فجعل يقابلُ بها الورقَ الذى كان معى ، فكان الكلامُ فيما معه أحسنَ رَصْفاً من الكلام الذى معى . والمعنى واحد

« فقال : « هذا شىءٌ توليْتُ تبيينَه من كتاب المجسطى ، فلما أحضرتنيه توهَّمتُ أنه سُرِق منى ، حتى تبيَّنْت اختلاف اللفظين مع اتفاق المعنى » . ثم أمر أن تُقطع لى أقْبية (٢) ، وتُرتاد لى مِنْطَقةٌ مُذَهبة (٣) ، ففرغ من جميع ذلك فى تلك الليلة ، ودَخل بى إلى المأمون ، وأمرنى بملازمته ؛ وأجرى لى أنزالاً ورِزْقا (٤)

* * *

---

(١) السفط : وعاء تعبى فيه الأشياء
(٢) أقبية : جمع قباء ، وهو ثوب تجمع أطرافه من أمام بأزرار
(٣) المنطقة : مايدور بالبطن كالحزام
(٤) أنزال : جمع نزل ، وهو الرزق

الرشيد وطبيبه

٧٢ — وحدَّثنى أحمد بن أبى يعقوب ، قال : حدثنى أبى :

« أنَّ جبريل بن بَخْتَيشوع كان يَخْلُف الأطبّاء فى دار الرشيد وكانت به نَزَاهةٌ ، وبه فاقة شديدةٌ ، ورزقه يومئذ ثلاثمائة درهم فى كل شهر . فوقع الرشيدُ فى غَشْية لم يتقدَّمْها علّة ، فأجمع الأطبّاء على أنه تالفٌ ، وأُخبر ابن بختيشوع ، فقال : « ماله إلّا علاج واحد وهو أن يَحْجِموه [1] » ؛ فقال محمد الأمين : « أخافُ أن أُخاطِر به » ؛ ثم قال « قد أيِسْنا منه ، والصواب أن نمتحِنَ هذا فيه » . فأحضروا الحجَّامَ لجمعَ الدم فى أخْدَعَيْه وهو مُسْتَلْقٍ [2] ؛ ثم أخرج من دمه مِحْجَمَتين ، ففتح الرشيد عينيه ، واستدعى طعامه ، وأكل ونام

فلمّا انتبه اقتَصَّ عليه المأمون ما جرى عليه [أمره ، وأذِن] للداخلين فى تهنئته بالسلامة . فلما اكتملوا قال لهم : « يامعاشر الأمراءِ والأطبّاء ! إنّما ارتبطتكم لِحِرَاسَةِ نفسى [3] ، وقد حَدَث علىَّ حادثٌ لم يُغْنِ عنّى فيه بعدَ الله عزّ وجل إلّا هذا الغلام ! ونصيبُهُ منّى نَزْر ، ونصيبكم وافرٌ ، فاَعدِلُوا مَيْل المملكة بأن يجعَل له كل رجل منكم نصيباً من إنعامى عليه وإحسانى إليه ، حتى يكون له من جماعتكم مايُوازى ماتقدّم عليه به فى حسن الدفاع عنّى »

---

(١) حجمه : أخذ من دمه وامتصه

(٢) الأخدعان : عرقان فى جانب العنق يؤخذ منهما الدم عند الحجامة

(٣) ارتبطه : اتخذه واستبقاه

فتسرَّع الناس إلى جبريل فأعطوه الضِّياع والدُّور والأموال . وما بَرِح حتى كان أيسر مَنْ فى المملكة ، وتربَّت النعمةُ لديه ووَلدِه حتى وازت نِعم الخلفاء

❊ ❊ ❊

عمرو بن عثمان والرشيد

٧٣ — وحدثنى عمرو بن محمد بن عمرو بن عثمان ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال :

« كان لى مجلس فى ديوان الإنشاء قليل الجدوى علىَّ ، وحالى حالٌ لا تنهض بما يحتاج إليه المُقْتصِد ، وقد لزمتْنى يمينٌ لا كفّارةَ لها فى تَرْكِ النّبيذ . فكان جماعة الكتّاب يجلسون ماجلَسَ الوزير ـ وهو يومئذ الفضل بن الربيع ـ ، فإذا انصرف إلى منزلِه ، انصرفوا إلى ماعقدوا عليه أمرَهم من الاجتماع ، وأقيمُ وَحْدى فى الديوان إلى أن يُغْلَق

فبكَرت إليه فى يوم من الأيام ، وجاءت مَطْرة تطرَّبَ الوزير فيها إلى الشُّرْب [1] ، لتشاغل الرشيد فى دعوةٍ لزبيدة ، فلم يَبْقَ فى ديوان الإنشاء غيرى . فإنى لجالس حَتّى دخل إلىّ خادمٌ من خاصّة الرشيدِ ، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى الرشيد . فلما مثلت بين يديه ، « قال اقرأ هذا الكتاب ! » ، فقرأتُه ، فبيّنتُه وأعربتُه فقال : « أجِبْ عنه بين يدىّ » ، فأجبت عنه بأحسن مَعانٍ وأجود لفظ . فقال : « اقرأه علىّ » ، فقرأته ، فقال لمسرور الكبير : « ألفَ دينار » . فجاء بها ، فقال : « ادفعها

---

(١) تطرّب إلى كذا : طرب

إليه ، وقُلْ للفضلِ يَصْرِفْ إليه ديوان الإنشاء [1] . فهو أحقُّ به ممَّن غادره » . ثم قال لى : « خذ هذا المال ، وسأنظر لك فى الوقت بعد الوقت مايزيدُ فى اصطناعى لك ، فلا يُفسِد الغنى ماأصلحتْه الفاقةُ من حُسْن ملازمتك ، واستزدْنى أزدْك »

قال عمرو : « فاجتهد الفضلُ بن الربيع أن يُشرِك بينى وبين من كان يتولَّى الإنشاء ، فلم يُطْلِق له الرشيد ذلك وأفردَنى به [2] ، حتى فرّقت الأيام بيننا »

خاتمـــة

كلمات للفلاسفة والحكماء

قال أبو جعفر قال بزرجُمهر : « الشدائدُ قبل المواهب ، تُشْبِه الجوع قبل الطعام : يَحْسُن به موقعه ، ويَلَذّ معه تناوُله »

وقال أفلاطُنْ : « الشدائدُ تُصلِح من النفس بمقدار ما تُفسِد من العيش ، والتّترّف يُفسِد من النفس بمقدار ما يُصلِح من العيش [3] »

وقال : « حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد ، واله عن كلّ صديق أهدَته إليك النعمة »

وقال أيضاً : « الترفُّه كالليل : لا تتأمّل فيه ما تُصدِره أو تتناوله

(١) صرف إليه كذا : ولاه إياه
(٢) أطلق له : أذن له
(٣) التترف : الترف والترفه فى العيش

والشدة كالنهار : ترى فيها سَعْيَك وسَعْىَ غيرِك »

وقال أرْدشير : « الشدَّة كُحْلٌ تَرَى به مالا تراه بالنِّعْمة »

* * *

خاتمة المؤلف لهذا الباب

وملاك مصلحة الأمر فى الشدة شيْئان : أصغرهما قُوَّةُ قلب صاحبِها على ماينُوبه ، وأعظمُهما حُسْنُ تفويضه إلى مالكه ورازقه

وإذا صَمَد الرجل بفكره نحو خالقِه [1] ، علم أنه لم يمتحنْه إلا بما يُوجِب له مَثُوبة ، أو يُمَحِّص عنه كبيرةً [2] ، وهو مع هذا من الله فى أرباحٍ متصلة ، وفوائد متتابعة

فأما إذا اشتدّ فِكْرُه تلقاء الخليقة ، كثُرت رذائله ، وزاد تَصَنُّعه ، وبَرِم بمُقامه فيما قصر عن تأميله ، واستطال من المِحَن ماعسى أنْ ينقضىَ فى يومه ، وخاف من المكروه ماعلّه أن يُخطِئه

وإنما تصدُق المناجاةُ بين الرجل وبين ربِّه لعلمه بما فى السرائر ، وتأييده البَصائر . وهى بين الرجل وبين أشباهه كثيرة الأذِيَّة ، خارجة عن المصلحة

ولله تعالى رَوْح يأتى عند اليأسِ منه يُصيب به من يشاء من خَلْقِهِ [3] ، وإليه الرَّغْبةُ فى تقريب الفَرَج وتسهيل الأمرِ ، والرجوع

(١) صمد إلى كذا : قصد وتوجه ومضى إليه
(٢) محص عنه الذنب : نقصه وأسقطه عنه
(٣) الروح : رحمة الله ، فإن الراحة كلها معها

إلى أفضل ما تطاول إليه السُّؤْل ؛ وهو حسبي ونعم الوكيل

تمَّ الكتاب

والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد النبي وعلى آله وعترته الطاهرين وسلامُه

فهرس الأعلام

ا

ب

ن

هـ

و

ى

فهرس الأماكن

فهرس الكتاب

رقم | صفحة

٢ – المكافأة على القبيح

رقم | صفحة

٣ – حسن العقبى



الجامعة المصرية

كلية الطب

المؤلف رقم ٤

منتخب كتاب جامع المفردات

لأحمد بن محمد بن خليد الغافقى

المتوفى نحو سنة ٥٦٠ ﻫ

انتخبه

أبو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبرى

المتوفى فى سنة ٦٨٤ ﻫ

نشره مع ترجمته الانجليزية وشروحات

الدكتور ماكس مايرهوف ، الدكتور جورجى صبحى بك

الرمدى بالقاهرة — الأستاذ بالجامعة المصرية والطبيب بمستشفى قصر العينى

القسم الثالث من الجزء الأول : حرف الدال

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٨

(حرف الدال)

حرف الدال

٢٣٢ — دار صينى : تأويله بالفارسية شجرالصين . (اسحق بن سليمان) الدارصينى على ضروب فمنه الحقيق المعـروف بدار صينى الصين ومنه الدون وهو الدارصوص ومنه المعروف بالقرفة على الحقيقة ومنه المعروف بقرفة القرنفل . فأما الدارصينى الحقيق بجسمه أشحم وأثخن واكثر تخلخلا من[1] جسم القرفة كأن لحمه يكون على ثخن الخنصر مع دهنية تظهر منه عند مضغه ودقه . واما لونه فمتوسط بين حمرة القرفة وسواد القرنفل الا انه الى القرفة أميل وبها أشبه لأن حمرته أقوى من سواده واظهر وأما لون سطحه فيقرب من لون سطح السليخة الحمراء . وأما طعمه فاول مايدرك منها حرافة مع قبض يسير يتبعه حلاوة ثم مرارة وزعفرانية مع دهنية خفية واما رائحته فكرائحة القرفة على الحقيقة واذا مضغته ظهرلك منه شيء من رائحة الزعفران مع يسير من رائحة النيلوفر . واما الدار صينى الدون بجسمه يقرب[2] من جسم القـرفة على الحقيقة فى خفته وتخلخله وحمرة لونه الا أن حمرته أقوى ولونه أشرق وجسمه أرق وأصلب وأعواده ملتفّة دقاق مقبضه شبيهة بأنابيب قصب السياج[3] الا أنها مشقوقة طولا غير ملتحمة ولا متصلة ورائحته وطعمه مشابهة لرائحة القرفة وطعمها فى زكائهماوعطريتهما وحرافتهما الا أن الدارصينى أقوى حرارة وأقل حلاوة وعفوصة . وأما القرفة الحقيقية فمنها غليظ ومنها

29 v

دقيق وكلاهما أحمر أملس مائل الى الحلوقية قليلا وظاهره خشن أحمر اللون الى البياض قليلا على لون قشر السليخة ورائحتها زكية عطرة فى طعمها حدّة وحرافة مع حلاوة يسيرة . وأما المعروف بقـرفة القرنفل فهى رقيقة صلبة الى السـواد غير متخلخلة ورائحتها وطعمها كالقرنفل وقوتها كقوتها الا ان القرنفل أقوى قليلا .

---

(١) ت و غ : ومنه (٢) ت و غ : يعرف (٣) ت : السياح

(ذ آ) قينامومن (١) هو الدار صيني. أجود أصنافه المسمى موسولون يشا كل السليخة المسماة موسوليطيس يسيرا وأجود هذا الصنف الحديث الأسود الى لون الرماد مع لون الحمرة جدا طيب الرائحة العارى عن رائحة السذاب والقرد مانا يملاء الخياشيم من رائحته. ومنه مايكون جبليا غليظا قصيرا ياقوتيا (٢) ومنه صنف ثالث قريب من الأول أسود أملس متشظّ قليل العقد . ومنه صنف رابع ابيض رخـو خشن النبات له أصل هين الانفراك كبير . ومنه صنف خامس رائحته كرائحة السليخة ساطع الرائحة ياقوتى اللون قشره كقشر السليخة الحمراء ليس بمتشظّ جدا غليظ الأصل . فما كان من هذه الأصناف رائحته شبيهة بالكندر أو بالآس او بالسليخة وكانت عطريته مع زهومة فهو دون الجيد وأخص الابيض والأجرب ومنكمش العيدان وما كان أملس خشبيا والق الأصل فانه لا ينتفع به . وقـد يوجد شيء آخر كالدارصيني يسمى دار صينيا كاذبا خشن النبات ضعيف الرائحة والقوة ومن قرفة الدارصيني مايسمى زنجبرياً (٣) يشبه الدارصيني فى المنظر الا انه زهم الرائحة وأما المسمى كسولوقينامومون المعروف بالقرفة فانه كالدارصيني فى اصله و كثرة عقده وهو خشب له عيدان طوال شديدة وطيب رائحته اقل كثيرا من الدارصيني وقيل ان القرفة جنس آخر غير الدارصيني وإنما هو من طبيعة أخرى. (ج ز) هذا الدواء فى الغاية من اللطافة وليس فى غاية الحرارة بل هو فى اول الثالثـة وأما قرفة الدارصيني فكأنها دارصيني (٤) ضعيف و بعضهم يسميه دارصيني دون . (ذ) وقوة كل دارصيني مسخّنة مدرّة مليّنة منضجة موافقة من السموم ونهشة الهوام ويجلو ظلمة البصر . وقد يوجد شيء آخر يسمى قينا موميس (٥) ويسمى أيضا سليخة كاذبة خشن الشعب جدًا وأغلظ عيدانا من الدارصيني وهودون الدارصيني بكثير فى الرائحة والطعم .

٢٣٣ — دار شيشغان : هو نوع من الحولق (٦) متشجر طيب الرائحة ينبَت فى بعض السواحل ويسمى القندول وبالبربرية أزروى (٧) . (ذ آ) اسفالاثوس وقـد يسمى اروسيسقيفطرون وفاسغانون والسريانيون يسمونه عيدان الناردين

---

(١) كذلك فى ت و غ (٢) ت و غ : جدا قويا (٣) ت : زنجيا غ : زبجيا

(٤) هاتان الكلمتان ناقصتان فى الأصل (٥) ت : ثاموميس غ : ماموميس

(٦) ت : حولق (٧) غ : ارزوى

هوثمنس ذو غلظ يدخل بغلظه فيما يسمى خشبا فيه شوك كثير يكون فى بلاد إسوروس (١) وروذيا ويستعملها العطارون فى تعفيص الأدهان . أجوده الرزين الذى اذا قشر يرى لونه الى لون الدم ما هو أو الى لون الفرفير كثيفا طيب الرائحة فى طعمه شيء من المرارة. ومنه صنف آخر أبيض ذو غلظ خشن عديم الرائحة وهو دون الأول. (ج و) قوته مركبة من

30 r

أجزاء غير متشابهة وذلك بانه بأجزائه الحادة الحريفة يسخن و باجزائه الضابطة مبرد و بكلتيهما مجفف ينفع من القروح المتعفنة . (لى) الدار شيشغان اسم فارسى يسمى بالسريانية قيسادنردين أى عود السنبل وإنما يريدون به أنه عود تشبه رائحته رائحة السنبل والناس يستعملون عندنا بدله عود الجولق بالجيم ومنهم من يستعمل زهره وهولاء مخطئون لان القـدماء إنما ذكروا أن الجولق خشب لا أنه زهر والصحيح انه نوع من الجولق وكأن الجولق صنف منه ردىء واخلق به أنه الصنف الذى ذكره ديوسقوريدس الذى ليست له رائحة والجولق شجر له أصناف كثيرة منـه كبير جدا وأكثرها لا ورق له ومن أصـنافه ما يكون له ورق لطاف صغار فيما بين الشوك يكون كصغار ورق الآس و يجمعها زهر أصفر ومنها ما لزهره رائحة طيبة ومنها مالا رائحة له ومنها ما يخلف خراريب صغار فيها بزر ومنها ما يعقد حبا كحب العرعر و يميل عنه . والدار شيشغان من هذه الاصناف منه ما هو شوك كله بلا ورق واغصانه كثيرة قصار تخرج من أصل واحد وهـو متدوّح كأنه قفة شوك أفرغت فى الأرض أخضر كخضرة ورق الكرنب ولون أغصانه أحمر الى الفرفيرية وفيه عطرية . ومنـه ما يقوم على سـاق وله خشب غليظ صلب خارجه أصـفر وداخله أحمر عطر الرائحة وشوكه حديد دقيق كثيف وقضبانه دقاق متدوحة فى اعلى ساقه و يعلو شجره من القامة و بين أضعـاف الشوك ورق دقيق جدا أو زهر اصفـر ذهبي وخراريب صغـار فيها ثلاث حبـات لاطية لونها أصفـر . وينبت فى جبال مظللة بالشجر ولحبه عطرية عجيبة وهـو ألطف من الصنف الذى

---

(١) غ : داسوروس

ذكرناه قبله . وأكثر نبات هذين الصنفين فى السواحل فهذا الذى نعرفه وهو موافق لما وصف ذيوسقوريدس وغيره من القدماء وأما يونس بن تميم فانه قال أن الدارشيشغان عند صيادلة أهل العراق هو شجر الرمان المصرى وله خشب أصفر صلب عطر وله ثمر يسمى البُل وما داخله يسمى اللبّ وهو دواء يحبس الطبيعة وينفع من الحميات .

٢٣٤ — دُلْب : (ابن سمجون) هو الصِّنار بالفارسية معربا وأصله چنار وهو شجر جبلى عظيم ورقه مشرف كورق الكرم وعوده أبيض الى الحمرة رخو قشره شديد العفوصة وبه تدبغ الجلود بقرطبة ويسمونه بالقشر علما له دون غيره . (ابن عمران) قشره غليظ أحمر وله نوار صغير متخلخل خفيف أصفر اذا سقط أخلف حبا أصفر الى الحمرة والغبرة كحب الخروع . وأكثر ما ينبت فى الشغارى[1] الغامضة وفى بطون الأودية . (ذ آ) أبلاطونوس طبيخه ينفع من وجع العين ضمادا والاسنان مضمضه ومن نهش الهوام شربا . (ج ح) طبيخ لحاء هذه الشجرة بخلّ

30 v

ينفع من وجع الأسنان وجوزها مع الشحم ينفع حرق النار . والغبار الذى يلصق بورقها ضار جدا لقصبة الرئة اذا استنشق ويضر بالبصر والسمع ان وقع فى العين والأذن .

٢٣٥ — دَردار: أهل الشام يسمون هذه الشجرة دردار[2] وأهل الأندلس البشم[3] الأسود وأهل العراق شجرة البق . (ابن سينا) هى شجرة يخرج فيها أقماع منتفخة كالرمانات فيها رطوبة تصير بقا فاذا أنفقت خرج البق . (لى) البق عند أهل العراق هو الباعوض وأما الذى يسمى عندنا بقا فانهم يسمونه الأنجل . وهذه الشجرة تعرف عندنا بالبشم الأسود وهى شجرة عظيمة ورقها مستدير أخضر الى السواد جعد الجوانب وخشبه أحمر الى السواد . (ج ح) ورقها يدمل الجراحات الطرية ولحاؤها أشد برودة وقبضا . (ذ آ) بطاليا وهو البشم الأسود . قشرها يجر

(١) لعله عند ابن البيطار : الصحارى (٢) غ : دردر (٣) كذا فى ت وغ وفى نسخ جامع ابن البيطار : النشم والبقم والشقم والخ

أو بماء بارد يسهل بلغما واذا صُيّر على العظام المنكسرة طبيخ أصلها أو ورقها ألحمها سريعا والرطوبة التى فى غلف ثمرتها اذا لطخت على الوجه جلته وهى التى اذا جفت تولد منها حيوان شبيه بالبق .

٢٣٦ — دادين : ويقال دادى . هذا شجر معروف عندنا بهذا الاسم وهو شجر عظيم له ورق مستدير كورق الخبازى الا انه امتن[1] وأصلب وأشد ملاسة وله زهر أحمر علكى[2] اللون يظهر فى الربيع قبل خروج الورق يتكاثف على الأغصان حتى لا يكاد يبدو منها شىء . وله خروب[3] صغير فى قدر أصبع لاطية فيها حب عدسى الشكل خمرى اللون وزعم قوم أن هذه الشجرة هى الدادى الذى يخمر به الأنبذة فى العراق يجمع زهره ويجعل فى الشراب فيشتد سكره ويؤكل زهره أيضا ويتنقل عليه مادام غضا . وزعم آخرون أن الدادى الذى يجعل فى النبيذ انما هو حب كحب الشعير إلا أنه أرق وأطول أدكن اللون الى السواد ما هو مرّ الطعم يجعل فى نبيذ التمر فى بغداد فيشده ويقوى سكره ويمنع من الحموضة وذكر هذا ابن سينا وغيره. وزعم بعضهم أنه الاشخيص الأسود. (وقال حنين) أن الهيوفار يقون هو الدادى الرومى. وأصله بالبربرية اداد والدادى أيضا مصابيح تتخذ من الخشب الدسم الخفيف كخشب بعض أصناف الصنوبر فانه لدسمه ينفذ فيه النار ويكون بمنزلة الشمع والمصابيح فتسمى هذه المصابيح الدادى وأصل هذه الكلمة بالرومية طاطُس . والدادى هو أيضا القطران الصافى الذى يسمى أيضا دادى . (ابن ماسويه) الدادى بارد فى الثانية يابس قبّاض[4]. (غيره) الدادى حار يابس يحس من شربه بحرارة واحمرار فى الوجنتين وسدر . (المجوسى) أجود الدادى ما كان أحمر حديثا طيب الرائحة وهو بارد يابس الا أن فيه مرارة توجب بعض الحرافة وفيه قبض واذا شرب منه درهمان مع سكر نفع من البواسير[5] .

(١) ناقص فى غ (٢) ناقصة فى غ (٣) ت وغ : حروف (٤) غ : قابض
(٥) ت : يحسن ، غ : ناقصة .

من كتاب الصيدنة لأبى الريحانى البيرونى (من النسخة المحفوظة بكتبخانة بروسه) :

(أرجوان) قال حمزه : هو معرب أرگوان شجرة ذات حمل أحمر ويقال لها أيضا داذاروان وفى النسخة داراروان . والذى نراه من شجرة الارجوان أنها لا تبسق والزهر عليها مزدحم أحمر ناصع فيه فرفيرية يستحسن منظرا . وليست له ثمره غير ما به توليد المثل بالبرى وهذا اللون فى الملابس مما كانت القياصرة تختص به فيما مضى وتحظره على غيرهم وأصحاب اللغة يحملونه على ما اشتدت حمرته وقيل أن شجر الداذى أشبه شىء .
وهذا عندنا أعرف من شجر الداذى .

٢٣٧ — دَوْم : (أبو حنيفة) هى المقل وهى شجرة يعلو لها خوص كخوص النخل ويخرج أفنانا كأفنانها فيها المقل . ويقال لخوصها الطفى وهو قوى متين يصنع منه حصر وغدائر . وثمره المقل ورطبه البهش ويابسه الخشى وسويقه الخشل (غيره) ثمر عفص

31 r

حابس للبطن وجمّاره بارد يابس يغذ ويسير عسر الانهضام مقو للمعدة واذا طبخ أو شوى لطف جوهره وقل ضرره .

٢٣٨ — دُخْن : (ذ ب) أيموس وهو أقل غذاء من الجاورس وأقل قبضا . (ج و) هذا جنس من الحبوب ومنظره شبيه بمنظر الجاورس وقوته كقوته غير أن غذاءه أقل من غذاء الجاورس .

٢٣٩ — دُلّاع : هو البطيخ السندى والهندى وهو بارد رطب غليظ بطىء الاستمالة جدا مطفىء لحرارة المعدة مولد دما غليظا يابسا وبلغما رطبا .

٢٤٠ — دبيداريا : (الفلاحة) هى بقلة حريفة هندية تقوم على ساق خشبى غير غضّ ويطلع على الساق شبيها بالأغصان رطبه يعلو ذراعا شبهه بورق البهار شديدة الخضرة ويخرج فى الربيع جوزا كجوز القطن من غير ورق(١) يتقدمه فيها بزر مدور أغبر يستعمل فى الطبيخ ويكون طيبا وفى طعمه حرافة مع مرارة يسيرة ويستاك بخشبها فينفع اللثة ورائحتها كرائحة الأبهل لكنها أضعف. ويوافق أصحاب الفالج واللقوة والنقرس وربما أكلت باللبن .

(١) فى نص ابن البيطار بدله : ورد

٢٤١ — دواغريا : (الفلاحة) هو قضيب ينبت بين الصخور وفى الأرض البرّية(١) الصلبة يعلو شبرا وهو مصمت الداخل أخضر تشوبه صفرة يسيرة وعليه زغب من أسفله الى أعلاه ولون زغبه الى الصفرة. وله فى رأسه أربع ورقات مربعة الشكل يضرب الى البياض فى خضرة وفوقها شىء ثابت فيه بزر بغير ورد رائحته طيبة . وهو جيد للمعدة مدر وربما أسهل البطن اذا أكل نيا لا مطبوخا مطيب للجشاء (٢) .

٢٤٢ — دَرونَج : هو الحباس . (ابن عمران) عروق بيض فى نحو قضبان العناب يؤتى بها من الصين يدخل فى الأدوية الكبار المعجونة . (ابن سينا) الدرونج قطع خشبية أصولية مقدار العقد وأصفر أبيض الباطن أغبر الخارج الى الصلابة والرزانة حار يابس فى الثالثة . (لى) هذه صفة الدرونج المستعمل عندنا وينبت عندنا كثيرا وهو صلب المكسر مرّ الطعم فيه عطرية يسيرة . وأما الصفة التى ذكرها اسحق بن عمران فلم نرها . (مسيح) حار يابس فى الثالثة ينفع من لسع الهوام . (ماسرجويه) ينفع من الرياح النافخة . (وقال فى الجامع) أنه ينفع من وجع الحلق والفم والمرة السوداء . (غيره) أجوده الخرسانى ثم الشامى .

٢٤٣ — دا الجَبْرونج: ويقال دانَج ابْرُونج (٣) وهو الحب الذى يعرفه الصيادلة عندنا بالفلفل الأبيض وهو معروف بالمشرق بهذا الاسم . (المجوسى) هو حب يُؤتى به من جبال فارس مثلث الشكل حار فى الأولى يزيد فى المنى .

٢٤٤ — دُوقو : (ذ ج) أصنافه ثلاثة منه ما يسمى قريطيقوس (٤) ورقه كورق الرازيانج الا أنه اصغر منه وأدق طولها نحو من شبر واكليله كاكليل الكسفرة وزهره أبيض فيه ثمر أبيض حريف عليه زغب اذا مضغ (٥) كان طيب الرائحة عطرها طيب وأصله غليظ كالأصبع طول شبر ينبت فى المواضع الصخرية الشامسة . ومنه صنف ثان يشبه الكرفس طيب الرائحة عطرها حريف فيه ثمر

(١) فى ت و غ : الخصبة وهذا خطأ ونحن استخرجنا المعنى " البرية " من نص الادريسى
(٢) ت : للحشاء غ : الحشا . (٣) كذا فى غ ، وفى ت : ابرونج . (٤) ت و غ : قويطيقون .
(٥) ت و غ : وضع .

يحذى اللسان . والاول أجودها . ومنه ضرب ثالث ورقه كورق الكزبرة وزهره أبيض وله رأس وثمر كرأس الشبث وثمره واكليله كاكليل الجزر (١) مملوء بزرا طويلا كالكمون حريفا . (ج و) بزره حار قوى الادرار . (ذ) بزر هذه الاصناف

31 v.

كلها تسخن وتدر وتسكن المغص والسعال المزمن والصنف منه المسمى قريطيقوس (٢) قد يشرب أصله أيضا بالخمر لضرر الهوام . (غيره) ينقى الرحم ويعين على الحبل ويذهب شهوة الجماع وإذا خلط ببزر الكرفس قوى فعله .

٢٤٥ — دِبْق : (ذ ج) ايكسوس . اجوده الحديث الذى لون باطنه شبيه بلون الكراث ولون ظاهره الى الحمرة ليس فيه خشونة ولا نخالة . وانما يعمل من ثمرة مستديرة تكون فى شجر البلوط التى ورقها كورق بوقسيس (٣) وهو الشِمْسار بان يدق ثم يغتسل ثم يطبخ بماء . ومن الناس من يعمله بان يمضغ الثمرة وقد يكون فى شجرة من شجر التفاح والكمثرى وغيرهما وقد يوجد عند أصول بعض الشجر الصغار . (ج ق) مركب من جوهر هوائى ومائى يجتذب الرطوبة الغليظة من عميق البدن ويلطفها ويذيبها ويحللها . (ذ) قوته محللة ملينة جاذبة .

٢٤٦ — دَلَبُوث : (٤) هو المعروف بسيف الغراب . أكثر نباته بالمزارع وله بصلة بيضا مُصمتة عليها ليف وليس لها طاقات يطبخ باللبن ويؤكل وهى اذا كانت نيةً مُرّة عفصة . (ذ د) كسيفيون وقد يسمى فسغانيون وماخاريون (٥) أى السيفىّ لمشاكلة ورقه للسيوف وورقه يشبه ايرسا الّا أنه أصغر منه وأرق وهو دقيق الطرف كالسيف وله ساق نحو من ذراع عليه زهر مُصفّف متفرق فرفيرى وثمر مستدير وله أصلان احدهما مركب على الآخر كانهما بصلتان صغيرتان والأسفل منه ضامر والآخر ممتلىء وأكثر ما ينبت فى الأرض العامرة . (ج ذ) أصله خاصةً الأعلى جاذب لطيف محلل مجفف . (ذ) اذا شرب بالشراب حرك شهوة الجماع ويقال أن الاصل السفلى اذا شُرب قطع شهوة جماع النساء .

(١) ت و غ : الجوز . (٢) ت و غ قريطينيون . (٣) كذا فى الأصل ، لعله بوقسوس .
(٤) فى ت و غ : دلبوب . (٥) ت : ماخاريون ، غ : ماقاريون .

٢٤٧ — دُورُقينون : (ذ د) قراطاوس يُسميه اليقاقافون وقاليا وهو ثمنس يشبه شجر الزيتون أول ما يغرس وله أغصان طولها أقل من ذراع ولون ورقه كلون ورق الزيتون الا أنه أطول منه وأرق وهو خشنٌ حداء وله زهر أبيض وفى اطرافه غلفٌ كثيفة كأنها غلف الحمص فيها بزر مستدير خمس أو ست فى قدر حب الكرسنة الصغار ملس صلبه مختلفة اللون . وله أصل فى غلظ أصبع وطول ذراع وينبت فى صخور قريبة من البحر . ومزاجه كمزاج الخشخاش واليبْرُوح ولذلك يسيره يسبت وكثيره يقتل .

٢٤٨ — دِفْلَى : (ذ د) رُوذوذَفْنى وقد يسمى نيريون (١) وروذوذ اندرون . ثمنس معروف له ورق شبيه بورق اللوز إلا أنه أطول وأغلظ وأخشن وزهره كورق الورد أحمر (٣) وحمل شبيه بالخروب الشامى يفتح فى جوفه كالصوف مثل ما يظهر فى زهره أقنثيون (٤) وأصل حاد الطرف طويل مالح الطعم وينبت فى البساتين والسواحل . (ج ح) حار فى الثالثة يابس فى الأولى قوى التحليل من خارج واذا تناوله الانسان والبهائم قَتَل . (ذ) قوة زهره وورقه قاتلة للكلاب والحمير والبغال واذا شرب بالشراب خلّص الناس من نهش ذوات السموم . (ماسرجويه) عصير ورقه ينفع من الحكة والجرَب طلاءً . (ابن ماسه) ورده صالح لأوجاع الأرحام . (الرازى) جيد لوجع الركبة والظهر المزمن العتيق ضمادا . (غيره) اذا رُش البيت بطبيخه قتل البراغيث .

٢٤٩ — دَوْسَر : (٥) (ذ د) آغيلُبْس حشيشة ورقها كورق سنبل الحنطة إلا أنه ألين منه وفى طرفه

32 r.

ثمرة فى غلافين أو ثلاثة ويظهر فى جوف الغُلف شئ فى رقة الشعر . (ج و) محلل فى طعمه حَرارة يسيرة . (اريباسيس) يذهب بداء الثعلب .

(١) ت و غ : نيذبون (٢) ت و غ : روذوايدون (٣) كذا فى الأصل (ت و غ) ، وقال ابن البيطار (جزء ٢ ص ٩٣) : وزهره شبيه بالورد الأحمر (٤) ت و غ : أو اقنثيس
(٥) ت و غ : دوس

٢٥٠ — درُوبْطارِس : هو المعروف بالغال . (ذ دَ) نبات ينبت فيما يعتق من شجر البلوط وهو كالنبات المسمى بُطارِس غير أنه أصغر منه بكثير وتشرفه أيضا أصغر من تشرفه وله عروق مُشبكة بعضُها ببعض ذات زَغب عفصة الطعم مع حلاوة ومرارة . (ذ) اذا سحق مع عروقه وضمد به حلق الشعر . (ابن سينا) ينفع من الفالج .

٢٥١ — دَنْد : زعم ابن جلجل وابن الهيثم انه الماهُودانه وغلطا(١) فى ذلك وعلى هذا الرأى أطباء زماننا أكثرهم وقد ذكر أبو جريج الراهب وحبيش بن الحسن ومحمد بن زكريا وغيرهم الدند والماهودانه جميعا بصنفين (٢) مختلفين . (أبو جريج) الدند ثلاثة أصناف صينى كبير الحجم شبيه بالفستق ، وشَحَرى (٣) يشبه حب الخروع إلّا أنه منقط بنقط سود صغار ، وهندى متوسط القدر بينهما ولونه أغبر الى الصفرة . أجودها الصينى وأقواها فى الاسهال والهندى أصلح من الشحرى(٤) وأعلم أنه على طول الزمان يصغر الذى فى جوفه حتى ينفذ خاصة فى غير بلاده . (عيسى بن على) طعمه كطعم اللوز المر وفى داخله لسان كلسان العصفور وهو السم . (حبيش) هو دواء إن لم يحترس منه قتل وإذا أصلح بأن يُقسَرُ قسرُه الأعلى ويدق اللسان الدقيق الذى فى داخله ويخلط بعصارة الغافت أو الافسنتين أسهل الخام ونفع من أوجاع المرة السوداء والبلغم ويمنع الشيب والشربة منه للأقوياء من دانقين الى نصف درهم . وأهل الهند يخلطونه فى أدويتهم الكبار المعجونة والأُصْطُماخيقونات وغيرها من الأدوية المسهلة لأن بلدهم أعدل الأقاليم السبعة يحتمل فيها الدند وأما البلدان الشديدة الحر فلا يحتمل فيها شربه ولكن يصلح فى البلدان الباردة . وينبغى أن يختار منه الصينى الكبير الحب والهندى الذى دونه فى القدر وأما الشحَرىّ الصغير الحب فلا أرى سقيه البتة .

٢٥٢ — دُخان : (جَ زَ) كل دخان فهو مجفف لأن جوهره أرضى لطيف ودخان الكندر يدخل فى أخلاط أدوية العين الوارمة مع قرحة وكذلك دخان البطم والمر ودخان الميعة أقوى من هذه ودخان الزفت الرطب أقوى وأقوى منه دخان القطران .

(١) ت : غلط (٢) غ : بصفنين (٣) ت و غ : شجرى (٤) ت و غ : الشجرى

٢٥٣ — دُرْدى : (ذ دَ) (١) اجوده ما كان من عتيق خمر ايطاليا ودُردى الخلّ قوى جدا وينبغى أن يحرق بان يصير فى إناء فخار جديد ويلهب تحته نارا قوية حتى يبيض لونه . وهو يجلو ويقلع اللحم الزائد فى القروح ومع الراتينج يحمّر الشعرُ لطخا .

٢٥٤ — دَهْنَج : (٢) (كتاب الأحجار) حجر يتكون فى معادن النحاس أخضر فى لون الزبرجد ولا يتكون إلا فيها كما لا يتكون الزمرد إلا فى معادن الذهب . وهو ألوان فمنه الأخضر ومنه كانه الوشى ومنه الطاووسى ومنه الكَبِدُ وربما أصيبت هذه الألوان فى حجر واحد . وهو حجر رخو يخرطه الخراط وإذا صُنع منه شئ أو نقش عليه نقش ومرت به شهور غاب نوره واندرس . وإن سق من محكه شارب السم نفعه وإن شرب منه من ليس به سم أنكاه

32 v.

وألهب بدنه ولا يكاد يبرى منه سريعا . وإن مسح على موضع لسع العقارب سكنه وهو حجر يصفو مع صفاء الجو ويتكدر مع كدورته .

٢٥٥ — ديفروغيس (٢) : (ذ هَ) هو ثلاثة أصناف منه معدنى لا يكون إلا فى قُبْرُس يخرج من بئر فيها كالطين ثم يجفف فى الشمس ثم يحرق ومنه آخر كانه عكر النحاس وطعمه ومنه آخر يعمل بأن يؤخذ الحجر المسمى فوريطيس وهو المرقشيثا ويطبخ فى أُتون كالكلْس الى ان يتلون بلون المَغْره . وأجوده النحاسى الطعم والزنجارى وقد يحرق المغرة وتباع بحسب الديفرُوغيس . (جَ طَ) فى قوته وطعمه قبض وحِدّة تنفع الجراحات الخبيثة وقروح الفم مع عسل . (غيره) ينشف قروح الرأس الرطبة .

٢٥٦ — دَمّ : (جَ ىَ) دم الحمام اذا صير فى الشق الذى أصاب عظم الرأس أبراه وكذلك دم الورشان والفاختة واليمام والشفانين . فأما أنا فقد استغنيت عنها كثيرا بدهن الورد المسخن قطرته فى الشق . وأما ما يقال ان دم الخفاش

(١) ت و غ : ذ دَ (٢) هذا الباب ناقصه فى النسخة الخطية المحفوظة فى غوتا (غ) .

إدا طُلى على ثدى الأبكار حفظها على نهادتها فوجدته باطلا وكذلك ماقيل أنه يمنع نبات الشعر فى الأبط و كذلك ماقيل أن دم الخرفان يمنع الصرع ودم المعز إذا شوى نفع من استطلاق البطن. (كْسَنوقراطيس) دم الجدى نافع من الصرع ودم الدُبّ وهو حار ينضـج الأورام . وكذب من قال إن دم الضفادع الخضر يمنع نبـات الشعر الزائد فى الأجفان وكذلك من زعم مثل ذلك فى دم القردان الكلبية . وقيل إن دمِ الجراذين يحدّ البصر تركت تجربته لقذره وكذلك لم أجرّب دم الخيل وذكروا أنه يُعفّن ويحرق الدم . وقيـل إن دم الفار يقلع الثاليل المسـاميرية . (ذَ بَ) دم الأوزّ والجدى وبط المـاء ودم الورشـان والشفانين والحمـام والجل يكتحل به لجراحات العين وكُمْنةُ الدم فيهـا ودم التيس والعنز والأبل والأرانب مقلو ينفع من قرحة الأمعاء وبالشراب ينفع السمّ المسمّى طوكسيقون ودم الكلاب يوافق عضة الكلب وسم طوكسيقون ودم السُلْحفاة البرية يوافق الصرع شربا .

٢٥٧ — دماغ : (ذَ بَ) دماغ الأرانب اذا شوى وأكل نفع من الارتعاش ودماغ الدجاج اذا شرب بشراب نفع من نهش الهوام الخبيثـة ويوافق نبات الاسنان للاطفال . (جَ يَا) (١) دماغ الضفادع المحرقة يقطع إنفجار الدم وينفع فى داء الثعلب مع الزفت الرطب . (غيره) الأدمغة صالحة فى سقى السموم ونهش الحيوانات اذا أكلت .

٢٥٨ — دجاجِ : (جَ يَا) مرق الدجاج يصلح للرياح ومرق الديوك العتيقة يطلق البطن. (ذَ ب) الدجاج اذا شقت ووضعت وهى سخنة على نهش الهوام نفعت منه وينبغى أن يبدل فى كل وقت . ومرق الفراريج ساذجا يعدل الأبدان السقيمة . (غيره) لحم الدجاج الفتى يزيد فى العقل ويصفى الصوت .

٢٥٩ — دود القِرمِز : (ذَ دَ) وقد يوجد فى شجر البلوط فى بلاد قيليقيا شيء صدفى صغير يشبه الهلزون ويجمعه النساء بأفواههن ويسمونه قوقوس بافيقوس. (جَ زَ) (٣) اذا أخذ هذا من الشجر وهو رطب طرى فهو يُبرد ويجفف فى الدرجة الثانية لأن فيه شيئا يقبض قبضا معتدلا .

---

(١) ت وغ : ى . (٢) هذه الكلمة ناقصة فى ت وغ : (٣) ث وغ وابن البيطار : ح وهذا خطأ

٢٦٠ — دود البَقل : (ذَ بَ) اذا تلطخ بالزيت منع المتلطخ

33 r.

من نهش ذوات السموم .

size of a pea ; they then develop an abundance of red colouring matter which is the precious crimson dye-stuff *kermes*. This name is derived from Persian (perhaps originally Turkish) *qirmiz*, and is adopted in all the European languages in a more or less mutilated form (crimson, cramoisi, Karmin, etc.). According to DIOSC., in antiquity Greek women collected the cochineals by sucking them off the trees ; to-day they scrape them off with the nails, dry them in the sun, during which procedure they shrivel considerably, and export them to Egypt, Tunis and elsewhere. In recent times this industry is annihilated by the overwhelming production of aniline compounds [1].

Fifty years ago, the kermes cochineals were still an official drug in many lands. " animal kermes " was distinguished from " vegetable kermes " (the berries of the vermilion plant, *Phytolacca Decandra L.*), and the former was sold in drug-stores as *Grana Kermes* or *Alkermes*, and a syrup as well as a confection made of it were in use. Most of the Oriental medical writers mention the kermes berries as a remedy, without adding anything to the description given by the Greeks.

SYNONYMS : Gr. : κόκκος βαφικός (*kókkos baphikós, i.e* " dyeing grain ") ; Lat. : coccum (PLINY) ; Ar. : *qirmiz* قرمز , *dûd al-qirmiz* دود القرمز , *dûd as-sabbâghîn* دود الصباغين (" dyers' worms ") ; Pers. : same names and *dûpâ* دوپا ; Turk. : *qirmiz* قيرمز ; Eng. : kermes cochineal, scarlet grain, scarlet berry ; Fr. : kermès, graine de kermès, graine d'écarlate ; Germ. : Alkermesbeeren, Scharlachbeeren.

260. Dûd al-Baql دود البقل , CABBAGE-WORM.
(Lecl. No. 972).

DIOSC. II (60) : If used as a friction with oil, it prevents the anointed person [*fol. 33 r*] from being bitten by poisonous animals.

[1] Specimens of beautiful kermes-dyeing were found in a great number of Coptic clothing from Egyptian tombs (from the IVth to the IXth cent. A.D.).

COMMENTARY

The Arabic *dûd al-baql* is the translation of Diosc's. κάμπαι ἐπὶ τῶν λαχάνων (*kámpai epí tôn lakhánôn, i.e.* " the caterpillars on the vegetables "). As the cabbage worm, the larva of the common white cabbage butterfly (*Pieris brassicae L.* and *P. rapae L.*), is by far the most frequent of all caterpillars, we think this is what is meant by DIOSC.'s " worm." The use of this " remedy " against the bite of poisonous animals is superstitious, but still common in certain regions of Central Asia. Most of the Arabic physicians do not mention it in their pharmacological works.

SYNONYMS : Gr. : κάμπαι ἐπὶ τῶν λαχάνων (*kámpai epi tôn lakhánôn*) ; Lat. : uruca raphani, brassicæ (PLINY) ; Ar. : *dûd al-baql* دود البقل ; Pers. : *kirm-i-karam* كرم كرم ; Turk. : *qurt-i-lakhane* قورت لاخنه (?) ; Eng. : cabbage-worm ; Fr. : ver de choux ; Germ. : Kohlraupe.

SYNONYMS : Anc. Eg. : [hieroglyphs] ϫιs, ετc ; Gr. : ἐγκέφαλος (*engképhalos*) ; Lat. cerebrum ; Ar. : *dimâgh* دماغ, *mukhky* مخ ; Pers. : *maghz* مغز, Turk. : *beyn* بين ; Eng. : brain ; Fr. : cerveau, cervelle ; Germ. : Hirn, Gehirn.

258. Dagâg دجاج, DOMESTIC FOWLS.

(Lecl. No. 854).

GALEN XI (XII, 361) : The broth of hens relieves flatulence, and that of old cocks is purgative.

DIOSC. II (49) : Hens, if cut up and put, while still warm, on the site of bites of poisonous snakes, are useful ; but they must be changed frequently. The broth of chickens, given unmixed, tempers diseased bodies.

ANOTHER AUTHOR : The flesh of young hens sharpens the intelligence and refines the voice.

COMMENTARY

The use of fowls as an aliment was largely discussed by Galen and, among the Arabic-writing scholars, by ar-Râzî in his *Treatise on the Use of Aliments and on the Prevention of their Harms*. As diet and remedy, they have been in use since immemorable times, and a great part of their medicinal use is superstitious. Fresh fowls are indeed, still in our days a remedy for bruises, wounds, etc., in many lands, just as fresh meat was a remedy for wounds in Ancient Egypt (Edwin Smith Surgical Papyrus, edited by J. H. Breasted in 1930). IDRÎSÎ (p. 109 foll.) has again a long paragraph on fowls ; but since it was quoted by IB and translated by LECLERC (II, p. 80) there is no need to cite it here. DÂWÛD (I, 297) was the only medical author who wrote about the different kinds of fowls. He says that the fowls of Egypt and Abyssinia are bigger than others, almost the size of a goose, and continues : " There is no difference between those that are bred under the wing or those that are bred artificially in

Egypt, contrary to the general mode." Artificial breeding is, indeed, an old art in Egypt. It was an object of curiosity to the Medieval and Modern travellers in Egypt, and is still in use in our days. For this reason eggs and fowls were, at certain periods, extremely cheap in Egypt, and therefore an aliment accessible to all classes.

SYNONYMS : Gr. : ἀλεκτορίς (*alektorís*) ; Lat. : gallina ; Ar. : *dugâg* دجاج , *farrûg* فروج ; Pers. : *mâkiyân* ماكيان, Turk. : *tavuq* طاووق ; Eng. : domestic fowl ; Fr. : poule ; Germ. : Haushuhn.

259. Dûd al-Qirmiz دود القرمز , COCHINEAL KERMES (Scarlet Berries).

(Lecl. No. 971).

DIOSC. IV (48) : There grows on the oak-trees in the land of Cilicia (Asia Minor) something shell-like and small, resembling snails. Women collect it with their mouths and call it κόκκος βαφικός (*kókkos baphikós*).

GALEN VII (XII, 32) : If this substance is taken from the tree when it is still moist and fresh, it is refrigerant and desiccative in the second degree, because it contains something of a moderately astringent action.

COMMENTARY

The remedy in question is an insect of the genus *Coccidæ*, the cochineal kermes (*Coccus ilicis* or *Lecanium ilicis*). It was considered by the Greeks as a morbid excrescence of the kermes oak (*Quercus coccifera L.*) (1), but the Arabs knew very quickly that it was an insect. The kermes-oak is not a tree, but a shrub growing in the Eastern Mediterranean regions ; the cochineals are parasites on its branches. The female insects, after fecundation, rapidly grow and reach the

(1) We read, however, in the English edition of Pomet's *History of Drugs* (London 1712, Vol. 1, p. 18) : " Kermes is the Seed, or rather Excrem[illegible] alittle shrub......."

COMMENTARY

The use of blood as a remedy is very old. We find in the Egyptian medical papyri many recipes containing blood of different animals against all kinds of diseases; the blood of bats is, *e.g.* a remedy against trichiasis (ingrown lashes) and is still in use in Modern Egypt as a popular treatment. It is found also in the pharmacopœia of the Roman Marcellus Empiricus as well as in the Medieval *Antidotaria* of the Salernitan School in Italy. It is curious that in Antiquity the blood of bulls was considered to be poisonous. In Ancient Egypt blood had its uses, as also in Coptic medical books these uses were enumerated.

In general, the idea of applying blood to wounds and severe bruises was to transmit its vivifying power to the human tissues. There are, however, in this, traces of Animistic beliefs and Magic from heathen times, conceptions, which are still alive in our days, even in the capitals of the most civilised lands. It must be stated here that the use of blood as a remedy was much more common with the Greeks than with the Arabs with whom, just as with the Jews, the consumption of blood was forbidden by religious laws. Therefore, we find in Galen's works many pages on blood as a remedy, while the Arabic and Persian authors treat it very cursorily. The longest chapter on blood is found, as far as we were able to tell, in Idrîsî (p. 110 foll.). It mentions, besides the kinds enumerated by Gh, the blood of leopards, camels, owls, and the marine tortoise, and their healing power for incurable diseases, *e.g.* leprosy. It is evident that the ancient blood therapy has nothing in common with the modern serum therapy, but it must be noticed that during the last years the injection of human or other blood became more and more in use. Thus the Berlin surgeon Professor Bier recommended, in 1931, the injection of sterilised blood from oxen and muttons against exophthalmic goitre (1). Apparently the success of this therapy is sometimes surprising.

(1) Archiv f. Klinische Chirurgie, Vol. 167 (1931), p. 359.

SYNONYMS : Anc. Eg. : [hieroglyphs] *snf* ; Copt. : ⲥⲛⲟϥ *snof* ; Gr. : αἷμα (*haima*) ; Lat. : sanguis ; Ar. : *dam* دم ; Pers. : *khûn* خون ; Turk. : qan قان ; Eng. : blood ; Fr. : sang ; Germ. : Blut.

257. Dimâgh دماغ, BRAIN.

(Lecl. No. 883).

DIOSC. II (19 and 49) : The brains of hares, if fried and eaten, are useful against tremors (*irti'âsh* ارتعاش) ; the brains of fowls, if drunk with wine, are useful against the bite of malignant (poisonous) reptiles, and promote the dentition of babies.

GALEN XI (XII, 362) : The brains of burnt frogs stop hæmorrhages, and are useful (1) in alopecia (*dâ' ath-tha'lab* داء الثعلب) when applied with liquid pitch.

ANOTHER AUTHOR : Brains, when eaten, are useful to persons who have drunk poison, and against the sting of (poisonous) animals, when consumed.

COMMENTARY

Brain, as a remedy, is mentioned for the first time in an ancient Egyptian recipe (Papyrus Ebers 65, 13 foll.) : "It is the brain of a black fish that prevents grey hair when rubbed on the head." Brains were generally eaten for superstitious purposes. The few recommendations by Greek physicians did not agree with the religious laws of the Muslims, and so few Muslim scholars speak about it, particularly IDRÎSÎ (p. 111). He adds to the sayings of DIOSC. and GALEN the use of human brain against melancholy, so also the use of the brains of camels and of different kinds of birds.

(1) The text of T and G reads : "Stop hæmorrhages in alopecia"; this is nonsensical and therefore we added the words "and are useful."

it is coloured like ruddle. Its best kind is that which has the taste of copper and the verdigris colour; sometimes ruddle is burnt and sold instead of *diphryges*.

Galen IX (XII, 214 foll.): Its faculty and taste is astringent, and its pungency is useful for malignant wounds and for ulcers of the mouth, when administered with honey.

Another Author: It dries up moist ulcers of the (skin of the) head.

COMMENTARY

Diphrygés διφρυγές means in Greek "twice roasted," and is the name of a metallic copper-powder which is dried in the sun, and then roasted again in the furnace. It is mentioned by Diosc., Pliny and Galen, and its nature is not clearly defined. The three kinds described by Diosc. probably designate: (1) A kind of clay, perhaps with a copper constituent; (2) Ores or slags from copper furnaces, containing copper silicates with earthy bases; (3) A kind of ferric oxide gained by burning pyrites or sulphur-ore in the open air. Diosc. and Pliny (XXXIV, ch. 39) described the three kinds in almost identical words, while Galen, in the IInd century A.D., personally visited the Cyprian copper mines and observed the manner in which *diphryges* and other metallic compounds were extracted. The Arabs did not know the real nature of this substance and had no Arabic name for it. Therefore, IB quoted only Greek authors, and Gh was, as far as we can tell, the only Arabic author who copied another author than the *Materia Medica* of Diosc. and Galen. There are, of course, no synonyms known in other languages.

256. Dam دم, Blood.

(Lecl. No. 881).

Galen X (XII, 256): The blood of domestic pigeons (*hamâm* حمام), if put in the fissure formed in the bone of the skull, heals it; and so does the blood of wild pigeons

(*warashân* ورشان), ring-doves (*fâkhita* فاختة), turtle-pigeons (*yamâm* يمام) and turtle-doves (*shafânîn* شفانين). Personally, however, I often replaced them with heated rose-attar which I instilled in the fissure. Moreover, I found it incorrect that the blood of bats (*khuffâsh* خفاش), if painted on the mammæ of virgins, keeps their rotundity (elasticity), and that it prevents the growth of hair in the armpit; that the blood of lambs (*khirfân* خرفان) prevents epileptic fits (*sara'* صرع), and that roasted goat's blood is useful against diarrhœa.

Xenocrates (1): The blood of kids is useful against epileptic fits, and the blood of bears, which is of hot temperament, matures swellings (abcesses). It is an error to say that the blood of green frogs prevents the growth of excessive lashes in the lids (trichiasis), and so it is with the blood of dog-ticks (*qirdân kalbiyya* قردان كلبية). It is said that the blood of field rats (*garâdhîn* جراذين) sharpens the sight, but I renounced it on account of its filthiness; as also I did not try the blood of horses, for it is said that it putrifies and burns the blood (of men). It is said that the blood of mice (*fâr* فار) removes comedo warts (*tha'âlîl masâmîriyya* ثآليل مسامرية nail-head-shaped warts).

Diosc. II (79): The blood of geese, kids, ducks, wood-pigeons, turtle-doves, domestic pigeons, and partridges (*hagal* حجل) is used as painting for the eye for wounds and hyphaema (*kumnat ad-dam* كمنة الدم). The blood of the he-kid, the goat, the ibex (*iyyal* إيل) and the hares fried, is useful against ulcers of the intestines, and with wine is useful against the poison called τοξικόν (*toxikón*) (2). The blood of dogs is helpful against the bits of rabid dogs and the *toxikon*-poison, and the blood of the land-tortoise (*sulahfât barriyya* سلحفاة برية) as a drink, is useful for epileptic fits.

(1) Xenocrates of Aphrodisias was a Greek medical writer who lived about the beginning of the Christian Era. He wrote a *Materia Medica* and a book *On Animal Aliments*. The quotation by Gh is not a direct one, but is extracted from Galen.

(2) I.e. arrow poison.

Turk.: same names and *turti* تورتى or طورطى, *sharab turtusi* شراب طرطوسى (Avni, p. 351), *posa* پوصه or پوسا, *chokundi* چوكوندى or چوتى (Samy and Handjéri); Eng.: dregs, lees, fæces, argal, sediment (of wine); Fr.: lie (de vin); Germ.: Weinabsatz, Weinrückstand, (Weinstein).

254. Dahnag دهنج, Malachite. (1)

(Lecl. No. 966).

The Book of Stones(2): It is a stone which exists in copper-mines and is of a green colour like chrysolite (*zabargad* زبرجد). It does not occur except in these mines, just as emerald (*zumurrud* زمرد) does not occur except in gold mines. It has different colours; some is green, some variegated, some peacock-coloured, and some liver-coloured. Sometimes these colours are met with in one and the same stone. It is a soft stone which is turned (on the lathe) by the turner. If it is carved or inscribed with figures (or decorations) and, kept for some months, its brilliancy disappears and it becomes dulled. If a person, who has taken poison, drinks from its scrapings, it benefits him; but if, on the contrary, it is taken by a person who is not poisoned, it will hurt him [*fol. 32 v*] and cause his body to become inflamed, and he is not likely to recover quickly. If it is rubbed on the place of the sting of a scorpion, it calms it(s pain). It is a stone which is clear when the air is clear, and becomes troubled (dead-coloured) when the air is troubled.

COMMENTARY

Dahnag دهنج is the Arabic form of the Persian name *dahna* دهنه or *dahâna* دهانه which designates the well-known malachite, a stone which consists mostly of native carbonate of copper. It is found in Siberia, Russia, Wales,

(1) This chapter and the following are missing from the Gotha MS. of Gh.

(2) The Pseudo-Aristotelean Lapidary or Stone-Book; *see* Commentary.

Hungary, Spain, Persia and North Africa, and occurs in ancient Egyptian tombs, mostly in the form of amulets (scarabs) and statuettes, and in jewellery. In Greek times it was not in medical use(1) but only later on was it known for its healing and magic qualities in the Pseudo-Aristotelian Stone-Book which was written by a Syrian scholar in the XIth century A.D., compiled from Greek and Persian sources. All the later Arabic books on Stones, and the treatises on Alchemy made use of this primary source of Arabic Mineralogy(2). The poisonous effect of powdered malachite is due to its copper constituent.

Synonyms: Anc. Eg.: [hieroglyphs] *mfk.t.*; Gr.: μαλαχίτης λίθος (*malakhîtês líthos*, Medieval); Lat.: molochitis (Pliny); Ar.: *dahnag* دهنج; Pers.: *dahna* دهنه and *dahâna* دهانه, *marmar-i-sabz* مرمر سبز ("green marble," Schlimmer, p. 353); Turk.: *dehne-i-frengi* دهنه فرنكى (Zenker's dict., p. 445); Eng. and Fr.: malachite; Germ.: Malachit.

255. Dîfrûghîs ديفروغيس, Diphryges (different mineral earths).

(Lecl. 986).

Diosc. V (103): It is of three kinds: one of them is a mineral found only in Cyprus; it is extracted from a shaft in which is a clay-like substance. It is then dried in the sun and burnt afterwards. The second is like the precipitate of copper and has its taste; the third kind of it is prepared by taking the stone called *pyrites*, *i.e.* marcasite (*marqashîthâ* مرقشيثا) and burning it in a kiln (furnace) like lime, until

(1) It has sometimes been identified with χρυσοκόλλη (*krysokollê*) of Theophr. and Diosc.

(2) The most comprehensive and the best of these "Books on Stones" was that composed in the XIIIth cent. A.D. by the Egyptian scholar Ahmad ibn Yûsuf at-Tîfâsh احمد بن يوسف التيفاشى. A discussion of the chapter on malachite is found in Clément Mullet, *Essai sur la minéralogie arabe* (Journal Asiatique, sixième série, Vol. XI, 1868, pp. 185-191).

which designates soot or thick smoke mixed with fire and the black matter resulting from collecting the smoke, especially from resinous substances. It should be called in Arabic *sawâd ad-dukhkhân* سواد الدخان. Diosc. has no separate chapter on lamp-black, but he treats of its preparation in the different chapters on resins. For this reason Gh did not quote Diosc.. Galen spoke of *lignys* in a special chapter which was probably entirely reproduced by Gh (as we find it in IB), but was abridged to four lines by BH. The soot gained from burnt resins was in former times, and still is in the Near East, a remedy for different eye-diseases, because it has some irritating effect and, at the same time, blackens the lashes as does the much more expensive pure *kohl* كحل or antimony sulphide. Nearly all the Arabic and Persian medical writers repeated Galen's paragraph on lamp-black. There are, however, as far as we know, some special non-medical Arabic treatises on the preparation of writing-ink in which lamp-black plays an important part. The art of manufacturing indelible inks—to which we owe, *e.g.* the good conservation of Ghâfiqi's MSS.—is still known to Oriental calligraphists. Lamp-black or soot was also used in many alchemical procedures with which we are not concerned in this book.

Synonyms: Gr.: λιγνύς (*lignys*), αἰθάλη (*aithâlê*) (Diosc.); Lat.: fuligo; Ar.: *dukhkhân* دخان, *sawâd ad-dukhkhân* سواد الدخان, *sinâg* سناج, *katan* كتن; Pers.: *dûda* دودة; Turk.: *is* اس and ايس, *qûrûm* قوروم, *hebâb* هباب (only by Avni, p. 581); Eng.: soot, lamp-black, (in old pharmacological books:) vegetable æthiops; Fr.: suie (de lampe); Germ.: Russ, Lampenruss.

253. Durdî دردى, Dregs, Lees of Wine (Argal).

(Lecl. No. 863).

Diosc. V (114): Its best kind is that taken from old Italian wine. Vinegar-dregs are very strong. It is necessary to burn them by putting them into a new earthenware jar and lighting beneath the latter a strong fire until the colour of the contents becomes white. They are detersive, remove redundant granulations in ulcers, and, used with pine-resin as a liniment, colour the hair red.

COMMENTARY

Durdî دردى is the Persian name for dregs, lees, fæces or any sediment which remains at the bottom of liquids (oil, etc.). In the present case it is the translation of Greek τρύξ (*tryx*), *i.e.* dregs or lees of wine, which consist of crude tartar or argal. They contain bitartrate of potassium and tartrate of calcium and are not used medicinally, in modern times, but for dyeing only. The Greek and Arab physicians used them, mostly burned, for skin and eye-diseases, sometimes mixed with resinous or oily substances.

IB repeats Diosc.'s paragraph and quotes Hunain's lost book *On the Wine.* Apart from this, most Muslim authors do not speak much about wine-dregs, because wine is forbidden to them, and its lees could be obtained only from Christians and in such lands where the Muslim rule was not very strict. The only Muslim author who treats of wine-dregs in some length is, as far as we can ascertain, Idrîsî, who lived in Sicily at the court of the Christian Norman kings Roger and William. He begins his article in the following manner (p. 104 foll.): "*Durdî* is called by Dioscurides in the fifth section of his book, *tryx*; it is called in Persian .... (*gap*), and in Syriac ...... (*gap*). It is the sediment (*ʿakar* عكر) of vinegar, wine, oil, butter and other similar deposit-forming substances whose mention is not required .... The lees of wine are those which are called in (modern) Greek *tartar* ...."

Synonyms: Gr.: τρύξ (*tryx*), σφέκλη (*sphéklê*, Diosc.), φέκλη (*phéklê*, Galen); Lat.: faex vini (Pliny); Ar.: *durdî* دردى, *ʿakar* عكر, *rusûb* رسوب, *thufl* ثفل, *thâfil* ثافل; Pers.: *durd* درد and *durdî* دردى, *dârtû* دارتو (Schlimmer, p. 537);

days the Spanish name of the caper-or garden-spurge (*Euphorbia Lathyris L.*) whose Perso-Arabic name is *mâhûdâna* or *mâhûbdâna* (which we shall consider again below).

Dâwûd (I, 303) has a rather interesting paragraph: "*Dand* is that which is now known in Egypt and Syria as *habbat al-mulûk* حبة الملوك ("The kings' grain"); but that is not so, as we will explain later on. It is also called *khirwa' sînî* خروع صينى ("Chinese castor-seeds"). Some of it is imported from Samandûr سمندور, Tanâsur تناصر (1) and other towns of China; this is white, and externally inclined to yellow, and has a thin bark. Another kind is imported from Kanbâya and Dakkin (2), and is known as the Indian; it is similar to the first, except that it has black dots. Another kind is imported from ash-Shihr and the coasts of 'Umân (3); it is black and small, and its use is not advisable because it is bad. These grains grow on a tree about a cubit high whose leaves are like those of the brinjal (*bâdhingân* باذنجان), but a little narrower; its flowers are of the same colour and are succeeded by small and greenish capsules (*ghuluf* غلف) which reach maturity in the month of *Misrâ* مسرى (4). When they are plucked they keep their activity during seven years in their native land, and during three years elsewhere." This is the only description of the plant given by an Arabic author. All the Persian physicians mentioned it under the names of *dand* and *bîd anjîr-i-khitâ'î* بيدانجير خطائى ("Chinese castor-seeds") (Mîr Muhammad Husain).

Concerning the name *habb al-mulûk*, Dâwûd (I, 226) says that it is a synonym of *habb as-salâtîn* حب السلاطين ("Sultans' grains"), and *mâhûdâna* ماهودانه, which are designations of the caper-spurge (*Euphorbia Lathyris L.*).

---

(1) Probably Singapore and Tenasserim, the known harbours on the coast of the Peninsula of Further India.

(2) Cambay in the west, and Deccan in the centre of British India.

(3) As to Shihr, *see* p. 523, note 2. 'Omân is the South-eastern land of the Arabian Peninsula.

(4) The Coptic month corresponding to August; *see* above p. 248.

Ducros (p. 44) pretends that the Cairo bazaar druggists call croton *habb Mulûk* which he translates by "Molucca grains," while *habb al-mulûk* ("Kings' grains") would designate another *Euphorbia* seed. As far as we know, this is erroneous; there is only one name, *viz. habb al-mulûk*, and it is probably through the confusion of the druggists that several grains of euphorbiaceæ are thus named, according to Issa: the grains of *Croton*, of *Euphorbia Lathyris* and of *Iatropha Curcas* (physic-nut) (in Algeria also the cherry).

Synonyms: Ar.: *dand* دند, *khirwa' sînî*, خروع صينى *habb al-mulûk* حب الملوك, *habb as-salâtîn* حب السلاطين; Pers.: *dand* دند, and the above-mentioned names. Moreover, *bîd anjîr-i-khitâ'î* بيدانجير خطائى and *garchak-i-hindî* گرچك هندى (Schlimmer, p. 167); Turk.: *habb el-mulûk*, *hashîshet el-mulûk* (Avni, p. 156); Eng.: purging croton, purging nut, croton seeds, tiglium; Fr.: croton, graines de Tilly, graines des Moluques, petits pignons d'Inde; Germ.: Krotonölbaum, Tiglibaum, Purgierbaum.

252. Dukhkhân دخان, Lamp-Black.

(Lecl. No. 859).

Galen VII (XII, 61): Every kind of lamp-black is desiccative, because its substance is refined and earthy; the soot of frankincense (*kundur* كندر) is mixed with remedies for the ulcerated swelling of the eye; and so is the soot of turpentine (*butm* بطم) and myrrh (*murr* مر). The soot of crude storax (*mai'a* ميعه) is stronger than the former ones; the soot of bitumen (*zift ratb* زفت رطب, liquid pitch) is still stronger, and the soot of cedar-tar (*qatrân* قطران) is the strongest.

COMMENTARY

Dukhkhân دخان is the Arabic word for "smoke" (and in modern times for "tobacco"). In this paragraph it is, however, the translation of the Greek word λιγνύς (*lignys*)

cold countries it becomes very useful. One must choose the Chinese kind with the large grains, and the Indian which is smaller in size. As to that from Shihr with small-sized grains, I do not advise its use at all.

COMMENTARY

This drug is the seeds of the cathartic croton (*Croton Tiglium L.*, Euphorbiaceæ). The name *dand* is Persian, but the plant is not a native of Persia; it is indigenous to China and was introduced into and cultivated in India and the Malay Islands, probably since the late Antiquity. It was unknown to the Greeks. The seeds must have been carried to Persia from China by caravans through Central Asia, and to the Western lands by sea, since the Egyptian (Coptic) monk and physician, Anastasius ibn Guraig, who lived in the Xth century A.D., knew of several kinds. Of the three kinds described by him, the first is *Croton Tiglium* and *Croton Pavana Hamilt.*; the second may have been the seeds of *Croton oblongifolius Roxb.* or *Cr. Joufra Roxb.*, but more probably those of another euphorbiacea, *Baliospermum axillare Blume*, which was known to the old Indian physicians under the names of *dantî* or *danta-mulika* (Dymock III, 311). We think that this last name is the origin of the Persian name *dand*, and we suppose that *dand* was originally the name of the Indian drug *Baliospermum*, but was later applied to the Chinese drug Croton (1). As to the drug which was imported from Shihr in South Arabia. it must have been another kind of euphorbiaceæ seeds, as the kinds of real cathartic croton never grew in those regions.

Croton seeds are of dull brownish colour, having an outer skin which is easily detached disclosing a hard dark coat, sometimes of mottled appearance. In its interior is a yellowish and oily kernel, containing about 50 per cent of fixed oil which

(1) Additional note during correction: B. Laufer (*Sino-Iranica* Chicago, 1919, p. 583) equally derives *dand* from Sanscrit *dantî* which he identifies with *Croton polyandrus* (= *Baliospermum montanum*). He identifies moreover, Abû Mansûr's *chaipal* چيپل with Sanscrit *Jayapâla* = *Croton Jamalgota Ham.*

possesses violent cathartic and vesicant properties. In modern times it is used much more externally as an irritant to the skin, and very rarely as a rapid and drastic purgative. Its active principle is a resinous constituent, croton-resin. The seeds (*Semina Crotonis* or *Semina Tiglii*) and the oil (*Oleum Crotonis*) are still to-day official drugs in many European pharmacopæias. This oil is almost unknown in the East. In India the native doctors used to correct the poisonous qualities of the seeds with many adjutants, as described in Gh's article (Dymock III, 282 and Honigb. II, 263). The seeds were made known to Western Europe by the Portuguese Christobal Acosta who described them in 1578. In Central Europe, croton oil played a large part in the quack medical practice of the German charlatan Karl Baunscheidt (d. 1860) who recommended, for all sorts of diseases, multiple scarifications along the vertebral column, and the rubbing in of diluted croton oil. This treatment, called Baunscheidtism, is still in use, under various names, amongst the peasants of Germany, Austria, Russia and other lands.

Apparently, IB reproduced Gh's article entirely, but BH had greatly abridged it, and so the most interesting remarks of the old Coptic and Syriac authors (Abû Guraig, Hubaish and ʿIsâ ibn ʿAlî) were left out. Similarly the long article of ar-Râzî concerning *dand*. Ibn Sînâ (I, 294) repeated th same description, abstracted from Hubaish's sayings. Idrîsî did not mention the name *dand*. Bîrûnî, who lived near the North-western frontier of India, quotes, besides Abû Guraig, two otherwise unknown Persian authors; unhappily, his article is partly destroyed, in the Brussa MS, and mixed up with an article on vitriol.

Maimonides, in his Treatise on Synonyms (fol. 82 *b*, No. 97) says: "*Dand*. There is a Chinese kind of it which resembles castor seeds, and a Spanish one; this latter is called in the foreign speech of Spain *târtagha* طارطغه. *Al-mâhûbdâna* الماهوبدانه is one of its kinds." *Tartago* is, indeed, still in our

of *dryopteris*, viz. *sarakhs al-ballût* سرخس البلوط, *i.e.* "oak-fern." As the letter *ghain* غين is missing from IDRÎSÎ's MS, and no other Arabic authors have paragraphs on *dryopteris*, we were not able to verify the names given by Gh and IB.

SYNONYMS: Gr.: δρυοπτερίς (*dryópteris*); Lat.: *dryopteris* (PLINY) Ar.: *sarakhs al-ballût* سرخس البلوط (IB), *'alâma* علامه or *'alâla* علاله (IB), *dîk* ديك (Andalusia, IB), *ghâl* غال (Spain, Gh), *ashtawân* اشتوان (ISSA); Pers.: *sarakhs-i-ballût* سرخس بلوط Turk.: *balluti eyrelti otu* بلوطى اكرلتى اوتى (Turkish pharmacological MS).

Synonyms in European languages for *Phegopteris Dryopteris Fée*:—

Eng.: oak fern; Fr.: fougère de chêne; Germ.: Eichentüpfelfarn.

For *Asplenium Adiantum nigrum L.*:—

Eng.: black maidenhair, black spleenwort; Fr.: capillaire noir; Germ.: schwarzes Frauenhaar, schwarzer Streifenfarn.

251. Dand دند, PURGING CROTON (Croton Tiglium L.). (Lecl. No. 886).

Ibn Gulgul(1) and Ibn al-Haitham(2) alleged that it is (identical) with *mâhûdâna* ماهودانه (caper-spurge, *Euphorbia Lathyris L.*); this is an error, an opinion which is shared by most of our contemporary physicians. However, Abû Guraig, the Monk(3), Hubaish ibn al-Hasan,(4) Muhammad

(1) *See* our *Introduction* No. 33, p. 19.

(2) This is 'Abd ar-Rahmân ibn Is-hâq ibn al-Haitham عبد الرحمن بن اسحق بن الهيثم who must not be confused with the famous mathematician and physicist al-Hasan ibn al-Haitham (who died in Egypt about 1039 A.D.). 'Abd ar-Rahmân ibn al-Haitham was a physician of Cordova in Spain who took part, in 951 A.D. in the determination of the Arabic drug-names in the translation of Dioscurides' *Materia Medica*. His scientific works are lost.

(3) *See Introduction* No. 29, p. 18.

(4) *See Introduction* No. 14, p. 13.

ibn Zakariyyâ'(1) and others, all describe croton and caper-spurge as two different kinds.

ABÛ GURAIG: Purging croton is of three kinds; the Chinese one has large grains resembling pistachio-nuts; that from *ash-Shihr* الشحر (2) resembles castor oil seeds, except that it is dotted with small black spots; and an Indian kind of a size intermediate between the two others, and of yellowish-grey colour. The best kind and the strongest purgative is the Chinese. The Indian is preferable to that of Shihr. You must know that, with the lapse of time, (the kernel) which is in its interior, shrinks until it disappears. This happens particularly outside its land of origin.

'ISÂ IBN 'ALÎ: Its taste is like that of bitter almonds; in its interior is a little tongue like a bird's tongue; this is the poison(ous) part.

HUBAISH: It is a deadly remedy if not handled with caution. If corrected by peeling off the outer bark and removing the thin tongue which is in its interior, and then by mixing it with the expressed juice of agrimony (*ghâfit* غافث, *Agrimonia Eupatoria*) or of wormwood, it purges the unhealthy matters and becomes useful for black-bile affections and phlegm, and prevents the hair from becoming gray. The usual dose for strong adults is from two *dâniqs* (3) to half a drachm. The Indians mix it with their great electuaries, the Stomachics (4) and other kinds of purgatives. As their land is the most temperate of the Seven Climates (5), the administration of croton there is tolerated. In hot climates, however, it is not possible to administer it in drinks. In

(1) *See Introduction* No. 26, p. 16.

(2) A town and adjoining district on the coast of South Arabia (to-day Hadramawt).

(3) Weight of two carob grains or the sixth part of a drachm.

(4) From Greek στομαχικόν, *i.e.* a remedy for the stomach.

(5) The geographers of Antiquity and the Middle Ages distinguished on the surface of the globe seven "climates" or zones; the hottest was the first, covering the lands near to the equator, the coldest and most northern being the seventh.

fruit in two or three sheaths, in the interior of which is something as thin as hair.

Galen VI (XI., 815) : It is resolvent, with a slightly hot taste.

Oribasius[1] ; It causes alopecia to disappear.

COMMENTARY

Dawsar [2] دوسر is the Arabic name for Greek αἰγίλωψ (*aigilôps*) which designates the dry grass or goat grass (*Aegilops ovata L.*, Gramineae), a common weed in the Mediterranean regions which has in its ear two or three bearded spikelets. It was known to Theophrastus who complained of its occurrence among the cultivated cereals and its vicious effect on the soil. It has no medicinal qualities, although it was in former times used against eye diseases. Its seeds are eaten in several lands, *e.g.* in the Canary Islands where the plant is known as *trigo de los Guanchos* (Dragend., p. 88).

Among the Arabs, Abû Hanîfa ad-Dînawarî was the first to mention *dawsar* with many other weeds ; his paragraph was copied by IB. The other authors all follow Diosc.

Suwaidî (fol. 74 *a*) gives the name *zann* زن for *dawsar*, which is confirmed by Freytag's Arabic-Latin Dictionary (II, 29), while Issa gives the corrupt form *rann* رن.

Synonyms : Gr. : αἰγίλωψ (*aigilops*) ; Lat. : *aegilops* (Pliny) ; Ar. : *dawsar* دوسر, *zann* زن (Suwaidî), *abû hadîg* ابوحديج (Issa) ; Pers. : same names ; Turk. : *yâbâni yulâf* يابانى يلاف the dictionaries ; Eng. : hard grass, goat grass ; Fr. : égilope ovale ; Germ. : ovales Hartgrass, ovale Walch.

---

[1] In Daremberg and Ruelle's edition (*Oeuvres d'Oribase* Paris, 1876) Vol. V, p. 599. About Oribasius, *see Introduction* No. 4, p. 8.

[2] The name *dawsar* is of old Semitic origin : Accadian *disharu*, Jewish-Aramaic *dishrâ* דשרא, Syriac *dawsharâ* (Brockelm., p. 169 b) and Arabic sometimes *dawshar* دوشر. *Dawsarâ* is the form transmitted to the Arabs by Abû Hanîfa and adopted by IB.

250. Durûbtâris دروبطارس, Oak Fern (Phegopteris Dryopteris Fée) or Black Spleenwort (Asplenium Adiantum nigrum L.).

(Lecl. No. 869).

It is known as *al-ghâl* الغال.

Diosc. VI (187) : It is a plant which grows on the old parts of oak-trees, and is like the plant which is called πτέρις (*ptéris*, male fern, *Aspidium Filix Mas S.W.*), except that it is much smaller and less dentated. It has intertwined roots which are covered with down and are of an astringent taste with some sweetness and some bitterness. If pounded with its roots and used as ointment, it removes hairs.

Ibn Sînâ : It is useful against plegia.

COMMENTARY

The identification of δρυοπτερίς (*dryopteris*) of Diosc. and Galen is not quite certain. Most of the modern authors (Fraas, Sontheimer, Leclerc) take it to be the oak-fern (*Polypodium*, or better *Phegopteris Dryopteris Fée*), while others (Sibthorp, Issa) are in favour of another fern, the black maidenhair or black spleenwort (*Asplenium Adiantum nigrum L.*). Both of them are Polypodiaceae. The first is more frequent in Central Europe, the second has its habitat in Southern Europe, Africa and Asia, where it is found as far as Cape Colony and in the Himalayan Mountains. The rhizome of both these plants is astringent and was in use against diseases of the spleen and to expel intestinal parasites.

About the Arabic names there is a difference between Gh and IB. Gh says that *dryopteris* was known in Spain under the name of *ghâl* غال, while IB gives the names *ʿalâma* علامه or *ʿalala* علاله (perhaps *ghalâla* غلاله ?) and as a name in use in Andalusia *dîk* ديك ; also the Arabic literal translation

moreover, quotations from Ibn Sînâ, Is-hâq ibn ʿImrân, and a long quotation from Idrîsî, concerning the external use of oleander against skin diseases, scabies, white lepra, etc. He cites at the end a passage from the *Minhâg al-Bayân* منهاج البيان of Ibn Gazla (1) concerning the treatment of poisoning with oleander by the ingestion of warm drinks, date-sweets and fruits.

Most of the Arabic and Persion medical authors give long paragraphs on *diflâ* in which they partly repeat DIOSC.'s and GALEN's sayings.

IBN SÎNÂ (I,292) says: "There is a land and a river kind. The first has leaves like purslain (*hamqâʾ* حمقاء), but they are narrower, and its branches are long and spread out on the soil, and at the origin of the leaves are thorns. It grows in ruins. The river kind grows upon the banks of rivers, its branches stand erect on the soil, its thorns are invisible, and its leaves are like the leaves of willow or almond-tree; they are broad and of very bitter taste. The upper part of its stem is thicker than the lower part......" After this follows DIOSC.'s description. The "land kind" is surely not an oleander, but another Apocynacea.

IBN AL-ʿAWWÂM (I, 374 foll.) gives a short chapter on the cultivation of oleander in Spain, and states that the plant is called in Arabia "the tree of blessing" (*shagarat al-baraka* شجرة البركة); he adds that the cultivation of the plant does not require much labour, as it grows spontaneously.

IDRÎSÎ (p. 107 foll.) has a long chapter on oleander in which he gives various (mostly corrupt) foreign names—amongst others "Frankish" (Italian) *lindrû* (oleandro)—and at the end many recipes for the medicinal use of the leaves and root.

MAIMONIDES (No. 99) has only a few words about *diflâ*: "It is *ar-rudûd* الردود, and in Persian *kharzahrag* خرزهرج,

(1) See *Introduction* No. 38, p. 22.

the meaning of which is, as it is said, "ass's bane." (*Rudûd* is a mutilation of *rhododendron* or *nêrion*).

DÂWÛD (I, 300) gives the name *haban* حبن as being common in the Maghrib. He contributes to the botanical description the sentences: "It is a perennial plant, and its flowers appear in the Autumn; the farther it is from the water, the higher it grows." He then gives many recipes, composed with oleander leaves, against skin-diseases and the bite of venomous reptiles.

SYNONYMS: Anc. Egypt.: 𓈖𓂝𓂋𓆭, *nʿr*; Copt.: ⲗⲁⲫⲛⲏ Gr.: δάφνη ἀγρία (*dâphnê agría*, THEOPHR.), ὀνοθήρας (*onothêras*, THEOPHR)., νήριον (*nêrion*, DIOSC., GALEN); ῥοδοδάφνη (*rhododâphnê*, DIOSC., GALEN), ῥοδόδενδρον (*rhodódendron*, DIOSC.); Lat.: same names and *nerium* (PLINY); Syriac: הרדפני *hardafnî*, הרדפנין *hardafnîn* (LOEW); Ar.: *diflâ* دفلى, *ward al-himâr* ورد الحمار ("ass's rose"), *simm al-himâr* سم الحمار ("ass's bane"), *haban* حبن (Maghrib, DÂWÛD); for other names *see* ISSA, p. 124; Pers.: *khar-zahra* خرزهرة ("ass's bane"), *dirakht-i-zaqqûm* درخت زقوم, *dirakht-i-âghû* درخت آغو (both NAFICY II, 21); Turk.: *zaqqum aghaji* زقوم اغاجی (1) *aghu aghaji* آغو اغاجی (HANDJÉRI); Eng.: oleander, rose-bay, rose-laurel; Fr.: laurier-rose, laurose, rosage, nérion, oléandre; Germ.: Oleander, Rosenlorbeer; Span.: laurel rosa, adelfa, baladre (both derived from Arabic); It.: oleandro, ammazza-cavallo, ammazza-l'asino ("horse-killer, ass-killer").

249. Dawsar دوسر (2) GOAT GRASS, (Aegilops ovata L.). (Lecl. No. 969, *dawsarâ* دوسرا).

DIOSC. IV (137): Αἰγίλωψ (*aigílôps*). It is a herb, the leaves of which are like those of the common spike-wheat, except that they are softer, and at their end [*fol. 32 r*] is a

(1) *Zaqqûm* زقوم is the name of a tree growing from Hell (mentioned in the Qur'ân, whose bitter fruits shall be the food of misbelievers.

(2) In both MSS. (T & G) *daws* دوس, a copyist's blunder.

Galen VIII (XII, 86) : It is hot in the third, dry in the first degree and strongly resolvent in external application ; but if taken (internally) by men or beasts, it kills.

Diosc. : Its blossom and leaves are fatal to dogs, asses and mules ; if taken with wine it saves people from the sting of poisonous reptiles.

Mâsargawaih [1] : The expressed juice of its leaves used as friction, is useful against itch (*hikka* حكّة) and scabies (*garab* جرب).

Ibn mâsa [2] : Its flower is beneficial to diseases of the uterus.

Ar-râzî : It is good for chronic and old affections of the knee-joints and of the back, when used as compresses.

Another Author : If its decoction is sprinkled in the house it kills fleas.

COMMENTARY

The plant in question is the oleander or rose-laurel (*Nerium Oleander L.*, Apocynaceae). It was known to the Ancient Egyptians and was represented on their monuments (Keimer 1, 27, 91, 142, 186 ; Fig. p. 174). It was and still is, a beautiful ornament on the banks of rivers in Western Asia, from where it came to the Greeks, according to Hehn [3]. Theophr. knew it under the names of δάφνη ἀγρία (*daphnê agría*, "wild-laurel") and ὀνοθήρας (*onothêras*, "ass's hunter" ?). The Arabic name *diflâ* دفلى is derived from Greek *daphne* through Aramaic. In Syriac, the name *rhododaphne* is still preserved in the form *hardafna* حردفنه or *hardafnîn* حردفنين [4]. The occurrence and the names of oleander in the Near East are amply discussed by Loew (1, 206 foll.). In India. another kind, *Nerium odoratum Lam.*—

[1]. *See Introduction* No. 8, p. 10.
[2]. *See Introduction* No. 17, p. 13.
[3]. *Cultivated Plants*, etc. London, 1891.
[4]. S. Fraenkel, *Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen.* Leiden, 1886, p. 142-

hardly different from oleander—is very frequent, and is described in Sanscrit medical works under the name of *karavira*; one of its names was *asvamaraka, i.e.* " horse-killer " (Dymock II, 398 foll.). It is evident that the poisonous effect of the leaves on quadrupeds that feed on them, was known from the earliest periods. The poison is in the bitter and acrid milk-juice of the leaves, the red or white flowers, and even in their stalks (pedicles). It contains different glycosids (rosaginin, nerianthin, neriin, etc.) which are toxic to the heart. As to details of the toxicology of oleander, *see* Dymock (II, 401 foll.). In India, oleander is frequently used for poisoning and suicide, while it is not much in use in the Western Islamic World.

Honigberger (II, 316) did not find in India a drug composed with *Nerium Oleander*. He used an official preparation from Europe, *Tinctura Nerii Oleandri*. About the other kind he says the following : " *Nerium odorum* is cultivated in gardens at Lahore (North-west India), merely for its beauty. Its flowers, leaves and roots are official. The root of the hill-plant is much more violent than that of the garden one, and is considered poisonous. Jealous women frequently resort to it ; in fact, it is proverbial among the females of the hills, when quarelling, to bid each other go and eat of the root of *Kaneer* (oleander)."

Schlimmer (p. 395) reports from Persia that a decoction of oleander blossoms was used against vermin in the houses, while their infusion served women as rouge for the cheeks and as a cosmetic for the hair. He reports also that the Persians cover the snouts of horses, asses and mules with sacks before passing through lanes planted with oleander, and that several times travellers were poisoned when using oleander sticks as broachers for roasting meat.

The foregoing paragraph is again much abridged by BH, as, *e.g.* the corresponding chapter of IB contains a quotation from Gh which is omitted by BH. IB gives

gladiole, common sword-grass : (*Gladiolus segetum Ker.*, corn-flag) ; Fr. : glaieul commun, victoriole, lys de St. Jean ; Germ. : Siegwurz, Ackerschwertsiegwurz ; It. : spaderello, coltellaccio, pancaciolo ; Span. : espadaña comun, yerba estoque [1], lirio de San Juan.

247. Dûruqniyûn دورقنيون (Convolvulus Dorycnium L. ?). (Lecl. No. 868 *durûqniyûn* دروقنيون).

Diosc. IV (74) : Crateuas [2] calls it ἁλικάκκαβον (*halikàkkabon*) and καλλέα (*kalléa*). It is a *thamnos* (shrub) resembling the olive tree when it begins to shoot. It has branches less than one cubit in length, and the colour of its leaves is like the colour of olive leaves. They are, however, longer and narrower and very rough. It has a white flower and has on its ends thick pods like those of the chick-pea (*himmis* حمص) in which are five or six round seeds of the size of small grains of bitter-vetch (*karsana* كرسنة), smooth, hard and of different colours. It has a root as thick as a finger and of one cubit in length. It grows upon rocks near to the sea. Its temperament is like that of opium poppy (*khashkhâsh* خشخاش) and mandrake (*yabrûh* يبروح) ; therefore, it stupefies in small doses, and kills in strong ones.

COMMENTARY

The δορύκνιον (*doryknion*) of Diosc. or δορυκνίδιον (*doryknidion*) of Galen (Kuehn's Edition, Vol. XI, 864) was unknown to Theophr. and has not been mentioned by later authors. *Halikâkkabon*, mentioned by Crateuas, was the name of

(1) All these Italian and Spanish names designate "little sword" or "little knife."

(2) Κρατεύας (*Krateuas*) was a Greek herbalist (ῥιζοτόμος *rhizotómos*) who lived at the court of the great king Mithridates VI. Eupator of Pontus in Asia Minor (first cent. B. C.). He composed a herbal and a book on pharmacology which was copied by most of the later pharmacologists. It was beautifully illustrated, and the figures passed into Dioscurides' Greek edition and Arabic translations.

most kinds of night-shades (Solanaceae), and the poisonous qualities of the plant mentioned by Diosc. and Galen are more in accordance with them. But the description of the plant, especially its fruits and seeds, is different, and so the old botanists (Rondeletius, Lobelius, etc.) thought that it was a kind of bind-weed (*Convolvulus monspeliensis*). Fraas proposes *Convolvulus Dorycnium L.*, following in this Linnaeus himself ; but this determination is uncertain. The Oriental authors did not know the plant and satisfied themselves with the transcription of the Greek name and with the quotation of Diosc. and Galen. For this reason *doryknion* is one of the few names for which Ibn Gulgul and the other Spanish botanists did not find any Arabic equivalent. Hunain ibn Is-hâq identified the name *doryknion* with Syriac *uhlâ* אוהלא, which is erroneous, according to Loew (I, 451, 645 ; IV, 130, 134).

248. Diflâ دفلى Oleander (Nerium Oleander L.).

(Lecl. No. 873).

Diosc. IV (81) : Ῥοδοδάφνη (*rhododáphnê*) ; it is also called νήριον (*nêrion*) and ῥοδόδενδρον (*rhodódendron*). A known *thamnos* (shrub, bush), with leaves resembling those of the almond-tree except that they are longer, thicker and rougher. Its flower is like red rose-leaves [1], and its fruit resembles the Syrian carob (*kharrûb shâmî* خروب شامى *Ceratonia siliqua L.*), having, when opened, in its interior something woolly like that which is visible in the flower of ἀκάνθιον (*akánthion*, the cotton-thistle, *Onopordon Acanthium L.* ; see above No. 26, p. 97) [2]. This root has a sharp edge, is long and of salty taste It (the plant) grows in gardens and on shores (banks).

(1). This is the reading of both MSS. (T and G) ; but IB has the better reading "And its flower resembles the red rose," which is the literal translation of Diosc's text.

(2) Here, in both MSS., as well as in IB, an old copyist blunder : ὑάκινθο, (*hyákinthos*) instead of ἀκάνθινος (*akánthinos*).

It is known as the "raven's sword" (*saif al-ghurâb* سيف الغراب), and grows mostly in cultivated lands. It has a white and solid bulb (tuber) covered with fibres, but without layers. It is boiled in milk and eaten; but when raw it is bitter and astringent.

Diosc. IV (20): ξίφιον (*xiphion*); it is also called φασγάνιον (*phasgânion*) and μαχαιρίων (*makhairiôn*) or "the sword-shaped," on account of the resemblance of the leaves to swords. Its leaves resemble those of iris (*îrisâ* ايرسا), except that they are smaller and lighter; the edges of the leaves are sharp like a sword. It has a stem about one cubit high on which grow flowers in ranges,, distant one from the other ("racemose inflorescence"), purple-coloured, and a round fruit. It has two roots (tubers) one of which is placed over the other as if they were two small tubers. The lower one is shrunken and the other well grown (sappy). It grows mostly on cultivated land.

Galen VII (XII, 87) (1): Its root, especially the superior one, is attractive, refining, resolvent and desiccative.

Diosc.: If drunk with wine it excites the desire for copulation, and it is said that the lower root, if taken (in infusion) stops the desire of copulation with women.

COMMENTARY

The name *dalabûth* دلبوث (in our MSS *dalbûb*) is not Arabic, but seems to be of Syriac origin; there is however, no trace of it in the special dictionaries. It is the equivalent of Greek *xiphion* which is the name of the sword-grass or common gladiole (*Gladiolus communis L.*, Iridaceae). This plant was in medicinal use more in Europe than in the Orient. Its tuberous root had, in the Middle Ages, the reputation to make him who carried it invulnerable to attacks of

(1) It is in reality in Chapter VIII (not VII) of Galen's *De simplic. med. temp. ac facult.*

swords (whence its former name *Victorialis*, and its German name Siegwurz). The *xiphion* of Theophr. was, according to Sir Arthur Hort, the corn-flag (*Gladiolus segetum Ker.*).

Other kinds of gladiole which were in medicinal use were *Gladiolus imbricatus L.*, *Gladiolus palustris Gaud.* and *Gl. edulis Burch.* They were used for wounds and scrofula. *Gladiolus communis* was an official drug under the name of *Bulbi Gladioli* or *Bulbi Victorialis rotundæ* (Luerssen II, 447).

In the Near East, especially in Asia Minor, Syria and Palestine, there are other kinds of *Gladiolus* which are in medicinal use, called *dam al-ghazâl* دم الغزال ("gazelle's blood"), *ward al-ghâba* ورد الغابة ("forest flowers"), and so on (Loew 11 6–7). Among the Arabic medical writers, Dâwûd alone gives an apparently original paragraph (1,302): "*Dalabûth.* It is not the lily (*sawsan* سوسن), but a plant with few leaves like the onion, and their bulbs are like its (the onion's) bulbs; when peeled off, it does not show layers like the onion, but is of one piece only. They (the bulbs) are placed one upon another and appear as if they were attached. It reaches maturity in Tamûz (August), and grows on the shores of the Euphrates and Tigris, where it is dried and sold in Baghdad and other towns. It is called *an-nâqû'* الناقوع ...." Then follow many details about the uses of the bulbs against different diseases.

Synonyms: Gr.: ξίφιον (*xiphion*), φάσγανον (*phásganon*), μαχαιρίων (*makhairiôn*, Theophr., Diosc.); Lat.: xiphion, phasganion (Pliny), hyacinthus, vaccinium (Virgil) (1); Ar.: *dalabûth* دلبوث (IB), (*dalabûb* دلبوب ?? Gh), *saif al-ghurâb* سيف الغراب (Gh), *arbarîd* اربريد (IB), *nâfûkh* نافوخ or *nâqû'* ناقوع (Dâwûd, name of the bulb in Baghdad); for other names *see* Issa, p. 87; Pers.: same names; Turk.: same names and *quzghun qiliji* قوزغون قليجى ("raven's sword," Avni); Eng.: common

(1) John Sargeaunt (*The Trees, Shrubs and Plants of Virgil*, Oxford, 1920) identifies one kind of the *hyacinthus-vaccinium* of Virgil with *Gladiolus segetum* (corn-flag).

Diosc. III (89): ἰξός (*ixós*). The best kind is the fresh one which resembles the colour of leek (*kurrâth* كراث) inside, and which is reddish outside. It is not rough nor does it produce any dust. It is prepared from a globular fruit (of a plant) growing on the oak-tree, whose leaves are like those of πύξος (*pýxos*), *i.e.* *ash-shimshâr* الشمشار (box-tree), by pounding and washing them and then boiling them in water. Other people prepare it by chewing the fruit. It grows sometimes upon apple, pear and other trees, and is sometimes found on the roots of small shrubs.

Galen VI (XI, 888): It is a compound of airy and watery substances. It brings out the thick humour (chyme) from the depth of the body and refines, liquefies and dissolves.

Diosc.: Its activity is resolvent, emollient and attractive.

COMMENTARY

Ἰξός (*ixós*) of the Greeks and its Arabic equivalent *dibq* دبق is the name of the oak-mistletoe (*Loranthus europaeus L. Jacq.*) and the bird-lime which is prepared from its berry. It must not be confused, as is often done in treatises on synonyms, with the white mistletoe (*Viscum album L.*). The oak-mistletoe is a South European and Asiatic plant-parasite, growing mostly on oak and chestnut-trees, while the white mistletoe is a more northern plant which played an important role in the mythology and the religions of the Nordic nations. It was a special object of worship with the ancient Britons and Gauls (Pliny XIV, 249 foll.), and was considered as a heal-all, a charm against disasters and an emblem of fertility. Theophr. knew in his time the oak-mistletoe as ἰξία (*ixía*), and the white mistletoe as ὕφεαρ (*hýphear*).

Medically, the mistletoe-berry-lime was used as a resolvent to liquefy tumours and to mature abscesses. In the years before 1880, the extract and tincture of mistletoe was strongly

recommended as an oxytocic and abortive remedy(Dymock III, 228); but in recent times its use has been abandoned. Chemically, bird-lime from mistletoe contains viscous substances (viscin and viscaoutchin) and a little tannin.

Most of the Oriental authors, from Ibn Sînâ to Dâwûd, repeat Dioscurides' description of the plant and its fruit. Maim. says that the common people in the Maghrib used to call it *al-ʿilk* العلك, *i.e.* "the viscous." Dâwûd (1,294) begins his paragragh on *dibq* as follows: "It is said that it exists upon a tree like lichen (*shaiba* شيبة), but it is a berry like a chick-pea, not perfectly round, rough, bursts in moisture, very viscous and slightly yellow. Its best kind is the smooth, soft, very moist and whose bark is greenish; most of it grows on oak-trees.........." He then gives many recipes for its use against tumours, skin-diseases and as bird-lime.

The Makhzan al-Adwiya (Calcutta Edition, p. 414 foll.) gives a long article in which it is remarkable to notice that Persian dyers use the mistletoe-lime as a mordant for crimson.

Synonyms: Gr: ἰξία (*ixía*, Theophr,), ἰξός (*ixós*, Diosc.); Lat.: viscum quercinum (Virgil, Pliny); Syriac: *debbûqâ* דבוקא (Bîrûnî, Brockelm.); Ar.: *dibq* دبق, *ʿanam* عنم; Pers.: same names, and *hashîshet ed-dibq* حشيشة الدبق .and *mîwîzaj ʿasalî* ميويزج عسلى; Turk.: same names and *okse otu* اوكسه اوتى (1); Eng.: oak-mistletoe; Fr.: gui de chêne,guillon; Germ.: Eichenmistel.

246. Dalabûth دلبوث (2) Sword-grass (Gladiolus communis L.).

(Lecl. Nos. 875 bis and 1260).

---

(1) I. e. "bird-lime plant"; another Turkish name: *tuzaq* توزاق, or *pelid aghaji tuzaghi* پليد اغاجى توزاغى ("oak-tree mistletoe") is found alone in Handjeri (II, 180).

(2) In the MSS (T and G) this name is spelt *dalbûb* دلبوب; we corrected it according to the printed edition of the text of IB.

Galen VI (XI, 862) : Its seeds are hot and strongly diuretic.

Diosc. : The seeds of all these kinds [*fol. 31 v*] are heating, diuretic and sedative to colic and chronic cough. As to the kind called *Krêtikós*, its root is also drunk, with wine, against the venom of reptiles.

Another author : It purifies the uterus and promotes conception, and is anaphrodisiac. If mixed with celery seeds, its activity is increased.

COMMENTARY

The name *dawqû* or *dûqû* دوقو was in use in the Arabic medical literature (*e.g.* Ibn sînâ), for the seeds of the wild carrot (*Daucus Carota L. var. Boissier Wittm., see* above p. 395) while the name *dawqus* or *dûqus* دوقس used to designate the *daukos* of Diosc. Idrîsî, indeed, treats the two articles separately (p. 102, of the Istanbûl MS.), while IB describes them together under the names of *gazar barri* جزر برى and *dûqus* ; the spelling of *dûqû* in the two MSS of Gh is an error either of the author or of an old copyist.

The plants designated by Diosc. under the name of *daukos* were definitely identified by the botanists of the XIXth century (Sprengel and Fraas). The first and most important kind is the Cretan carrot (*Athamanta cretensis L.*, Umbelliferæ). It is a plant of the mountainous regions of Central and South Europe. The second is *Peucedanum Cervaria Laspeyr.* (Umbelliferæ) of the same habitat, and the third is probably *Seseli ammoides L.* (umbelliferæ). Theophr. calls it δαῦκον (*daukon*), but his text is corrupt at that particular passage.

The paragraph on *dawqus* by Gh was abridged by BH, as appears from the quotation of Gh's own words by IB, which is much more detailed. IB adds his own remarks on the third kind of *dawqû* which was called in Syria

qumaila قميلة ("little louse," on account of the appearance of the seeds), and in Palestine *hashîshat al-barâghîth* حشيشة البراغيث, because its seeds were used mixed with oil to kill fleas.

In India, the fruit of *Peucedanum grande Clarke* has been adopted as a substitute for the *daukos*-seeds of the Ancients. It is called in the drug-bazaars of Bombay *dûqû* (Dymock 11, 126). In Persia, the name *dûqû* is applied, as in old times, to the seed of wild carrot only (Schlimmer, p. 176). The Arabic and Persian medical writers all repeat the chapter of Diosc. We reproduce here only the translation of a short paragraph by Maimonides (MS. Istanbûl, fol. 82) in which he emits another opinion : "*Dûqû*. Most of the commentators said that it was the seed of the wild carrot................. Later writers in our land (Morocco) preferred to see in it the seed of *al-akhilla* الأخلة (*Ammi Visnaga Lam.*, tooth-pick). This is the plant which is used as tooth-picks and which is known to the inhabitants of the Maghrib as *al-muntina* المنتنة ("the fetid") and which is burnt in the ovens." The fruits of *Ammi Visnaga* are, indeed, very much like those of *Athamanta* and *Daucus*, and so it is possible that they were used in the Maghrib, where the plant is very common, as a substitute for them.

Synonyms for *Athamanta cretensis L.* : Gr. : δαῦκος Κρητικός (*daukos Krêtikós*, Diosc.) ; Lat : daucus Cretæ (Pliny) ; Ar. : *dûqus* دوقس, *dûqû* دوقو, *hashîshat ar-ru'âh* حشيشة الرعاة ; Pers. : *dûqû* دوقو ; Turk. : *Girid ha'uju* كريدهاوجى (*i.e.* Cretan carrot) ; Eng. : Cretan carrot, Candy carrot, Fr. : daucus de Candie, athamante de Crète ; Germ. : kretische Augenwurz, kandischer Mohrenkümmel (the seeds).

245. Dibq دبق Mistletoe-lime (from the oak-mistletoe, Loranthus europaeus L. Jacq.).

(Lecl. No. 848).

in Andalusia, that it is called in Syria *darûnag ʿaqrabî* درونك عقربی (scorpion-like doronicum), and that it is known in two varieties, a Persian and a Turkish one, of which the latter is more valued.

SYNONYMS : Gr. : σκορπίος (*skorpíos*), θηλύφονον (*thêlýphonon*), μυόφονον (*myóphonon*), μυοκτόνον (*myoktónon*), κυνοκτόνον (*kynoktónon*), παρδαλιάγχης (*pardaliángchês*), ἀκόνιτον (*akóniton*), (Partly THEOPHR., partly DIOSC.) ; Lat. : scorpion, aconiton, thelyphonon (PLINY) ; Ar. : *darûnag* درونج, *habbâs* حباس (Gh), *darûnag ʿaqrabî* درونج عقربی (Syria), *ʿuqairiba* عقيربه (IB), *dhanab al-ʿaqrab* ذنب العقرب (" scorpion's tail," ISSA) ; Pers. : *darûnag* درونك. *darûnag ʿaqrabî* درونك عقربی (VULLERS, SCHLIMMER) ; Turk. : *durunaj* درونج ; Eng. : leopard's bane, panther's bane, doronicum ; Fr. : doronic, mort aux panthères ; Germ. : Skorpion-Gemswurz, Leopardenwürger, Schwindelwurz.

243. Dâ al-Gabrûnag دا الجبرونج (1) Grains of (Embelia Ribes Burm. ?)

It is also called *dânag abrûnag* دانج ابرونج. This is the grain which is known to our druggists (in Spain) as " the white pepper ; " it is known in the Orient under this name.

AL-MAGÛSÎ : It is a grain which is brought from the mountains in Persia, is triangular in shape, hot in the first degree and increases the quantity of the sperm.

COMMENTARY

The title-name of this chapter is mutilated, and the name of the drug itself is rendered by several authors in different forms. IB spells it like Gh, *dânag abrûnag*, Mîr Muhammad Husain in his *Makhzan al-Adwiya* (Calcutta Edition, p. 412) *dânaj abrûj* دانج ابروج. SERAPION (p. 9, No. 4)

(1) Probably a corrupt form of the following name *dânag abrûnag*. The printed edition of IB misspells *dâlag abrûg* دالج ابروج. *Dànak* دانك. is the Persian term for a little grain.

mentions it under the name of *abrung*, and the editor Guiges supposes that it is identical with *birang*, but is unable to determine the drug. Some botanists thought that this was the heart-pea (*Cardiospermum Halicacabum L.*), an Indian seed ; but DYMOCK (1,367) wrote : " We think that there can be little doubt that the *abrong* of Serapion is the fruit of *Embelia Ribes*, the.............. 'spotted grain' of the Hindus." We accept this hypothesis, although we never met anywhere with the name " white pepper " for this drug. But according to DRAGENDORFF (p. 514), the grains of Embelia Ribes are in use in Turkestan as a substitute of pepper. We refer to our paragraphs, Nos. 171 and 172 on p. 336. The grain mentioned by ʿAlî ibn al-ʿAbbâs al-Magûsî may be something else, as it was produced in Persia, while Embelia Ribes is an Indian plant. IB gives the name *qurtum Hindî* قرطم هندی (Indian safflower) which agrees well with the grain of *Embelia Ribes*.

244. Dûqû دوقو CRETAN CARROT (Athamanta cretensis L.). (Lecl. No. 970, *dûqus* دوقس).

DIOSC. 111 (72) : It is of three kinds : one which is called Κρητικός (*Krêticós*), has leaves like fennel (*râziyânag* رازيانج) except that they are smaller, thinner and about a span long. Its umbel is like that of coriander (*kusfara* كسفره), its flower white, and in it grows a white and acrid fruit on which there is down ; if chewed it is of aromatic flavour and smell. Its root is of the thickness of a finger and one span long. It grows in rocky and sunny places. There is a second kind resembling celery (*karafs* كرفس), of aromatic smell and has a sharp taste. It has a fruit which burns the tongue. The first kind is better. There is still a third kind with leaves like coriander (*kuzbara* كزبره) and white flowers. Its capitulum and fruit are like those of dill (*shibith* شبث) and its umbel-fruits are like that of carrot (*gazar* جزر) filled with oblong cumin-shaped seeds. It is of an acrid taste.

COMMENTARY

This chapter was much abridged by BH. The quotations are found, in a more complete form, in the text of IB who, moreover, gave his own description of the plant *Doronicum* or leopard's bane, which he saw in Spain and in Syria. His paragraph is much more instructive than the foregoing chapter of Gh.

In this chapter he treated two different kinds of *darûnag* درونج, or leopard's bane: one is *Doronicum Pardalianches L.*, a European composita which is at home in the mountains of Europe and Western Asia; the other is *Doronicum scorpioides Lam.*, a native of the mountains of Central, South and East Asia. Both of them have rhizomes with articulations like the tail of a scorpion. Therefore, according to IB, the plant was called in the Lebanon Mountains of Syria, where it grows in abundance, *ʿuqairiba* عقيربه, ("little scorpion"). Owing to the shape of the rhizome, this drug was used in the Orient against the sting of scorpions. About the use of the rhizome in India, *see* DYMOCK II, 293 and HONIGBERGER II, 269 (*Daronica*). Its medicinal properties are mostly tonic. There is no evidence about the pretended poisonous qualities of the root.

In Antiquity, THEOPHR. (IX, 13, 6) described a plant with a scorpion-like root under the name of σκορπίος (*skorpíos*), which must be a *Doronicum*; the other names for this plant, θηλύφονον (*thêlýphonon*), μυόφονον (*myóphonon*) and ἀκόνιτον (*akóniton*) are identified by Sir Arthur Hort with *Aconitum Anthora*. The *akoniton* of DIOSCURIDES (IV chap. 76), however, for which he gives the names of παρδαλιάγχες (*pardaliángchês*), κυνοκτόνον (*kynoktónon*), μυοκτόνον (*myoktónon*), etc., was identified by the old botanist Dodonaeus with *Doronicum Pardalianches L.*, and modern botanists generally agree with him. PLINY mentions it under the names of *aconitum, thelyphonon* and *scorpion.*

Amongst Arabic authors, Gh alone mentioned the name *al-habbâs* الحباس ("the restrainer," or perhaps "the strangler"?). *Darûnag* درونج is the Arabicised form of Persian *darûnag* درونك. IDRÎSÎ (p. 107) gives a mutilated Persian name, *jârkuwâ* جاركوا, and says that the root of *darûnag* is imported from China and India, but that the Chinese kind is better. BÎRÛNÎ, living in Afghanistan, mentions two kinds: Roman (*rûmî* رومى) and a larger kind imported from Samarcand (in Turkestan). He gives as an Indian name of *darûnag*: *sunghâwat* سنكهاوت or *sunghâwart* سنكهاورت. The former is still the name for "odoriferous plant," in modern Hindûstânî.

DÂWÛD (I, 298) gives a good description of the plant from his homeland, Syria: "It is a plant well known in the Syrian Mountains, and particularly in Beirût. It has leaves which stick to the soil like those of the loofah (*lûf* لوف, towel gourd) and which are downy; in their centre rises a hollow stem two cubits high(1), on which are small leaves distant from one another. On its top grows a yellow flower. This plant reaches maturity in the months of *Misrâ* and *Aylûl*(2), and its properties persist for ten years after its maturity. What is used of it are its roots. The best are those which are similar to scorpions, yellow outside, white inside ...."

The Moroccan author of TUHFA (No. 119) said that the drug did not exist in his land, but was imported thither from the Orient. The commentators Renaud and Colin certify indeed, that there is in the Atlas Mountains only another kind of Doronicum, *D. atlanticum Chabert* which does not seem to be in medicinal use with the natives.

The Persian Mîr Muhammad Husain, in his *Makhzan al-Adwiya* (p. 420 of the Calcutta print) gives the same description of the plant as DÂWÛD, and adds that the plant grows

(1) In Europe it does not reach this size.

(2) *Misrâ* مسرى is the Coptic name for the month of August, and *Aylûl* ايلول its Syrian one.

We did not find the name *dabîdâryâ* in the drug lists of other Arabic or Persian physicians, except in Mîr Muhammad Husain's *Makhzan al-Adwiya* مخزن الادوية. Its name has certainly come from India, through the Persian and Syrian languages, and been used in its Syriac form in Ibn Wahshiyya's "Nabataean Agriculture."

241. Duâghriyâ or Dawâghriyâ دواغريا, Undetermined.

(Lecl. No. 968, *duwâyâ aghriyâ* دوايا اغريا).

Agriculture: It is a stem which grows between rocks and in barren[1] and hard soil. It reaches the height of a span, is solid inside and green but a little inclined to yellowish. It bears on its top four quadrangular-shaped leaves, whitish-green, and over them grows something inside which are seeds, without a flower. It has fragrant smell. It is good for the stomach, diuretic and laxative, if taken raw and not boiled. It is a good corrective for soaps.

COMMENTARY

The name *dawâghriyâ* دواغريا or *dawâyâ aghriyâ* دوايا اغريا as it is spelt by IB, is probably of Greco-Syriac origin (ἀγρία *agría*="*wild*"). In spite of the rather detailed description, no identification of the plant in question has been possible. It may have been a woolly desert plant, but its description does not agree with any of the known species. The only author, besides Gh and IB, who reproduced a paragraph on this plant, was Idrîsî. We read in his manuscript work on Simple Drugs (p. 101) the following: "*Duâghriyâ* دواغريا. Dioscurides left it out and did not mention it. But Abû Bakr ibn Wahshiyya mentioned it in his book "Selection of Remedies" which he abstracted from the *Nabataean Agriculture*. He says: "It is a stem, etc."

(1) Gh and IB read *khasiba* خصبة (fertile); Idrîsî has the better reading *barriyya* برية ("barren, sterile, desert").

Then follows the entire paragraph, but more completely quoted than by Gh and IB. He says, *e.g.* about the root; "It has a root which has no odour, is formed in one piece and has no bark; it is solid inside and outside." He also discusses the medical uses of the plant in a more detailed manner.

242. Darûnag درونج, Leopard's Bane (Doronicum scorpioides Lam.) and (D. Pardalianches L.).

(Lecl. No. 862).

It is *al-habbâs* الحباس (1).

Ibn 'Imrân: Twigs (roots) about the size of Zizyphus (*'unnâb* عناب) which are imported from China. They enter into the composition of the great electuaries.

Ibn Sînâ(2): *Darûnag* are pieces of woody roots in the size of a carpal (wrist) bone; they are yellow and white inside and rather hard and heavy. It is hot and dry in the third degree.

The Author: This is the description of the *Doronicum* which is in use here (in Spain) and which grows commonly in our land; it is hard to break, of bitter taste and with a slight aromatic flavour. Concerning the drug described by Is-hâq ibn 'Imrân, I have never seen it.

Masîh: It is hot and dry in the third degree, useful against the sting of venomous reptiles.

Mâsargawaih: It is useful against flatulence.

(Râzî) said in the *Continens* (3): It is useful against pain in the throat and mouth, and against black-bile (diseases).

Another Author: Its best kind is that from Khurâsân (Khorassan in East Persia); next to it comes the Syrian.

(1) MS (G) reads *al-gabbâs* الجباس

(2) *Qânûn*, Bûlâq edition, Vol. 1, p. 289.

(3) This is Rhazes' enormous encyclopædia of therapeutics, called in Arabic *al-Gâmi'* الجامع ("The Compendium") or *al-Hâwî* الحاوى ("The Comprehensive"), and in Latin *Continens Medicinæ*.

Synonyms : Gr. : μηλοπέπων (*mêlopépôn*, Hellenistic, Oribasius) ; Lat. : same name (Pliny) ; Syriac : *pettîhâ*(1) פטיחא (Loew I, 552) ; Ar. : *dullâʿ* دلاع (Maghrib, Gh., Idrisi), *bittîkh hindî* بطيخ هندى, *bittîkh sindî* بطيخ سندى, *bittîkh shâmî* بطيخ شامى, *b. filistînî* بطيخ فلسطينى (Maim.), *b. mâwî* بطيخ ماوى (Egypt, Dâwûd); for other names *see* Issa (p. 50) ; Pers. : *hinduwâna*, *hindiwâna* هندوانه, *tarbuz* تربز and *tarbûz* تربوز (Vullers II, 1476), *kharbuz-i-hindî* خربزه هندى (Vullers II, 686) ; Turk. : *qârpûz* قارپوز, *fejj* فجّ (Avni, p. 449), and the Arabic names ; Eng. : water-melon ; Fr. : pastèque (derived from Arabic *battîkh*) ; Germ. : Wasser melone ; Span. : melon de agua ; in some parts of Spain the name *sandia* seems to be a remainder of Arabic *bittîkha sindiyya* بطيخه سنديه (Sindian water-melon).

240. Dabîdâriya ديداريا, Bastard Cedar ? (Erythroxylon monogynum Roxb.).

(Lecl. No. 849).

Agriculture : This is an Indian herb with a burning taste growing on a woody but not sappy stem ; on the stem grow shoots like branches, moist and reaching the height of one cubit. Its leaves resemble those of buphthalmum (*bahâr* بهار, *Anthemis arvensis L.*) and are of a deep green colour. During spring there grows on it a nut (fruit) like that of cotton, without being preceded by leaves (2). Inside it are grey round seeds which are used in cooking. It is fragrant but has a burning and slightly bitter taste. Its wood is used as tooth-picks, and is useful to the gums. Its odour is like that of savin (*abhul* ابهل) except that it is weaker. It is suitable to sufferers from plegia, facial paralysis and gout ; it is sometimes eaten with milk.

(1) The Arabic *bittîkh* is derived from this Aramaic name.

(2) IB's text reads : " By flowers " which is probably more correct.

COMMENTARY

Nobody has been able, as far as we know, to identify this name, *dabîdâriyâ* . ديداريا. The likeness of it to *dabîdâr* ديدار, the Perso-Arabic name of the Himalayan cedar-tree (deodar, from Sanscrit *deva-dâru*), led us to look for an Indian shrub with cedar-like qualities. We found the bastard-cedar (also called red cedar or bastard sandal), *Erythroxylon monogynum Roxb.*, which is a shrub with a woody stem, pale bark and cuneate obovate leaves. It is a native of the western parts of the Indian hills and of Ceylon, and may have reached the Islamic World by sea. It is still called in Tamil language *tevadarum* or *devadarum*. Dymock (I, 242) wrote about it the following note : " The leaves of this plant are refrigerant, and were largely eaten during the famine in the Madras Presidency, in 1877, by the natives of several districts where it grew wild in abundance ; it was thought probable that they might be found to contain an alkaloid with properties similar to those which are obtained from *Erythroxylon Coca*"(1). This was not confirmed, but a bitter and tonic alkaloid was found which " may have mitigated the pangs of hunger." The bark is still used as a tonic in the Madras district. The wood is fragrant and has a cedar-like smell, whence come its native and English names.

We think that all this is well in accordance with the paragraph of the " Agriculture "(2) quoted by Gh. Only the description of the fruit is not quite suitable, as the fruits of the Erythroxylaceae are generally very small and have only one or two seeds. The tonic qualities of the leaves may have been discovered very early by Indian medical men, and that explains its use for paralytic affections of the nervous system.

(1) This is the American relative of our plant, and the producer of natural cocaine.

(2) This is probably the " Nabataean Agriculture " by Ibn Wahshiyya. *See our Introduction* No. 24, p. 15.

heat in the stomach and generating thick and dry blood and moist phlegm.

COMMENTARY

Dullâ' is the Arabic name of one of the many varieties of water-melon (*bittîkh* طبيخ) in the Western lands of the Islamic world (Spain, Morocco, etc.). MAIM. (No. 98) says: "*Dullâ'* is the Palestinian water-melon, and is also called Syrian or Indian water-melon. The common people of Egypt call it "the green water-melon" (*al-battîkh al akhdar* البطيخ الأخضر)." This is the common water-melon (*Citrullus vulgaris Schrad.*) of which there are several varieties in Egypt alone(*see* ISSA, p. 50 foll.), with green peel, blood-red pulp and black, white or light-brown seeds. The drier and hotter April and May are, the sweeter and juicier it grows. The French name *pastèque* is derived from modern Arabic *battîkh*. The native land of the fruit is probably South Asia, perhaps the sunny and well-watered Lower Indus Valley (1). The Persian name of the water-melon, *hinduwâna* هندوانه indicates its origin from India. The seeds of the water-melon are used everywhere in the Orient as an aliment and a remedy. About the different Indian kinds and their uses *see* DYMOCK (II, p. 64). The medieval cultivation of the water-melon (*dullâ'*) in Spain was described by IBN AL-'AWWÂM (I, 221 foll.).

The water-melon seems to have been unknown to the classical Greek period; THEOPHR. and DIOSCURIDES do not mention it. Oribasius (IVth century A.D.) and the Byzantine physician Simeon Seth first speak of it under the name of μηλοπέπων (*mêlopépôn*, *i.e.* "apple-melon"). This name was already known to PLINY. Among the Arabic-writing authors, ar-Râzî (Rhazes), in his book "On the Utility of Aliments and the

(1) *See* the foregoing note and V. Hehn (*Cultivated Plants and Domestic Animals in their Migration from Asia to Europe*. London, 1891), p. 239.

Prevention of the Harm They Cause"(1), recommends strongly the water-melon as an aliment and a remedy for high fevers. IDRÎSÎ (p. 106) gives the Persian name *kharbuz* خربز, a Hebrew name *bakû'ûth* بكوعوث (probably a misspelling), an East Turkish name *qash qarâ* قش قرى (*kharpuz*?) and a Turkish name *shattâ* شتى. He mentions that in his time (XIIth century A.D.) the water-melon was much cultivated in Egypt. IB quotes, besides ar-Râzî, at-Tamîmî and Masîh ibn Hakam, all of whom speak about the qualities of several other kinds of melons and water-melons. DÂWÛD (I, 103 foll.) has a long and learned article on melons and water-melons. Concerning the latter which he calls *bittîkh akhdar* بطيخ أخضر ("green melon") he says: "Its best kind is that which is striped, and in which the stripes join together at the root of the fruit at one point, and that which is spotted, shining and hard. The worst kind is that which is soft and smooth. The Indian water-melon, in the widest sense of the word, to which belongs that kind which is called in Egypt *al-mâwî* الماوى ("the watery"), is undoubtedly the best kind of water-melon. It stops putrefaction (in the intestines) at once, and roots out fevers....... Next to it in value is *al-'abbâsî* العباسى which is known in our land (Syria) as "the Ethiopian" (*al-habashî* الحبشى); but inferior to both is *al-higâzî* الحجازى (from *Higâz* in Western Arabia). The latter is small and very sweet, and is called *al-hagab* الحجب. The kind brought from Turkey is a hard one, reddish in its interior, split up like sugar, but difficult of digestion ......" Then follow many advices about the application in medicine of the different kinds of these fruits.

The fried pippins of the water-melon are sold everywhere in Egypt, but they are not mentioned by DUCROS.

(1) كتاب منافع الاغذية ودفع مضارها لأبى بكر محمد بن زكرياء الرازى . مصر ١٣٠٥ ص ٤٦

Turk. : *dûm* دوم ; Eng. : Egyptian doum palm, gingerbread tree ; Fr. : doum, palmier doum, cucifère thèbaique ; Germ. : ägyptische Dumpalme.

238. Dukhn دخن, Great Millet, Black Millet, Bristle-Grass, etc. (Andropogon Sorghum Brot., Sorghum, Pennisetum, Setaria, etc.).

(Lecl. No. 858).

Diosc. II (98) : Ἔλυμος (*élymos*). It is less nourishing than the millet (*gâwars* جاورس; *see* above No. 201) and less astringent.

Galen VI (XI, 875) : This is a kind of cereal, and is like millet in appearance ; its faculties are also similar, except that its nourishing quality is inferior to that of the millet.

COMMENTARY

Considering the great number of millet-like cereals and their varieties, it is not possible to identify the *élymos* of the Greeks and the *dukhn* of the Medieval Arabs. Sir Arthur Hort, the translator of Theophr., takes *élymos* (or μέλινος *mélinos*) for the Italian bristle-grass (*Setaria italica Beauv.*) which was found in European prehistoric sites and tombs, (Hungary, North Italy, etc.). It is much cultivated in modern times in the lands of the Far East and in India The same identification is proposed by Clément-Mullet in his translation of Ibn al-ʿAwwâm's " Agriculture," for the name *dukhn*. This name was in use, in the Arabic botanical treatises, for *Andropogon Sorghum Brot.*, for *Panicum miliaceum*, *Penicillaria Pluckenetii A. Br.* (Issa, p. 136) and *Pennisetum spicatum Kcke.* According to Schweinf. (P. 59) it is this latter plant which is called *dukhn* in our days in Upper Egypt and the Sudan, while in Syria the name *dukhn* is applied to *Setaria italica*.

In Ancient Egypt cereals corresponding to the *dukhn* of our time were unknown. What is called *dukhn* at present in Africa and in most of the botanical treatises of our time, is *Pennisetum typhoideum Rich.* (*Penicillaria spicata Willd.*). It is a typical cereal of dry climates, and much more nourishing than other kinds of millet. Some authors thought that this plant was identical with Assyrian *duhnu*, Hebrew *dôhan* (Loew I, 739), suggesting that it may be of Mesopotamian and not of African origin.

Ibn al-ʿAwwâm (I, 74 foll.) treats of the cultivation and panification of *dukhn* in Spain ; it is rather difficult to make bread of most of the kinds of millet. Idrîsî (I, p. 101) describes the difference between *dukhn* (*élymos*) and *gâwars* جاورس (*kénchros*), in that the panicle of the former is coherent —which is in accordance with *Pennisetum typhoideum*—while the latter has a branching raceme or panicle. In other Oriental authors we did not find any description helping a better identification of *dukhn*.

Synonyms : Copt. : ϩⲟⲧϥ ? ; Assyrian : *duhnu* ; Heb. : *dôhan* דחן ; Gr. : ἔλυμος (*élymos*), μέλινος (*mélinos*, Theophr.), μελίνη (*melínê*, Diosc., Galen) ; Lat. : panicum (Pliny) ; Ar. : *dukhn* دخن ; Pers. : same name and *gâwars* جاورس ; Turk. : *qaraja dâri* قره جه داری , *suret dârisi* صورت دارسی, *jevâz dâri* جواز داری, (Handjéri, III, p. 10) ; Eng. : black millet and bristle grass ; Fr. : panic, millet noir ; Germ. : Negerhirse Rispenhirse, Borstenhirse.

239. Dullâʿ دلاع, Water-Melon (Citrullus vulgaris Schrad.) and its varieties.

(Lecl. No. 304, *bittîkh hindî* بطيخ هندى).

Dullâʿ دلاع is the water-melon of Sind[1] and India. It is cold, moist, consistent, very slow of assimilation, extinguishing

[1] The Lower Indus Valley.

COMMENTARY

Dawm دوم, at the present time pronounced *dôm*, is the fruit of the Egyptian doum palm-tree (*Hyphaene thebaica Mart.*, modern botanical synonyms in ISSA, p. 97, 2). The tree itself bears in Arabic the same name. It is a palm-tree characteristic of Upper Egypt and Nubia, but found as far North as the Sinai-Peninsula and the Oasis of Sîwa in the Lybian Desert. It is remarkable for its dichotomously branched trunk and its brown-polished pear-shaped fruit, a nut which has a spongy shell and a very hard stony kernel. The fibres of the pericarp ("sarcocarp") are impregnated with sugar and contain a sweetish pulp which has a taste of gingerbread, and is eaten by the natives. The nuts are frequently found in ancient Egyptian tombs, and that of the Pharaoh Tut-Ankh-Amon contained many baskets full of them. They are to-day a bazaar drug in Cairo—a fact which escaped the attention of DUCROS who omitted the mention of this drug in his list. The ancient Egyptian and Coptic names of this drug are: *mama*, the tree, *kw kw* (qû qû) the fruit; ⲃⲏⲛⲛⲉⲕⲟⲩⲕⲉ, ϭⲟⲩϭ, ⲕⲟⲩⲕ.

The supposed resin of the doum palm (1) was for a long time in use as a diuretic and diaphoretic remedy, Its Arabic name *muql* مقل corresponds to Greek βδέλλιον (*bdéllion*) (the doum resin is called in Arabic *muql makkî* مقل مكي "*muql* from Mecca"), and so its medicinal name in Europe was *Bdellium aegyptiacum*—not to be confused with the *Bdellium africanum* and *indicum*, from different kinds of *Balsamodendron*. THEOPHR. (II, 6, 9 and IV, 2, 7) mentioned the doum palm under the name of κουκιόφορον (*koukióphoron*), and PLINY (XIII, 38 and 62) described it as *cuci* (2), while

(1) Probably the gum of *Balsamodendron africanum Engl.*!

(2) This name is evidently derived from Egyptian *qûqû*.

DIOSC. did not mention it. Pliny mentions the use of the leaves of doum for household mats, etc.

Ibn Sîda, the author of the early Arabic dictionary *al-Mukhassas* المخصص (Xth century A.D.) writes a whole chapter on *dawm* (Bûlâq Edition, Vol. XI, p. 136 foll.) and gives many Arabic names for the tree and its products which are mentioned by ISSA (p. 97). Ibn as-Sikkît and other Arabic philologists give for the fruit the name of *waql* وقل besides *muql* مقل. There are many names for the leaves of the doum palm which are used for mats, curtains and baskets.

The Persian authors did not know the doum nut and resin. The Arabic-writing physicians only repeated Abû Hanîfa ad-Dînawarî's article which was quoted by Gh. It is curious that IB, Suwaidî, Maimonides and Dâwûd, who all lived in Egypt, did not write in detail about this very Egyptian tree and its fruit.

In Western North Africa, the name of *dawm* is applied to the dwarf palm *Chamaerops humilis L.* The gum of the real doum is known in Morocco as *khashâl* خشال (*Tuhfa* No. 61). There are other kinds of *Hyphaene* in Central Africa, equally furnishing gingerbread-like fruits; but it is not probable that they were known to the old Arab scholars. As to the terms for leaves, fruit and gum given by Abû Hanîfa, they are missing in the Arabic dictionaries and may be of Nubian or Sudanese origin.

SYNONYMS: Eg.: (*mama*) the tree, (*kw kw*) the fruit; Copt.: ⲃⲉⲛⲛⲉⲕⲟⲩⲕ, the tree, ϭⲟⲩϭ, ⲕⲟⲩⲕ the fruit; Gr.: κουκιόφορον (δένδρον) (*koukiophoron déndron*, THEOPHR..); Lat.: cuci (PLINY); Ar.: *dawm*, *dôm* دوم, *shagarat al-muql* شجرة المقل, *ʻilb* علب (South Arabia, LOEW II, 303)(1); for other names *see* ISSA, p. 97; Pers. and

(1) Ethelbert Blatter (*Flora of Aden*, Calcutta 1914. p. 348) gives as an Arabic name in use in Egypt *mama*; this is an apparent confusion with the ancient Egyptian name.

a tree with red florescence. It is called *dâdhârwân* داذاروان and according to another manuscript *dârârwân* داراروان (1). What we know about it is, that it is a lofty tree, that its flowers grow close together, are of pure red colour inclined to purple and a pleasing sight. It has no other fruit than that by which the kind is propagated, *viz.* the wild kind. This is the colour of clothes which was in bygone times exclusively used by the Caesars (Roman Emperors) and forbidden to others. Linguists apply it (the name *arghawân*) to anything which is deep red. It is said that the *dâdhî*-tree شجرة الداذى has some likeness to it; but this name, *viz. arghawân*, is better known to us than (that of) the *dâdhî*-tree."

Among the scholars of the Western Islamic world, Idrîsî, Gh's contemporary, gives the best description of the tree. He apparently never saw the haricot-like pods of the plant. He says (p. 104 of the Istanbûl MS.): "*Dâdhî* .... It is the fruit of a tree like a mulberry-tree, great and overhanging. It has purplish flowers of intense colour and fragrant smell which are succeeded by blackish barley-shaped grains of bitter taste; they are pounded and put into date wine, in Baghdad and the 'Irâq, to perfume it."

Dâwûd (I, 293) (2) gives a shorter account, but adds that *dâdî* is the grain from a tree which grows in the mountains of Persia, that the grain is gathered at the end of autumn and loses its active faculties after four years. At another place he describes *argawân* (I, 80) without realising that it is the same tree as *dâdî*.

As to the name *dâdî rûmî* دادى رومى it is, as told by Gh, an identification made by Hunain ibn Is-hâq in his first translation of Diosc.'s *Materia Medica*, with the *Hyperikon*

(1) Probably misspellings of *dâr-i-arghawân* دارارغوان, *i.e.* Judas-tree.

(2) In the printed Cairo text *dârî* دارى, mistake of the copyist or printer.

of Diosc. We shall treat this question in the next section (Letter *Hâ'* ه, *hayûfârîqûn* هيوفاريقون, Vol. II.).

Concerning the other applications of the name *dâdî*, Maim. (fol. 81 *v*) says, like Gh, : "*Dâdhî al-qatrân* داذى القطران is the pure tar." The other meaning of *dâdî*, *viz.* pine torch, is evidently derived, as explained by Gh, from Greek: the term δαΐς gen. δαΐδος (*daïs, daïdos*) or δᾴς gen. δᾳδός (*dâs, dâdós*) is derived from δαίω (*daíô*, to kindle) and designates a fire-brand or pine torch.

Synonyms for *Cercis siliquastrum L.*: Gr.: κερκίς (*kerkis*, Theophr.); Lat.: cercis (Medieval); Ar.: *dâdîn* دادين (Gh.), *dâdî* دادى, *dâdhî* داذى, *argawân* ارجوان; Pers.: *arghawân* ارغوان *dâr-i-arghawân* دار ارغوان (Bîrunî); Turk.: *erghevan aghaji* ارغوان اغاجى; Eng.: Judas-tree; Fr.: gaînier commun, arbre de Judée; Germ.: gemeiner Judasbaum; Span.: algarrobo loco.

237. Dawm دوم, Doum-palm-fruit (of Hyphaene Thebaica Mart.).

(Lecl. No. 967).

Abû Hanîfa: It is *al-muql* المقل. It is a tree from which shoot off palm leaves (*khûs* خوص) like those of the date-palm, and its bracts (*afnân* افنان) grow equally like those (of the date-palm); on them grow the fruits (*muql* مقل). Its palm leaves are called *at-tufî* الطفى; they are compact and strong, so that mats and ropes are made of them. Its fruit is called *al-muql* المقل, when fresh *al-bahushaq* البهشق and when dried *al-khashî* الخشى; its twigs are called *al-khashul* الخشل.

Another Author: Its fruit is astringent [*fol. 31 r*], confining the bowels, its pith (*gummâr* جمار) is drying, a little nourishing, difficult of digestion and strengthening the stomach. If cooked and fried its digestive powers are increased and its harm is diminished.

Another Author : *Ad-dâdî* is hot and dry; if drunk it causes a sensation of heat and redness in the cheeks, and vertigo.

Al-Mâgûsî (1) : Its best kind is that which is red, fresh and of fragrant smell. It is cold and dry, but it contains a certain amount of bitterness which causes acidity. It is astringent. If it is drunk in the dose of two drachms with sugar, it is useful against hæmorrhoids.

COMMENTARY

The name *dâdîn* دادين is not found in any Arabic or Persian treatise on pharmacology except in our own. On the contrary, the second name *dâdî* دادى is well known, but is frequently spelt *dâdhî* داذى. Its explanation offered hitherto great difficulty, but the present article of Gh gives for the first time a plausible one. His clear botanical description allows an exact identification of the plant in question. Apart from this, the term *dâdî* was in use for various other things, as explained by Gh. In IB's book, the chapter on *dâdî*, (No. 843) contains only the description of a grain, probably the lichen *Lecanora esculenta* (*see* above No. 222), following Ibn Sînâ and ʿAlî ibn al-ʿAbbâs al-Magûsî, the two Persian authors. Had IB reproduced Gh's article the identification of the drug in question would have been fixed a long time ago.

The description given by Gh is applicable to the Judas-tree, the leguminosa *Cercis Siliquastrum L.*, which is indigenous to Southern Europe and the Near East, including Persia. It is a tree of 6–7 metres in height, with round leaves and beautiful purplish flowers which break out from the wooden branches apart from the leaves. The European name comes from the legend that Judas had hanged himself on this tree, which is frequent in Palestine(2). The leaves are eaten in

(1) *See* Introduction No. 27, p. 17.
(2) Ten other kinds of trees were said to be those on which Judas hanged himself, *e.g.* the willow, birch, fig-tree tamarisk, sycamore-fig-tree, etc. (Loew II, p. 407).

Europe as salad, the buds, which have an acrid juice, as a substitute for capers. There is no medical use known for the plant in Europe. We found in the above-mentioned book of Charles de l'Ecluse(1) a good description and a wood-cut figure of this tree under the Latin name *Siliqua silvestris*, and the Spanish name *algarrobo loco* ("*wild carob*"). He says, moreover, that the Moorish inhabitants of Granada—probably the remaining descendants of the Arabic domination—call it *Dit*; this may be a mutilation of *dâdîn* or *dâdî*. The use of the *dâdî*-grains for fermenting date and grape wine is mentioned by all the Mohammedan medical writers, from Ibn Sînâ in the Xth century down to Dâwûd al-Antâkî in the XVIth century. Ibn al-ʿAwwâm (I, 303 foll.) speaks about the cultivation of the *dâdî*-tree in Spain. Clément Mullet supposed that this could refer to the Judas-tree.

The same tree is mentioned by Persian authors and also by Ibn al-Baitâr under the name of *argawân* أرجوان which is the Arabic spelling of Persian *arghawân* أرغوان. Vullers (I, 81) identifies it with the Hebrew and Syriac *argemôn*, but this seems to be a mistake, as Loew (II, 407) does not know any Hebrew or Syriac name of the tree. The word *arghawân* denotes, however, in Persian, purple colour, with the adjective *arghawânî* أرغوانى (purple-coloured). These designations are evidently taken from the colour of the *Cercis*-blossoms. Articles on *arghawân* exist in many Persian and Arabic treatises on pharmacology. The most instructive is found in Bîrûnî's unedited drug-book (MS. of the Library in Brussa, Asia Minor). It reads as follows (2) :

"*Argawân*. Hamza (3) says : It is the Arabicised form of (Persian) *arkawân* اركوان (pronounced *argawân*) ;

(1) Caroli Clusii Atrebat. *Rariorum aliquot Stirpium per Hispanias observatarum Historia.* Antverpiae, 1576, p. 42 foll.
(2) We reproduce this interesting passage in the margin of the Arabic text.
(3) Hamza al-Isfahânî حمزة الاصفهانى , a famous Persian historian and philologist of the Xth century A.D.

The Oriental authors do not add much to the description of the tree by the Greeks. Ibn al-ʿAwwâm (I, 372 foll.) has a whole chapter on the cultivation of the *dardâr* which he identifies, however, with the ash-tree, as he describes its typical fruits (*lisân al-ʿâsfûr* لسان العصفور, "bird's tongue"). Dâwûd (I, 399) gives the following description: "The elm (*dardâr*) is a great tree with yellow flowers and thorny leaves, and fruits like the horns of oleander (*diflâ* دفلى), full of moisture; when they ripen there come out from them gnats (*baʿûd* بعوض), and for this reason it is called "the gnat-tree" (*shagarat al-baqq*) and *al-baqqam al-aswad* (¹)." Suwaidî (fol. 77 *r*) gives as a "Greek" name *bûqîsâ* بوقيصا which seems to be Syriac, and as the name of its fruit *sunbul al-kalb* سنبل الكلب ("dog's nard").

Synonyms: Gr.: πτελέα (*pteléa*); Lat.: ulmus; Ar.: *dardâr* دردار, *shagarat al-baqq* شجرة البق, *basham or nasham aswad* بشم او نشم أسود (Spain, Gh.), *baqqam aswad* بقم أسود (Dâwûd, IB) and mutilations of this name, *shagarat al-baʿûd* شجرة البعوض (Maghrib), *bûqîsâ* بوقيصا (Suwaidî); for other names *see* Issa (p. 185) and Loew (III, 415–419). Pers.: *dardâr* دردار, *sada* سدة (Vullers, Steingass), *pashsha khâna* پشه خانه, *pashsha dâr* پشه دار, *pashsha ghâl* پشه غال, (²) *dârwan* دارون (Schlimmer), *nârwân* ناروان (Vullers), *dirakht-i-narwan* درخت نرون (Schlimmer), and the Arabic names; Turk.: *dardâr* دردار, *qara aghaj* قره آغاج ("black tree"); Eng.: elm (tree); Fr.: orme; Germ.: Ulme, Rüster, Feldrüster.

236. Dâdîn دادين, Judas-Tree (Cercis Siliquastrum L.) and some Vegetable Matters.

(Lecl. Nos. 843, 844 and 2285).

Dâdîn دادين also called *dâdî* دادى.

(¹) Dâwûd probably confused *baqq* (gnat, bug) with *baqqam* (sappan-wood).

(²) All these terms, given by Vullers (367) depend on the Persian word *pashsha* پشه, *i.e.* gnat ("gnat's house," "gnat's tree," "gnat's cave").

This is a tree known in our land (Spain) under this name. It is a great tree with round leaves like those of the common mallow (*khubbâzî* خبازى) except that they are more compact, hard and smooth. It has flowers of red colour which appear in the spring before the appearance of the leaves and which accumulate on the branches until the latter are entirely covered by them leaving no bare part. It has small husks, as long as a finger, in which are sheltered lentil-shaped grains of wine-red colour. Some people pretend that this tree is the *dâdî* دادى with which artificial wines (*anbidha* أنبذه, *i.e.* date or grape wines) are fermented in the ʿIrâq (Mesopotamia). The flowers are collected and put into the beverage in order to increase its intoxicating power. Its flowers are also eaten and they are taken as dessert so long as they are fresh.

Others pretend that the *dâdî* which is put into the wine is a kind of grain like barley, but smaller, longer and of darkish to black colour; it is not bitter in taste. In Baghdad it is put into the date wine, for it makes it stronger, increases its toxicity and prevents its becoming sour. This was mentioned by Ibn Sînâ and others.

Others, too, took it for the black pine-thistle (¹).

Hunain (²) said that Hypericum (*hayûfâriqûn* هيوفارقون) is the same as *dâdî rûmî* دادى رومى (Greek or Romaic *dâdî*).

Its root is called in the Berber language *adâd*. And *dâdî* are also lamps (pine-torches) which are made from its greasy light wood—like that of certain kinds of pine trees—which, on account of its greasiness, is easily penetrated by fire and used instead of candlesticks and lamps. These lamps (pine-torches) are called *ad-dâdî*. الدادى, being its origin in Greek, δᾳδός (*tâtus* طاطس).

Ad-dâdî is also the purified tar which is equally called *dâdî*.

Ibn Mâsawaih: *Ad-dâdî* is cold in the second degree, dry and astringent.

(¹) *See* No. 25, p. 95.

(²) *See* Introduction No. 13, p. 12.

SYNONYMS : Gr. : πλάτανος (*plátanos*) ; Lat. : platanus ; Heb. : ערמן *'armôn* ; Ar. : *dulb* دلب, *sinnâr* صنار, *'aithâm* عيثام and *'aitham* عيثم, *ad-darrâ'* الضراء (Syria, DÂWÛD) ; Pers. : *chinâr* or *chanâr* چنار, *chinâl* or *chanâl* چنال (VULLERS) ; Turk. : *chinar aghaji* چنار آغاجى and the Arabic names ; Eng. : plane-tree ; Fr. : platane d'Orient ; Germ. : morgenländische Platane.

235. Dardâr دردار, ELM TREE (Ulmus campestris L.) and others.

(Lecl. No. 861).

The Syrians call it *dardar* دردر, the Andalusians *al-basham al-aswad* البشم الأسود ([1]), and the inhabitants of the 'Irâq (Mesopotamia) *shagarat al-baqq* شجرة البق ("the gnat-tree").

IBN SÎNÂ ([2]) : It is a tree on which grow distended cones (*aqmâ'* أقماع) like pomegranates. In these cones is a moisture which is transformed into gnats (*baqq* بق) ; and when the cones burst the gnats come out.

The AUTHOR : *Baqq* بق, in the dialect of the inhabitants of al-'Irâq, is the name of the mosquito (*bâ'ûd* باعوض, or a small gnat). What we, in Spain, call *baqq* (bed bug) they call *al-angal* الأنجل ([3]). This tree is known in our land (Spain) as *al-basham al-aswad* البشم الأسود. It is a great tree with round and greenish-black leaves which have notched edges. Its wood is red inclined to black.

GALEN VIII (XII, 109) : Its leaves heal fresh wounds and its bark-fibres are more cooling ([4]) and more astringent.

DIOSC. I (84) : πτελέα (*pteléa*), *i.e. al-basham al-aswad*. Its bark, with wine or cold water, purges phlegm, and if put

(1) Concerning the spelling of this name, *see* Commentary.

(2) Bûlâq edition, Vol. 1, p. 293. Ibn Sînâ extracted from Dioscurides.

(3) This word is missing in nearly all the dictionaries, but is mentioned in *Tâg* (VIII, p. 127, last lines) as the name of one of the biting insects.

(4) In the Greek text : "more bitter."

on broken bones in the form of a decoction of its root or leaves. it accelerates their union. The moisture which is in the husks of its fruit, if smeared on the face, makes the latter shine. It is this (moisture) which, when dried up, gives birth to the animals which resemble gnats.

COMMENTARY

This chapter was also very much abridged by BH who omitted even those of Gh's quotations which were found in IB's chapter on the elm. Gh's remarks on the names of the tree are very important, for they correct the mistakes which crept into the identification and designation of the elm-tree in Oriental works. The elm (*Ulmus campestris, australis, montana*, etc.) is a European tree, but is also found in parts of Asia. The pustules which are mentioned by IBN SÎNÂ are caused by the sting of gall-lice of the genus *Tetraneura Ulmi* or *Schizoneura* ; these red or yellow pustules are sometimes very abundant. The inner bark of the tree was, not long ago, a medicinal drug (*Cortex Ulmi interior*, LUERSSEN II, 530).

The name *dardâr* دردار is Persian and has the same meaning as *shagarat al-baqq* شجرة البق, *viz.* "gnat-tree" or "mosquito-tree." The Spanish-Arabic name is spelt by Gh, in three different places, *basham aswad* بشم أسود, while the MSS. of IB give *nasham* نشم and other names. Some authors (IB printed edition and DÂWÛD) call it *baqqam aswad* بقم أسود "black sappan." We must also notice that the name *dardâr* was in use, in the Western Mediterranean regions, for the ash-tree. IDRÎSÎ (p. 199) gives the Latin synonym *fraxinus* and the "Frankish" name *farâjina* (frêne), MAIM. (82) in Spanish *frashino* (fresno) ; in Syria to-day, the name *dardâr* is applied to the ash-tree only (BERGGR, p. 851). Compare Colin-Renaud's commentary to *dardâr* in TUHFA, p. 53 ([1]).

(1) *See*, moreover, H. DUCROS, *Note sur le dardâr ;* and M. MEYERHOF, *Le nom dardâr (orme et frêne) chez les Arabes.* Both in *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, vol. XVIII (Le Caire, 1936).

and botanist who saw the plane-tree and its bark near and in Cordova. On the contrary, IB affirms that he never saw the plane-tree either in Spain or in Morocco. This is very strange, for again it shows that IB did not possess an intimate knowledge of his home land. IBN AL-ʿAWWÂM who lived in Seville a short time before IB, gave a replete paragraph on the plane-tree (I, 373).

The oriental plane-tree (*Platanus orientalis L.*) was a native of Western and Central Asia, and was introduced into Europe, perhaps during the wanderings of the Greeks. It was well known to Plato, Theophrastus and other Greek authors, and in Italy it even became fashionable to plant this lofty and beautiful tree amongst other expensive adornments of the gardens of the Roman nobility. Julius Caesar, we are told in one of Martial's hymns, planted a plane-tree on the bank of the Guadalquivir in Spain (1). It is, therefore, certain that the tree was introduced into Spain before the beginning of the Christian era.

The name *dulb* is of Semitic origin (Assyrian *dulbu*, Loew III, 66).

The plane-tree is mentioned in the Bible (Ezekiel XXXI,8), under the name of ערמן (*ʿarmôn*). It reaches, in Western Asia, Mesopotamia, etc., the height of 90 feet and has a circumference of 40; famous and very old plane-trees exist in many lands. They were, in former times, considered sacred among different peoples. The medical use of the bark and fruits was always restrained. DIOSC'.s and GALEN's allegation of the nocive action of the " dust " of the leaves has been revived in our time, even in polemics in English and German newspapers (2). The harmful character of the tree seems, however, unproved.

(1) According to Victor Hehn, *Cultivated Plants and Domestic Animals in their Migration from Asia to Europe.* Cheap edition, London 1891, p. 221.

(2) J. Sargeaunt, *The Trees, Shrubs and Plants of Virgil.* (Oxford, 1920), p. 104; ACHUNDOW, in Abû Mansûr, p. 371.

Among the Oriental authors, BÎRÛNÎ failed to write a note on the plane-tree. ABÛ MANSÛR, the Persian, repeats mostly the allegations of DIOSCURIDES, while the Persian poets, like those of the Romans, praise its beauty and the shadow it gives, in high terms. IDRÎSÎ (p. 100), who must have seen the tree in Spain as well as in Sicily, mostly follows, in his description, IBN ʿIMRÂN, as also do several other authors.

ABÛ HANÎFA AD-DÎNAWARÎ (quoted by IB) gives the Arabicised Persian name *sinnâr* صنار , and for the biggest plane-trees the name *dawh* دوح which simply means a high tree with spreading branches. He calls it *al-ʿaithâm* العيثام and this name is indeed given as a synonym of *dulb* دلب ("a white tree that grows very tall") by many of the great Arabic dictionaries (1).

IBN AL-ʿAWWÂM (I, 373, foll.), as mentioned before, speaks of the plane not only as a wild growing tree, but also as cultivated in Spain. It was a tree that did not require much water, but grew better in watered and depressed land. The wood, burnt as fumigation, was said to kill worms and cockroaches and to drive away bats. IB says that the name *sufairâʾ* صفيراء given by some Hispano-Moorish botanists to the plane-tree designs in reality the barren privet (*Rhamnus Alaternus* L.).

DÂWÛD (I, 301) says: "*Dulb* دلب is called *al-ginâr* الجنار and *as-sinnâr* الصنار and *ad-darrâʾ* الضراء. It is a mountain and river tree which grows near the water to a great height. I saw such a tree that could shadow about twenty horsemen at a time. Its leaves are like fig-leaves, but narrower and covered with down on one side. It has small flowers of yellowish-white colour succeeded by a fruit like the cypress-nut; but it is smaller and has a smell like tar, though weaker."

(1) NAFICY (II, 444) erroneously gives the name *sapîdâr* سپيدار which means the elm or the weeping-willow.

who mentions that the thick and thorny wood of the shrub is used by the druggists in perfuming oils; the best kind is the red or purplish wood. BÎRÛNÎ then quotes Galen and the Syrian author Sahârbokht صهار بخت who pretends that the drug is the herb of the Greek (or Celtic) nard. B. adds the following remarks: "I found in an anonymous book that it was the root of the Indian nard—its root only—and this is more correct, as it is called in Syriac *qîsâ de-nârdîn*, as mentioned in chapter *shîn* ش under *'ûd shîshaghân* عود شيشغان."

This latter section of the book is unfortunately missing from the Brussa MS. But in the margin of the foregoing part of BÎRÛNÎ's chapter is written: "In the 'Life of Constantine' *dâr shîshaghân* is the balsam-wood, and it is said that it is the aromatic wood." According to his habit, BÎRÛNÎ then makes a digression on a kind of wood called *'ûd lagrabî*(?) عود لجربى produced by an evergreen tree, like a pomegranate-tree, having grains of the size of chick-peas. All these remarks prove that the real plant was unknown to BÎRÛNÎ and to most of the authors whom he quoted.

SYNONYMS: Gr.: ἀσπάλαθος (*aspálathos*, THEOPHR., DIOSC.), ἐρυσίσκηπτρον (*erysískeptron*, DIOSC.), σφάγνον (*sphágnon*, DIOSC.), διάξυλον (*diáxylon*, DIOSC.); Lat.: aspalathus, ulex (PLINY); Ar.: *dâr shîshaghân* دار شيشغان, *dâr shîsha'an* دار شيشعان, *qandûl* قندول, *'ûd al-barq* عود البرق *'îdan* عيدان (Syria, IDRÎSÎ), *'ûd qamârî* عود قمارى (Syria, DÂWÛD), *gûlaq* جولق (Gh., IDRÎSÎ, Spain); Syriac: *qîsâ de-nârdîn* قيسا دناردين (Gh., BÎRÛNÎ), *qîsâ de-shîshag* قيسا دشيشج (Bar Serapion in LOEW II, 426); Berber: *ârzûy* أرزوى (Gh.), *arûrî* أرورى (IB); Pers.: *dâr shîshaghân* دار شيشغان; Turk.: same name and *qirmizi sandâl aghaji* قرمزى صندال أغاجى (SAMY, p. 157); Eng.: spiny broom, spiny cytisus; Fr.: aspalat, cytise épineux, genêt épineux; Germ.: dorniger Stutzkelchginster, Stechginster; Span.: aulaga (generic name).

234. Dulb دلب, PLANE-TREE (Platanus orientalis L.). (Lecl. No. 875).

IBN SAMGÛN[1]: It is *as-sinnâr* الصنار, Arabicised Persian, while the original name is *chinâr* چنار. It is a lofty mountain tree with dentate (palmate) leaves like those of the vine. Its wood is reddish-white, and has a soft bark which is very astringent and which is used in Cordova for tanning hides; they call it simply "the bark" and know it without more ado.

IBN 'IMRÂN: Its bark is thick, red and it has small, loose and light yellow flowers. When they fall off they are succeeded by reddish-yellow grains inclined to reddish grey like castor seeds. Most of it grows in depressed watered plains[2] and in the bottom of valleys.

DIOSC, II (79): πλάτανος (*plátanos*). Its decoction when drunk is useful for pains in the eyes as compresses, and of the teeth (toothache) by rinsing the mouth with it, and against the bite of venomous insects.

GALEN VIII (XII, 104): The decoction of the bark fibres of this tree with vinegar is useful for [*fol. 30 v*] toothache, and its nut[3] with grease is useful for burns. The dust which sticks to its leaves is most harmful to the trachea if inhaled, and to the vision and hearing if it falls into the eye and ear[4].

COMMENTARY

The foregoing chapter was very much abridged by Barhebraeus, so much so indeed, that he left out Gh's own remarks which were quoted by IB. This latter, on the other hand, did not quote IBN SAMGÛN, the Hispano-Arabic physician

(1) *See* Introduction No. 34, p. 20.

(2) Gh's text reads *shaghârî* شغارى, IB'. text *sahârî* صحارى ("deserts").

(3) Galen's original text reads σφαιρία (*sphairia* "globular fruits") which is more correct.

(4) The whole of this chapter is missing from MS. G.

according to LECLERC who heard the name *azezzû* in Morocco([1]). The name *qandûl* is in use for different kinds of broom, in Syria as well as in the West of the Arabic-speaking world. The origin of this name is unknown. In view of the explanations given by DOZY (II, 410) we are tempted to explain it as a mutilation of Latin *filipendula* ; but this is a mere supposition. LOEW (II, 424 foll.) gives another explanation of the Persian name, and hints at the occurrence of *Calycotome* in Syria and Palestine. DYMOCK (III, 355 foll.) gives, under the names of *dâr-shîshaghân*, *qandûl* and *'ûd al-barq*, a quite different drug, the bark of *Myrica Nagi Thunb.*, a Himalayan tree. So does SCHLIMMER (p. 389) who calls the drug *Myricæ sapidæ Cortex.*

We now translate the paragraph of IDRÎSÎ on *dâr-shîsha'ân* دار شيشعان (drug No. 217, p. 99 of the first volume of the Istanbûl MS.) ; it is much longer than the quotations of IB. The foreign names are very much corrupted by the copyist. It reads as follows :

"It is Persian. Dioscurides mentioned it in the first book and called it *aspalathos*. It is called in Indian *aflîfûs isfîlâlûs* افليفوس — اسفيلالوس (?), in Syriac *nârûn* نارون (?), in the language of the (present) Syrians *'îdân* عيدان ("sticks"), in Arabic *'ûd al-barq* عود البرق ("wood of lightning"), in Latin *râqûqa* راقوقة (?), in Berber *aqandûl* أقندول and in Spanish *bulâq* بلاق (?). It is one of the kinds of *gawâliq* جوالق (spinous brooms). It resembles in its growth that of *ar-ratam* الرتم (Spanish broom, *Spartium junceum S.*), except that it spreads out on the soil and does not stand on it higher than one and a half cubits. It has thin twigs which are hard and whose sharp tops end like thorns. On its twigs are hidden leaves, remote from one another, which are hardly visible to the observer. It has pure yellow flowers of fragrant

([1]) RENAUD, however, (*Trois études d'histoire de la médecine arabe en Occident*, Hespéris 1931, p. 144) thinks that the correct spelling is *arûrî*, as given by some MSS. of IB.

smell, and a woody and black root. It is this latter, and also the flower which are used for perfuming oils. If the hollow of the hand touches this plant, some of its aroma sticks to it([1]). It is called in Africa *'ûd al-barq* عود البرق and the inhabitants of Malaga in Andalusia dry their straw on the plant ; for it is very abundant there."

In view of this last phrase, it appears much more curious that IB, who was a native of Malaga, did not quote this part of IDRÎSÎ's paragraph. The latter then continues about the medicinal properties and some superstitious uses of the plant.

DÂWÛD (L., 293) has the following paragraph ; "*Dâr shîsha'ân* دار شيشعان is a Persian name ; it is called, "lightning wood" (*'ûd al-barq* عود البرق) because, if the lightning or the rainbow falls on it, its perfume becomes purer than that of Indian wood (*'ûd hindî* عود هندى, *i.e.* aloe-wood). It is called in our land (Syria) "Cambojian wood" (*'ûd qamârî* عود قمارى), and the women put it between their clothes in order to perfume them, and to give them an orange colour. It is a hard, red shrub of fragrant smell, over a cubit high, thorny, and grows in the mountains ; its flower is of pure yellow, not bound to any special time, and preserves its strength without decay ...."

In Persian literature, the earliest record is in ABÛ MANSÛR's book (p. 206) ; he spells the drug correctly, *dâr-shîshaghân*, identifies it with DIOSC.'s *aspalathos*, gives no description of the drug, but attributes to it many nocive properties, *e.g.* abortion and damaging of bowels and spleen. ACHUNDOW identifies the Persian kind with *Cytisus lanigerus D.C.*, (or *Calycotome villosa LK.*) the woolly broom, according to the publications of the Dorpat School of Pharmacology([2]).

BÎRÛNÎ has a long paragraph on *dâr shîshaghân* in which he quotes first the Persian physician al-Arrajânî الأرّجانى

([1]) This phrase is mutilated in the text ; we corrected it from IB's quotation.

([2]) Arbeiten des Pharmakolog. Instituts der Universität zu Dorpat II (1888), p. 56.

this plant with the ἀσπάλαθος (*aspálathos*) of Diosc; Hunain ibn Is-hâq, the first great translator of his *Materia Medica* rendered the Greek name in Syriac by *qisâ de-nârdîn*, *i.e.* "nard wood." There is no doubt that the drug was the odoriferous wood of a thorny shrub, but the real identification offered, and still offers, some difficulty. THEOPHRASTUS and DIOSCURIDES knew the plant as an ingredient for perfumes.

PLINY (XXIV Chap. 13) speaks of the thorn-plant *aspalathus* which was frequent in Spain and which was used for perfumes and ointments. The Islamic authors gave widely divergent descriptions of the drug and plant which they sometimes called a tree. The European botanists of the XVIth century stated that the aspalathus-drug had disappeared from the drug-stores, and was replaced by substitutes (aloe-wood and sandal-wood), The first to describe a kind of *aspalathos* (found on the Monte Baldo in the Italian Alps) was Giovanni Pona. Not long after him, the famous French botanist Charles de l'Écluse described[1] three other kinds of the same plant from Spain.

In modern times, Sprengel thought that the odoriferous *aspalathos* of DIOSC. could be *Cytisus laniger* or *Spartium villosum Vahl*, the non-odoriferous kind *Spartium horridum Vahl* or *Cytisus spinosus Lam.* Fraas identified in Greece the first kind with *Genista acanthoclada* and the second with *Calycotome villosa Lk.* The identification of the aromatic kind with *Calycotome spinosa* (synonym *Cytisus spinosus Lam.*) is now nearly certain. This leguminosa is the spinous cytisus or spinous broom, frequent in the lands round the Mediterranean and in Africa.

In the Oriental literature, the foregoing article of Ahmad al-Ghâfiqî is of great importance and of particular interest. It shows the author again as an independent scholar and an excellent observer, well initiated in the botany of his homeland,

(1) Caroli Clusii Atrebat. *Rariorum aliquot Stirpium per Hispanias observatarum Historia.* Antverpiæ 1576, p. 208 foll.

Spain. Ibn al-Baitâr, who copied from Gh's book the quotations from DIOSC., GALEN and IS-HÂQ B. SULAIMÂN, omitted the mention of Gh's own article, probably because he was not sufficiently familiar with the matter treated in it. For we must not forget that IB left Spain (where he was born at Malaga) in his younger years and never returned thither afterwards. IB quotes, instead of Gh's paragraph on *dâr-shîshaghân*, parts of that of IDRÎSÎ which we shall discuss hereafter.

The great difficulty was to identify the term *gûlaq* جولق (probably pronounced in Medieval Spain *jawlaq*) of which IDRÎSÎ formed a plural, *gawâliq* جوالق. We think the explanation is that the word is an Arabic mutilation of the Latin *ulex.* This name was mentioned by Pliny (XXXIII Chap. 21) as of a rough thorny plant growing in Spain and Portugal and used for gold-washing. Clusius (l.c.) mentioned that the second kind of his three *aspalathus*' was called in Spanish *aulaga*, and this latter is indeed, still to-day the name of the most spinous kinds of broom (*Ulex europaeus L.* and others). Their leaves are like thorns, so that the whole plant seems to be composed entirely of thorns, just as described by al-Ghâfiqî. For this reason we translated *gûlaq* by "spinous broom," many plants of the species *Ulex*, *Sarothamnus*, *Spartium*, *Calycotome*, *Adenocarpus* and *Cytisus* being similar to it, in so far as they are thorny. *Genista horrida* and *lusitanica* belong to the same group. All these plants are very common in Spain, and there can be no doubt that Gh observed them in his homeland.

As to the sayings of Yûnus al-Harrânî quoted by Gh, they are erroneous, confusing the fruit of the "Egyptian" pomegranate-tree which is, in reality, the name of the Indian iron wood-tree (*Mesua ferrea L.*) with the Indian bael-tree. The name *qandûl* قندول is explained by Idrîsî as being Berber; this is doubtful, as the name is in use also in Syria. Gh's assertion that the Berber name *is âzarûy* is more probable,

and Rhodia (?) (1), and the druggists use it to give astringency to oils. The best kind is the heavy one whose colour, after the peeling off of the bark, appears blood-red or purplish. It is compact, of fragrant smell and of a slightly bitter taste. There is another kind which is white, thick, rough and devoid of smell; it is inferior to the first.

GALEN VI (XI, 840): Its strength [*fol 30 r.*] is heterogeneous, acrid, pungent and heating, while in others it is astringent and cooling; both of them are drying and useful against putrid ulcers.

THE AUTHOR: *Dâr shîshaghân* is a Persian name which is called in Syriac *qîsâ de-nârdîn* قسا دناردين or "the nard-wood;" this means that it is a wood which smells like nard. People use, in our land (Spain), instead of it, *gûlaq-wood* عود الجولق written with *gîm* ج, and some of them use its flower. They are mistaken, as the ancients said expressly that *al-gûlaq* الجولق is a wood and not a flower. The truth is that it is a kind of *al-gûlaq* (spinous broom),. One of the kinds of *gûlaq* is bad. It is more probable (to suppose) that that is the kind which Dioscurides mentions and that it has no smell. *Al-gûlaq* الجولق (the spinous broom) is a plant with many kinds (varieties): one of them is very large, and most of its specimens have no leaves. There is another kind which has narrow and small leaves between the spines, like the small leaflets of myrtle. All the kinds have yellow flowers, some of them with fragrant smell, and others odourless. Some develop small pods in which are seeds, and others produce grains like those of juniper (*'ar'ar* عرعر) and are similar to it. *Ad-dâr shîshaghân* الدارشيشغان is one of these kinds which are quite thorny and have no leaves; it has many short twigs issuing from one root. It branches out as if it were a basket full of thorns emptied on the ground,

(1) Wellmann reads Nisyros and Syria (ed. Diosc., p. 26).

is green like the colour of cabbage-leaves, and its twigs are reddish, inclined to purple. It is aromatic. There is another kind, elevated on a stem which has thick and hard wood, yellow outside and red inside, of a perfumed smell, with sharp, thin and solid thorns and thin twigs which branch at the top of its stem. The plant surpasses the height of a man, and in the intervals between the thorns there are very thin leaves or golden-yellow flowers and small pods (*kharârîb* خراريب) in which are enclosed three grains of yellow colour. It grows in shady mountains under trees, and the grain is strongly aromatic. It is finer than the kind mentioned above. These two kinds grow mostly on the shores. This is what we know of it and which is in accordance with the description of Dioscurides and other ancient authors. Yûnus ibn Tamîm (1) however, said that *ad-dâr-shîshaghân*, in the opinion of the druggists of al-'Irâq (Mesopotamia), is "the Egyptian pomegranate-tree;" it has yellow, hard and aromatic wood and fruits called *al-bul* البل (2), and its interior is called 'the pulp' (*al-lubb* اللب). It is a remedy which confines the bowels and is useful for fevers.

COMMENTARY

The name *dâr-shîshaghân* is wrongly spelt in many dictionaries and Arabic medical books *dâr-shîsha'ân* دار شيشعان and so on (omitting the point of the letter *ghain* غ). The name is partly Persian: *dâr* دار=wood. and *shîshaghân* شيشغان, the plural of a word which is probably derived from Turkish *chichek* جيجك =flower; so the meaning of the name would be "wood of flowers." The Arabian physicians identified

(1) This is probably Yûnus al Harrânî يونس الحراني a physician (mentioned by, Ibn Abî Usaibi'a, 11, 42) who emigrated from Mesopotamia to Spain under the reign of the great Caliph 'Abd ar-Rahmân III; none of his writings are known to us.

(2) It is the bael-fruit (*see* Art. 125, p. 264 foll.).

Most of the other Arabic authors follow Dioscurides. BÎRÛNÎ, however, furnishes a few lines with original remarks, proving that he had a better knowledge of the original land of cinnamon bark: "Its superior kind is that from ʿOmân عمان (1), as it grows in Ceylon (*Sarandîb* سرنديب), then reaches Kûlat of Malaya كولت مالى (?) from where the cinnamon bark is imported; it is called in Indian *taj* تج (2). He then quotes Abû Muʿâdh أبو معاذ (an almost unknown author) who says: "The false and the Abyssinian cinnamon are 'the bark' القرفة."

IB quotes many Greek and Arabic authors on the medicinal properties of cinnamon and on its substitutes.

Among the Persian authors, Mîr Muhammad Husain of Khorassân who wrote in the XVIIIth century, remarks in his *Makhzan al-Adwiya*(3) that this island Kûlat is called Kûkan and belongs to Dakhin (Deccan).

DÂWÛD's article on cinnamon bark (I, 292) is not devoid of interest, because it is partly independent of the others. He says: "It is an Indian tree growing at the boundaries of China like the pomegranate-tree, but is more bountiful; its leaves are like those of the walnut tree, except that they are narrower. It has neither flowers nor seeds (4), and the cinnamon is the bark of the twigs of that tree; but not every tree produces it, as it is alleged. Its best kind is the greasy, loose, non-cohesive, between red, black and yellow colour, and between salty, sweet and somewhat bitter taste. This is the kind which is frequent in China, the hyacinth-red which is extant in Asia and the islands of East Africa, the dark, brilliant and hard one, and the yellow and thin one. The worst (kind) is the white and light one; there is some of it

(1) Oman in South-east Arabia.

(2) This is still to-day the name of the wooden cassia in the Hindûstânî language.

(3) Printed edition, Calcutta, 1260 A.H. (1844 A.D.) p. 410.

(مخزن الادوية لمير محمد حسين الخراسانى).

(4) This statement is not correct; the cinnamon tree has tiny flowers.

which resembles wooden cassia, and some which has a cardamom flavour. It is adulterated with 'bark,' and the difference is the little sweetness in this latter. Its activity continues for five years, especially when it is prepared in pastilles with syrup."

As to the Aramaic and Hebrew names of cinnamon, cassia, etc., and the mention of the latter in Jewish literature, *see* LOEW (II, 107–116).

SYNONYMS: Gr.: Κινάμωμον (*kinámômon*), Μοσυλῖτις (*Mosylîtis*), κιναμωμίς (*kinamomís*), ξυλοκινάμωμον (*xylokinámômon*) (all Diosc.); Eg.: ḳd., the tree, ḏd. ḳd., the bark; Lat.: cinnamomum, cinnamum (Pliny); Copt.: ⲕⲓⲛⲁⲙⲱⲙⲟⲛ; Syriac: *qunnâmâ* כונאמא: Ar.: *dâr sînî* دار صينى, *qirfa sailâniyya* قرفة سيلانية, *qirfat Sailân* قرفة سيلان *qirfat qaranful* قرفة قرنفل; Pers.: *dâr chînî* دارچينى; Turk.: same names and *dârûyi chîn* داروى چين; Eng.: cinnamon; Fr.: canelle de Ceylan, cinnamone; Germ.: Zimmt, Kaneel.

233. Dâr Shîshaghân دار شيشغان, SPINY CYTISUS, (Calycotome spinosa LK.).

(Lecl., No. 842).

It is a kind of spinous broom, (*al-gûlaq* الجولق) (1), tree-like, of fragrant smell, grows on certain shores and is called *al-qandûl* القندول, and in the Berber language *azarûy* ازروى (2).

DIOSC. I (20): ἀσπάλαθος (*aspálathos*). It is also called ἐρυσίσκηπτρον (*erysískêptron*) and φάσγανον (*phásganon*), and the Syrians call it nard-wood sticks. It is a θάμνος (*thamnos*, shrub) of thick measurements, and it must be reckoned, on account of its thickness, among the woody shrubs. It has many thorns. It grows in the lands of Issoros (?)

(1) This term is explained by Issa (p. 37, 4) as Turkish; but *see* our Commentary.

(2) Leclerc (II, p. 74) alleges that the Kabyles pronounce it *azezzû*. *See* Commentary.

found cassia-yielding districts in Cochin China, from where the drug was carried to China and Siam. *Cinnamomum Burmanni Bl.*, *Cinnamomum ceylanicun* and its variety *Cinnamomum iners Reinw.* grow mostly in Ceylon, India, Java, Sumatra and the Indian Archipelago. The evidence of their producing the cinnamon of commerce was proved rather late, not earlier than about 1250 A.D. when Arabic authors (al-Qazwînî, and later Ibn Battûta) mentioned the Indian cinnamon, while Italian travellers for the first time described the Indian tree. It is very probable that the cinnamon and cassia known to the Greeks and Arabs mostly came from China and the Archipelago. After the Portuguese discoveries, Ceylon was recognised to be the land of the best cinnamon which was forty times more expensive than the inferior drug from Malabar ("Canella trista") [1]. From 1770, the Dutch were able to cultivate the cinnamon tree in Ceylon and to improve the quality of the bark. When Ceylon was wrested from the Dutch, at the end of the XVIIIth century, the British East India Company obtained the monopoly of cinnamon-growing and kept it until 1833. In olden times, an extraordinary value was set on cinnamon; a few ounces of the best kind formed a present offered to royalties, as we learn from antique and medieval documents.

The different kinds of cassia and cinnamon mentioned by *Diosc.* and the Arabs cannot be identified. Our *Ghâfiqî* speaks, according to old authors, of the real Chinese cinnamon (Chinese Cassia), of the inferior (*dûn* دون) cinnamon called *dâr sûs* دارصوص (Persian-Arabic "chicken-wood"?) and "the real bark" (al-*qirfa al-haqîqa* القرفة الحقيقة). The name *qirfa* قرفة ("bark") is still in use for cinnamon or cassia bark in the Arabic-speaking lands. In Egypt and Syria, this name is given to a drink prepared from cinnamon, sugar and hot water, sometimes with other spices, and offered to honoured

[1] Garcia da Orta, *The Simples and Drugs of India*, l. c. p. 132.

guests—but only in winter. The medicinal use of the drug which was formerly general (as a stomachic, tonic and eye remedy) is now very much restricted. Its most active constituent is cinnamon oil (*Oleum Cinnamomi zeylanici* or *Cinn. Cassiæ*). The number of medicinal preparations which were, and partly still are, official, is very great (tincture, extract, syrup, electuary, etc. *See Luerssen* II, p. 563 foll.).

The inferior *Cassia lignea* (probably common ware from Malabar) is sold in the Islamic Orient under the name of *salîkha* سليخة (*see* the corresponding chapter, to follow in the Letter *Sîn* س). Ducros (p. 72) speaks of this drug which is often confounded with the real Ceylon bark *qirfa* قرفة (Ducros, p. 104), or the superior quality of China cassia. It is sure that the Ceylon drug (*qirfat Sailân* قرفة سيلان or *qirfa sailâniyya* قرفة سيلانية) did not reach the market of the Near East before the end of the Middle Ages. *See* details about the cinnamon commerce in Heyd (II, p. 595–601). Consequently, all the cinnamon and cassia mentioned by our *Ghâfiqî* and by Arabic authors—except those mentioned by *Bîrûnî* (*see* below p. 474)—must have been Chinese, Indo-Chinese, Siamese and so on. As to the identification of the Arabic term *qirfat al-qaranful* قرفة القرنفل (clove cinnamon) with the clove bark of the laurinea *Dicypellium caryophyllatum Nees.* (Issa, p. 70), it is modern, as the tree which furnishes *Cassia caryophyllata* is of Brazilian origin!

Among the Arabic-writing authors, Ibn Sînâ (I, 288) begins his paragraph as follows: "Cinnamon bark has many different kinds which bear names according to their places of origin. There is a good kind, blackish and thick, a mountain kind and a white kind which is loose, inflated, easily shelled, with a black and smooth root which has few knots. There is another kind with a smell like cassia bark, a little green and with a bark like red cassia bark. It is this last which preserves its activity for a long time, particularly when it is pounded and prepared into pastilles with honey." Following this, Ibn Sînâ quotes Dioscurides.

Any one of the above-mentioned kinds which has an odour resembling that of frankincense, myrtle or cassia bark and whose aroma is somewhat greasy, is not good (or: inferior to the good). Refuse the white, scabbed, with wrinkled wood, and that which is (not)(1) smooth or ligneous. Throw away the root, as it is useless.

There is another drug like cinnamon, called " false cinnamon," of rough structure and weak smell and strength. There is, moreover, a bark of cinnamon which is called ζιγγίβερι (2) (*zingiberi*) resembling, in aspect, the cinnamon, but of a rancid smell.

As to that which is called ξυλοκινάμωμον (*xylokinámômon*) and known as " bark, " it is like cinnamon as to its root and the number of its knots. It is a wood with long and resistant twigs and its aromatic odour is much less than that of cinnamon. It is said that the " bark " is a different kind and not of the same nature as cinnamon.

Galen VII (XII, 26): This remedy is extremely light, and not very hot; but it is in the first class of the third degree (3). The " bark " of cinnamon is like weak cinnamon; some people call it " inferior cinnamon."

Diosc.: The faculty of all the cinnamons is heating, diuretic, laxative, ripening and suitable against poisons and the bite of venomous animals. It clears dimness of sight.

There exists something else called κιναμωμίς (*kinamômis*), and it is also called " false cassia " (*salîkha kâdhiba* سليخة كاذبة). It has very rough branches with thicker twigs than cinnamon. It is much inferior to cinnamon as to smell and taste.

(1) This negation, which is required by the sense of the phrase, is missing from Diosc's original text.

(2) Called by other authors ζίγγιρ (*zingir*); this is probably more correct.

(3) According to the Greek scale of the activity of drugs.

COMMENTARY

Dâr sînî (from Persian *dâr chînî* دار چینی, *i.e.* " Chinese wood ") is, since several centuries, the name of the real Ceylon cinnamon bark (of *Cinnamomum ceylanicum Breyn.*) (Laurineæ); but it seems that the drug had been unknown in the drug traffic of the Ancients and of the earlier Middle Ages. What was known in those times and what was mentioned by Dioscurides under the names of *kinámômon* and *kasía* are different kinds of Chinese Cassia. Flückiger(1), to whom we are indebted for the more exact determination of the kinds and varieties of *Cinnamomum*, says (2): " That the ancients should confound the different kinds of cassia is really no matter for surprise, when we moderns, whether botanists, pharmacologists, or spice-dealers, are unable to point out characters by which to distinguish the barks of this group, or even to give definite names to those found in our warehouses."

Cinnamon and cassia are mentioned in the Bible (*Loew* II, 108); they have been found in ancient Egyptian tombs, and there is no doubt that they were esteemed spices from very remote times. The difference in the kinds described in Greek and Arabic drug-books is due to the various modes of the cultivation and the collection of the aromatic bark. Anyhow, Flückiger(3) stated that Cassia (*cassia lignea*, called in Europe " Chinese cinnamon," from *Cinnamomum Cassia Blume*) is a product of the provinces of Kwangsi and Kweichau in Southern China, and that inferior qualities are produced in India (Bengal) from *Cinnamomum obtusifolium Nees*, *C. pauciflorum Nees* and *C. Tamala Nees and Eberm.* Garnier(4)

(1) F.A. Flückiger and D. Hanbury, *Pharmacographia, a History of the Principal Drugs of Vegetable Origin, etc.*, London, 1874.

(2) L. c. p. 476, Note 1.

(3) L. c. p. 476 foll.

(4) Thorel, *Notes Médicales du voyage d'exploration du Mékong et de Cochinchine* Paris, 1870, p. 30.

LETTER DÂL دال

232. Dâr Sînî دار صينى CINNAMON, (Bark of Cinnamomum ceylanicum Nees., Cinnamomum Cassia Bl. and others).

(Lecl. Nos. 841 and 1205).

Its explanation in Persian is "the China tree"(1).

IS-HÂQ IBN SULAIMÂN(2): Cinnamon is of different kinds: one, which is the real kind, is called Chinese cinnamon (*dâr sînî as-Sîn* دار صينى الصين); another one is inferior, *i.e.* cassia bark (*dâr sûs* دار صوص of *Cinnamomum Cassia Bl.*). Other kinds are known as "the real bark" (*qirfa* قرفة, *see* Commentary), and "clove bark" (*qirfat al-qaranful* قرفة القرنفل, *see* Commentary).

As to the "real cinnamon" its substance is richer, thicker and more porous than that of the "bark." Usually its substance is as thick as a little finger(3), and an oily exudate is produced when the bark is chewed or pounded. Its colour is intermediate between the redness of the "bark" and the blackness of "clove," but more inclined to that of the first, for its redness is more pronounced and apparent than its blackness. Its outside colour is more like that of the red cassia-bark (*salîkha hamrâ'* سليخة حمراء). Its flavour causes at first a sensation of pungency with a little astringency, then is followed by sweetness and ends in bitterness, and a saffron-like flavour with a slight oily taste. Its smell is like that of Ceylon-bark, and when chewed there is a taste like that of saffron with a trace of lotus-odour.

Concerning the "inferior cinnamon," it closely resembles the substance of the "bark" in its lightness, porosity (loose texture) and its red colour, except that its redness is more pronounced, its coloration more intense and its substance

(1) In reality, the meaning of *dâr sînî* is "China wood."

(2) *See Introduction* I, No. 20, p. 14.

(3) This phrase is missing from IB's text in the Bûlâq edition (II, p. 83).

thinner and harder. Its twigs are twisted, thin and contracted, resembling the tubes of the common reed (*qasab as-sayyâg* قصب السياج, *Phragmites communis Trin.*), except that they are split up longitudinally and are neither united nor coherent. Its smell and taste are similar to those of the "bark" as is also their aroma (spicy odour) and astringency, except that the cinnamon is possessed of more heat and less sweetness and astringency.

The "real bark" is sometimes thick and sometimes [*fol. 29 v*] thin; both kinds are red, smooth and inclined to be shiny. On the outside they are rough and of whitish-red colour, a little like that of cassia-bark (*qishr as-salîkha* قشر السليخة). It is of a fragrant aroma, and in its taste (flavour) there is pungency and acridity with a little sweetness.

As to that kind which is known as clove bark, it is thin, hard, blackish and not porous. Its smell and taste are like those of cloves, except that the latter are a little stronger.

DIOSC. I (14): Κιννάμωμον (*kinámômon*), *i.e.* the cinnamon. The best kind is that which is called Μόσυλον (*Mósylon*) (1), resembling a little the cassia bark called Μοσυλῖτις (*Mosylîtis*). The best sample of this kind is the fresh, dark, inclined to ash-red colour and of very aromatic smell but free from any odour of rue, or lesser cardamom (*qardamânâ* قردمانا), filling the nose with its smell.

There is another kind, from the mountains, which is thick, short and of hyacinth-red colour. A third kind, still nearer to the first, is dark, smooth, brittle and with few knots.

A fourth kind is white, soft, rough grown, and has a root which is easily broken when rubbed between the fingers.

A fifth kind has an odour like that of cassia bark, is of penetrating smell, hyacinth-red colour, with a bark like that of cassia, not very brittle and with a thick root.

(1) This was the name, in antiquity, of a harbour on the East Coast of Ethiopia (East Africa), probably an important old commercial port for drugs coming from India and the Far East.

LETTER DÂL



THE EGYPTIAN UNIVRESITY

The Abridged Version of "The Book of Simple Drugs"

ADDITIONS TO THE BIBLIOGRAPHY

While the second fascicule was in the press, we received two important works on Arabic Synonyms of drugs. We designate them in the coming volumes as follows :—

TUHFA.—*Tuhfat al-ahbâb* تحفة الاحباب *Glossaire de la matière médicale marocaine.* Texte publié pour la première fois avec traduction, notes critiques et index par H.P.J. RENAUD et Georges S. COLIN. (Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, tome XXIV), Paris 1934. The treatise in question is an anonymous book on drug-names by an unknown Moroccan author, probably of the XVIIth. century A.D. The value of the edition lies more in the excellent commentary by the learned authors, than in the very short original text.

SUWAIDÎ.—*Kitâb as-Simât fî Asmâ' an-Nabât* كتاب السمات فى أسماء النبات ("Book of Cognisance of Plant-names") by 'IZZ AD-DÎN ABÛ IS-HÂQ IBRÂHÎM B. MUHAMMAD B. TARKHÂN B. AS-SUWAIDÎ AL-ANSÂRÎ عز الدين أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن طرخان بن السويدى الأنصارى a famous philosopher and physician who lived in Damascus and Cairo during the XIIIth century A.D. and died in Damascus in 690 A.H. (1292 A.D.). He was a pupil of Ibn al-Baitâr, as witnessed by himself in his *Exlibris* on MS. Aya Sofia 3711 (*vide suprâ*, p. 240). His autographic copy of his *Kitâb as-Simât* is in the National Library in Paris under No. *Fonds arabe 3004.* Meyerhof brought back a photostatic copy of this very voluminous treatise on Synonyms.

THE EGYPTIAN UNIVERSITY

THE FACULTY OF MEDICINE
PUBLICATION No. 4

THE ABRIDGED VERSION OF "THE BOOK OF SIMPLE DRUGS"

OF

AHMAD IBN MUHAMMAD AL-GHÂFIQÎ

BY

GREGORIUS ABU'L-FARAG (BARHEBRAEUS)

Edited from the only two known Manuscripts with an English Translation, Commentary and Indices

BY

M. MEYERHOF, M.D., Ph.D. Hon. Causa

AND

G. P. SOBHY BEY, M.D., Ch.B.

Vol. I, Fasc. III: Letter DÂL

CAIRO
GOVERNMENT PRESS, BÛLÂQ
1938

THE EGYPTIAN UNIVERSITY

THE FACULTY OF MEDICINE
PUBLICATION No. [illegible]

THE ABRIDGED VERSION O[illegible]
THE BOOK OF SIMPLE DR[illegible]

OF

AHMAD IBN MUHAMMAD AL-GHAFI[illegible]

BY

GREGORIUS ABU'L-FARAG (BAR HE[illegible]

[illegible]

Edited from the only two known Manu[illegible]
an English Translation, Commenta[illegible]

M. M[illegible]

[illegible]